

رشيد بوجدرّة

ألف وعام من الحنين

(رواية)



رشيد بوهجرة

ألف و عام من الحنين

رواية

الطبعة الثانية

ترجمة: مرزاق بقطاش

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر



رقم النشر 84/1719
© المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر — 1984

بلغ من حذر محمد عديم اللقب انه تحايل دائما الا يترك ظله منسحبا وراءه ، ايا كان موقع الشمس ، وايا كانت الساعة . فلا وقت الظهيرة الصارم الرتيب ، ولا غبش الفجر المزركش بغشاوة فسفورية شديدة الزرقة ، ولا الاصائل المتألقة المبقعة بصفرة الفليور الزعفرانية ، كلا ، لا شيء يمكنه ان يدخل أي تحوير في الامر . فالتجربة برهنت على هذه المعجزة آلاف المرات . واذا كانت العادة قد جرت منذ قرون على ان السكر يساعد على تحلية المشروبات ، وان الملح يرفع من حدة الاغذية فان البلدة قد تعودت هي الاخرى على هذه المعجزة . وعندما كان محمد يعبرها ، وهذا ما يحدث له مرات عديدة في اليوم الواحد ، كان اهل المنامة يشعرون وكأن نوعا من الدوائر المتمركزة الحريرية الوردية تجذبهم ، لها لون البشرة العميق المتأصل ، وان كانت غير مرئية . شيء لا يمكن ضبطه . بل مجرد احساس او انبهار عنيف تثني منه اجفان الناس القلائل الذين يصادفهم محمد في الطرقات القاحلة المغبرة . ولم يكن هؤلاء الناس يريدون التوقف ولو للحظة واحدة لفهم هذه الظاهرة التي تتجاوزهم ، خشية منهم — بكل تأكيد — من ان يفقدوا صوابهم او ينزلقوا انزلاقا نهائيا في مستنقعات اللواقع المعشوشبة . يكتيهم ان كل شيء يلوب امامهم . فالاشياء حوالهم مسامية هشة ، كأنها هي مغطاة بالطين ، بسبب ذلك الغبار المداهم الذي يلتصق بكل شيء ، حتى انه لم يكن في استطاع اي شخص مهما رجعت به الذاكرة الى الورا ، ان يقدر الثمن الحقيقي لاداة او آتية او جسد ما . بل انهم لم يكونوا يعرفون كثافتهم ولا استطاع الواحد منهم ان يفرز واقعه من مظهره ، باستثناء محمد عديم اللقب . فقد كان نفاذ بصيرته في هذا المجال شيئا اقرب الى

الحرافة ، ظله الذي لا يتركه يتموج وراءه ابدا ، لا خوفا من السخرية بل من باب الاحتراس . ثم ان الرجال اشاعوا عنه بأنه ساحر عصري ، في حين قالت عنه النسوة بأنه عاشق لا يعرف الكلل ، يجدد نفسه بفضل لون الصفاء في خضرة عينيه الواسعتين اللوزيتين . والواقع ان عديم اللقب هذا كان وحيدا ، رغم انشغاف النسوة به ، وتضخم عائلته التي تركها والده في عهده قبل ان يلقي مصرعه بكل غباوة اثناء حادث عمل . . . لقد وسّمته العزلة بميسمها ، واثقلت عليه تلك الخوارق الغريبة المتعددة التي ما عرف قط كيف يستفيد منها لكنها تجعل الناس يخشونه جميعا . فالاطفال يكفون عن الضحك ، والدجاج عن القوقاة ، والرحى عن الجمعية كلها مرّ على مسافة مائة وست وستين مترا منهم ، وهي مسافة قدرها له بالضبط صديق يعمل في مسح الاراضي . لا غرابة في الامر ، لو لم يفض عديم اللقب بذلك لصديق آخر ، فأوجد تقاربا بين هذا الرقم المفلز وبين تاريخ ميلاد شيخ هرم يكن له اعجابا شديدا ، عاش منذ قرون عديدة . ولما استفسر في الامر ، راح يغرق في حوار داخلي وهو الشاب ذو العينين الخضراوين الصافيتين ، الذي لم يكن يترك ظله ينكسر وراءه ، والذي كان بارعا في ملء الفروج بالانداء الليلية دون ان يفض بكارتها ، وفي ارغام الاطفال على الكف عن ارسال ضحكاتهم والدجاج عن القوقاة والرحى عن السحيف . وفهم اصحابه ان الامر قد يتعلق بزعيم ملة ظهرت في القرن الثاني من الهجرة . وانتهى به الامر الى ان يبكي والده بمرثية تفيض حنانا . لم يكن سكرانا في تلك العشية ، ولم يكن لديه وقت يهدر . لقد طلب منه خلال الليلة الفارطة ان يدبج عددا من رسائل الغرام ، بتلك الطريقة المعروفة عنه ، اي من تلك الرسائل التي تحرق اصابع العشاق . وهذه تجارة مربحة في بلدة كان فيها الرجل الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة ، الى جانب ماسح الاراضي والمعلم ، وهذا ما ساعده بالاضافة الى بعض الاشغال الصغيرة الاخرى على تلبية حاجات اسرته الكبيرة المتكونة من الام ومن تسعة اخوة وتسع اخوات ولدوا اثنين اثنين بكل توازن خلال تسع ولادات هائلة لا يزال اهل المنامة يتذكرونها . كان عديم اللقب هذا ، هو الوحيد الذي قدر له ان يولد بمفرده ، وهو امر بالاضافة الى كونه الابن البكر ، قد أثر على حياته تأثيرا قاسيا ووضع عليها بصمة لا تمحى ، تعرف النسوة استشفافها عبر مشيته الجارفة ، ذلك انه يعطي للرأي صورة شخص يصارع العناصر الطبيعية دون توقف . وهو ما فتىء يردد منذ

ولادته انه ما دام بدون لقب مسجل حقا وصدقا مثل معظم سكان المنامة ، فانه لا يرى كيف يسلك سلوك سائر الناس ويتفنن في ارسال ظله وراءه — خلال بضع ساعات من النهار — مثلما يفعل سكان بلدته وما وراءها من سكان القرى الاخرى ، ومثلما يفعل سكان قرى العالم التي لم يزرها ابدا . انه يعرفها نتيجة لشغفه بالاطالس وبكتب التاريخ التي قرأه على ان يكرس لها حياته ، يحدوه في ذلك بعض الفضول ، حتى يعرف ما حدث في العهود البعيدة ، وما وراء الجدران المتعاقبة التي تحاصر البلدة التي ولد وترعرع فيها وتعرف فيها على بعض الالفاز الهيروغليفية الجوهريّة . وحتى يعرف لماذا كان اول من ابصر الحياة ولماذا ولد وحيدا فريدا ، في حين ان اخوته جاؤوا الى الدنيا ازواجا ، مرتبطين بحبال السرة التي كانت من الصلابة بحيث تطلبت في كل مرة استعمال مقص البستاني للفصل بين التوائم . ثم انه كان يريد ان يعرف ولو قليلا لم حرّم المشرّع الاجنبي الذي عاث في البلاد بضعة قرون من اسم على غرار الاسماء التي يحملها الناس . اسم في مقدوره ان يحمله حين ينام ويستيقظ ويأكل ويتناسل ويغضب ويتصالح ويخط صفحات كاملة على الكرايس او على اللوحات المصنوعة من خشب الزيتون الاملس المطلي بالطين المجفف بحرارة جسده في الشتاء وحرارة الشمس في الصيف ؟ وكان عديم اللقب هذا يعرف كل شيء بفضل بعض الميزات التي وهبته اياها سمعته وتميزه . وهو ما ان بلغ العشرين حتى كانت شهرته قد تجاوزت حدود بلدته . وهي عبارة عن شرائح وطبقات متعاقبة من الحضارات المرتاعة ، وقعت فريسة أبهتها وترفها ، وان كانا قد صقلا بسادية لذيدة وبالية ، تحت ضربات السياط والسيوف التي يتلقاها العبيد بلا مبالاة سمحة ، اذ فقدوا كل شيء عدا حنينهم الاسفنجي كمنشف مشبع بالعرق والدم والمني .

والواقع ان محمد عديم اللقب تعود الاعتقاد بأن بلدة المنامة تنطوي على نسبة لا بأس بها من الخونة والاباش المتحلقين بالحاكم الذي سمح لنفسه ، بالاضافة الى البلدة ، بتسيير محطة بنزين في قلب الصحراء مع ان احدا من اهل المنامة لم يكن يملك اية عربة من اربع عجلات ذات محرك امامي او خلفي ، ولا ادنى دراجة نارية يتطلب تشغيلها استخدام بعض رواسب البترول . ولكن الناس كلهم كانوا يعرفون ان النفط يباع

لاجانب شقر ، منفوشي الشعر ، جاؤوا كببعوثين موفدين من قبل ملوكهم للتوقيع على اتفاقيات سرية لاستلامه بأثمان بخسة . وكان القناصل الاجانب يصلون في البداية خلسة ويتنكرون في اثواب عجيبة حتى لا يتعرف عليهم اهل المنامة الذين طالما تساءلوا عن فائدة تلك المحطة النموذجية البرتقالية التي لا نفع فيها وغير القابلة للاحتراق ، يحرسها رجل عجوز من البلدة ، محترم لمظهره الورع وللرحلة التي قام بها ذات يوم راجلا الى مكة . على ان محمد عديم اللقب لم يكن يجهل بأن ذلك العجوز لم يتجاوز ابدا بور سودان حيث جنح الى اليابسة ، بعد ان ثمل حتى الموت مع ملاحين يونانيين كانوا ينقلون على متن سفينتهم اغطية بديعة من جزيرة العرب السعيدة والقادمة من « ماكاو » حيث قامت بنسجها فتيات بوزيات صغيرات ، نحيلات الاجساد امتهنت حقوقهن . اما الحارس الهرم فكان يستدل على حجة ذاك بالعمامة الرائعة التي جاء بها وبعشر اخرى للتبديل يضعها بالتناوب . وقد التى رحاله في قلب للمحطة حيث جلس على صندوق شاي فارغ وعلى ركبته قطته ، وغرق في ذكرياته المذهلة عن تلك السكرة الفريدة والرائعة في بور سودان ، والتي روى لعديم اللقب تفاصيلها بشحة ، كأكسير يرشح قطرة قطرة ، ولا ينبغي ان يسمعها الا الرجال القادرون على اتيان الخوارق . وقد وصف له ايضا كيف كان السماسرة الاجانب يصلون بحقائب مكتظة بالدولارات وبأقراص الملاهي الصالحة للاستعمال في دور القمار نوات الاسماء المكهربة البراقة المزركشة . وكثيرا ما كان هؤلاء الناس يتخذون مظاهر السواح البشوشين المزودين بالآلات التصوير العتيقة ، او المستكشفين الذين حز في نفوسهم ان يطلعوا على العالم كله في ظروف ثمانية عشر يوما ، او الرسامين المستشرقين المولعين بفلكلور الشعوب او المجانين الشاذين امثال « جورينغ » الذي جاء ليمارس التزحلق في العرق الصحراوي الكبير سنة ١٩١٢ ، والذي كان له بدلا من انفه مرجافا يصاب بالروع امام اية رائحة نفطية . وفي الواقع لم يكن أشد ما يؤلم عديم اللقب متمثلا في الاسطورة التي نسجت حول ظله الذي يحمله مثل درع الى الامام ، ولا في الحرفين الذين يرمزان اليه واللذين الصقهما المستعمر السابق على ظهره ، كأنما ليجبره على التنقيب عن هويته في اعماق التاريخ السحيقة متسلقا اياه بشكل تنازلي ، مثلما يبحث ثمل عن قطعة نقدية سقطت سهوا في حانة ظلماء . ولم يكن متمثلا

ايضا في حكاية الندى الليلي الذي تمتلئ بها مسامه ، والذي تترجاه منه النسوة بفراعاتهن المتكررة كلما شعرن بالرغبة في ان تمتلئ عظامهن في السر بوشوشة الماضي والمستقبل . عنصران جوهران بالنسبة لعديم اللقب مخوضان مثل صفار البيض المستعمل في شكل ضمادات لمنع الحمل من قبل القابلات المشعوذات المتخصصة في هذا النوع من التجارة الذي يزداد رواجاً بسبب التقلبات الاجتماعية المذكورة في المجلات ، التي تصل بين الحين والآخر الى بلدة المنامة بتأخير يتراوح ببضع سنوات . ولم ينقص ذلك ابداً من اللذة التي يجدها عديم اللقب حينما يقرأها بصوت جهير — بمساعدة صديقه ماسح الاراضي — على كهول البلدة مقابل مكافأة نقدية او عينية ، لان حاجات امه واخوته الثمانية عشر كانت لا تسبر ولا تحصى . وكان يجد متعة كبيرة في تلاوة الاحداث السياسية كأنما الامر يتعلق بقراءة ادب خيالي شوه كل شيء فيه عن قصد لاثارة القارئ ودفعه الى ممارسة لعبة الترابطات الخيالية حيث يجد نفسه محصوراً بين الامور الغريبة المستبعدة . اما الاحداث التي توردها تلك المجلات فقد تجاوزها الزمن ابعد التجاوز ، وفرغت من كل محتوى ، حتى ان السامعين كانوا كثيراً ما يقهقهون عند تلاوة باب الوفيات ، او ينطلقون في الضحك عند قراءة انباء السياسة الدولية ، او كانوا يبكون بدموع حرة حين ينصتون الى الخطب المألى بالوعود التي لم تتحقق ابداً . وكانت بعض حصص القراءات العمومية تتحول الى صخب حقيقي يروح عن المستمعين ويشحذ همهم ، او الى تنفيس حقيقي مهوور بحس سياسي رفيع حسب قريحة عديم اللقب وهواه . فقد كان يضيف الى صفاته المتعددة ، صفة المشوش السياسي وهو الامر الذي تنظر اليه حاشية الحاكم بعين الحذر ، هذا الحاكم الذي فكر في احد الايام تزويجه بصغرى بناته التي دفع جمالها بأكثر من عاشق الى الموت . وكان ينوي بذلك ضمه الى صفه . لكن محاولته تلك كانت بلا طائل ! مع فارق وحيد وهو ان الفتاة كانت على علاقة طيبة بعديم اللقب . فقد صار قطب الدائرة في كل البلدة ، ولم يكن يريد ان يولي اية اهمية لحكاية طيور ابي الحناء والشحارير والبيغاوات والعنادل التي انتشرت في البلدة وتعودت على ترديد النشيد الاممي كلما مرّ بالقرب من الاشجار التي عرّشت عليها والتي كانت اوراقها تثور غاضبة كأنما تشدد على غف النشيد الثوري وتتناغم مع الطيور التي تثرثر مرجفة صوتها

وكانها زودت بألية انطلقت يوما ما ولم تتوقف بعد ذلك ابدا ، كما كانت تزقزق دون حسيب كالمهووسة بزغاريدها ، وهي في ذلك اشبه ما تكون بقطرات حاضة تحرق قطعة من الخمل الاصفر ، فتزعج النامة بصريها الذي لا يتوقف .

كثيرا ما كان يردد على مسامع اصدقائه القلائل في البلدة ان هذه الدعاية لا تهمه . ومن بينهم ماسح الاراضي والاسكافي العجوز الذي تجاوز الزمن ولزم الصمت منذ وفاة ستالين ، بعد ان اقتنع في قرارة نفسه انه ليس من حق حامي المضطهدين ان يموت كما يموت أي بشر اخر . على ان عديم اللقب كان يعاني من اللامبالاة التي يقابل بها اهل النامة تنقيباته عن المكان المحدد حيث وجدت الدار التي كتب فيها ابن خلدون جزءا من مقدمته وسيرته الذاتية الكاملة . وكان ابن خلدون هذا قد اقام بالبلدة بين سنة ٧٧٤ وسنة ٧٧٧ من الهجرة بالضبط . لذلك شعر محمد عديم اللقب بالاسى العميق لانه لم يستطع ان يبهزم بموضوع يملك عليه قلبه في حين انهم يواصلون الاعجاب بيقظته المتواصلة ازاء ظله الذي لم يكن يتركه وراءه ابدا ، كما كانوا يرونه يرهف السمع باستمرار للوشوشة الانثوية التي يلتقط منها اشداء المسك ورائحة الهال . ويبصرون به غارقا في الحرفين الاولين من اسمه اللذين يزيدان من عزله . ثم انهم كانوا يضبطونه وهو يرسل برقيات المشفرة الى الطيور لاثارتها وبث الروح في قلوبها ، حتى انها كانت ترفع اجنحتها اليسرى وتغني النشيد الاممي بصوت واحد كالجوق المتناسق ، بغض النظر عن اصولها واجناسها والوانها . وكان عديم اللقب يتمتع بموهبته في اتيان الخوارق التي تفصم ضحكات الاطفال وقوقاة الدجاج وسحيف الرحى ... والحقيقة ان قصة ابن خلدون هذه لا تهمهم في شيء . فقد كانوا يرونها اكثر ايفالا في دنيا الخيال من الخوارق الاخرى التي كان قادرا عليها . فهم لم يستطيعوا معرفة ذلك الشخص الذي جاء ليستقر في بلدتهم قبل حوالي سبعة قرون ، وليضع كتباً لم توجد ابدا على حد زعمهم الا في ذهن عديم اللقب المكتظ بالمطالعات ، الفائض بين الوقت والاخر بأفكار غريبة او بشطحات جنونية قد تنفس عنهم وتشغلهم بضعة اسابيع وتساعدهم على التخلص — ولو مؤقتا — من السأم الذي يلتصق ببشراتهم منذ اختراع التاريخ مثل الغبار الذي يتناثر على اهدابهم ويحرق صدورهم ويشوه نظرتهم الى الموجودات والاشياء والظواهر . على ان

محمد عديم اللقب كلما ازداد استمساكا بالفترة التي قضاهما ابن خلدون في المنامة ، ابتعد عنه اهل بلدته . لا لانهم لم يكونوا يعرفون هوية ذلك الشخص فحسب بل لانهم لم يكونوا يتصورون كيف استطاع مثل ذلك الرجل العظيم ان يتوقف ذات يوم ببلدة تعودوا ان يقولوا عنها بأن الله تبرزها في يوم من ايام الغضب .

لم تستطع والدته مسعودة عديمة اللقب ان تكبت غيظها حين عاد ذات ليلة وقد تعتقه السكر ، فصرخت فيه : « الا يكتيك انك تنادم اي شخص وتنالم مع ابنة الحاكم دون ان تقوى على فض بكارتها وتعاشر الشيعوي الوحيد في هذه البلدة ؟ ها انت ذا تقلب الدنيا رأسا على عقب بحكاية ابن خلدون هذه ! النساء تسخر مني . وتدعي بأنه يهودي » . ولم ينبس عديم اللقب ببنت شفة لكي يصحح الخطأ الشنيع الذي وقعت فيه امه . بل فضّل ان يذهب للنوم بعد ان سلم لها الدراهم التي ربحها خلال يومه ، وطلب منها ان توقظه باكرا في اليوم التالي لان امامه عددا من رسائل الغرام يتعين عليه كتابتها ، وعددا من دروس الموسيقى يعطيها للطيور بساحة البلدة . قدم الربيع باكرا في تلك السنة فبدأ يحدث انقلابات مدمرة سواء في اعشاش الطيور او في عقول اهل المنامة الذين يعيشون عادة من تربية دود القز ومن الرهان على صراع الاكباش ، التي كان الحاكم يستوردها من استرالية بفضل ارباحه المشبوهة وبفضل وجود احدي بناته في سيدني حيث كانت تدرس الرقص في المعهد الموسيقي بهذه المدينة ، لكي تصبح ذات يوم نجمة من نجوم الرقص وتتزوج بسطان من سلاطين الصحراء . وقد كان هذا النوع من المصاهرة تقليعة شائعة، حتى ان التنافس القتال كان يتطلب من المترشحات الى مثل هذه المسابقات مهارة ولباقة ومواهب فنية متعددة مذهشة . وكان الحاكم يكتب الى ابنته : « يمكن لك على الاقل ان تعودي بشهادة من ذلك البلد البعيد وان تستخدمي معارفك في مجال الرقص العصري وان تشرقي على امسيات الخليلات والزوجات الشرعيات وتحولي دون وقوعهم تحت وطأة السأم القاتل والجمود او التخشب في اسوا الاحوال ، فتساعدني بذلك زوجك على ان يكون سعيدا وتدفعيه الى ان يختارك محظية له من بين العشرات من النساء الاخريات اللواتي لا يقل جمال الواحدة منهن عن الاخرى بكل تأكيد ، ولكن لا تستطيع الواحدة منهن ان تتوفر على الحظوة التي نلتها

انت بمتابعتك لدروس الرقص في المعهد الملكي بسيدني . انك ترين ان والدك لا يفتقر الى الخيال ابدا ، والحمد لله .

في تلك الليلة بالذات ، رأى عديم اللقب جده في المنام . وحين استيقظ في اليوم التالي خيل اليه انه يراه جالسا في صحن الدار يقرأ مخطوطا عربيا قديما مكتوبا بالارقام حسب الطريقة المتبعة في القرن الثاني للهجرة من قبل القرامطة الثوريين بالكوفة . وما اسرع ما تذكر انه سكر سكرة شديدة خلال الليلة الماضية . فجده مات منذ زمن بعيد ، وعلى اية حال فقد كان اميا كغيره من كهول المنامة الذين ضرب التقدم صفحا عنهم وحكم عليهم بالتوقع وسط الرياح الجنوبية اللافحة وداخل محيطهم الضيق . كان عديم اللقب في واقع الامر معتكر المزاج ، ولم يكن لديه حتى التبغ لكي يزيح عن صدره القلق الذي امسك بتلابيبه منذ ان افاق من رقاده مكدودا خائر القوى ، لان الشاحنة التي تزود البلدة بالنيكوتين نسيبت ان تمر بها منذ شهر . وكان يدرك في قرارة نفسه انه يشوّه صورة اهل بلدته . ولم يستطع ان يغفر لهم تعنتهم في محاولة انكار هذا الامر البديهي : لقد توقف بالمنامة رجل عظيم ذات يوم من ايام سنة ٧٧٤ من التقويم الهجري ونسي نفسه بين احضانهم لمدة اربع سنوات كتب خلالها تحفة من تحف العلم في حين ان بلاطات الامبراطورية المتهاكة كانت تتنافس على استقدامه . كيف يفسر لهم بأنه فر من تلمسان حيث مات حايه مخنوقا بخمار كبرى بناته ؟ لقد كان من الممكن ان يصنع ذلك الخمار بحريز المنامة الذي كان يصدر في ذلك العهد الى مدينة تسياتونغ الصينية المشهورة بانتاج قماش الاطلس . وهل يجديه نفعا ان يفضي بذلك كله الى هؤلاء الناس الذين قر رأيهم على ان بلدتهم انما هي قذارة اسقطها الله ذات يوم من ايام الضجر ؟ كان عديم اللقب في ذلك الصباح فريسة لانهار شديد ، حتى انه احجم عن التحرك من مكانه لكي ينهمك في اشغاله المعتادة مثل تدبيح رسائل الغرام التي طلبها منه البعض وتوزيع حبوب الزؤان على طيور الساحة وغيرها من الاعمال . ورغم ان ماسح الاراضي كان على استعداد تام لكي يساعده بأن يعيره ادواته المضبوطة لكنه كان يشك كثيرا في النتائج التي قد يتوصل اليها صاحبه هذا . فالرمال غطت كل شيء خلال سبعة قرون بطبقات متعاقبة ، وفتتت وفسدت كل شيء حتى الحجر . باستثناء الاسوار التي صمدت بفضل ذلك التحدي الذي لا تزال تجابه به كل

حضارة مئيلاتها عبر القرون والمذابح متخفية الاطماع البشرية التي تريد باستمرار ان تتجاوز نفسها بتجاوز الآخرين . ويبلغ بها الامر حينذاك حدود التفاهة التي ما انفكت تستبد بالبشر . ومن المؤكد انه صعب العثور على اي اثر يشهد على المرور المفترض للمؤرخ الكبير على الرغم من ان البلدة كانت محمية دائما بتلك الكيلومترات من الاسوار المتعاقبة . وهي اسوار اثرت فيها تقلبات الطقس بعض الشيء وفضلات الطيور ، لكنها ظلت قائمة مع ذلك . وكذلك الامر بالنسبة للاسكافي العجوز الصموت الذي اكتفى بالاخلاق الى السكوت حتى لا يثبط من همة صديقه الفتى . ذلك ان عديم اللقب استمر في تخصيص بضع ساعات من يومه املا منه في العثور على اثار ذلك العلامة الذي لم يكن شاهدا على الخراب فحسب بل استطاع ان يتنبأ بوقوعه ويقدر مدته ، التي كان من المفروض ان تدوم بعض الوقت ، الامر الذي يفرح الحاكم الذي ظل يشرف على تسيير محطة البنزين ويراسل ابنته في استراليا لكي يعطيها النصائح الضرورية لعقد زواج جيد مثير . وفي نهاية المطاف لم يأخذ احد عديم اللقب مأخذ الجد . وعلى الرغم من ان اصدقاءه القلائل كانوا متعودين على شطحاته المذهلة فانهم لم يستطيعوا مسايرته على هذا الدرب المتعرج الضيق من دروب الذاكرة السياسية . واذا كان ماسح الاراضي يعتقد بأنها خطيرة ، فان الاسكافي — الذي لم يعرف السلوان منذ وفاة ستالين — كان يراها عرضية بالغة الهشاشة . وامام مثل هذا التعتن وموقف الريبة الذي وقفه منه اغلى اصدقائه ، راح عديم اللقب ينظر بعين الشك الى مسعاه ذاك . وكان خلال هذه الفترة التي زلزلته الشك فيها ينطلق خارج الاسوار ويظل اياما متتالية غارقا في التأمل دون ان يأكل او ينام او يغتسل او يحلق لحيته . حتى ان والدته اغتاظت لهذا السلوك ، ووصفته بالطفولية ، واثقل عليها هؤلاء العشاق الذين روتهم غياب كاتبهم ، فجاءت لانتشاله من موقفه ذاك . ثم انها ضجت بالشكوى واتهمته امام الناس بأنه يتركها تموت جوعا هي وابناؤها الثمانية عشرة ، فتعود به الى الدار ، مرتبكا مضطربا لانه لا يمتلك اية وسيلة تمكنه من ان يشرح لهذه المرأة المسكينة جدلية ابن خلدون المضبوطة ، والدليل على ذلك الاستغلال الذي كان ضحية له من قبل عائلته نفسها . فهي ما زالت تعاني من نير الاقطاع المنزلي الذي ذكره المؤرخ الكبير في مقدمته في حين ان الحاكم يتاجر بالاشياء المشبوهة ويبيع النفط خفية الى الاجانب بأسعار بخسة ويسمح لنفسه بارسال ابنته لدراسة الرقص الكلاسيكي في

سيدني — عاصمة قارة بأكملها — لا لشيء الا رغبة منه في ان يقدمها على سرير مذهب الى احد اباطرة الصحراء ! وهكذا استعادت مسعودة عديمة اللقب ابنها العاق ذات صباح ، وقد علت وجهه لحية مشعنة وبرق منه البصر كالذين يتحاورون مع الغيب ، لكنه ظل مطرق الراس والندم يعصر بشرته . وقد كانت بشرته مثل الصوف الناعم على حد الوصف الذي قدمته امرأة متزوجة اضطرت بعد قضاء ليلة معه الى ان تغسل فرجها اكثر من اثنتي عشرة مرة . وبين هذا وذاك ، جعلت والدته تدفع به ، وتصيح فيه امام اهل البلدة الذين تجمعوا عند مداخل الاسوار في انتظار هذا الفتى النابغة الذي لم يعد الى والدته فحسب بل اليهم جميعا ، لانهم لا يستطيعون الاستغناء عن براعته في تدبيج الرسائل على الرغم من حذرهم منه ، ولا عن قدرته التوليدية او طريقته في مراوغة القدر او موهبته في علم الطيور او شطحاته التي تبعث القشعريرة في الفتيات المتيمات وتبث الروع في قلوب الكهول ... ثم ان والدته بلغت ذروة الغضب فقالت : « الخوف يسيطر عليك حتى انك لست قادرا على ترك ظلك ينسحب وراءك ، وتعتقد انك فحل لا مثيل له بحجة ان نصف نسوة هذه البلدة اللعينة يعتقدن ان لك اداة جنسية خارقة . الحمد لله على انك لم تولد مع اخت صغيرة لك على غرار اخوتك الاخرين ، والا لكنت قد وضعت لها اثنين من التوائم قبل ان تغادر بطني المسكين ! واعجاب النساء بك خارج عن ارادتك ... الغلطة تعود الى الشمس ، الى الجفاف الذي يدوم منذ عشر سنوات والى طيور الفردوس التي تعلمها ترديد الفواحش ... الاحزان الكبرى التي تسببها لي ليست وليدة اليوم بل تعود الى يوم ولادتك . فانت بدلا من ان تنطلق لحظتها في البكاء كسائر المواليد رحت تتكلم بالكلدانية حسب اقوال المرحوم والدك . لم يرغب عديم اللقب في الرد على امه طوال الوقت الذي استغرقته المسافة بين الصحراء والدار . كان يحبها حبا جما ويعلم انها على اطلاع بكل ما يخص اموره . وهو وان لم يكن ينطوي على اية موهبة خاصة ، الا ان والدته كانت تضيف من عندياتها امام الملائكة تضاعف من عدد زبائنه السذج ومن العاشقات المتوهيات . وهو لم يتحكم ابدا في ظله مثلما اشيع ذلك عنه في البلدة ولا حول الطيور عن رزققتها العريقة . اما عن علاقته بالطيور ، فهي تقتصر على تقديم الحبوب له اكل صباح في ساحة البلدة . ويتم ذلك كله في تلك الساعة التي يأتي فيها بعض مربسي العصافير المتعصبين ، بالدرر والكناري

والعنادل المسجونة في اقفاص هي من الروعة حتى انها لم تكن في حاجة الى ان تضم طيوراً في حناياها . كانوا يصطحبون معهم اقفاصهم الى الساحة ويعلقونها على الاشجار وينظمون مسابقات غنائية خارقة . بل انهم كثيراً ما يعمدون الى الغش والتدليس للحصول على جائزة احسن طائر مزرق خلال اليوم . كانت العادة تفرض ان يدفع المنتصر ثمن الشاي لكل المشاركين ، حتى يبرهن بأنه فضلا عن مهارته في تربية الطيور ، فهو لا يقل كرماً عن الآخرين .

اما بالنسبة للبقية ، فان عديم اللقب آثر الا يغرق في الحديث ، وترك الامر للزمن لانه كان على يقين من ان يوما ما سيأتي يقرونه فيه على رايه . ولكنه حدس بأن الوقت سيفوته حينذاك ، وان الحاكم سيسارع بالاستيلاء على اكتشافه الكبير ، واقامة نصب في الموقع الذي حدده بالضبط ، حيث كتب المؤرخ العربي الكبير تلك الوصية السياسية الهائلة والمفرطة في النبوءة ، الى حد ان الناس يشهدون يوميا تحققها . ونتيجة ذلك ان تحول اهل المنامة الى ايتام من انعس خلق الله ، والى اثرياء من افقر سكان البسيطة ، والى مخلوقات تنعزل عن الدنيا كل الانعزال وتتضاعف بنسب مروعة حقا . عند ذاك يقول محمد لنفسه انه لو كان والده موجودا لفهم موقفه احسن الفهم ولساعدته بشكل خاص في توضيح قضية اللغة السريانية التي ما فتئت والدته تحدثه عنها . حتى في الاوقات التي تذوب فيها امومة وعطفا . قد يكون الامر يتعلق باللغة العبرانية بكل بساطة ، وهذه فرضية محتملة جدا : ذلك ان جالية اجنبية استوطنت بقضها وقضيضها ، بفضل تواطؤ الحاكم ، وذلك يوم مولده بالذات . والقت رحالها غير بعيد من المنامة حيث كان العيش يطيب لمحمد عديم اللقب على الرغم من التقلبات المتضاربة . وهو يعرف ايضا انه لا ينبغي عليه ان يضخم غياب والده المبكر حتى وان لم تؤاته الفرصة في توضيح مسألة اللغة القديمة التي يكون قد نطق بها يوم ان رأى النور .

وعندما يفاجئه الارق في اويقات الفجر ، وهو يذرع غرفات شقيقاته النائمات ، اللائي لا تغل الواحدة منهن جمالا عن الاخرى ، يحدث له ان يشعر بنوع من الحقد على ذلك الذي صنع ايامه . فهو في رايه لم يعمل شيئا لكي يجنبه تلك العزلة التي يحس بثقلها يتراكم على مر السنين .

لقد تركه وحيدا طوال تسعة اشهر في بطن امه بلا شخص يتحدث اليه ، ولا ادنى شقيقة صغيرة تشاطره تلك اللفظة الرهيبة عبر هذه النافذة التي فتحتها والدته بفخر ذات يوم اليم بين فخذيهما لكي تقذف به الى مناطق الحياة المجدبة . واثناء صبيحات السهد كان يتساءل اذا لم يكن موت والده مجرد انتحار مقنع في شكل حادث عمل غبي ، يقال بان رصيصة من الورق مال عليه وسحقه الى الابد على ارض تلك المؤسسة التي قضى فيها اكبر وقت من حياته — حتى تتمكن زوجته من تسلم منحة التأمين ومعاش عامل مات وهو يؤدي واجبه في حمل رزم من ورق الحلفاء الرفيع الذي تصنع منه اجمل الكتب . وحين ينال منه التعب ، ينطلق في الهذيان ويقول في قرارة نفسه بان والده ترك نفسه يموت تحت طن من الورق تأسيا باكبر عالم عرفه الاسلام ، ذلك الذي وضع ما لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مصنفا في مختلف العلوم بدءا من علم الحياة وانتهاء بالبرهان الرياضي على وجود الله . وهكذا كان يمهّد الطريق للتنقيب التاريخي دون ان يبرح داره ... وعندما يشتط به الامر يستعيد ذكرى ذلك العالم الذي ولد سنة ١٦٦ هجرية وتوفي سنة ٢٥٢ منها بالكوفة ، مسحوقا هو الآخر تحت كتلة عظيمة من المخطوطات . لقد قيل بانها وقعت عليه من رفوف احد الوراقين ، حيث تعود التردد عليه كل صباح للترود بالكتب . ويزداد خياله جموحا بسبب الارق فيجد نفسه مكتظا بشبح الشخصين اللذين ماتا في ظروف غامضة . واذا كان الطمع في الحصول على منحة التأمين يمثل حاجة جادة حول موضوع وفاة والده، فانه على العكس من ذلك يعتقد بان العالم الموسوعي قد اغتيل في المكتبة التي يختلف اليها للاتصال بحركة سرية كانت بصدد احداث انقلابات في الامبراطورية الاسلامية من خلال اشكال التمرد الثوري . وقد استبدت به تلك الشكوك والفرضيات التي لم يكن غموضها ليغيب عنه بطبيعة الحال ، فانتهى به الامر الى ان يطرق باب صديقه ماسح الاراضي : وشرح له علاقة التناظر بين مسافة مائة وست وستين مترا المرتبطة بقدرته على تحطيم ضحكات الاطفال وقوادة الدجاج وجعجعة الرحي وبين تاريخ ميلاد الجاحظ صاحب العينين الناثنتين الضائعتين ، كأولئك الذين يبذرون بؤبؤ اعينهم في الصفحات الصفراء للمخطوطات المثبجة .

كان مبهورا بتأرجح صديقه بين اليقظة والنوم . يظلان وقتنا طويلا يتبادلان الحديث في هدوء مقرنصين عند عتبة الدار . كان عديم اللقب

مرتديا كعادته سروالا من الصوف الاسود مشدودا الى فخذيه . وكان عاري الصدر ، ينتعل حذاء مطاطيا ناصع البياض . اما الاخر فيرتدي منامة برتقالية اللون : « انتظر قليلا . . . لقد بدأت افهم ما ترمي اليه . . اعترف بأنك تحسن ربط الاشياء فيما بينها ، والظواهر فيما بينها ، واعترف بأن اهل البلدة لا يسايرونك في سرعتك الفائقة ، ولعلك تفتعل الحذاء المطاطي لهذا السبب بالذات منذ ان تعرفت عليك » . على ان عديم اللقب عندما زوج اخته التوأم الاولى ، بعد سنوات طويلة من فلك اليوم ، ظل يتذكر اقوال رشيد بناصر ، ماسح الاراضي الذي كان يرتدي منامة صارخة الالوان ، تثير السخرية ، فضفاضة جدا بالقياس الى جسده .

عندما بنى احد التجار الاثرياء بلدة المنامة في القرن التاسع داخل حدود الاسوار ، وفي مفترق القوافل التي تقايض الملح والتمر بالخرطال والخرداوات وتمارس التبادل دون اية حيلة او مراوغة وتعود بجمالها محملة بالمؤونة والطرف والحلي والصمغ والشمع والاقمشة والاوناسي والادوات المعقدة نسبيا والضرورية في نفس الوقت للمعاش اليومي ولشطحات الاحلام وغيرها من اشكال الاوهام الموشومة على الوجوه الخمرية ذات اللون الابنوسي المنقطر بلألء مرّة ومالحة . — عندما بنى البلدة — وقع في زعمه انه سيحولها الى عاصمة تربط بين حضارات عديدة وبين قارتين او ثلاث . غير ان هذا الحلم الاخرق مني بالفشل ، لان مركز الثقل في تجارة الملح تزحزح بمسافة الف كيلومتر عن ذلك المكان .

واعبر هذا الانحراف الهائل بمثابة مجابهة شخصية ، فلم يعرف الراحة الا حين شنق نفسه على احدى الاشجار التي غرسها بنفسه في المكان الذي تحول بعد عشرة قرون الى الساحة المركزية لبلدة المنامة : وهو مكان ارهم ، تلتجئ اليه طيور العالم كلها وتعقد فيه مسابقات غنائية خارقة ، ويأتيه الناس من بعيد . وقد حدث ذات يوم ان نزل بالبلدة وفد امازوني محمل بأقفاص هائلة تضم المئات من طيور الكتوات والبيغاوات والطيور الغريبة الاخرى ، مع فصائل من البيغاوات الوقحة الناطقة بلغات متعددة . وكانت هذه الطيور تتعمد الخلط بين اللغات السومرية والسريانية والبربرية والعبرانية والمصرية المكتوبة على اوراق

البردي وعربية الفقهاء . وتتحكم تحكما تاما في تلك اللهجات المتنوعة ، وتضرب صفحا عن القواعد النحوية ، وتطلق العنان لثرثرتها الجارفة ، وفكاهاتها المبسرة ، واحاسيسها التي تدفع السامعين اليها على مضاجعة كل ما يقع بين ايديهم . وما اسرع ما قامت تلك الطيور الدخيلة بعروض غنائية تنطوي على ترديد الفواحش الاسيوية والشرقية كأنها تربت بين صفحات « كما سوترا » و « الروض العاطر » او غيرها من كتب الشبق التي لا يعرفها الا مريدو الجنس والمأخوذ على صورته الاولى . وفي وقت قصير جدا ، عادت هذه الطيور ذات الالوان الزاهية الى ذر المئات من التآلفات الصوتية في فضاء المنامة وهو الامر الذي لم يفكر احد في وجوده بالمنطقة كلها . وجاء القادمون الجدد بأقفاص اخرى اصغر من الاولى ، مملوءة بطيور كفية القوائم من بينها الضريس وطيور الكاميشي وطيور الفردوس والدفناش والترنجي والتناغر والسراب والبنغالي والكروان ، التي دفعت بالطيور الاهلية العادية على الغيرة في المسابقات الغنائية الصباحية . وشعرت بالذلة دفعة واحدة داخل اقفاصها الصغيرة المزخرفة والمثقلة بالزرايزر والعصافير والبيغاوات والعنادل والكناريا وغيرها من الطيور العادية ، واخذت الى الصمت فجأة امام الضيوف والموسيقين المترفين الذين جاؤوا من مختلف المناطق التي لم يفكر اهل البلدة يوما ما بوجودها حتى في احلامهم المزققة ، باستثناء محمد عديم اللقب بطبيعة الحال . فهو لم يعرف هذه المناطق البعيدة فحسب ، والتي تفصلها عن بلدة المنامة كثبان الرمال والشطوط الملحمة والمستنقعات الطينية ومحيطات المياه ، بل عرف حيواناتها وبناتها والالاف من انواع الطيور الاخرى . ولم يكن احد ليصدق ما يراه وما يسمعه ، وخاصة ذلك التاجر الثري من تجار العصور المنصرمة . فقد جعل يشهد من اعماق قبره هذا الغزو بعد ان خدعته تجارة الملح واحتالت عليه الدروب التي حاد عنها رجال القوافل ذوو الالوان السكرية . وبالفعل فقد صار هؤلاء يعبرون المسافات مثل بروق زرقاء مخططة بالفوران والتكلف لكي يتجنبوا الوقوع في فخاخ هذه البلدة التي لعنتها الطبيعة ويتنادوا كوارثها المتعددة تاركين اياها تحت رحمة الرمال والريح ، وامام سخرية التاريخ الذي يحتل مكانة كبيرة في حياة عديم اللقب . وخلال ذلك ، استمر محمد في التسكع عبر غياهب السهد وهذيان المبادرات المضطربة لا يدري اي موضوع يوليه اهتمامه بالدرجة الاولى . وشعر بنفسه ممزقا بين العالم الموسوعي الذي كان شاهدا على اكبر

مظاهر البذخ وبين المؤرخ المطلع على الكوارث العظيمة والنوازل في عصر الانحطاط ، العارف بنهاية الحلم الذي تربى بين النهود الرائعة للمحظيات الزنوجيات ذوات الحلمات الباذنجانية الاسطورية ، التي ساهمت مساهمة جدية في تزييف خريطة العالم ووجهة التاريخ ، الذي استطاع الى ذلك الحين اخفاء جرائمه وتغطية مذابحه وتحويل اشكال الصراع نحو مجالات المستقبل الباذخة دون اية كوابيس او عقبات . ولم تكن ابسطة الريح حينذاك الا تصورا اوليا لتلك الآلات الجهنمية التي سوف تعرفها الازمنة القادمة . هكذا اذن ضاعت المنامة في مآهات القرون ، وابتعدت عن تعاليم الله وعن ثورات آخر الانبياء التي غيرت وجه العالم على مجرى الزمن ، وقلبتة رأسا على عقب وجعلته يندفع بسرعة خارقة . ولم يبق من ملحمة التاجر الذي كان يظن في نفسه الحيلة الا بعض اشجار عتيقة وسط ساحة في حجم المنديل تحاصرها عشرات المقاهي التي يوجد بداخلها رجال عاطلون ، يقضون اوقاتهم في لعب الدومينو وسط جو يخنه عبق الشاي المنعنع ، والمغلي الذي يشربونه طوال النهار . وهذا ما دفع بمحمد عديم اللقب الى الغضب المالحق . لا سيما انه ادرك مدى تواطئه في ذلك الجمود السطحي الذي تنام تحته الاهواء الجامحة والاحقاد القتالة والقلق الخائق، وكان حانوت الاسكافي الستاليني الذي لم يستعد ابتسامته منذ سنة ١٩٥٣ . موجودا بين تلك المقاهي التي تحاصر ساحة الطيور وتجدد على كراسيها معظم رجال البلدة . لقد ود الذهاب الى موسكو لا لكي يحضر جنازة الزعيم الراحل ، بل لكي يحتج على عدم جديته ، لانه ترك نفسه يقع بين حبال الموت مثل اي بشر اخر . ولم يكن رجال المنامة يعرفون تأدية اي عمل لان تربية دود القز ، وهي التجارة الوحيدة التي تعود عليهم بالربح ، كانت متركزة بوجه خاص بين افخاذ النسوة . كانت تعنى بها ، وتحميها من الامراض النوعية ذات الاسماء الغريبة مثل داء الاغماء والشلل الوردي والتغفل ، وتعطيها افضل اوراق التوت وتنظف اروقتها الواسعة ومذاودها العظيمة . وعندما تبلغ مرحلة التشرنق ، كن يحضنها تحت جلابيهن ذات الطيات المتعددة . وكان في استطاعة دود القز حينذاك ان يزداد نموا بصورة تتحدى كل السنن المعهودة ، لا سيما وانه اشتهر عن نسوة المنامة انهن يحملن فروجا شديدة النعومة والاشراق . وهذا ما يبعث الرجال على الاغراق في احلام مهففة تمثل النسوة وهن محملات بالاضافة الى فروجهن الاعتيادية

بفتحتين اخريين تحت آباطهن . كذلك كان يصنع اجمل حرير في العالم وقد تضمخ برائحة الامومة والحنان التي لا تزول .

وعلى الرغم من ان هذه التجارة كانت تمارس بكل اللطافة والمهارة التي تقتضيها بنية تلك الحشرات ورهافة احاسيسها وهشاشتها ، الا ان الحرير قد كسد بتأثير الشركات الاحتكارية الدولية الكبرى . وعبثا حاول محمد عديم اللقب العثور على حل لذلك الكساد الذي فرضته قوة مجهولة . اما الاقمشة التي نسجت في البلدة فلم تحصل ابدا على اسهم في البورصة . وظلت مخزونة في الصناديق المنقوشة ذات المغاليق الفضية المرصعة ، وانتهى بها الامر الى ان يقرضها العث امام حيرة الحاميات ذوات الانفاذ المفروشة بدود القز الراعش طوال السنة . وكانت تزوقها وتخططها بالزعفران المستورد من اسيا منذ ان قام ربان عبقرى وشعرور في نفس الوقت يدعى احمد ابن ماجد باقتياد فاسكو دوجاما ومكنه من اكتشاف الطريق البحرية لاول مرة ، نحو الهند ذات صباح من شهر مارس ١٤٩٨ . وقد اراد القدر ان يعتمد ذلك البرتغالي الى الاستحواذ بنفسه على شرف الشهرة . ولولا ابن ماجد ذاك ، لكان الى يومنا هذا متأرجحا بقاربه بين امريكا ومضيق جبل طارق . ولعلل المجاعة اجتاحت بلدة المنامة مرتين او ثلاث مرات خلال قرن واحد لهذا السبب بالذات ، وعمها الجفاف والوباء زمنا طويلا . وكان اهاليها يعتقدون الى ذلك الحين انهم ينزلقون على جزيرة من البحر الهندي وليسوا في صحراء احرقتها الشمس ، حيث راح الظل يلعب مقالب على الناس كلهم ... وما كان احد ليجرؤ على قول ذلك ، فحتى عديم اللقب نفسه وماسح الاراضي والاسكافي العجوز ، كانوا يتظاهرون بانهم لا يعلمون بالامر . على انه من البديهي ان اهل المنامة لم يحبوا حاكمهم كثيرا ، بسبب اختلاساته البترولية ، واكباشه المستوردة ، وبسبب الامر الذي استصدره بأن يعتمد رب كل عائلة الى تزيين داره بزهور الجاردينيا المصنوعة من الباغة البيضاء . بحجة انه كان يصنعها في اقبية منزله من البترول (النفط) غير المباع . وروجت اشاعات كثيرة حول حياته الخاصة ، وتردد في المقاهي ان كلثوم صغرى بنيتها قد وهبت عذريتها الى محمد عديم اللقب بمجرد انتهاء عاداتها الشهرية الاولى . وقيل ايضا بأنها فعلت ما فعلته تحرشا بعديم اللقب حتى يبرهن بأن الله زوده حقيقة بذكورة خارقة وناعمة جدا في آن واحد . بل ذهب البعض

الى القول بأن خوارقه كانت تحول دون تطور صناعة الحرير الفريدة من نوعها ، وكان في مقدورها ان تحول هذه البلدة التي نكبت بصلفها وبغرائب سكانها وبجشع حاكمها الاسطوري الى فردوس . والحقيقة هي ان هذا الحاكم فوضته السلطات المركزية في البداية لتطبيق مشروع ري كبير . وسرعان ما وقع المشروع طي النسيان وادرج بين الامور الثانوية النافهة التي تجاوزها الزمن ، وظلت تتراكم في المزبلة البلدية خارج الاسوار .

وباستثناء اصحاب المقاهي والاسكافي وماسح الاراضي ومربيات دود القز والحاكم صاحب الانشطة المتعددة المتشعبة ، لم يعثر على ما يمكن ان يوضع في عداد ثروات البلدة سوى المصارعات الشهيرة بين الاكباش . وهي تضمن عيش العديد من العائلات الشريفة بفضل المراهات المنظمة حول الحلبات الدامية . وقد ادخلت تلك المصارعات عندما كان الرومان يطاردون رجلا يدعى « تاكفاريناس » واتباعه الذين فرضوا لاول مرة في تاريخ المنطقة التي تقوم بين دجلة وملوية مبدا تقسيم الارض بكل عدالة . حدث ذلك رغم انف المسمى بالقديس اوغسطين الذي ظل يعيش تحت وطأة الخيانة خوفا من محاولة اغتيال محتملة . غير ان تقاليد هذه المصارعات تدهورت بسبب سوء النية وتأنيب الضمير اللذين اثقلا على المنامة منذ قضية القوافل التي تنقل الملح . وافردت البلدة في ذلك العهد ، وقوطعت ونبذت خارج كل حضارة مزدهرة . وبعد بضعة قرون من ذلك التاريخ ، عمد الحاكم بصورة عرضية الى احياء ما صار فيها بعد اكثر النقائص انتشارا وتحكما في البلدة . وقد كان هو نفسه يعاني من نقص لا مرد له ، على غرار كل ثري وصولي ، فوضع في صالون داره الرائعة اول مرآة قدر لاهل المنامة ان يبصروها . وكان له كبش محظي يغذيه بأوراق التوت ، فقطع الحبل الذي يشده الى مربطه المجاور للدار ، واندفع نحو قاعة الاستقبال ذات الطابع الدمشقي ، وهجم على المرآة مشهرا قرنيه فحطمها شر تحطيم . لقد ظن صورته في المرآة خصما له مقرنا مثله ، فأحدث اضرارا في الدار وفي عقول اهل المنامة . كان هؤلاء قد اولعوا ثانية بتلك اللعبة التي تدر ارباحا كبيرة على عائلة بندرشاه . وسارعت هذه الى تنظيمها في شكل مراهات ، مكثرة من المكاتب المكلفة بتسلم المبالغ في جميع انحاء المنامة وزواياها . وما كان احد ليشك في الواقع في امر هذا الولع الذي راح يهز البلدة ويتسبب في ضحايا عديدة لا بين الاكباش المروضة فحسب ، والتي

يدربها اساتذة محنكون ، بل وبين السكان الفقراء الذين يطغى عليهم جنون المقامرة الجارف ، فيعتمد بعضهم الى غرس خناجرهم في صدور خصومهم المنتصرين . ولم يسبق للمنامة ان عرفت اية حروب او كوارث او ثورات بفضل تلك الاسوار المتعددة التي صمدت في وجه الرياح والرمال والعواصف والقيظ . وتعود اهل البلدة ان يموتوا من الشيوخوخة ، وان تنوف اعمارهم على المائة . كما تعودوا التقوقع في محاورات ذاتية كلها هذيان عن تلك الحروب التي ظلوا يستعرضونها بطريقة موهلة في الخيال ، لانهم لم يمارسوها بالمرة . وقد شعروا بالحرمان لانهم لم يشتموا روائح البارود ولم تتناه الى اسماعهم موسيقى المدافع وصليل السيوف ، فراحوا يستعيدون ما ضاع منهم خلال مصارعات الاكباش حتى انه حين يقتل احدهم اثناء نزاع حول هذا الموضوع كان يدفن بطريقة فخمة وسط قعقة الصنوج والتراتيل القرآنية . وحين ينتابه الندم القاتل ، تفرض عليه التقاليد زواجا طقوسيا بأرملة القتيل المتأسية ، وبناته اللواتي وصلن سنا تسمح لهن بتحمل الصدمات القوية . وهي الصدمات التي كثيرا ما تسمرهم في مركز الثقل لمدة زفرة واحدة تجتاح الاثاث كله لانه محمل بثقل الجريمة واللعنة . ولهذا السبب ، كان هناك مقبرتان . اخفيت الاولى منهما بكل خجل وراء شجيرات الصبار عند مشارف الوادي الذي كان فيضانه غير متوازن بالقياس الى حجمه ومنسوبه . واهل المنامة يدفنون بهذه المقبرة هؤلاء الذين كانوا من الجبن حتى انهم ماتوا شيخوخة او مرضا . ويتم ذلك كله بدون موسيقى او طبول وبكل سرعة ودون ان تذرف عليهم الدموع . اما المقبرة الثانية التي تشرف على البلدة وتشكل مركزها ، فهي اشبه ما تكون بفردوس سماوي ينمو فيه العشب الذي يسقى ببول النعاج العجيبات المستبعدة عن المعارك الهوميرية . في هذا المكان بالذات ، كان ضحايا الاهواء ومصارعات الاكباش والاكباش انفسها التي تقتل خلال المقابلات يدفنون جنبا الى جنب .

لم يكن عديم اللقب يهتم بهذه الحكايات الخرافية المأتمية ، بل ينتهز فرصة وجود اهل المنامة في الحلبة ثلاث مرات في الاسبوع الواحد ، وينتقل من دار الى اخرى . ويلعب عندئذ دور البهلوان فيملا عينيه بغمامة اللذة — كانت عيناه بلون الخضرة المائية — ويفرق في الاسرة الجارفة ذات الزرقة البرتقالية ، دوائر الشكوك البهمة التي تنتظرهن

حيث تجتذبه شهوات النسوة . كن يرغبن في التعرف على تلك الرعشة في الجانب الآخر من الدوخة . وكان محمد يرضخ لهواه ، على الرغم من نصائح رشيد بناصر ماسح الاراضي ، وعلاوة الاحمر الاسكافي اللذين ما انفكا يحذرانه من امراض النساء ، ويتنهزان كل مناسبة لكي يصبأ بكل سرية مسحوق البرومير في كؤوس البيرة التي يتناولها . الا ان ذلك كله كان عبثا في عبث . والظاهر ان التأثير الوحيد لذلك الدواء العقيم هو انه يجعله مرحا طوال عدة ايام ، ويعكس مزاجه حتى انه حينما يياشر احدى العشيقات كانت تبصق رحمها من فمها وتموت وسط حشجة صاخبة من اللذة والمرارة . وليس لها من الوقت الا ما يكفي لتهمس في اذنه بلغة المنامة المزهرة : « ليارك الله مسعودة عديمة اللقب التي فكرت بأن تغذيك بالسهمسم لكي تحول الموت الى تحوية من الفراشات البنفسجية التي ترتطم بعنف بنوافذ الرغبة » . ولهذا السبب حاول حلفاؤه توضيح تلك الاسطورة التي تنسج حول شخصه : ومن بينها حكاية الظل الذي لم يكن يتركه ليختال وراءه ايا ما كان موقع الشمس ، وقدرته المغناطيسية التي يمارسها على طيور الساحة ، والاقاويل عن اندائه الليلية التي لا تخصب اية امرأة ، ذلك الخوف الذي يحدثه على بعد مائة وست وستين مترا في نفوس الاطفال والدجاج والرحى المجمعة ، و" بوض الذي يحيط بموت والده والكنية التي اعطيت لجده ، والعلاقة بكتلوم ابنة الحاكم ، والاسطورة القائمة حول اللغات القديمة الارامية والعبرانية والبربرية وعربية الفقهاء والمصرية المكتوبة على اوراق البردي ، التي يكون قد نطق بها حين خروجه من بطن امه ، وهذياناته حول ابن خلدون وحول ذلك العلامة الذي مات سنة ١٦٦ في ظروف وهمية او مأساوية او سرية بكل بساطة . لم يكن عديم اللقب مغفلا ابدا . فالبيرة التي يجرعونه اياها بمقدار براميل لم تكن تعمل الا على شحذ احساسه ، وحفز مواهبه الخارقة ، وتقوية تلك العزلة في اعماق نفسه وذلك الحنين الذي ينتشر قلبه كقطعة خبز مبللة . ثم ان هذا الحزن كان يذكره بذلك الصباح الصرد الذي جاء فيه رجلان باليسة بيضاء ، وبشوارب مدهونة ، وقد اصطحبا معها داخل ازرار مخضب بالدم تلك البقايا المشرمة التي لم تكن في واقع الامر الا بقايا والده . لقد قال حينذاك وهما يداعبان خده : « لك ان تفخر بوالدك ، فقد مات في العمل ، وهذا افضل له من ان يموت في مراهنه يائسة على الاكباش . ليس لك ان تحزن ، فلم يكن لديه حتى الوقت لكي يدرك ما حدث . ولكن يتعين عليك

ان تدبر امورك بنفسك ، رصيص الورق الذي سحقه لم يعد صالحا للاستعمال ، ورب العمل يريد تعويضات عنه » . وبعد زمن طويل . طويل ، طويل ، تذكر عديم اللقب تلك اللحظة حين شيع جنازة امه . في ذلك اليوم احس وكأن العالم يتزاور عجاجا عشعش بين فخذه وجعل يتصاعد من بئر الطفولة كلما ثمل او بلل بأندائه الليلية العذارى اللائي يستمكن به بقدر استمساكهن ببراعم فروجهن المورقة والناعمة . ويعتريه نفس الاحساس عندما يقرأ في نسخة قديمة — من تلك التي يستخدمها تجار القضاة لحزم سلهم — اكثر المقاطع استشرافا للمستقبل في مقدمة ابن خلدون . ويحس خلال كل قراءة نوعا من الاحباط الكوني يجتاحه ، يلقاه ككارثة من الدم المسفوح على رقع كاملة من سلالته الذي اجتجز منذ سبعة قرون بعد ان تمخط عقودا طويلة بمناديل المسلمين التي يؤتى بها من اقصى اطراف الدنيا ، وبعد ان غذى باللحم النوى طيور البزاة الجشعة لا لشيء الا رغبة منه في ترويضها واخذها الى الصيد . فلا ذكورته الخارقة ولا توبيخات والدته مسعودة عديمة اللقب ولا شبح جده المصابحي الذي يظهر امامه كلما وثت فوسفورية عظامه جدران غرفته بزرقة نيلية . كل هذا لا يغير شيئا ولا ينسيه انه يعيش في انأى واهوس قرية نبعث يوما ما من الرمال المتحركة ومن خلال النقيضة الاساسية للبشر الذين يرفضون مثله ان تنتزع منهم ضمائرهم المؤلمة وشعورهم الفاقع بالاثم عندما يعمد ظل القيلولة المفعبة بالصنان الاليف الى محو الفشل الذي لا يريد احد تحمله . ولا قطعة قطعة ولا حتى جرعة ، جرعة خلال حفلات الشاي التي تدوم دهورا قاطبة ، بينما تخرخر ابواق الورع ويتواصل التخريب بأشكال اخرى منذ ان جاء المستر براون على متن شاحناته بكمشة من الكشافين المدججين بالاسلحة لقضاء عطلم والعودة مسرعين الى ديارهم . وها هو ذا المخيم يتسمر في عين المكان — يردد عديم اللقب — دون ان يحزن احد لهذا الاغتصاب ولهذا التزييف التاريخي . وكلما شرب اكثر ازداد نقمة على الحاكم لانه لم يبادر بصورة حازمة الى ردع هذه المستوطنة التي تحرم اهل المنامة من قيلولتهم . ويرعبونهم بلعبة الحرب واطلاق المحاريق التي يتسبب تفجرها في ايقاف لعبة الدومينو بمقاهي الساحة ، وعندما يكون للاحلام الدافئة مذاق الشاي المنعنع المتنوع بالملح . ثم بغتة ، تغمر محمد موجة من المرح والقهقهة التي يكسر صداها زجاجات البيرة ويحولها الى رذاذ مبلر ، فيتذكر انذاك كم كان غيبا حين وجه كلاما كهذا في حين انه لا

يملك حتى لقبا ، بل يحمل بدلا من ذلك حرفين اولين لا يمكن ترجمتهما حتى الى لغته الاصلية . وقد اثقل عليه الندم ، فانتهى به الامر الى ان ينظر تحت الطاولات ويمسح بيده النخالة التي تغطي قياه لكي يتبين اذا ما كان لقبه غير منقوش على بلاط الاسمنت في الحانة التي يسكر فيها كلما خرج من نحس ليدخل في اخر .

كان الرفاق الثلاثة اخر من يبارح الماخور الوحيد الذي يحمل اسما ينضج بقساوة الحقائق اليومية : « الكبش الشبق » . وكلما ثمل الثالث لفه الشجن ، فيتذكر كل منهم ، تتقاذفه جدران عزلته الضيقة ، طيشه وشقائه ، امواته واحيائه . فينسلل محمد شرايينه فوق جثة والده المتفرقة فقاعات فقاعات من اللحم الاكهب المختمر . وينتخب رشيد بناصر راجعا القهقري على روابي موت ناتئة القواطع ، وقد داهمت سلفا له اعدامه القراصنة منذ زمن طويل . طويل ، طويل . صورته لا تزال تتصدر واجهة سرير والديه . اما علاوة الاحمر ، فيهمهم بحشرة صماء حول شبح ستالين ، الذي كان من المنتظر ان يبعث من جديد لتصفية حسابات كل الرجعيين مها اختلفت اشكالهم والوانهم . وكثيرا ما يتسببون في فضائح ليلية وهم يغادرون الماخور متكئين الواحد على الآخر ، الى ان ينتهي بهم المطاف مرة اخرى الى الماخور الذي يعمل ليلا نهارا ، والواقع بين احضان الشطوط البلورية واسوار المنامة المتهالكة ، فيتوزعون في غرفه العفنة ، حيث ينام الاسكافي العجوز ملء جفنيه وهو الاعزب الذي باع روحه الى ثورة كان يترقب انبثاقها ذات ليلة شتائية داخل دكانه الذي اتخذه منزلا في نفس الوقت . اما ماسح الاراضي فقد كان يتمثل فروج المومسات كأبار نفط ويسبرها بألات ، بينما يحتفظ محمد بجديته مؤكدا لأهرم تحبة في الماخور بأنها اخته التوام التي حرمه الدهر منها ، حتى يسد شقوق سكره ويتنصل من ذاكرة الهزيمة والشجن .

ورغم كل هذا الابتذال ، يفاجئ الصباح كلا منهم وهو في فراشه ، خاصة وان محمد عديم اللقب لا يمكنه هجر طيور الساحة التي قد تموت جوعا اذا لم يطعمها ، ولا ان يتخلى عن العشاق الذين قد يرون تنهداتهم تتجمد على شكل كتلة ثلجية محرقة ، ان هو لم ينقل سرائرهم الى لغة الهذيان الشعري . غير ان « مليكة » كبرى شقيقاته كانت تقول : « لست افهم كيف تدبر امورك لكي تقوم بما تقوم به دون ان تصير اضحوكة

في اعين الناس . لكن لا تنس ان لك تسع اخوات في سن الزواج ، ولا تنس انك لو واصلت نزقك هذا فلسوف تحكم علينا بالعزوبة ابد الدهر . حينذاك يصرفها عديم اللقب عنه بقوله : « سوف احكي لك ذات يوم ما فعلته فتيات المنامة خلال القرن السادس عشر . ذكريني واطلبي مني ان احدثك عن معركة الخصل . والى ذلك الحين انظري ما تحست جلابيبك ، انني احس ان هناك الملايين من الفراشات تسبح تحتها ! » وكلما القى اليها بمثل ذلك الكلام المفرق في الهذيان ، وقفت مليكة مندهشة حينما ادركت انه على حق . فترفع تنانيرها ، وتبصر بالعديد من الفراشات البيضاء وهي تطرق باب فرجها بكل براءة . هكذا كانت تستغني مؤقتا عن الزواج .

كانت المفامة معبرا للرياح المنسربة ، والمهربين المتعبين ، وساحة للحروب الصليبية الثماني التي سبق لها ان اعلنت عن التوسع الاستعماري القادم ، وكانت تضم دار عائلة عديم اللقب التي تصطبغ بنشاط فوضوي لا يعرف سبيلا الى التعب بقيادة مسعودة عديمة اللقب المتسلطة . وكلما غضبت هذه المرأة فرقت بحمالة صدريتها العظيمة ، فكان صخبها يجعل الطيور تهرب من ساحة البلدة ومن غيرها من الساحات الاخرى بما في ذلك الطيور التي جاءت بها فرقة الامازونيين المريشة . الحمايم والسلاحف فقط تمكث ساكنة في اماكنها ، وتتلهى برؤيتها وهي تصر باسنانها ، وتتهمهم وتندب حظها السيء ، ذلك لانها استصحبته من دار والدها حيث سلكت النسوة نفس السلوك منذ اقدم العصور . كن يقرقعن بحملات صدريتهن كلما فاض الحليب وهو على النار واحترق الطعام وطار الغسيل وكلما زاد صخب الاطفال . . . وعلى الرغم من ان مسعودة تشرف على بناتها التسع واولادها العشرة ومن بينهم عديم اللقب ، الا انها كما كفت عن التكرار بانها لم تعد تفهم شيئا في امر الشهور والاعوام منذ ان اولع بكرها الغبي ولوعا شديدا بالمعرفة ، في حين كان من الافضل له ان يصير تاجرا يبيع كل متر من القماش القطني بما يوازيه ذهبا . وما كانت تفهم ايضا سبب انهماك البلدة كلها في فلاحه الحرير داخل اصص النعناع والسهم . بل وحتى في سراويل النسوة المحترمات ، مع ان احدا لم يكن يريد شراءه . وكانت تقول لمن يريد الاصفاء اليها سواء في الحمامات او في حفلات الزواج او في الجنازات ان الله نفسه قد بدأ يمارس الغش ، لانه لم يتمكن من حصر مخلوقاته داخل المساجد ولا اذل على ذلك من تدهور الزمن ومن تقلبات

المواسم ومن تذبذب القثاء الذي صار ينمو بعيون السمك ، ومن اهواء
النسيم الذي لم يهب على المنامة منذ زمن طويل ومن عقود الورد التي
صارت تشبه زهور البيجونيا داخل اصصها ، وغيرها من غرائب هذه
الازمنة الجديدة التي لا توحى بأي خير . كانت اذن على علاقة سيئة
مع السماء ، تنتظر منها ان تضع يدها ثانية على وقائع الامور وخاصة
على ابنها المجنون قبل ان تذهب لزيارة الاولياء الذين اهلتهم تعبيرا منها
عن غضبها وعن خيبتها لرؤية الله وهو ينجرف في سيول فيضاناته .
وعلى الرغم من هذه الخوارق الكلامية ، فقد عرف عنها بأنها ما انفكت
تبذل جهدا للبر بالوعد الذي قطعت على بعلها ، وذلك بأن تزوج بناتها
بأمرأه اصلاء . وعرف عنها ايضا انها لامته لموته دون ان يحيط بها علما
بذلك . وعندما تشكو لها مليكة ، في حضرة شقيقتها « أمحمد » ، تلك
السمعة السيئة التي الصقتها بالعائلة خوارق محمد عديم اللقب ، ترد
عليها بألا تخشى شيئا لانها رأت في المنام انه تزوجها قبل نهاية الجفاف
الذي يدوم منذ عشر سنوات . وبما انها احتقرت حرير دود القز احتقارا
متأبدا ، وصوف الاكباش فقد منعت دخول بيتها لادنى الخرشفيات ولاشد
الحيوانات الفة ومن ذوات القرون . ومسعودة هذه ابنة تاجر عمل في
تهريب القماش القطني والرياش وكتان القلاع بمدائن الساحل ، وهي
تشغل وقتها واوقات العديد من ابنائها بفلاحة جنينتها العجيبة حيث
تنمو اكبر انواع القثاء على سطح الكرة الارضية واحلى حبات البطيخ
واضخم ثمار الزعرور ، التي كان لها على الرغم من شذوذها مذاقا
أتيا مباشرة من الفردوس ، ونكهة لا مثيل لها . نكهة لا علاقة لها البتة
بتلك التي تنبعث من الحرير والتي تشتم منها مسعودة عرق الافخاذ
وصنان امسيات الخميس . وكانت تغذي نوعا من الهلوسة العائلية في
انظار ان يدرج استعمال القماش القطني ثانية . فتستأنف انذاك المهنة
العتيقة التي احترفها ابوها ، والتي ورثها عن اكثر اسلافه اغراقا في
التاريخ . لكنها كانت تعرف تطرفات تلك الهلوسة ، وتتحكم فيها بصلافة
هي اقرب الى التجلي ، وبعناد ذاكرتها الخارقة . ثم انها تنزلق في
تهويماتها بتشجيع من فتياتها اللاتي ينتهزن فرصة الانتشاء هذه ، فيضعن
تحت جلابيبيهن كل ما يجدهن من الرضع والصبية وغيرهم حتى يشعرون
بالاحساس نفسه الذي تعرفه نسوة المنامة عندما تحتضن الشرائق .
وهو احساس حرمن منه بسبب ذلك القرار الذي اتخفته والدتهن .
كانت مليكة وحدها تتمتع سرا بقانون خاص وترى بين الفينة والاخرى

اعماقتها وهي تشرق بحضور الالاف من الفراشات البيضاء الفوسفورية المقرورة العذبة والحامزة في آن واحد . المرفرفة ، المسرمنة المجهولة المصدر . وحينما لا تنشغل مسعودة بجنينتها ولا تنهك في توبيخ محمد عديم اللقب ، تخصص وقتها للاعتناء بالدار ولصناعة اوانيتها بالطين الذي يجيء به ابناءؤها على ظهور البغال من تعاريج الوادي الذي يمتد على طول اسوار البلدة ويشكل هوة طبيعية توحد فيها العديد من الغزاة منذ اقدم العصور . وكان هذا النشاط الدؤوب مهورا دائما بالرغبة في الحفاظ على تلك الاسطورة القائلة بأنها تملك انظف واهدا بيت في البلدة، لا سيما وانها قضت على الناموس والحشرات حتى انها استغنت عن الناموسيات ولم تعد نوافذ بيتها في حاجة الى الشبايك الواقية . بل ان اثاثها الموروث جيلا عن جيل كان يبدو وكأنه خارج لتوه من معمل النجارة ، تصدر عنه رائحة التشميع على الرغم من قدمه . وتقول مباحية بأن اثاثها هذا هو هدية قدمت الى احد اسلافها من قبل السلطان محمود الثاني خلال ازدهار الباب العالي . ويومها كان يحتل وظيفة حاجب المروحة . ويملكها الزهو احيانا ، فتصبح امام ابناءها المجتمعين حول المائدة العائلية اثناء الغداء ، بأنه لم يكن في مقدور كل من هب ودب ان يروّح عن وجه السلطان المقدس ، ذلك لانه فضلا عن هيئته الاسطورية ونسائه السبعمائة ، وقف في وجه عدد كبير من اشكال الاحلاف المقدسة الكافرة . وما كان لابنائها ان يعارضوها ، هؤلاء الذين كانت اسماءهم من التقارب يشكل يدعو الى الالتباس : محمد ، احمد ، حامد ، امحمد ، حميد ، حمده ، حمدان ، حمود ، محمود ، حمادي ، بالاضافة الى انهم عديمو اللقب منذ ذلك اليوم من سنة ١٨٤٠ ، حين قرر رئيس الحالة المدنية الاجنبي اذلال جددهم الاكبر ، فيما يقال ، فحرمه من لقبه والصق به حرفين حقيرين ، لم تشف العائلة من وخزها بعد . والبعض الاخر من الذين وصفتهم عائلة عديم اللقب بأنهم اعوان طيعون ، اكدوا ان ذلك قد حدث ذات يوم شديد الحرارة ، كانت فيه اللقالب تثير جمجمة كبرى حتى ان كاتب الضبط الذي وصل متأخرا على متن شاحنة عسكرية اجنبية ، لم تكن لديه الشجاعة لكي ينقل الى لغته اللعينة اسم سالفها المحترم ، الذي لم يكن من عامة الناس . وازاء مثل هذه الخطب الرنانة، كانت الفتيات اللاتي اطلقت عليهن اسماء مليكة ، عتيقة ، رشيقة ، صديقة ، عريقة ، حديقة ، عشيقة ، رفيقة ، وسميكة ، تنتابهن نوبات من الضحك الذي يستحيل كبته ، لا سيما وان امهن جعلت تهددهن

بحرمانهن من الزعرور ان هن لم يتوقفن عنه . حينذاك ، تدرك مسعودة
اهمية ابنها البكر ، وهو الوحيد الذي رأى النور منفردا . وراحت
تستخدم سلطته لتهدئة الصخب الذي كانت ضحية له من قبل توائها
الثمانية عشر . على انها ظلت تقول بأنه لا ينبغي لولدها مع ذلك ان
يفرق في الاوهام او ينتهز هذه الفرصة لكي تغتفر له خوارقه المعروفة
عنه في كل البلدة ، خاصة منها ذلك الظل الذي يحركه كيفما شاء .
وكان هو يسخر بذلك من كل قوانين الفيزياء الشمسية التي دونها ابن
الهيثم في القرن العاشر . وكانت له ايضا تلك العادة في اقحام ذكره
الاسطوري في اي مكان دون ان يترك اثرا ملموسا لمروره عبر المسارب
الانثوية المحببة . غير ان مسعودة تؤاخذ على بعض الفواحش ذات
المطمح التاريخي ، وتراها مجرد فصول من مهزلة يقوم بها كراكوز تركي ،
مطلي بالوان مهففة ، هي الوان الميوعة عند ذريتها ، بل عند سلالته
المحكوم عليها بأن تعاني دائما من البثور المتقيحة المؤلة التي وضعها
الله — الذي لم يكف عن ممارسة الغش — بين الوقت والآخر وبطريقة
جد صائبة ، بين خصيات ومراكز الذكورة لدى افراد العائلة . وعندما
تحسن العلاقات بين الام والابن تحسنا جيدا ، تطلب منه ان يهمس
لها ببعض الاسرار عن اصل وجنس هذا الابن خلدون الشهر الذي
اغرم به . حينذاك ينتهز عديم القلب الفرصة ويعدها بأن يحكي لها كل
شيء عن تاريخ هذا الرجل العظيم وغيره من المشاهير الآخرين ، شريطة
ان تعيد طلاء البيت باللون الازرق النفطي وان ترخص له بأن يربسي
في غرفته طيور البرازيل وان تغير مواضع الاثاث الموروث عن سالفها
من مكانه المعتاد . وامام مثل هذا الطوفان من الطلبات ترفض مسعودة
رفضاً قاطعاً ، وتصفها بأنها اهواء طفل لا يخاف من ظله فحسب ، بل
يبدع اساطير غريبة حول ذكورته الخارقة وحول معارفه اللغوية التي
لا يمكن لاحد ان يتصورها . غير انه لم يكن لديها الوقت للدخول في
حكايات معقدة تعلم انها خارجة رأساً من خيالات ابنها . عندئذ تبتلع
حنانها ثانية ، وتذهب لسقاية قنائها وباذنجانها وتستعرض فروج بناتها
التسع ذوات الاسماء البراقة المتشابكة فيما بينها . هذه الاسماء التي
كان المقطع الاخير المكرر منها يدفع بها الى الخلط فيما بينهم . وعلى
اية حال ، لم يكن هناك الا فارق ستة اشهر بين الواحدة والاخرى
منهن حتى انهن كن غير راضيات بتبادل الثياب والاسماء ، وتبلغ بهن
الجرأة حد تبادل الهويات لاستغلال امهن واشقائهن التوائم ، وصديقاتهن

بل وحتى عشاقهن الوهميين الذين لم يدركوا تلك الخدعة ابدا . وكانت مسعودة تراقب بانتظام اذا ما كن دائما على بكراتهن حتى تستطيع نشر قمصانهن الملطخة بدم الدخلة على الحبل الذي يستخدم عادة في تجفيف الفسيل ، وذلك في حالة ما اذا تجاوزت الحاكم باختطاف احد امراء الصحراء لكي تهدي له احدى بناتها . وقد سخرت من غرور الحاكم الذي قرر ارسال بنته الكبرى لتعلم الرقص في قارة اخرى كانت عاجزة عن التلطف باسمها لشدة بعدها عن المنامة . غير ان الشقيقات التوائم اللاثني لم يكن يتفاهمن جيدا فيما بينهما ، لدرجة تصل حد الكراهية ، كن يغالين في نزواتهن فيغمى عليهن جميعا في نفس الوقت كامراة واحدة بمجرد وقوع حادث خطر او محزن او مدهش . كانت العادة الشهرية تأتيهن في نفس الوقت بالضبط من كل شهر وتدوم لدى كل منهن عددا مماثلا من الايام ، فيقعدن خلالها على السطح الذي نصل لون قزميده على مر السنين لشدة ما لوحته الشمس وبرز حشيشه الازرق بين الفتحات .

وكن يؤولن علامات السطح وشقوقه وينحبسن بين الصمت والثرثرة فيشعرن بسريان دمائهن التي تتقاطر بغزارة في قصريرات فضية حتى لا تضيع هباء ، ويفاجئن ذلك السيلان الضعيف حتى انهن تترنحن جميعا بين الدوخة والاغماء . وهذا ما يدفع الابن البكر الى القول ، وهو منهنك في لعب الدومينو : « يجب ان اعود الى الدار ، فهناك ولا شك امر يحدث هذه اللحظة » . اما الاشقاء فيتجنبون العمل وقتا طويلا في غرس ثمار المحامي النفسجية والبصل والتين الهندي وغيرها من الخضر ، فيقضون اوقاتهم ، بدورهم ، في تبادل ثيابهم واصواتهم وايماءاتهم . ويستغفلون والدتهم المتسلطة التي لم يكونوا ليقووا على مقاومة انفعالها المتطرف الا بتلك الحيلة الذكية التي تحفز خمولهم المعهود فيهم منذ ان توقف التاريخ عن الدوران في منطقة اسلافهم . وهي المنطقة التي صارت اضحوكة بين اولئك الذين سيطروا عليهم سيطرة تامة طوال سبعة او ثمانية قرون . ولكن الامر كان يبلغ ذروة التدليس الذي يعمد اليه الابن البكر المنفرد ، وذلك عندما يبادر التوائم الى الاحلال محل شقيقاتهم ، وتغرق دار مسعودة عديمة اللقب في هزيان مشهود . ويصاب سكان الدار بشيء من الوجوم فتشدهم الدهشة وكان صاعقة نزلت عليهم لكثرة ما عمدوا اليه من اشكال التنكر والتحويلات والتبدلات في جنسهم . محمد عديم اللقب وحده هو الذي يسجل على الدفتر مختلف حالات المسخ والاستبدالات المتعددة والانقلابات في الاوضاع

والتأثيرات المسرحية ومن ثم فهو يعرف كيف يعيد الامور الى نصابها وكيف يرجع الى اشبائه اعضاء ذكورتهم والى شقيقاته بنياتهن الانثوية . ثم انه يزيد من عندياته ، فيلف ذلك كله بخطاب رائع يقتبسه من خيماوي وطبيب من القرن الثالث للهجرة . معجب به ايما اعجاب . وبالفعل فقد شارك الرازي في اكبر حركة ثورية عرفها الاسلام ، ولم يكن بتقديم مساندته الاخلاقية بل ساهم مساهمة جدية في انتصارها . على ان عديم اللقب ظل يؤثر مؤلف المقدمة لسبب واحد وهو انه خطر له التوقف بالنامة مدة اربع سنوات ، ووضع فيها ادق مصنف في الاقتصاد السياسي حصل عليه العالم . وكان عديم اللقب يجلس الى طاولته عندما تقضي والدته فترة القيلولة . ويذهب في اخذ ورد حول مصر اشبائه وشقيقاته من التوائم الثمانية عشر . وعندما ينتهي من ذلك ، يراجع حساباته مرات عديدة لكي يتأكد من انه لم يخطئ . كان على وعي بما قد يكلفه مثل هذا الخطأ ، ويوقعه على العائلة والبلدة معا والمنطقة وما اليها والبشرية جمعاء التي سوف ترى حينذاك جهود قرون عديدة يعاد فيها النظر ، وما ذلك الا لانه لن يكون في مقدور احد ان يعرف ما يعنيه الكلام ، وما تحمله الاسماء من المعاني ومن الرموز التي لم تحظ باعتبار حقيقي . وعندما يفرع محمد من اعادة النظر في كل شيء ، يشعر بالتعب الشديد حتى ان عينيه الخضراوين تصيران مثل حجرين خرجا من بركان خمدت نيرانه منذ ملايين السنين . ويظل في مكانه ساعات طويلة جامد الهيئة ، كأنه ينتظر من شبحي والده او جده ان يجيئا فيهزانه ويعيدانه الى الواقع اليومي المزري .

الاعيب المرايا هذه ، والادراج ، والمشاهد التهرجية ، والوقائع التاريخية ، كانت تنظم على غير علم من الوالدة وعلى حسابها ، تلك الوالدة التي تجاوزتها الاحداث البيئية والملمحية على حد سواء . كانت خلال سحابة نهارها تنطلق في اثر الزمن فلا تقوى على حصره ضمن حدوده الصارمة . وفي الوقت الذي تنشط فيه وتنحني لقلب الارض وغراسة بستانها وسقيه والاعتناء به ، تلقي بانتظام نظرة قاتلة على ساعاتها الجدارية التسع عشرة ، المصطفة فوق اثاث تقادم به العهد . وتهمهم بين اسنانها بعض الوقاحات تجاهها ، متهمة اياها تعمد تجاوز الوقت بساعة على الاقل حتى تسرق منها وقتها الذي يسيل عبر تضاعيف دماغها بعد ان تحول الى ساعة مائية يغذيها دمها القوي العتيق .

وهي تعلم انها اذا كانت اليوم ارملة بتسعة عشر ولدا ، فانها مدينة في ذلك لارادتها التي لا تعرف الكلل وولعها بالتناقض . وهذا ما اوقعها في تصرفات متطرفة رغبة منها في ان تعارض اوامر الحاكم الذي دفعت به اهاوؤه وغطرسته الى ان يتسبب في هبوط نسبة المواليد هبوطا لا يصدق في بلدة محرقة مثل المنامة .

وبعد زمن طويل . طويل ، طويل . اي عندما زوج محمد عديم اللقب شقيقته التوأم الاولى ، تذكر ذلك المسبح الاولمبي الهائل الذي اهداه الحاكم لنفسه . لقد اجبر السلطات على قطع الماء خلال النهار لكي يستطيع ملء المسبح . وهذا الوضع قلب عادات اهل المنامة رأسا على عقب ، فقللوا من انجاب الاطفال . وكان لمسعودة رد فعل مختلف ، فقررت الا تنجب منذ ذلك الحين الا توأم من جنسين مختلفين . وتحاللت ايضا حتى تعمل على اخصاب بستانها ، وهكذا ، وعلى الرغم من قلة الماء حصلت على نتائج عجيبة . لقد جنت حبات من الطماطم في حجم الشموس وبعض الخضراوات المتعلقة وحبات من اليقطين هي من الكبر حتى انه كان في المستطاع حجز البلدة داخلها وتخليص الكوكب منها الى الابد . وتعودت تخزين ثرواتها الغذائية في ثلاجات صنعها محمود ، توأمها الثامن من هنا وهناك . مستجلبا قطع الغيار من عتاد عسكري قديم مهجور منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على بعد كيلومترات من البلدة ومدفون تحت كثبان من الرمال . وانتهى بها الامر الى ان تتسبب في هوس حقيقي حول نقص الاغذية على الرغم من الاحتجاجات الشديدة التي رفعها محمد عديم اللقب . لم يكن ليتوقف عن مؤاخذتها على تصرفاتها الانانية التي تكبح نمو حقيقيا ، صعب تحقيقه . خاصة وان كشافي المستر براون الذين صاروا محاربين اقوياء متغطرسين ، لجأوا الى شتى الحيل لاسقاط ذلك النمو . على ان مسعودة ضربت صفحا عن تهويمات ابنها وامرته ان يعود الى خوارقه السحرية . ثم انها حاولت التخلص منه فأعلنت له بأنه على حق ولا شك حين يحاول التعرف على المكان المحدد الذي وجدت فيه دار ابن خلدون ، وما كان ذلك منها الا لكي تتملقه وتمنعه من الدوران حول مغروساتها ودواجنها وتوائمها الذين تخشى عليهم من ان يعيدهم بهذيانه وجنونه المعروفين عنه في كل البلدة .

غير ان اهل المنامة رأوا انه اذا كان الابن مصابا في عقله ، ويمثل خطرا على توازن الطيور واللقاق والعائلات واشجار الساحة والمجتمع

بصورة عامة فان والدته تمثل هي الاخرى لغزا مبهما بسبب نجاحها في مجال الفلاحة وتربية الحيوانات . وهذا بطبيعة الحال امر لم تكن اصولها الساحلية لتقوى على تعليله بالتمام . حقا ، لقد كانت تحمل وشم الخصوبة الذي تخفيه بين ثدييها العظيمن اللذين تنظر اليهما النسوة باعجاب حين اللقاء بها في الحمام . وقد كان في هذا الحمام ساحرة عجوز تتلخص مهمتها الفورية في تسجيل اسماء اللواتي لم تكن فزوجهن حليقة حتى تخبر الحاكم بذلك . وكان الحاكم يجعل من النظافة الجنسية مبدءا من مبادئه الجادة في فن تسيير شؤون شعبه . غير ان مسعودة عديمة اللقب هي الوحيدة التي ظلت متمنعة ، ولم يكن تخفي جزوتها الهائلة عن تلك الحارسة الشرسة المسؤولة عن فحص الفروج . وكانت تصرخ لتستفزها : « ليس له سوى ان يأتي الى هنا ليضع انفه بنفسه . ان فرجي الذي سبق له ان قذف بتسعة عشر ولدا وبنتا لم يعد يخاف من تهديدات مجنون عجوز . انا على الاقل لا ارسل بابنتي الى بولينيريا لتزويجها برجل ثري ! » وكلما ذهبت الى الحمام سارعت نسوة البلدة الى اللحاق بها . وكانت حلقات الدعك هذه تتحول الى مهرجان ضخم تطالب فيه النسوة بحقوقهن في التصرف في فزوجهن على هواهن ، ويذهبن الى حد الاعلان بأنه اذا كانت متطلبات الحاكم امورا واجبة الاحترام ، فان مثل هذا القانون حول العانة يجب ان يشمل الرجال انفسهم . وبعد بضع سنوات كانت الغلبة لجمعجعتهم تلك . وهكذا اهمل قانون بندرشاه التعسفي بفضل مقاومة مسعودة عديمة اللقب وغيرها من النسوة اللواتي سرعان ما رحن ينتفن شعيراتهن بكل حيوية ونظام بواسطة عجينة يحصلن عليها بطبخ عصير الحامض والسكر طوال اشهر كاملة مع مركب من حامض الكلوريدريك والاطرب . رفضت قائدة هذه العملية ان تنتف شعيراتها وصمدت على الرغم من توسلات بناتها اللاتي خشين ان تفيض جزوتها على سروالها وان تغزو البيت مثل نباتات طفيلية ثم تنطلق من دار الى دار فتغطي الطرقات المعبرة كلها وتبلغ الساحة وتتسلق مثل عليق عنيد جذران العشرات من المقاهي التي كان اصحابها بطبيعة الحال يدفعون جزية لبندرشاه .

وفيما عدا تعنتها ومواهبها الفلاحية وخصوبتها الخارقة التي دفعت بها الى ان تضع تسع مرات متتالية سلسلة من التوائيم باستثناء محمد عديم اللقب المسكين ، فانها كانت تعرف اعطاء النصائح الى النسوة

العقوبات وتبرع في فن رسم الوشم على الاجزاء السرية وتفيض على الرغم من خلقها الشرس ، بحنان لم يكن له من مساو الا جشعها . وكانت قوتها الكبرى تكمن مع ذلك كله في انها تعرف اسرار الحاكم كلها ، الذي ولد في نفس المنطقة الساحلية مثلها ، ولم يكن في واقع الامر الا ابراحا سابقا في ماخور شهر يقع على شاطئ البحر . وقد استطاعت ان تسمح لنفسها بأن تنقف منه موقف المزدري وترفض اقتراحه بتزويج كلثوم صفرى بنتيه لابنها البكر . وعلى الرغم من ميلها الى نوع من الوصولية المتسرة ، فانها رفضت بكل قوة التحالف الذي قدم لها على طبق من ذهب . « رائحة الماخور تنبعث منه » . كذلك تردد على مسامع صوحيباتها اللواتي يأتين لقضاء اوقات الظهيرة في بيتها المعروف برطوبته وبانه احسن مكان للافشاء بالاسرار عندما تعبر الطيور فضاء البلدة وتلطخه بجو لا واقعي . وقد سارع سيد البلدة بعد ان جاءه عيونه الى ارسال بعثة مصالحة مقترحا عليها مقابل كتمانها للسر ان يفتح المجال لابنائها للعمل في الشرطة المحلية باستثناء ابنها البكر ، بحجة انه لم يكن يترك ظله ينسحب وراءه ابدا ، وانه يعاشر الاسكافي الشيعوي ، وانه غرر بجزء كبير من نسوة المنامة . واكد لها انه لن يأخذ بعدها اي قرار حتى وان كان صحيا ، والا يصوغ قانونا حتى وان كان تحريرا دون ان يستشيرها ويأخذ برأيها الذي صار بحكم مجريات الامور نوعا من حق العض المطلق . ورفضت مسعودة مثل هذه المصالحة وقالت لمبعوثي بندرشاه انه مهما حدث فانها لن تقوى على الثقة في رجل قضى جزءا كبيرا من حياته يقوم بدور البراح لاحياء السهرات في اكبر بيت للدعارة بالساحل . وكانت تؤاخذ على انه تدخل فيها لا يعنيه . ومن ثم فانها سوف تجبر نفسها طوال حياتها على الاعتناء بجزوتها التي لم تكن لتخدمها في شيء الا في نسج كفنه هو بالذات لتدخره الى ذلك اليوم الذي تاتي فيه اللقائك الوردية بالنبا السعيد عن موته .

عند ذاك راودت الحاكم فكرة شيطانية ، فعرض عليها بالمجان ، وطول حياتها ، سمادا عجيبا مستوردا من كاليفورنيا رأسا ، وقادرا على رفع مردودية قطعة ارضها بنسب مذهلة . وقد تغلب بمثل هذه الحيلة على عداوتها . ولم تتحدث بعد ذلك ابدا عن اصوله المشكوك فيها ولا عن ماضيه المخزي . وواصل هو استثمار شؤونه ، وبيع النفط للاجانب وكتابة الرسائل المليئة بالحنان الى ابنته التي كانت لا تزال تعمل

على تحسين حركات قدميها بمعهد الرقص الملكي في سيدني . بل انه واصل بث الرعب في البلدة المولعة على الدوام بصراع الاكباش والمنشغلة بحضانة الشرائق بين افخاذ النسوة ، وعمل على تربية بازيه السذي يحمل اسمها شفافا هو « يوبا الثاني » . وعلى الرغم من تلك المصالحة بين العدوين في سبيل اسكات الفضيحة ، وتهدة الاهواء ، ظلت العلاقات متوترة بينهما الى ابعد حد . فقد كانت تتردد للزائرات من النساء : « انني احمل حدادي بين فحذي بسبب هذا الحاكم الغبي . ولو ان الله لم يعمد الى الغش ، لما كان اهل المنامة على مثل هذا الجبن والطواغية ، ولما كنت اهرش باب السعادة في كل حين » . وخلال هذه الفترة بالذات ، عمد والد كلثوم الى صرف الانظار عن عملية تهريب العملة الصعبة التي يمارسها ، فأصدر ذلك القانون العجيب المتعلق بحلاقة الفروج ، بحجة الحيلولة دون تسرب الامراض التناسلية التي احدثت اضرارا كبيرة في القرى المجاورة للمنامة . ولم تنطل الحيلة على احد ، ولا على مسعودة بالاخص . فقد استشفت من وراء ذلك كله ، تطيح الحاكم المخادع الى القوة التناسلية التي يتمتع بها ابنها الوحيد . وعلا منها على تجنب المفاجآت المداهمة ، اتخذت حذرهما وارغمتها على ان يتبول على سيف محمي ، كان فيما مضى ملكا لاحد اسلافها من الدراويش اصحاب الحلقات ، وذلك حتى تستأصل شأفة اي مرض شائن .

كان رشيد بناصر اول من خطر له ان يخطب « مليكة » عديمة اللقب التي كانت تشعر بالضيق من كونها لا تزال عذراء غير مدنسة ، رغم الزيارات التي تقوم بها الفراشات الفوسفورية حسب الاهواء ، ورغم رغبة احمد ، شقيقتها التوام في تمرير يده تحت جلابيها الموصلية . وقد رفضت ايضا مواقف الدلع التي تتخذها شقيقاتها عندما تكون والدتهن في قمة النشوة ، ولا تقوى على النظر بسبب الدموع التي تغشي عينيها من الضحك . ولم تكن تضع تحت جلابيها واثابها الاطفال الرضع لكي تهزهم وتبين لهم ما ينطوي عليه ديجور الانثى من المواعيد التي لها مذاق الملح المحلي . وعلى الرغم من هذه الترجيات العديدة العاجلة ، فانها نجحت في البقاء بعيدة عن كل فسق ، الى ان جاء ذلك اليوم الذي اطلعت فيه على نية ماسح الاراضي . لم تستغرق الامور طويلا . فبعد شهرين من الخطوبة التي تمت على يدي اخيها البكر حينما كان يغذي طيور الساحة ، تم العرس في جو من الفرح الغامر . وغرقت

البلدة كلها بمشروبات الليمون وعصير البرتقال وعصير اللوز . غير ان العريس لم يقاوم رغبته في احتساء بعض زجاجات الجعة صلبة صهره الجديد لكي يشجع نفسه ويواجه عائلة عديم اللقب ، خاصة منها الشقيق التوأم لزوجته الجديدة الذي اقسم على ان يفرز خنجرا في رقبته . وتبددت هذه التهديدات التافهة بعد بضعة اسابيع ، ثم ما لبثت ان فنوسيت تماما عندما انجبت « مليكة بناصر » صبية ذات جمال ساحر . واحتفل بالوليدة كما ينبغي . وذبحت مسعودة عددا من العتاريس لكي تشكر الله على الخصوبة . كانت مقتنعة بأن هذه الولادة هي البشير بمستقبل رائع سوف يفتح عبر العصور والقرون والانظمة السياسية طريق الازدهار امام عائلتها الكبيرة . واسلمت نفسها لله في ذلك اليوم ، بعد ان خاصمته مدة طويلة ، وحكت عانتها التي كانت تطهرها فيما مضى بماء ورد البرتقال وقالت : « الان وقد عاد كل شيء الى مجراه ، اعتمد عليك لكي ترسل لي صهرا اخر يكون مولعا بالفلاحة » .

على ان هذه الولادة لم تقع موقعا حسنا في نفس محمد عديم اللقب الذي تضاعفت وحدته . وتذكر انه الوحيد بين اشقائه الذي قدر له ان يولد منفردا . وفي هذه الفترة بالذات عرف عنه ذلك التقاعس . فقد ترك ظله ينسحب وراءه وتوقف عن تلطيخ ارحام النسوة بأندائه الليلية واقطع عن تقديم الطعام الى الطيور ، ولم تعد له القدرة على ايقاف ضحكات الاطفال وقوقأة الدجاج وصخب اللقالق وجعجعة الرحي عندما يمر على مسافة لا تقل عن مائة وستة وستين مترا منها ... وفي هذه الفترة بالذات ايضا تخلص عن تنقيباته عن موقع المكان الذي كتبت فيه مقدمة ابن خلدون ، واغلق على نفسه في حانوت الاسكافي ولم يخرج منه الا بصحبته لكي يسكر في ماخور « الكباش الشبق » ، ويتوسل الى اكبر زانية في الماخور بأن تعترف في اخر الامر بأنها شقيقته التوأم ، لانه لم يستطع تحمل فكرة ولادة اخوته اثنين اثنين في حين قدر عليه ان يولد منفردا . وكان علاوة الاحمر يقول : « كف عن هذيانك . ينبغي ان تكون راضيا في تقليد الله . فهو كذلك وحيد ، لكنه على ما يرام .

وانت تعلم ان لا شقيق له والا فيالخرابنا ! » . وعندما كان يستمر في جموده وفي البقاء دون سلوان ، ينتهي الامر بصديقه الى اقناعه بأنه لم يبق عليه سوى ان يشنق نفسه على الشجرة نفسها التي شنق عليها مؤسس المنامة نفسه . ذلك الذي ظن بأن قوافل الملح سوف تغير من

توازن الساعات . واعتزم تبديل ساعات الرمل بساعات الملح التي تجعل الزمن اقل خشونة واقل جفاء ، واكثر انضباطا وخفة ، لا سيما وانه خلال نزوله بالمكان اصيب بالدهشة وهو يرى بأن الهواء داخل الاسوار يحمل في تضاعيفه مذاقا سمجا اشبه بمذاق نهاية العالم .

معندما بنى ذلك المؤسس اول دار في المنطقة كان متحفزا لصناعة ساعات مائية يبيعها لاصحاب القوافل الذين قد يستعملون العرق الغزير المتصعب من اجسادهم بدلا من الماء النادر جدا في هذه الصحراء . وبذلك يستطيعون توفير الملح والرمل وقضاء ساعات كاملة في تأمل عرقهم ، مشدوهين ، وهو ينزلق من آتية الى اخرى ليحدد لهم وجهة الزمن والفضاء ، فقد تعرضت في الواقع الشواخص التي يستدلون بها طوال قرون عديدة للضياع والتهيه وهو الامر الذي دوّخهم وشحذ نفوسهم في آن واحد ، حتى انهم سرعان ما ادركوا تلك المهزلة وتركوا المؤسس قابعا هناك بقرينه التي جعلت تتبیس الى اخر الزمن على الرغم من الاشجار التي هرسها بها واللقاق التي نقلها الى المكان عينه . وكان ذلك كله عبثا في هبت لان اهل المنامة صاروا يعرفون اليوم بأن الملح لم يعوّض الرمل ابدا ، وان الساعات المائية قد اكل الدهر عليها وشرب على الرغم من تحريكها لمادة اشد لزوجة وانزلاقا . حقا لقد برهنت الاشجار على جدواها ، ومدت ظلالها الى حدود بعض المقاهي التي لم تكن تتمتع بموقع جيد في الساحة ، غير ان اللقاق التي جيء بها من بعيد لم تعد تصلح الا لمضاعفة الصخب الذي يصم الاذان . وقد كان صخبا قادرا حين هبوب الرياح المؤاتية على بلبله العادات المبطنة لرجال الاسكيو في كندا .

وكان عديم اللقب يرفض مثل هذه النصيحة من قبل الاسكافي العجوز . ويدرك بصورة مبهمة انه لا علاقة له البتة بخيالات ذلك التاجر الذي اسس البلدة . ولقد سبق له ان قرأ في احد الكتب ان هذا التاجر فكر في اقامة تمثال لنفسه من الذهب الخالص بساحة البلدة ، بفضل الارباح الطائلة التي تدرها عليه تجارة الساعات المائية المتحركة بعرق الجباه ، والتي يبيعها بالتدليس للبدو الجهلة السذج . غير ان النقلة في درب القوافل حطمت اماله . ومع ذلك فان محمد عديم اللقب لم يمنع نفسه من الحقد عليه على الرغم من انه شهد له بفكرته الطيبة في غرس الاشجار التي تعشش فيها اليوم الطيور المروضة بفضل مهارته وصبره الاسطوري .

كان عديم القلب عاجزا عن التخلص من ذكرياته . اذ لم يكن له منها الكثير حتى يبددها هكذا ، وينسى حظه التعس الملتصق بجلده ، الذي قدر له ان يولد منفردا معزولا ، دون شقيقة توأم تبعث الطمأنينة في نفسه داخل ذلك المصران السائل المعتم الذي لم يكن سوى بطن امه . وقد اولع بجمع المخطوطات القديمة والكتب الصفراء التي كانت رطوبتها الزنخة تساعده نوعا ما ، على تبين الحقائق من الخيالات . واغرم بتاريخ بلده ، ثم بتاريخ العالم الذي ادرك شموليته ولكنه عجز عن حصره والوقوف عليه عن كثب لشدة ما بدا له بعيدا عن الواقع وشديد الغرابة . فمئذ وفاة والده وقعت حوادث عديدة ، وعلى الرغم من الجمود المحيط به والفقر والجهالة ، ظهر له ان شيئا ما ، في مكان ما ، يسير بسرعة وان فترة التلعم بدأت تنتهي ، الا اذا كان ذلك نتاج مخيلته التي تلتهب لادنى شرارة . والذكريات التي انتقاها ، كانت هي الاخرى تضطرب وتنتفخ حتى تصير زوائد تقلقه مثل حصيات تدور في رأسه دون ان تقوى على التوقف . سنة تدفع بأخرى ، والزمن ينزلق في الذاكرة مثل فأرة داخل مصيدة . ويطارده وله عتيد . فبعد تسعين سنة بالضبط من وفاة ابن خلدون ، اي في الثامن والعشرين من شهر مارس ١٤٩٨ ، لم يفتح ابن ماجد — هذا الشعور — طريق الهند البحرية امام الغربيين ، بل بلدان التوابل والحرير والقطن والعبيد في وقت كان فيه اهل المنامة عاجزين عن تصديق حالة التنسل والتمزق والاستحالة الى طرائق قديدا . لقد جرفتهم نبوءة ذلك الذي وصل ذات صباح من خريف ١٣٧٥ الى بلدتهم لكي يضع مصنفا رهيبا يقيد فيه بكل دقة جميع الاسباب التاريخية وكل القوانين العلمية التي غيرت العالم فيما بعد .

لم يعمل احمد بن ماجد الا على التعجيل بالكارثة وتدشين الطريق الاستعماري امام البرتغاليين والآخرين . وهذه السيطرة لم تتوقف عن الاستمرار ولا عن جر الملايين من الجزئيات المؤلة التي لم يكن ليستطيع التخلص منها ببسر في حين ان البعض الآخر كانوا يستمرون في حرق اخصاص اقدام الانسانية كلها بواسطة تبغات' ملتبهة . كانت حكاية تتلاءم وشطط عديم القلب ، اذ كان بحد ذاته كتلة من الفرائب ، يشتم في كل مكان قوى مستخفية وظواهر خارقة . ويهوى التحرك في ضوء الغرابة المبهم لانه جعل يغذيتها يوميا بقصص دائمة التجدد ورائعة في الكثير من الاحيان ، ومشربة ببهارج سحرية لطفل خارق المواهب . وكان يحسن التنقل من اكتشاف الى آخر ، وهكذا راح يصور لنفسه ولاقرب اصدقائه تلك الملحمة الملتبسة لمؤسس المنامة ولولعه بتجارة الملح ، وملحمة الريان « فاسكو » المهووس بجغرافية الفلفل الاكحل . طريقان على طرفي نقيض . يلتقيان في خضم التجارة الكبيرة وتهريب التوابل والنخاسة واستغلال البشر . شهر يأتي بآخر ، واسبوع يتدرج بعد اسبوع ، والهاجس يثقب نفقا عبر مخه المروي بالتاريخ العالمي الى حد الاعياء . وعندما يبلغ هذه النقطة ، يعجز به الفهم . اذ تتفرع امامه مصائر المغامرين المشهورين الذين وقعوا في فخ التكرار الضاري ، الذي يتشكل في الداخل بالخلط بين العديد من الامور الرديئة ، والمزوجات المشكوك فيها ، والتشابكات غير المنتهية ، والتداخلات التي لا تصدق ، والتراكبات التاريخية ، والتجمعات الصارخة للظواهر التي تتجاوزهم . على انهم كانوا واعين بها وعيا مبهما محدودا على الرغم من كونه مضمر ، وعلى دراية بأن غرابة المحيط الذي اكتشفوه تنطوي على اسرارها وروائعها الصعبة وتعطناتها الجسدية ، الموجزة في نهاية الامر في ذلك التداخل الشيطاني بين الاشياء اليومية التي تحمل هشاشة الموت ، والمصائر المتعنتة على الدوام التي تخطط معا وفي نفس الوقت داخل نظام من الترابطات التي لم يتوصلوا - اي مكتشفو العالم الجديد - الى فك رموزها ، لانهم حسبوا التاريخ منشقة حيضية تستخدم لتشرب قذارات هذيانهم . هذا دون التحدث عن الآثار الداخلية التي تتركها هذه الرواسب الحضارية التقريبية الفوضوية ولا عن حركات فتاة في السادسة عشرة ترقص كعجنونة في طرقات سيدني ... كان عديم القلب يخرج منها متهاكاً من تلك المطالعات المتعاقبة حيث الصدام بين القصص وتعاريجها يذكره على الدوام بتلك الليلة الشمالية الصرد ، التي اخذه

فيها جده لكي يرى لأول مرة في حياته قاطرة ملفعة بدخان أزرق ، ومتجمدة على سكتها الحديدية ، التي استبد به ضبابها السرمدي طوال حياته : « انظر الى ما يصنعون . ولا يذهب بك الظن الى ان الجواد انبل من هذه القاطرة ! » . كما علمه كيف يتحایل على مقابل الآخرين ، ثم اعاده الى حدود البلدة بعد مسيرة طويلة ارهقت الطفل وجعلته مشاكسا . وبعد عشرين سنة من تلك الحادثة ، فهم محمد عديم اللقب مغزى الكلمات التي تلفظ بها جده . وامضى وقتا طويلا لكي يدرك ذلك كله ، غير ان القصص عن قوافل الملح ، وملحمة الفلفل وتزيمات بعض المخطوطات ، ذكرته بأن السيطرة على الشعوب كانت دائما مرهونة بطرق المواصلات .

كل سكرة تعيده الى جده . وكل احساس يعتريه يجعله يشعر به موجودا هناك ، جالسا في فناء الدار ، يقرأ مخطوطات قديمة او يفك رموز البعض من خرائط سكك الحديد او المسارات البحرية . والحقيقة انه كان الانسان الوحيد الذي عرف كيف يحبه ، والذي تعلم منه دروس الحنان والحنين والتهويم . كان صاحب قصص خرافية ، يضع امام الطفل الذي يفتح عينيه على سعتها قائمة مكتملة بالعوالم العجيبة الغريبة . لكنه لم يجد الشجاعة في نفسه ابدا ليقول له بأنه لم يكن هو الشخص الذي يقود القاطرة الضخمة ذات السحابة الزرقاء التي رآها خلال وميض خاطف خارق . في الواقع لم يكن جده الهزيل ذاك الا مصابيحي المقطع الواقع على بعد مائتي كيلومتر من المنامة وقريبا من بلدة أخرى اتفه منها توجد في حوزة شركة السكك الحديد . وقد ادرك منذ البداية ، بل ومنذ ان اسعفته الذاكرة ، ان والدته مسعودة عديمة اللقب لا تريد له ان يسلم نفسه لخيالات العجوز . لانه احس بها مسجلة الى الابد كأنها هي نقش بارز ما فتىء يوشم حياته : فالخطوط التي تشكل شبكة معقدة من السكك تتتابع فيما بينها ، وتتكسر في الافق ، وتتشعب لكي لا تنتهي ابدا ، وهي تعج بمشاريع تجريدية عن المستقبل وتنتفخ تحت لدغة البرد وتنفجر دوائر الزمن الى آلاف الشظايا والى مجالات معوجة والى هندسات غير معقولة . وبعد زمن طويل . طويل ، طويل . في اليوم الذي دفن فيه والدته ظل يحس فوق بشرته بذلك النض الخارق المتولد عن الهندسة الفضائية الخطية التي لم يفهم منها شيئا ، لكنه توقعها مع ذلك بصورة مبهمة خلال رؤيا غريبة ارقته طوال حياته ،

واعطته انطبعا بأنه هلب من الداخل ، ومخيط بسلك حديدي من الخارج . لكانه أدرك حين اكتشاف تلك القاطرة المتبخرة لأول مرة في حياته ، انه في كبره سيصير محكوما عليه بالشقاء والتعثر . على انه اليوم يمتلك في ذهنه صورة ذلك العجوز حية مقلقة وهو يتجول ليلا بمصباحه على طول المعالم ، ويعود في الصباح منقوش الشعر مقرورا داخل سترته السوداء التي تحمل علامات الشركة ، ليفرق قدميه المكودتين المجرحتين في وعاء من الماء الساخن المزوج بالصوديوم . وعلى الرغم من تلك العلاقة التي تربطه بجده ، لم يجرؤ هذا الاخير على الاعتراف بأنه فقد كل شيء بما في ذلك الحرفين الاولين لاسمه . فقد الصقوا به ذلك الاسم الغريب الذي يحمله رئيس المحطة ، حيث كان يعمل كمصباحي . لم يكتشف الحفيد هذا الاهمال الا بعد سنوات طويلة عندما تساقط الثلج لأول مرة منذ قرون على المنامة وساعد هذا الحدث الخارق سكانها على الخروج من ذواتهم والافضاء بسرائرهم ، كأن ندف الثلج رطبت جذورهم المتفوزة التي تحيط ببشرة القذل وتحصرهم داخل كلابة من البرونز الثقيل . وفجأة صار كل شيء ممكنا . فقد سمع الناس لأول مرة مسعودة عديمة اللقب وهي تغني في المطبخ كأن البياض الذي فطى الارض قد حقن في دمه مقداراً لا بأس به من الصفاء . في حين انها عودت محيطها على الحمى المرهقة . حتى نوبات الضحك لم تكن الا تعبيرا منها عن حيرتها التي تتخلص منها لكي لا تترك الشقاء يتسرب عبر باب سعادتها مثلما تعودت تسمية مكان خصوصيتها . كان احد حراس الاسوار ، وهو عجوز يبلغ مائة واربعاً وعشرين سنة ، هو الذي روى لعديم اللقب كيف اغتصب اسم جده مرة ثانية . افضى ذلك الشيخ بما يلي : « كانوا يسمونه محمد بونفوس . لا ينبغي لك ان تلومه لانه لم يتحمل هذه الكنية ابدا لانها جعلت منه مجرد عبد » . وكان بونفوس هذا عهلاقا ، ذا بحر موبوء برائحة الخمر الحادة والثوم . كان قادما من سجن لا يعرفه احد . وقد عمدت السلطات الاستعمارية الى امتحانه ، فأرسلته ليسهر على القطار الوحيد الذي يمر كل يوم على بعد مائتي كيلومترا من المنامة . وصار محمد عديم اللقب الجد ، مصابيح ، وقيما على حياته وكاتم اسراره الى حد انهم قالوا عنه في كل مرة صادفوه فيها وهو يراقب السكك الحديدية او وهو ذاهب لقضاء حاجات صاحب العمل : « ها هو خادم بونفوس ! » وشيئا فشيئا ، انتهى الامر بالناس الى ان يصيحوا به كلما راوه : « هوذا محمد بونفوس ! » لا غير ...

ودفع هذا الكشف بالحفيد الى الانطواء داخل حالة من التصنع القاتل الذي لم تقو على ازالته تلك الحيوية التي اتسمت بها ذكرياته الاخيرة . وعيننا حاول استثارة مواهبه الخارقة لكي يوهم نفسه بظهور جده في فناء الدار ، ويطلب منه الحسابات ، لكنه لم يصل الى اية نتيجة . وزاد عنادا على عناد ، وارتعش من البرد مثلما حدث له يوم ان ذهب يتأمل القاطرة الاولى والاخيرة في حياته ، فانهمك في الشرب بانتظام لكي يحصل على الرؤيا التي يأمل فيها ولكي يفيق في الصباح الباكر خائر القوى ، قبل ان تتحول دار مسعودة عديمة اللقب الى خلية دائمة الطنين . لكنه اخفق ثانية في محاولته تلك . وارقته فكرة الاتصال بجده لكي يطلب منه بعض الاستفسارات حول الصمت المضروب حول هذا الاسم المغلوب على امره . حقا ، لقد طفى هذا الاسم على هويته ، وسحقها والفاها تحت وطأة العملاق الذي صار رئيس محطة ومالكا لمستخدمه . خيل اليه ان جده يتخلص منه ، ويختفي ولا يريد الظهور ، ويعاند في الافلات منه لكي يتفادى اعطاء توضيحات مؤلة جدا . وقرر محمد عديم اللقب الخروج وراء الاسوار ، واعتزال العالم كلية . وقبل ان يغادر البلدة ، حطم عددا كبيرا من الاقفاص ، وقتل بعض اللقالق بضربات من الحجارة ، ومزق رسائل الحب التي تعود كتابتها مسبقا ، وسكر اكبر سكرة في حياته كلها . وعندما وجد نفسه في الصحراء ، فتر غضبه بفتور الريح الرملية ، وجاء دور المرارة والتعثر . احس كأنه واقع في فخ ، لان جده لم يجد الشجاعة في نفسه ليقول له بأنه اضاع حتى الحرفين الاولين من اسمه وورث مقابل ذلك كنية لا يعلم من اين جاءت . كنية عملاق طوله متر وتسعون سنتمترا ، وسجين سابق وقاتل نساء يشوي عشيقاته بنار هواه القاتل . لم يكن هناك ما يؤهله لتحمل مثل ذلك السر في الوقت الذي كانت فيه خوارق والدته وتهويمات صديقه الشيوعي ، وفيضان الطمث لدى اخواته ، وصخب اللقالق ، وغنج طيور الكتوة وحيل الكاميشي ، وصراع الاكباش ومسابقات الطيور ، واوجاع الرأس التي تعاني منها طيور الببغاء العربية ، تفرغه من كل قواه وتزرع الاضطراب في ذهنه حقا . كل شيء يفرق في عالم منقلب حيث كان دور جده بصدد التحول الى امر غريب تمام الغرابة . لم يكن ليغتفر له تمنعه عن توضيح اللغز الكامن وراء تلك الكنية المضحكة لا سيما وأنه ورثها عن وحش بشري يبيت صوته الجهم الرعب في الغزلان على بعد المئات من الفراسخ حوله . ولم يكن

طول جده يتجاوز مترا وخمسين سنتمترا ، ولا وزنه يتعدى الخمسين كيلو غراما . وكان له صوت غرير كأنها هو صوت طفلة تتغذى بالعسل والليمون . وأدرك حينذاك انه لم يبق أمامه الا ملجأ واحد وهو ان يسيء التصرف مع تناقضاته ، ويحرق التاريخ ويفتح شقوقا في الكلمات ويحدث ثقبوا في حنينه بدلا من ان يتشرب بذلك القلق الذي لم تكن أرض الصحراء المتيسية المحترقة الا لتزيد من حدته . حتى اعذب الذكريات لم تعد تخفف حزنه عندما تحوم الطيور المجنونة وتعبق الدار القديمة بروائح الحبق حتى ليخيل للمرء بأن الجدران معطرة هي الاخرى . وانطلق بغضبه الجارف يطارد شبح جده الذي خدعه بدون شك . ثم جاء ذلك اليوم الذي ظهر فيه هذا الجد ! او صورته المطابقة له تماما ! كان يرتدي سترة مهترئة ، وبدت قامته وكأنها لدمية . وجعلت عيناه تتبعانه وتقلقانه . قال له : « ما أتعسني بعلمك لما حدث » . الا أن عديم اللقب ظل مصدوما ، زائغ النظرة ، شاحب الوجه ، يحمل ألمه كأنه قميص شدت ياقته باحكام حول جوزة حلقه البارزة . « سوف انتظرك في فناء الدار . فالرياح شديدة في هذا المكان ، ثم ان الحرارة خانقة . لست أرغب في رؤية مسعودة وهي تقع مغشيا عليها ... انها امرأة طيبة . انا على علم بقضية قثائها ، ولكن لا تكن مأخوذا بهذه الكنية الغبية . لديك كل التوضيحات في المخطوطات التي لا تتوقف عن مراجعتها » . وبعد هذه المقابلة التي افترضها او رآها في المنام ، انتظر وقتا طويلا في الصحراء ان تأتي والدته لتعود به ، لكنها رفضت هذه المرة الخضوع لاهوائه ، وصفتت بحمالة صدريتها ، واكدت لابنائها الآخرين انه يوجد في المكان الذي يناسبه . واضافت بأن غيابه يمنح الراحة للنساء اللاتي اتخذن عادات سيئة معه ، ويقضي على عدد من الطيور التي تقر بقثائها ودلاعها وتبينها ، ويخفف نوعا ما تلك الاسطورة التي تحاك حول ظله ، ويجعل اهل المنامة على علم بأن ابنها البكر ليس الا فتى خامل الذكر يمكن الاستغناء عنه بكل يسر . والحقيقة ، انها ظلت تتعذب في صمت ، وتشعر بقساوة ذلك النقص في الارباح نتيجة لتخاؤل ابنها . لكنها ظلت أحوج ما تكون الى نبرة الغرابة التي يلقي بها حيثما مر . و في سبيل أن تنسى حزنها ، راحت تكرر وقتها كله لفلاحتها التي جعلت تسقيها ليلا بطمث بناتها بعد أن تجمعها في قصرية فضية . وقد حفظت ذلك الدم في غرفة أعدت خصيصا لهذا الغرض ، وضبطت حرارتها بـ ٣٧ درجة حسب معايير علمية . وتم ذلك كله على الرغم من الاسمدة العجيبة التي تستخدمها لأخصاب

بستانها والتي كان الحاكم يبعث بها اليها سرا وبكميات وافرة . وخلال الفترة التي هجر فيها محمد عديم اللقب الدار والبلدة حاولت بعث الحماس في توائمها السبعة عشر ، لكن هؤلاء قصروا مجونهم على العاب تافهة وعلى دعايات خفيفة . وتنادوا على الخصوص تبادل اسمائهم وثيابهم وأعضائهم الجنسية خشية الا يقووا على فك العقد المتشابكة عن شخصياتهم المتبادلة خلال غياب أخيهم البكر المنزل . أما عديم اللقب الذي كان ضحية تمعشه ، فقد شعر بخيانة ابن ماجد أكثر مما شعر بخيانة جده . وكان لومه ينصب بوجه أخص على ابن خلدون لأنه لم يغتفر له أنانيته وجود عواطفه : فهو لم يخصص في سيرته الذاتية الا خمسة أسطر للحديث عن غرق أسرته كلها خلال رحلة لها من تونس الى الاسكندرية حيث جاءت لتلحق به . لقد سئم ذلك النوع من العائلات التي لم تنقد في شيء سوى كتم بعض الاسرار وعدم التأثير على الاطلاق بموت الآخرين . وكان محمد عديم اللقب يقول لنفسه : « لقد كان من الأحسن له أن يقيم الحداد ، بدلا من أن يحاول شرح آليات الشقاء الكوني » . وعندما علم ابن خلدون بالكارثة التي وقعت في شهر ما من سنة ١٣٩٨ ، انشغل على الخصوص بمنصب قاضي القضاة في القاهرة . وهو المنصب الذي ظل يكدره طوال سنوات . على انه في سنة ١٣٩٩ ، حصل على ما رغب فيه أشد الرغبة . وخمسة أسطر فقط كانت كافية للحديث عن غرق أسرة بأكملها في البحر .

يوم يدفع بآخر ، وتنتفش الذاكرة ، مثل قطعة لحم معرّوق مغلي بالكمون . وقد ترك محمد عديم اللقب نفسه لشمس الظهيرة ولتجليات الفضاءات الواسعة ، فأحس برأسه يصطخب وبأعصابه تتراخي مثل قطعة الخبز التي يغطسها جده الخائن في قهوة الصباح . وكان يعود بين الوقت والآخر الى كيمياء المخطوطات المنحولة والى ذلك الصفاء الضروري الذي يرغمه على التخلص من خوارقه المركبة من أي شيء نتيجة لسذاجة أهل المنامة . فكان أن خضع ظله لقانون الفيزياء الشمسية . وحومت حوله فراشات الاصيل في دوامة جنونية عاصفة . وسيطر عليه الرعب ووجد نفسه أعزل في ذلك الامتداد الصحراوي الهائل ، وأدرك حينذاك خطورة الالعاب التي يستبدل خلالها هويات اشقائه وشقيقاته . لم يكن بذلك ينوي الثأر من لعنة العزلة التي حلت به فحسب بل حاول أيضا أن يبحث عن ذاته داخل سراديب الدم المتشابكة

فيما بينها حتى يبلغ ذروة السلالة الخارقة التي لم تكن تقوى على الاستغناء عن علمه ولا عن حنينه . لقد عرف جيدا أنه اذا لم يعد الى الدار على وجه السرعة فلن يأتي أحد للبحث عنه ، وحينذاك سوف تقع أسرته كلها في احابيل الفسق الذي سيخلط فيما بينها ويفرغها من جوهرها كله . وانطلق في الجري وهو يفكر بأنه ينبغي عليه في الوقت المناسب أن تقدم والدته على الانتقام لغيابه ، فتمعد الى مشروعا الرهيب بترك جزوتها فيفيض عن اثوابها الداخلية وتنزلق عبر الدار وتغزو الطرقات مثل اشواك مضرة زرقاء اللون .

وعاد الى الدار مطرق الرأس ، وقد ضاقت نفسه أشد الضيق حين أدرك بأن أحدا لم يشعر بالحاجة اليه . ودخل حانوت الاسكافي الذي ناوله قهوة كانما تركه الليلة الماضية . ويا لهوله حين علم أن اللقائ قد تضاعفت وأن التذبيح الاخير لم يزلها الا صخباً على صخب . كانت تصلصل ببنائيرها الكبيرة فوق سقوف البلدة المصقولة كانما لتستثيره او لتحتفي بذكرى مرور الف سنة وسنة على قدومها الى المنامة في حقائب ذلك التاجر . وكان هذا الاخير يحسب نفسه أشد حيلة من أصحاب قوافل الملح وظنهم من السذاجة بحيث يقدمون على شراء ساعات رملية تشتغل بواسطة عرق الجباه . حتى الطيور الهشة التي اهداها الامازيون الى البلدة لم يبد عليها انها تأثرت من أي نقص في الاعتناء بها . اما عائلته فقد أغرمت بآخر وليد لها ، أي بابنة مليكة بناصر ، وراحت تقضي كامل وقتها في دغدغتها لاثارتها وجعلها تؤذن عن الصخب الخاص لدم خصب هفيف . بل ان مسعودة عديمة اللقب لم تكلف نفسها عناء استقباله . وقد وجدها منهمكة في صناعة الفزاعات لوقاية فلاحتها وبناتها الثمانية اللاتي لم تكن تريد تزويجهن بعد لأن جمالهن قد يجر الحسد عليهن . قالت له : « ها انت ذا قد عدت . انك لم تضيع الا جني التين فقط . لا تقلق ، فلقد تركت لك نصيبك في غرفة الطمث » . حتى صهره ماسح الاراضي لم يبد سرورا بالغاً بلقائه : « لا جديد منذ غيابك سوى انني لم أعد أقوى على الشرب بسبب قرحة أصبت بها . بالاضافة الى وصول اجهزة دقيقة لمسح الاراضي ، سوف نتمكن بفضلها من الكشف في بحر أيام قلائل عن المكان المحدد الذي وجد فيه بيت ابن خلدون . . . » ولم يجرؤ محمد عديم اللقب على القول بأن ولعه بابن خلدون قد زايله مثل حمى عولجت أحسن علاج . ولم يحدثه اطلاقاً عن اثنائية معلمه الذي عاش فناء أسرته وكأنه مجرد حادثة وقعت لشخص آخر .

أدرك محمد منذ اليوم عدم جدواه ، وفكر حقا وصدقا في الانتحار .
يأن يعلق نفسه على الشجرة التي شهدت احتضار مؤسس البلدة . وفي
انتظار تنفيذ مشروعه هذا ، اهتم لأول مرة في حياته بصراع الأكباش ،
وراح يقامر بمبالغ كبيرة على الرغم من توبيخات أمه . تنكر له الحظ في
البداية ، لكنه سرعان ما أدرك أن أكباش استراليا كانت مصدر نحس
بالنسبة له . ومن ثم راودته فكرة تتمثل في تهجينها مع معاز المنطقة .
وحصل في ظرف أسابيع قليلة على فصيلة خارقة ذات قرون هي اقرب
الى الدرياني منها الى الأكباش . ويفضل هذا التهجين ، حققت حيواناته
انتصارات ساحقة على خصومها ، ومكنته من اثراء عائلته اثراء هائلا
تبنته مسعودة في غمرة من السعادة المفرطة . كان يحل على الاكتاف
ثلاث مرات في الاسبوع من قبل المتراهنين . ولكن تعين عليه أن يعاني
من حقد أعدائه الذين اتهموه بأنه حصل على هذه النتيجة بسفد شقيقاته
من طرف تلك الأكباش المستوردة من استراليا وبأنه متواطىء مع الحاكم .
كانت تهمة باطلة لم تجمع حولها الا القليل من الانصار . على أنها زرعت
الشك في نفوس أشد المتحمسين له . بل ان مسعودة نفسها التي كانت
دائما مستعدة للتشكيك في مرامي وأعمال ابنها ، لم تصمد أمام تلك الدعاية
المفرضة . ومن ثم أرادت أن تطمئن نفسها ، فتفقدت فروج بناتها الثمانية
لكي تتأكد من انهن عذارى ، مستعملة حنكتها ولباقتها . هذه التجارة
المربحة في مجال المراهنات ، وتربية الأكباش العجيبة ، وفلاحة القثاء
والبقول المفداة بأسمدة كاليفورنيا وبدماء العذارى ، هذا الثراء المفاجيء
كله مكن مسعودة من توسيع دارها ، ومد الحيطان ، وتمتين الاثاث ،
واقامة جهاز تكييف ملائم في غرفة الطمث ، والانطلاق في فلاحة الحجر
المكيفة . بل انها فكرت في حفر حوض : فاذا ما حدث ونزل المطر لأول
مرة منذ عشر سنوات ، فانه سوف يكون في ميسورها ان تستجمعه
وتلقي فيه ببعض القناطير من الملح وتشرع بعدها في تربية الاسماك
البحرية . ولهذا السبب كانت تحتفظ في وعاء من بلور شيرازي بعشر
سرديناات تسترق حياة هنيئة وتحظى بكل عناية ، اذ كانت مسعودة
بالمرصاد لأدنى صدادع ، أو بخار أو نزوة حب يمكن أن تعاني منها سمكاتها
الحبيبة . وأمام تزايد شرور عائلة عديم القلب ، حاول بندر شاه مرة
ثانية القيام بمسمى بالغ الحذر لدى ربة الدار ذات الحملات الاسطورية
التي ترهب الطيور على بعد كيلومترات فيما حولها . وأعاد الى ذهنها
رغبته في مصاهرة أسترها بزواج بين ابنها البكر وبسبن ابنته الثانية

والاخيرة . ورغبة منها في مماطلته تقدمت مسعودة باقتراح معارض .
فقد قبلت تزويج محمد عديم اللقب لكن بابنته « ليلى » التي تدرس الرقص
في معهد سيدنى الملكي . واثارت ثورته امام حيلة عدوته اللدود ، فلم
يفكر حتى في الرد عليها لشدة ما انجرف مع رغبته في تزويج ابنته بأمر
اصل .

سنة تأتي بأخرى ، وانتهى الامر بمحمد عديم اللقب الى أن يطرد
حزنه الكبير الذي تسبب فيه الكشف عن الكنية المزرية التي الصقت
بجده . ونبت حشيش الزمن فوق هذا الحزن الطافي ، ثم ان محمد نسي
حتى الحقد على نفسه بفضل النجاح التجاري الذي حققه . وما أسرع
ما سئم تراكم رأس المال والتبذير الفاحش المتولد عن جنون الاستهلاك
الذي سيطر على عائلته ، فرجع الى مخطوطاته ، والى مطالعة ابن
خلدون والجاحظ . وذهبت به طبيته الى حد القاء اشعار ابن ماجد عن
المآثر البحرية التي حققها ذلك المستكشف البرتغالي حينما وصل ، الى
كلكتا يوم ٢٨ مارس ١٤٩٨ . واستأنف ابحاثه لكي يحدد موقع البيت
الذي ضم ابن خلدون سنة ١٣٧٥ ، وتحرى في الظروف الدقيقة لموت
الجاحظ سنة ٢٥٢ هجرية ، هذا العلامة الذي سحقه مخطوط هائل ،
الا اذا كان قد اغتيل من قبل أعدائه السياسيين الذين ظلوا يلومونه على
انتماه الى حركة سرية . ومقابل المال الذي مكن والدته من ربحه ، حصل
محمد زيادة على بركاتها ، الحق في تعاطي أعماله العلمية على هواه
وكذلك تربية كل طيور البرازيل التي يريد لها في غرفته . وثاب الى رشده ،
فجعل ينادي في سرية كاملة بصراع الطبقات ، ويختلف الى صديقه
الشيوعي العجوز ، ويسكر بانتظام ، لا لشيء الا لكي يحصل حين يقطعه
على رؤيا جده وهو متربع في الفناء على الارض ، ومنشغل بفك رموز
المخطوطات المكتوبة بالآرامية أو بالعبرية أو بالبربرية أو بمصرية أوراق
البردي أو بعربية الفقهاء ، هذا ان لم يبصر به وهو يفك رموز خرائط
السكك الحديدية ودليل الطرق البحرية .

وقد حدث خلال تلك الاصابيح الرائعة التي اتصل فيها مباشرة
بمحمد بونفوس أن تذكر ذلك اليوم المشهود الذي اصطحبه معه نسي
قطاره الى مكان بعيد جدا . لقد اكتشف حينذاك ولأول مرة في حياته بأن
الطلع الذي تحدث عنه الناس والذي قرأ عنه فيما بعد في بعض المصنفات

الخيماوية ، موجود حقا وصدقا . وبعد حوالي عشرين سنة من ذلك التاريخ ، سقط الثلج لأول مرة على المنامة فغطى مزروعات مسعودة ونشر بياضه على الفزاعات التي كانت قد طلعت وجوهها بدهان أسود لكسي تجعلها أبعث على الرهبة . والحقيقة أن مسعودة التي نشأت في عائلة من البورجوازية الساحلية كانت تخدمها في سنواتها الغريبة ، زنجيات يغسلن مؤخرتها بماء الورد ، ويعطرن دورات المياه بالصمغ والعنبر عندما تقضي حاجتها . وقد كان محمد عديم اللقب مأخوذا بهذه الظاهرة الطقسية العجيبة ، فسارع الى التقاط بضع كيلوغرامات من الثلج الناصع خفية . ووضعها في كيس من البلاستيك وأغلق عليها في المبرد الذي صنعه اخوه « محمود » من قطع مختلفة . وقد كان هذا قادرا على بناء صواريخ بأجنحة الفراشات . أما مسعودة التي ترسب في نفسها من تربيتها السابقة احتقار مربع للجنس الأسود ، وولع بماء الورد وماء الزهر ، وشح اسطوري يمس حتى أبناءها ، فلم تستطع أن تمنع الثلج من اتسلاف فزاعاتها . وكان من بين هذه الفزاعات واحدة تمثل السلطان محمود الثاني الذي اشتهر بأنه ارتكب مذابح جزيرة « خيو » سنة ١٨٢٢ ، والذي ظل معلقا مدة طويلة فوق سرير والديها . . . أما عديم اللقب فجعل يقوم كل صباح ، ويذهب الى المبرد ليسحب الكيس المليء بالثلج ويلعب به بضع دقائق فقط خشية أن يذوب ويسارع الى اعادته الى مكانه حيث لا يتعرض للتبخر . وقد خيل اليه بذلك أنه يبقى على الاتصال الجسدي الملموس بجده المصابحي لا سيما وأنه علم في ذلك اليوم الذي تنساقط فيه الثلج لأول مرة في المنامة أن جده هذا حينما مات ، عثر عليه مدفونا تحت الثلج على بعد مائتي كيلومتر من البلدة ، وقد ضم اليه مصباحه وقصاصة من ورق في إحدى يديه ، كتب عليها أحدهم بطلب منه ولا شك : « اسمي عديم اللقب محمد » . وهذا الخبر الذي أورده مسعودة في لحظة من لحظات ضعفها بسبب الحدث الخارق الذي لم تسلم منه هي الأخرى ، كان له مفعول البلسم على ولدها . وقد صاح قائلا : « ليس هناك شك . فالثلج لا يوجد حقا وصدقا فحسب ، بل كان لدي جد يتمتع بخصيتين فولاذيتين » .

كانت اعصاب محمد عديم اللقب تتوتر كلما لحقت به كلثوم صفري بنتي الحاكم في مكان ما . وهي لم تستطع ابدا أن تدخل غرفته بسبب العداوة المستحكمة بين العائلتين . وكانت مسعودة تغض الطرف عن كل من يريد أن يزور ابنها سواء كان ذكرا أم انثى . ولكنها كانت ذات حقد مستجد ، دائمة اليقظة فمنعت أي فرد من عائلة صاحب محطة البنزين من أن يطا دارها وخاصة بأن يدخل غرفة ابنها البكر . وهكذا ، راح محمد وكلثوم يلتقيان في أغرب الاماكن ، مثل خزانات المحطة كلما أفرغها المشترون الاجانب من محتواها ، أو حانوت الاسكافي الذي يقبل بهذه العلاقة وينتهاز الفرصة لكي يسلم للفتاة كتباً تحريضية تقرأها أمامه بصوت جهر ، أو داخل يقطين مسعودة قبل بلوغه النضج الكامل . . . وذات يوم غافلت كلثوم مسعودة التي كانت منشغلة بنسج كفن الحاكم بجزوتها ، فدخلت غرفة محمد . وقد كان هذا منشغلا بتلقين درس في الغناء البلدي لطيبوره البرازيلية وقالت له : « جئت لأنام معك ، حقا ، هذه المرة ، وعلى سرير حقيقي » . واعتذر محمد لطيبوره عن ضرورة التوقف عن درسه ، ووضع حجابا محتشما على الاقفاص كلها حتى لا يصدم أحاسيس حيواناته . ودون أن يقول شيئا ، اقترب من كلثوم ، وخلع ثيابها ببطء ، وتخلص من سرواله الصوفي الاسود الذي يلتصق بفخذه ومن نعليه الابيضين ، واستلقى جنبا لجنب مع صفري بنتي الحاكم بندرشاه . وخاضا معا في صمت كامل ، ولاول مرة — على الرغم من الاقاول التي نسجت حولهما — عباب الامواج الرائع . ولم يخلفا وراءهما ذلك العدد الهائل من الاحكام المسبقة ، والكتل من المحرمات فحسب ، بل خلفا ايضا مهاري العذاب السحيقة . وغرق كل منهما في الآخر عبر رياح الرمال

وعواصف الثلج ، وعبر المستنقعات حيث يجرف الدم والبذار طينة الرغبة .
وعندما عادت كلثوم الى نفسها ، ادركت انها اخذت ثارها من والدها الذي
ظل دائما بعيد المنزل . فلقد اشتط في غروره الى حد انه ارسل شقيقتها
لتعلم الرقص الكلاسيكي وتركها هي تتعلم الطرز . وبكى محمد عديم
اللقب من التجلي ، فداعبته وجعلته يسلو ، وضمته الى نهديها وهدهدته
حتى غرق في نوم عميق . وعندما افاق ، أدرك انه غرز لأول مرة في حياته
شوكة في قلبه ، ذلك لأن جمال كلثوم وارادتها سيطرا عليه . وفتح
عينيه ورأى انها مستلقية الى جانبه ، وشاهد بين ساقيه المنفرجتين
عددا من الطيور الصغيرة تنقر الدم المتجمد الذي يلطخ اعالي فخذيها .
فقالت : « ما اشد نعومتها ! » لكن الغيرة أدركته ، فتناول الطيور الصغيرة
ودكها في اقصاها ، ثم هجم على كلثوم التي فهمت في تلك اللحظة ما
يعنيه الموت . استقبلت كلثوم ذكورة ذلك الذي احبته بجنون ، مثل ضربة
قاصمة شقتها نصفين ، رنت في احشائها حتى انها اهتزت تحت امواج
الرغبة وصاحت « ابتاه ! » . ولكنها لم تكن الا صرخة محررة ، لأنها
احسست بشيء ينفش في بطنها ، وخيل اليها أن شفتي فرجها تتباعدان حتى
تلامسا جدران الغرفة الغارقة في صخب الطيور الثائرة ، لأنها لم تستطع
ان تشهد ذلك التشابك الرائع بسبب ستار الحياء الذي حال بينها وبين
الرؤية .

وفي الوقت المحدد الذي فقدت فيه كلثوم زرها الوردي المزهر ذا
البتلات المتعددة ، كانت مسعودة عديمة اللقب منهمكة في نسيجها ،
فتنهدت وقالت لصغرى توائمها : « لقد حدث شيء مؤلم في مكان ما من
العالم الفسيح » . وكانت أبعد ما تكون عن التفكير في أن ذلك الحدث
قد وقع في العرين حيث يربي ابنها اجمل طيور الكون . على أن بنتها لم
تفهم معنى كلامها فاضافت بعد صمت طويل وهي تواصل نسج جزوتها :
« لا تنسي يا سميكة ! الرجال يرون ان المرأة مجرد ثقب ، هو بمثابة
ملجأ لهم عندما يصابون بالدوار ! » . ثم صفقت مغازلها وأسرعت الى
غرفة محمد حيث اطلعت على هول الخطب . لم تقل كلمة ، بل دخلت
بستانها وقضت باسناتها كل المزروعات قضمًا فظيما .

لم يتبادل محمد ووالدته الكلام مدة تفوق السنة . انتظر كل منهما
ان يقوم الآخر بالبادرة ولكن احدا منهما لم يرفع اصبعه . وقد ذهبت

مسعودة في اليوم التالي لذلك الهول المروع الى الحمام صحبة بناتها الثمانية ، وفتفت شعر عانتها ، واشهدت على نفسها كل النسوة الحاضرات في المكان عينه قائلة : « انها طريقة اخرى في حمل الحداد . لقد فقدت اذكى ابنائي ، وارقتهم احساسا ... لو كنت اعلم انه قد يؤول الى هذه الحال ، لكنت تحايلت على الا يولد منفردا ، وعلى الا يكون له ذلك اللون في عينيه الذي يسلب عقول النساء ... ينبغي على الحاكم ان يعثر على شيء آخر . ولينقل له صنائعه الخبر . لقد عادت الحرب ، لان ابنته الزانية جرت العار على ابني ! » . ولم تأخذ واحدة منهم مأخذ الجد هذه الشتيمة العنيفة البهلوانية التي تلفظت بها مسعودة عديمة القلب . وانتهى بها الامر هي بالذات الى ان تنسى شقاءها ، وعادت بكل صبر وتان الى فلاحة بستانها مجلجلة بحالات صدريتها الهائلة لكسي تبعد الطيور : فمئذ ان تساقط الثلج ، لم يعد لفزاعاتها السود التي ابيضت وتقاطر طلاؤها الاسود اي تأثير على الحمام والعصافير وغيرها من الطيور الناقرة . واستمر محمد عديم القلب في استقبال عشيقته الصغيرة داخل مطيرته ، ولكن دون ان يكف عن التفكير في كيفية التصالح مع والدته من غير ان يفقد ماء وجهه او يطلب السماح منها لا سيما وأنه كان يعيش في سعادة خارقة مع كلثوم . لقد صارت هذه امرأة صارمة في مجال الحب . كانت تتضايق كلما حدث فتور من جانب عشيقها حتى وان كانا قد مارسا الحب خمس عشرة مرة في اليوم الواحد . اما والدها الذي لم يكن على علم بأي شيء ، فكان يظنها منهكة في تعلم تطريز الحرير مع فتيات مسعودة عديمة القلب ! وطال الصراع الصامت بين الوالدة والابن الى يوم ان دخل محمد المخبرة الوحيدة بالبلدة وطلب مائة غرام من الخميرة . وحين انشغل الخباز بوزن الخميرة في الداخل ، وضع ابهامه الايسر تحت قاطع الخبز ، وبحركة وخيدة قطعه بضربة خاطفة . فقد وعيه . فنقل الى والدته وهو يقطر دما . ولم تنطل الحيلة على مسعودة . بل ادركت بادرة ابنها ، وجعلت تعالجه ، وهي تفرغ نفسها من كل دموعها في انتظار ان يعود اليه رشده . وعندما أفناق ، تصنع بأنه يجهل سبب مداعباتها ، وسال اخوته وشقيقاته المجتمعين حول سريره : « ما الذي صنعتوه بابهامي ؟ » . ولم يجروا احد على ان يقول بأن والدته اهدته الى كلثوم لكي تحملها مسؤولية ما حدث . ولم يعثر عليه ابدا لان الفضيحة تعاضمت حتى ان بندرشاه سارع الى ارسال ابنته للالتحاق بشقيقتها الكبرى بسيدني لكي تتعلم الانجليزية . وقبلت كلثوم القرار ، وحملت معها ابهام

محمد عديم اللقب داخل بوقال مليء بمحلول الفورمول . ولم تقل وهي تجتاز الاسوار صحبة والدها سوى الكلمات التالية : « الآن وقد عاد الى امه ، ليس لدي اي هم انشغل به . سوف يكون هذا البوقال الدليل القاطع على الجبن المتأصل في الرجال » .

وبمجرد ان تخلص الحاكم من صغرى بنتيه ، اراد ان يستعيد سلطته بعد ان هزته الفضيحة هذا عنيفا ، وان يروق في انظار رجال الدين ويحمل عائلة عديم اللقب مسؤولية ما حدث . وقد كان معظم افراد هذه العائلة يحبون الشرب كطريقة منهم لفهم الواقع المتشابك ولمعرفة نوعية العلاقة فيما بينهم . وصدر القرار القانوني ظهيرة يوم جمعة ، خلال صلاة الاسقاء التي اداها اهل المنامة للحصول على طوفان من المطر . فكان ان منع الحاكم بيع وشراء وشرب المشروبات الكحولية في بلدة المنامة كلها . وصفق رجال الدين بينما عمد الآخرون الى توظيف مادتهم الشحمة ايمًا توظيف . ولم تدرك مسعودة حينذاك بأن ذلك القانون وضع خصيصا للاضرار بها ، فاعلنت لابنائها الثائرين على ذلك القرار الجديد : « ها هو يصير ذكيا في طرفة عين ! » . واقترحت عليهم ان يساعدها في فلاحه البستان ، بعد ان فقدوا الحرية في العريضة ليلا خارج الدار ، والنوم خلال النهار لتعويض ما فقدوه من نعاس . وقبلوا الاقتراح وهم يفكرون بأنهم قد يغرسون الكروم بدل القثاء والبصل والبقول الأخرى ويعصرون الخمر بأيديهم . أما عن المشروبات الكحولية ، فكانوا يعرفون أنه في مقدورهم استخدام فواكه شجرة التين التي نيفت على المائة سنة وصنع مشروب قاسح منها . وما أسرع ما علموا أن والدتهم لم تكن تريد أن تنتهك قانون بندرشاه الذي بدا لها لأول مرة ، قانونا في محله . وكان محمد أكثر الأبناء خيبة ازاء تصلب والدته . كان يومها منهمكا في التخفيف عن قلبه وفي معالجة ابهامه ، فترك لذلك أعماله العلمية ، ودروسه الموسيقية للطيور المحلية ، وعشقه للنساء وعادته في أن يكون ظله أمامه دائما — أيا كانت الساعة وأيا كان الموسم — وهي عادات استأنفها عندما عاد من المنفى الذي فرضه على نفسه بعد أن علم بأن جده قد فقد حتى الحرفين الأولين للملعونين من اسمه . أما الشقيقات التوائم اللاتي لم يكن يشربن الخمر بل يدخن خفية ، فقد ذهب بهن الامر الى حد الشك بأنها متواطئة مع الحاكم : فبالإضافة الى الأسمدة الكاليفورنية ، تعين عليه أن يعطيها حصة من أرباحه غير المشروعة التي يحققها بفضل تهريب

المحروقات . واعتقد الناس كلهم ان الحرب قد انتهت على الرغم من خطاب مسعودة الاخير الذي ألقته في الحمام غداة اليوم الذي فاجأت فيه ابنها وهو ينوس عشب كلثوم الطري ، ابنة عدوها اللدود . وقد عبرت فضاء النامة اشاعات متناقضة ، حتى ان اشد الناس تفاؤلا ظنوا ان خضوع مسعودة ، بل موافقتها الضمنية ، لم تكن الا حيلة من حيل الحرب التي لن يطول بهم الامر لاثباتها . وخلال ذلك تيبست الحناجر وسيطر الوجوم على تلك البلدة التي لم تكن بهيجة على الاطلاق . وفقد محمد عديم اللقب خيط الاتصال بجده بعد ان تعود رؤيته في فناء الدار كلما أفاق من سكرة رهيبة . وقيل بان مسعودة جعلت تعد العدة للحظة مرعبة ، وانها عادت الى نسج جزوتها الاسطورية . كانت تضع عرقها البارد داخل قارورة ، وتستجمع مستخلصا انفجاريا من اختراعها . وكانت تبحث عن صيغة للاكسير الذي يجلو الامور ... وقيل ايضا بانها شعرت بصعود فجائي لدفعة من الحليب المسموم ، فجمدته وصنعت منه لبنا رائبا واستعدت لكي تناوله لبندر شاه المخادع الذي دام حكمه الاستبدادي زمنا طويلا . وقد اشيعت اشياء أخرى عديدة كانت تعني بكل بساطة بأن مسعودة قد عقدت العزم على تخليص البلدة من برّاح الماخور السابق . بل انها كانت تفكر في تسميمه بخليط من بول العذارى ، بالاضافة الى بثور الجذام ومياه النفاس والحليب المسموم . اما محمد عديم اللقب الذي كان يغار نوعا ما من الاسطورة التي تحاك حول امه فقد قال : « انها خرافات السكارى وقد تيبست حلوتهم ! » . وعلى الرغم من المصالحة التي دفع ثمنها غاليا بفقدان عشيقته ذات الفرج الطفولي اللين وبضياع سبابته اليسرى ، فانه أدرك بان والدته لم تغفر له تهايا خيائنه للعشيرة . لقد صارت الحليف الموضوعي لعدوها السابق ، في حين ان الراي العام ظل يعتقد ان بندر شاه قد بدا يفتنخ ببطء شديد ، بينما راحت بشرته تنفجر بفقاعات شاحبة ، تتفرقع مثل حبات ملح كبيرة في النار وترصع جلده بلالسيء براقاة من الالم . وفي الحقيقة كانت مسعودة تصمد في وجه ابنها وتشكر الله على خلاصها من كلثوم السليطة . فقد كانت هذه تلتهب شبقا وقادرة على خطف ابنها المحبب اليها على الرغم من ان العلاقات الجارفة التي اقامتها معه لم تعكس في واقع الامر حنانها الذي لا يحد . وخلال هذه الفترة ، كانت وضعية مدمني الخمر تزداد تدهورا بينما شمل الجمود كل شيء بما في ذلك اللعاليق التي اخلدت الى الهدوء منذ تلك الجمعة الشهيرة التي صدر

فيها القانون المناهض للكحول . بل ان الطيور المحلية منها والقادمة من الخارج افتقرت الى عطف السكارى لمواصلة غنائها وزقزقتها وتهويماتها المنحصة .

اما الذين كانوا يختلفون الى الدور المختصة والحانات فقد حاروا ماذا يفعلون . أصابتهم الفشاوة يوما ، واستبد بهم الهنيان يوما آخر . وأحس الجميع بالضلال بسبب ذلك الجفاف الإضافي ، لكان الجفاف الذي فرضه الله لم يكن كافيا . وبدأوا يضجون بالشكوى من وقوعهم في الفخ الذي نصبه الشريك مسعودة ويندرشاه حتى أن فجوات النسوة التي كان الرجال يلتجئون إليها فيها مضى قد صارت مختبة ومغلقة . ولم يكن أحد ليقوى على رد هذه المصائب الى ماهياتها الحقيقية . حتى النسوة شعرن بأن أزواجهن قد تخلى عنهن وكذلك عشاقهن الذين غرقوا في هذا التحريم الجائر سواء أكانوا من مدمني المشروبات أم لا . كان أهل النامة يعلمون تمام العلم أن الحاكم يبتلع بانتظام ليترا من الويسكي كل ليلة . وبعد بضعة أسابيع صارت الطرقات مغبرة أكثر مما مضى . وبدأت ريح ضعيفة متهاكة تهب على النامة وتذبل الحبق في الأصص ، وتقتشر جدران الماخور الوحيد حيث كان الرجال فيها مضى يختتمون أحلام الليلة السابقة في جو من الفخفة والأبهة . أما ربة الماخور وهي زنجية مستوردة من زنجبار ، فكانت تشكو من الجمود وتصرخ في بعض الايام : « لكان الرجال يصنعون النبي من البيرة ! » . في حين تهتاج النسوة ، وما أسرع ما تصبح فروجهن بلا فائدة فتنقلص مثل حبات جوز قديمة تنوسيت على جذوع الاشجار . لم يكن شيء يسير على ما يرام ، وكل الآمال التي علقها السكارى على هجوم مضاد محتمل من قبل مسعودة جعلت تتضاءل على مر الايام . حتى كحول الاحتراق تناقص وقرر الحاكم وقف استيراده لأنه أدرك بأن البعض كانوا يخلطونه بعصير اللوز لارواء اكبادهم العطشى .

وفي هذه الفترة بالذات ، أبصر الناس بسيارة الاسعاف ، تلك التي تجيء كل صباح من خارج الاسوار لتنتقل المرضى المصابين أكثر من غيرهم نحو مراكز أخرى مجهزة بطريقة أحسن . وقد حدس الناس بسبب الاشاعات الرائجة بأن سيارة الاسعاف تلك لم تكن الا خبارة متنقلة تقوم بدورها الى ساعة متأخرة من الليل . أما زبناء الخفية ، المتكرون

في أشكال من يعانون من عاهات جسدية وأمراض وهمية وجروح خطيرة، فجعلوا يركبونها في مواقف ثابتة ومحددة مسبقا . كان الواحد منهم يستلقي على الحماله بينما يغرز احد المهريين في ساعده ابرة موصولة بقارورة مملوءة بمصل خاص جدا وشديد الكحول . وكان التقطير يحدث معجزات خارقة ، بينما كان المشلولون والمصابون بالسرطان وأمراض القلب ، وأمراض الكبد والسكر ، والمحروقون ، وضحايا الحوادث والمصدومون والمقروحوون والمسلولون الذين يعانون من القلق والجمود والسوداوية يعاودون الانطلاق وهم على أشد ما يكونون صحة وحيوية بعد أن برئوا في لحظات معدودات من قلقهم وعذابهم . وقد سمي هذا النوع من العملية الطبية « التحقين الالهي » . وضحكت المنامة في قرارة نفسها بما في ذلك الامام المستنير . وبفضل تلك الحيلة وذلك النظام الدوري الصارم الناجع استطاع كل واحد ان يشرب حصته من الخمر بواسطة حقنات تحت جلدية . ولكن بأي ثمن ! فقد كان صاحب سيارة الاسعاف الموهبة يطلب اثمانا غالية عن كل حقنة من البيرة وكل قطرة من ماء الحياة . ورجعت الأمور الى مجراها الطبيعي . وعادت اللقلق الى صخبها والطيور الى زقزقتها ، والبيغاوات العربية الى لفظها المتعدد اللغات والرجال الى جمععتهم وشجاعتهم . وكان لهذه الحيلة اتباع كثيرون وانتظم التهريب بطريقة ناجحة . وكانت زجاجات الخمر البلدي تباع بالمزاد داخل أقبية التهريب ، أما المشروبات الاجنبية القوية فتبلغ أسعارا خيالية بسوق المنامة الشهير ، حيث كانت تباع المشروبات المحرمة والمجلات الاباحية ، وابر الاجهاض ، والطواحين التي تسحق الحزن ، والجبن المثقوب ، والاثواب الداخلية الهنفاة ، والواقيات من الامراض الجنسية ، والاحجية الشهوانية ، والوصفات ضد أحزان القلب ، وسراويل « فورموزة » والاعضاء الذكورية المستعارة ، واكاسير تزيد في الطول ، والتلفزيون الملون ، والصصور الكاريكاتورية للحاكم ، والبسط الطائرة السمرقندية ، وأدوات التعقيم التي لا تخطيء ، ومكاوي تجاعيد الدهر ، والآلات التي تخطط مصائب الحياة ، والمواعين التي تخمر الزمن ، وأباريق تغلية السأم ، والطرائق الخاصة بحبك المؤامرات ، وقطع الفيار لسيارات الرويس ١٩ ، والاسلحة التي استعملت لقتل قياصرة روسيا ، والمقاصل الحادة لجهود الثاني ، وسيف سيدنا علي ، والمخطوطات المنحولة والمشكوك فيها ، ومجلات الموضة التي تجاوزها الزمن ، والآلات التي تنفص الحياة ، والإقراص التي تستبدل الاجناس...

وقد كانت ردود فعل محمد عديم اللقب كغيرها من ردود الناس الآخرين . ودفع الكثير لكي يشرب ثمالته وعاد الى تدبيج الكلمات الرقيقة حسب الطلب . بل انه طلب ان يستلم أجورا غالية تدفع له مسبقا . على ان مسعودة هي الوحيدة التي بقيت غريبة عن تلك الجعجعة التي تسبب فيها قرار بندرشاه . كانت لا تزال توافقه في قرارة نفسها ، وظلت صله ازاء كل الدعوات التي تستحثها على مساومته على نشاطه القديم المزري . وقد صمدت الى ذلك اليوم الذي دشنت فيه سيارة الاسعاف المشبوهة . وغضبت لانطلاء الحيلة عليها وللمقلب الذي قام به مبتدئون تافهون ، فدخلت الحلبة وبدأت تقطر في غرفة الطمث افضل نوع من كحول التين وأحسن مشروب من ثمرات الصبار . ومنذ ذلك الحين استبد ببلدة جنوب التهريب . فلم يبق شخص لم يهرب شيئا ليشتري آخر في السوق السوداء . ووقع محمد في فخ الربح من جديد ، وعمل على الاتصال بجده ثانية ، ذلك الذي اصطحبه لرؤية اول قاطرة في حياته ومكنه من التعرف على الثلج تعزفا حقيقيا ، فبادر الى سفد اكباش استراليا مع أي حيوان يقع بين يديه . وهكذا ربح أموالا طائلة مرة أخرى ، ووضع ابن خلدون جانبا في خلفية دكان الحنين ، بل انه راح يحاول التحرش به لانه حسب ظنه يكون قد خدع سلطان مصر سنة ١٤٠٠ : فلعله يكون قد اقام تحالفا مع « تيمورلنك » الذي كان يحاصر دمشق يومها ، والتي انتهت به الامر الى احراقها وسلبها تحت انظاره ويتواطؤ منه . بل لعله يكون قد سلم بجاية سنة ١٣٦٦ في وقت كان فيه مكلفا من قبل أمير قسنطينة بالدفاع عنها والصمود حتى الموت . وكان محمد يقول في ذات نفسه عندما يؤلمه ضميره المذنب كايلاص حصاة في حذائه : « لم الاهتمام بمثل هذا الخائن ! » على أنه لم ينس مع ذلك بان يظل يقظا ويحذر من ظله بالذات الذي لم يكن ليتركه يتقاعس وراءه . وواصل تجديد منيه بفضل ماء عينيه الخضراوين ، وجعل يعطي للطيور غذاءها ، ويعالج أصواتها المبحوحة واختناقاتها ، ويقطع ضحكات الاطفال ، ووقفات الدجاج وعجيج الرحي على مسافة قدرها مائة وست وستون مترا . وخلال هذه الفترة من الجنون الجماعي ، فقد محمد ثقة وصداقة « علاوة الاحمر » الاسكافي الذي رفض مثل ذلك الحل الوسط حتى وان كان حلا تكتيكيا مؤقتا .

وكان من نتائج هذا الثراء المفاجيء غير المشروع الذي حققته المنامة

اعادة فتح الماخور ، التي اضطرت صاحبتة الزنجبارية فيما قبل الى اغلاقه لنقص الزين في عز الجفاف الذي فرضه قانون بندرشاه . تجدد فيه كل شيء . وكانت صاحبتة الجديدة امرأة فتيّة بشوشة ومثقفة . نجىء بالاثاث من اسكندينايا ، واستورد الفونوغراف والاسطوانات من فيينا . أما البغايا الصغيرات اللاتي كن خجولات شبقات ، فيعود اصلهن الى المناطق الجبلية حيث التقاليد الوثنية لم تتأثر بدين الدولة الوطنية ، التي حاول البعض تنصيبها وسط صعوبات متعددة . وموجز القول هو أن الماخور صار قطب الرحى لبلدة النامة . وتدفقت الاموال ، وامتألت الخواصي بالخمور ، وبلغت اللذة مرتبة خارقة . وكانت بنات الهوى يطلن العلاقة حتى يرهق الزبون . ذلك هو المعيار الوحيد المعمول به في هذه الدار التي تنطوي على رفاهة محتشمة ونزيلات هائلات وتوفر نوعا من الاستقبال العائلي : « انها احسن من أي نزل عائلي أندلسي » . كذلك صرح الخباز الصبي الذي شهد محمد عديم القلب وهو يعتمد بتر اصبعه بقاطع الخبز اليومي . على أن هذا تجاهل الحدث وظل يلغو ضد ابن خلدون . وضاق ذرعا بالجميع . حتى الجاحظ العجوز الذي مات سنة ٢٥٢ هجرية القي هو الآخر في مزايل التاريخ . هذا عدا عن أحمد بن ماجد ذلك الربان الذي خوض في البحر المريض . على أن هناك عددا من العباقرة الذين نجوا من انتقاداته . فابن مسعود لم يكن يريد أن يصدر احكاما مسبقة على مواهب هؤلاء . وكان ينوي التثبيت أولا من كفاءاتهم قبل أن يتخذ مواقفه منهم . لكن لم يكن لديه الوقت ، لانه انشغل بترضية نسوة البلدة كلهن ، بعد أن تركن لوحدهن على اثر فتح الماخور ، وانهمكن في خيالاتهن المتجددة على الدوام . وهو لم يشرع في ابداء بعض الفضول ازاء هذا الفردوس الجسدي الا حين ذهب اخوته كلهم للقيام بدورة في الماخور . لقد كان محمود وحمود قاطعين في احكامهم حول هذا الموضوع : « ليست لديهن فروج بين سيقانهن بل أفران تبلغ المائة فولت . كادت تصعقنا شرارتها المكهربة ... »

وفي العشية نفسها ، عهد ابن مسعود الذي قدر له أن يولد منفردا الى شراء بعض اكياس الوقاية المدهونة من السوق السوداء ، وظهر على هتبة الماخور امام تصفيقات مساندية . كان على وشك أن يطلب منهم ألا يفشوا خبره لوالدته ، لكن لم يكن لديه الوقت ليعبر عن فكرته اذ سرعان ما وجد نفسه في غرفة كلها بذخ ، ذات قبة وناموسية ، عاريا ، مهزوزا ،

مسحوقا الى حد الموت . وبعد ثلاثة ايام وثلاث ليال من تخططات ممارسة الحب ، وضع ركبته على الارض وطلب الشفاعة كهلاكم يقذف بالمنشفة . لقد شعر بأنه فقد حدوده وحوافه وان عروقه ارتبطت بأعصابه كأن لحاما غير مرئي جمع بينهما وجعله يحس بهناء لم يعرفها ابدا . وانطرحت انفاسه على حديقته فازدادت شفافية الخضرة فيها . وسيطر عليه دوار جعل سيولته تزداد سرعة . وعندما غادر الفراش شعر بأنه يوشك على الطيران ، فتنشبت بعشيقته الرائعة التي لاحظت ان فوسفورية بشرته قد ازدادت ، كأن آفا من المصابيح أوقدت تحت جلده . ولم يدرك بأن المومس لم تتجاوز الخامسة عشرة الا حينما غادر الغرفة ، وانها تحمل وشما يفصلها الى اثنين ، ويقسمها بصورة قاطعة ، فينطلق من وسط جبهتها ويمر عبر الوادي السعيد لنهديها الضخمين اللذين تتصدرهما حلمتان بنفسجيتان ثم ينزل في خط مستقيم الى مدخل الفرج حيث يتوقف دفعة واحدة كبراق لدن على حافة جرف . ولم يطلب أي شرح ، ووعد بالعودة بمجرد أن يستعيد قواه ، وينظم حياته المصطخبة . شرحت له الفتاة بأن النسوة لا يبقين الا اسبوعا واحدا ، وانهن يستبدلن بنسوة اخريات حسب دورة متواصلة الى أن يرهقن العمر . فشعر بالرغبة في البكاء ، لكنها واسته ، وقالت له بأن قريباتها جميلات مثلها ، وانهن يحملن هذا الوشم كعلامة انتهاء . فهو يرمز الى ضربة سيف كادت تقسمهن الى اثنين لولا أن تقايد قبيلتها الاصلية تطورت . وبالفعل ، فقد كانت الاناث من المواليد فيها مضى يذبحن بضربة سيف يشطرهن شطرين متساويين . غير أن اتجاه هذا التقليد الذي كان معمولا به قبل مجيء الاسلام قد تبدل بفضل الفرزدق ، ذلك الشاعر النابه الذي حول الضربة القاطعة الى خط رمزي . وهكذا انقذ نصف سكان بابل القديمة خلال القرن الاول للهجرة . وحين خرج محمد عديم اللقب من ذلك المكان ذي السمعة الطيبة ، صادف صهره ماسح الاراضي ، عائدا الى داره بصحيفة قديمة تحت ابطه : « لقد عرفت لتوى اكبر امرأة مثقفة في الوجود ، ولكن لن أقول لك أين » . وسقط من الاعياء .

نام خمسة ايام متتابعات بلباليها . وحين افاق ، وتناول بعض الفواكه ، خطر له فجأة بأنه اضاع سنوات عديدة مع ابن خلدون وبأن الوقت قد حان لكي يهتم بالفرزدق ، الذي تحايل على همجية عصره لكي ينقذ النسوة المحكوم عليهن بضربات الشاقور . وقال في نفسه : « ولهذا

السبب بالذات ترجع حيويتهن في الفراش . انهن يعرفن معنى الحياة ، ولا يشبهن تلك النساء الخيانات في هذه البلدة اللعينة اللائي يعرفن القليل من اللذة ، وتكبر فروجهن عن بطونهن » . وبمجرد أن أفاق ، شعر بالحاجة الى العودة الى تلك الدار العجيبة حيث يعم التسامح كل شيء في اطار آداب المجاملة ، وحسن الذوق . باستثناء العنينة الذين لم يكونوا ليقووا على ابراز الحد الأدنى من الذكورة . لأن صاحبة الدار كانت تفحصهم عند المدخل بواسطة متر جلدي مزين بمنمنات فارسية تمجد الحب الجسدي بطبيعة الحال . ولبس ثيابه بسرعة ، وشعر لأول مرة في حياته بالرغبة في أن ينظر الى نفسه في المرأة حتى يتعرف على لون عينيه ويعرف ما اذا كان قميصه المصنوع من قماش حلب يناسبه أم لا . لكنه تدارك نفسه بسرعة ، دون أن يعترية أي احساس ، حين تذكر أن المرايا غير موجودة في المنامة ، وأن النموذج الوحيد منها معلق في بهو الحاكم . ولم يكن هذا الاخير مستعدا لعرضه ، ولا لاستعماله بنفسه لأنه كان قد غطاه بazar ابيض منذ تلك اللحظة المعروفة التي حطم فيها كبش الصورة التي انعكست امامه الى الف قطعة . وهذا ما أوحى اليه بفكرة ادخال رهان الصراع بين الاكباش ذوات القرون . وسرعان ما حصل بندر شاه على مرآة أخرى ، ووضعها وسط البهو وسارع الى تغطيتها بملاءة خشبية أن يهجم عليها كبش آخر ، منتظرا أن تعود ابنته الكبرى من سيدني وتستعملها خلال التدريبات اليومية على الرقص الكلاسيكي المصحوب ببعض الشطحات الجريئة المعاصرة . وانطلق محمد عديم اللقب في العشية مع غروب الشمس دون أن يدقق النظر في لون عينيه ولا في أناقة هندامه لأنه لم تكن لديه امكانية القيام بذلك . وتذكر ، وهو في طريقه ، انه وجدت في بابل القديمة مدينة نبذت عنها المرايا لأنها تضاعف من عدد الرجال ولا تساعد على احصاء السكان . ونجاة أدرك أن ظله ليس امامه كعادته . وعاد القهقري مذعورا فلم يعثر عليه . وبعد بضع ثوان من الدهشة ، رآه ينتشر بكل هدوء على جانبه الأيسر . وانجست الدموع من عينيه بغزارة مثل مطر احتبس طويلا ، وعاد ادراجه ، قائلا في نفسه : « الأفضل ان اعود الى الدار لتوي ، فلسوف يحدث شيء خطير ! » .

كانت مواكب كاملة من البغايا الخارقات ذوات الجمال المتزايد ساطراد تغد الى البلدة كل أسبوع ، حتى أن البعض أخذوا يتساقطون عن

حدود الكمال البشري ، ويقلقون على موضوع التوازن العقلي لدى
 اهل المنامة . وبالفعل ، لم يعد هؤلاء يعرفون الاوصاف الملائمة لبدء
 اعجابهم وانتشائهم وتيههم امام مثل تلك الاناث . كلهن يحملن نفس
 الوشم الذي يفصلهن الى اثنين ، وترتسم حولهن حالات مخططة ببروق
 خاطفة ضاربة الى الزرقة . وعندما ينزلن من تلك العربات الهائلة
 المكشوفة يلقين الرعب والحيرة ، ويوقظن الشبق في نفوس المتعاسين
 بمشيتهن المفجأة ، ويدسن بأرجلهن كل ما بقي متحضرا في أعماق الذكور
 من اهل البلدة . اطلعت مسعودة عديمة اللقب على ما يحدث ، وردت
 بكل هدوء على المرأة المتحمسة التي راحت تطلعها على التفاصيل :
 « لو ان تلك المهور على الجمال الذي يزعجه الرجال ، فان الملل سيدب
 في نفوسهم بسرعة ، وسيبحثون بعدها عن نسوة بشعات . انني أعرف
 رجال البلدة . ليس هناك ما يدعو الى المباهاة بهم » . ثم عادت الى
 مزروعاتها وانشطتها المعتادة . وكظمت حزنها حينما لاحظت ان جميع
 ابنائها يغيبون عند هبوط الليل ، ولم تنبس بكلمة حول تلك التصرفات
 الطفولية . وفي تلك الفترة بالذات ، اعادت علاقتها ثانية بابنها البكر
 الذي أغلق على نفسه باب غرفته ، وامتنع عن مغادرة الدار . وفكرت
 في البداية ان الامر يتعلق بدليل واضح على أصالته ، فاعتزت به . وفي
 حين كان الناس كلهم مأخوذين ببائعات الهوى ، ظل هو هادئا في الدار ،
 يقرأ المخطوطات ، ويرسم النماذج الطوبولوجية التفصيلية على قطع من
 الحلفاء المصقولة ، بأقلام قطنية ذات مداد صفيق واللوان باهرة . كان
 يشرف من بعيد على تسير قطعانه من الاكباش ، ومراهناته التي لا
 تخطيء طريقها أبدا ، ويحتقر تلك الحركة التي تنظر اليها والدته على
 انها مسرفة في الغلو . وذات يوم ، دخلت غرفته ، وفاجأته وهو يغسل
 طيور الكاميوشي الرائعة فقالت له دون أية مقدمات : « على أية حال ،
 ليس لهن بين السيقان الا اجهزة تولد نبضات اللذة ، لا أكثر ولا أقل . تمثل
 بتجربتي . الانتفاخ هو الانتفاخ والجرح لا يمكن أن يكون شيئا آخر الا
 جرحا ... والباقي كله مسألة ندم . ما اشد انفعال الرجال ! » . وقد
 تسنى لها خلال تلك المقابلة بالذات ان تلاحظ لأول مرة منذ عزلته الاخيرة
 المتعمدة ، ان الماء الذي يبيل خضرة بؤبؤية بدا وكأنه تجدد ولم يعد يهتز
 ذلك الاهتزاز الرهيب الذي كان يميزه منذ مولده . وسألته بقلق : « لست
 عاشقا ، اليس كذلك ؟ » . وبدلا من أن يجيبها ، أثر أن يقول لها بأنه
 متمسك بطيوره وأنه عاقد العزم ، حين وفاة واحد منها ، على أن يفرغه

من أحشائه ويلاً بطنه بالنخالة ، ويخيطه ويعلقه في سقف غرفته بواسطة خيوط فليونية غير مرئية . على أنه وهو يعطي هذه الشروح ، أدرك أنه يخاطر مخاطرة كبيرة أن هو كشف عن أسرار له بترك العفوية . فهي حسبها يعرفها قادرة على أن تستعير منه طيوره المصبرة لاستبدال فزاعاتها الشهيرة التي تعودت عليها عصافير المنطقة كثيراً . فهذه الفزاعات لم تعد تخيف شيئاً ولا أحداً ، وتقع متهاكة على الرغم من جهود مسعودة التي تشهد خراب مزروعاتها تحت مناقير العنادل والسنونو . والزرزير وغيرها من طيور أبي الحناء دون أن تقوى على القيام بشيء . وتراها وهي تأخذ بثأرها بعد أن انتبذت ووضعت في المرتبة الدنيا بين الطيور الأخرى ، منذ أن ترك هؤلاء الأمازيون خلال عبورهم الشهير بالمكان فصيلة من الطيور البالغة الحركة التي لا تكف عن الفرقة والزقزقة طوال النهار ، وعلى الأخص خلال الاصائل التي تخادع الإنسان وتحطه بسرعة خارقة . كما لم يحدثها عن ظله الذي بدأ يقوم دلائل واضحة على التشوش والخلل فيه . ولم يستطع محمد أن يستقر في مكان ما بعد وصول الموكب الخامس إلى المنامة منذ زيارته الأولى للماخور . فقرر أن يواجه مصيره ويتحایل على ظله ، بأن يزيد من حذره ويخرج من الدار بعد منتصف الليل . وقطع في طرفه عين المسافة التي تفصل بين المقر العائلي وبين دار الحنين بفضل تلك المادة الخاصة في حذائه المطاطي . وعندما دخل الماخور ، سيطر صمت مفاجيء ، وتوقف الحاكي الذي بدأ وكأنه يطحن قمع الضجيج دون أن يلمسه أحد . وتحجر في مكانه وتساءل بسرعة إذا لم يكن قد نسي ارتداء سرواله . وما كاد يتمكن من التحقق من مخاوفه حتى أبصر بأجل امرأة تخيلها في حياته تقترب منه وتشده من يده وتقوده نحو غرفتها . وعندما أغلقت الباب ، سمته إليها بقوة وهمست في أذنه : « اسمي مسعودة مثل أمك ، وأنا أعرف المكان المضبوط الذي كانت تقوم به الدار التي حرر فيها ابن خلون جزءاً كبيراً من مؤلفه الشهير » .

في ذلك اليوم المشهود للقاءه بمسعودة المكتاة بالسعيدة ، لم يتعجب محمد عديم اللقب مما همست له به في أذنه . فهو حين تمرد عليه ظله ، ادرك أن حدثا خطيرا سيقطب حياته رأسا على عقب ، ويحول مجراها تحويلا جفريا . ولم يعرف في أي وقت قد يصادف مصيره هذا ، بل شعر بأنه سوف يحدث في يوم من الأيام . ولهذا السبب ، انكمش على نفسه في الدار ، وحاول أن يهدىء من روعه عن طريق النشاط المتزايد والارهاق . وخطرت له حينذاك فكرة تحنيط طيور الكاميشي التي صار البعض منها يشيخ بسرعة . وأصر على استثمار رأسمال العائلة بدون أي هدف في الربح ، بل لاتقاء شر الانتظار ، أو على الأصح لتمضية الوقت والصبر على الألم . وقد كانت هناك دلائل أولية لا يدركها قد اقنعته بأن يكف عن تبذير طاقاته في مضاجع تنبعث منها رائحة الأزواج ، وعن اهلاك صحته في متاهات التجارة المملة ، وعن الضياع في الحلقة الجنونية التي تخطها والدته حوله كل يوم ، بالمغالة في تصرفاتها أو بضرب الحصار على هذيانه . وقرر خلال عزلته الطوعية ، وبعد الفشل الذي مني به ازاء ظله ، الا يكس رأسمال والدته . فقد كانت تدبر شؤونها بمفردها أحسن التدبير ، ووغرت بعض المال وخزنت كمية لا بأس بها من المواد الغذائية في مبرداتها العديدة وفي غرفة الطمث لكي تعيش دون مشاكل مادية الى آخر أيامها وحتى زوال سلالة عديم اللقب . أما ابنها فضميره لم يتركه أبدا يأخذ نصيبه من الراحة ، بل ظل يدفعه الى التدقيق في عدد عمليات الإباداة التي تحدثت عنها تلك الكتب التاريخية الملعونة ، التي كانت تثير نائرة مسعودة فتجعلها تصفق بحمالات نهديها الضخمين كلما وقعت عليها عيناها وهي تقوم بشؤون الدار . لكنه صار شديد الحساسية

عندما طارده نفسه ، وجعل يتساءل عن سبب السكوت على المذابح التي ارتكبت باسم الدين الاسلامي . وكان يؤجل النظر في هذه المسألة ، لأنها صعبة الابتلاع كما يقال . وكان مأخوذا بتقلبات التاريخ ، ويلاحظ بهرارة ان الفاتحين السابقين أصبحوا اليوم ضحايا لهجبة الآخرين . وهو على رقة احساسه هذا ، واندفاعه مع خيالاته العجيبة ، والفزاعات التي حاولت والدته ان تجعلها أبعث على الخوف والرهبة ، لم يلمس في نفسه القدرة على مواجهة مثل هذه المشاكل بمفرده . وعلى أية حال ، كان في مقدوره أن يعتمد على نفاذ بصيرة الاسكافي العجوز الذي هداه اخلاصه اكثر من مرة ، لكنه لمس فيه صلابة كبرى وصرامة قل أن تجتمعا لدى أمي مثله . كان قادرا على تعجيزه بأية حال من الاحوال بجديته الساكنة التي لا ترحم ، لكنه آثر أن يتجنبه . ومهما يكن من أمر فان سوء التفاهم ظل قائما بينهما بسبب ذلك الشيء المبهم الذي كان صديقه يطلق عليه : « فائض القيمة » . وقد كان في مستطاعه دون شك أن يعتمد على مساعدة « رشيد بناصر » ماسح الأراضي ، غير أن زواجه بكبرى شقيقاته خلق نوعا من الحرج في علاقاتهما ، ثم ان مولد ابنة رشيد أبعد الواحد منهما عن الآخر ، وزاد من حدة احساس محمد بعزلته وبشقائه . فمئذ زواج كبرى التوائم ، لم يعد يمتلك موهبة الهجوم على شقيقته بالفراشات الفوسفورية التي تكشف عن جنونه وتأثرت علاقاتهما بذلك . وبقي عليه أن يتعلق بالأمل . ماذا بالضبط ؟ شيء عجز عن التقوه به . على الرغم مما قيل عن كونه عالما كبيرا ، وما اشيع عن قدرته على التحدث الى الطيور . وانتظر أن يحين وقته ، غير أن القدر اتخذ وجهة أخرى ذات ليلة بلا ريح . فقد جاءت مسعودة . وخيل اليه أنه يولد من جديد . وامتألت عظامه بمدى العالم كله ، وحين أبصر بها وسط ذلك الصمت المفاجيء الأخاذ الذي غرق فيه الماخور ، شعر بنفسه الاحساس الذي سبق أن غمره ثلاث مرات خلال حياته . أولا في اليوم الذي سمح له فيه جده بتأمل قاطرته وأعطاه درسه السياسي الاول قائلا له : « انظر الى ما هم قادرون على صنعه ، ولا يذهب بك الظن الى أن الحصان أنبل من هذه القاطرة » ثانيا في ذلك اليوم المشهود الذي أخذه فيه جده لرؤية الثلج وأدرك أنه موجود حقا وصدقا مثل عدد من الأشياء الأخرى التي كان أهل البلدة لا يعرفون لا سمعتها ولا عظمتها ولا نفعها . وثالثا في ذلك الصباح المشرق الذي دخلت فيه كلثوم بندرشاه غرفته وطلبت منه أن يضع كاميشه في فرجها .

كان لقاءه الاول بمسعودة محاطا بذلك الانطباع الراسخ الذي يعدي حتى عرق الابطاب ، بالاضافة الى ذلك الاحساس الذي يشكل اليوم جزءا لا يتجزأ من ذاته . ومنذ ذلك الحين حل محل الثقل المنتشي المضطرب الذي يملأ عظامه ومسامه ، تحرير خصب ينبت في رأسه ، فيملا جسمه برغوة شفافة ملصقة على طين الحياة الأصلي ، حيث ترسب ، زيادة على حنانه المطلق ، شعوره الكامن بالسعادة ، بتعاريجه ومنعطفاته وتخيالاته واضماراته وانطلاقاته وسقطاته . كانت كل هذه الانطباعات تتلاشى وتهوي بطريقة مميعة في الاجراف الباذنجانية والبنفسجية للجهة الاخرى من الحلم ، وهو ينقسم الى قسمين متساويين ، ويفرز غبارا مختلف الالوان والنبرات ، تختمر داخل النعاس تحت خميرة كلمات الحب المسكرة العذبة . لقد وجد توأمه التي طالما بحث عنها في رائحة الاثواب الداخلية للنسوة ، وفي تحليقات اسراب الطيور التي تنهال على المنامة عند الغسق ، وفي نبرات الحوار اللامعقول مع جده المصايحي ، وخلال السكرات البالغة الافراط ، بل وحتى في كثافة الثلج الذي التقطه في اليوم الذي تساقط فيه اول مرة منذ قرون على البلدة ، وقد حاول ان يحتفظ به في كيس من البلاستيك ، وضعه في اعماق المبرد لكي يفتته في المساء قبل ان يذهب الى النوم ويشعر بأنه محبوب .

لم يمارس الحب في تلك الليلة مع مسعودة السعيدة بل نام فسي راثحتها . ولم يحدثها ايضا عن اسمها الذي يشبه اسم أمه حرفا بحرف . ولا عن موقع دار المؤرخ العظيم ، ولا عن الحرب ولا عن السلم ، ولا عن سعة اطلاع الجاحظ . وموته الغريب ، ولا عن المذابح والغزوات ، ولا عن أحمد ابن ماجد ولا عن فاسكو دي جاما ولا عن تدليس ألف ليلة وليلة ولا عن الحركات الثورية في الاسلام ولا عن مواهبه الخاصة ومعارفه في علم الطيور ، ولا عن يوم ميلاده ، ولا عن مزروعات مسعودة والوشم المختفي بين ثدييها ، ولا عن ظله ولا عن تقولات محيطه التي اشاعت عنه بأنه تحدث بالعبرية يوم مولده ولا عن اليوم الذي رأى فيه الثلج لأول مرة في حياته ولا عن مذبلة جده الذي صار عبدا لمستخدمه الى حد أنه اضاع اسمه الذي لم يكن اسما ، ولا عن كل الاشياء الاخرى التي عاشها أو حلم بها . لأنه كان يعلم أن مسعودة مطلعة على ذلك كله . قالت له : « أنت في حاجة الى النوم » ولم يفتنه عري جسدها الفخم . نام في راثحتها . وخيل اليه أنه يحوم فوق رياح عالية وأن الحياة كلها توجد أمامه لاختفاء

فحولته الخارقة في فرج مسعودة السعيدة . وعندها افاق أحس بالغربة
 في نفسه ، وقرر أن يصطحب الفتاة معه لكنها عجزت عن تلبية طلبه ،
 فهي حديثة العهد بالوصول الى المنامة ، وهي مدينة بأسبوع من الحب
 لقبيلتها التي أرسلتها على غرار الاخريات حتى تطلع على أسرار اللذة ،
 وتعود فتنزج في الجبال التي شهدت مولدها ، بفضل المال الذي تكون قد
 ربحته خلال اقامتها . على أن محمد الذي لم يفضب الا مرات قليلة منذ
 مولده قبل خمس وعشرين سنة أراد أن يهدم كل شيء ويذبح صاحبة
 الدار . وشرحت له مسعودة السعيدة أن مسعاه هذا سوف يكون بلا
 نتيجة لأن الامر بالنسبة اليها وبالنسبة للاخريات يتعلق بطقوس يتعين
 على كل فتاة أن تخضع لها . فقد كن موشومات بنفس الطريقة منذ النشأة
 من أعلى الجبهة الى مدخل الفرج ، واذا حدث وتمردت احداهن على
 القانون العام فان الشقاء سيلحقها الى الأبد ، وستقتل ان عاجلا أو
 أجلا من طرف الجماعة اني ذهبت وحيثما اختفت . وابصر محمد عديم
 اللقب بمشاريعه تنهار ، فلم يعد يفهم شيئا من هذه الحكاية العجيبة من
 حكايات الطقوس والملل . قالت له : « ذلك ثمن بقائنا على قيد الحياة .
 فانا لن الاحق واقتل فحسب ، بل كل الفتيات اللاتي سيولدن من الآن
 فصاعدا سوف يقسمن الى شطرين عند نشأتهن بواسطة سيف تحتفظ
 به القبيلة منذ السنة التاسعة عشرة للهجرة . ولكن بمجرد ما تنتهي
 مهمتي هنا في المنامة اصير حرة في القيام بكل ما يروق لي شريطة ان أرسل
 بواسطة احدي قريباتي الدراهم التي أربحها في هذا الماخور . عليك
 ان تصبر أسبوعا ... ما قيمة أسبوع بالنسبة لمن انتظر خمسا وعشرين
 سنة ! » . خرج محمد من الغرفة دون ان يقول كلمة وغادر ماخور
 « الكباش الشبق » وترجع في مواجهة المدخل حيث أخذ ينتظر انقضاء
 الأسبوع في جمود هائل مطلق . وكان قبل ذلك قد وضع الى جانبه ساعة
 مائية تسير بواسطة العرق البشري كأنها ليستثمر ذلك المسكين الذي
 أسس المنامة وأراد أن يستبدل الساعات الرملية بساعات الملح ويبيع
 الساعات المائية للقوافل التي لم تنطل عليها مثل هذه الحيلة . وشعر
 بالحاجة الى معلوماته الباطنية وعلى الأخص ، الى وجود درويش ميلوى
 في الشجرة العائلية لأمه في سبيل ان يصمد في موقفه وذلك على الرغم من
 ارداء المارة وغورات مسعودة التي جاءت لنجدته وكل اخوته الذين
 انهموه لجعلهم موضع سخرية بجلوسه على تلك الطريقة قبالة الدار التي
 تعودوا العريضة في جوها المغمم بالشهوة . واستخلصت مسعودة

عديمة اللقب العبرة من عناد ابنها على طريقتها : « من الأولى به أن يتخذ مكانا له في الحديقة . لقد أدرك تهاون تلك الفزاعات الغبية التي لم تعد ترهب العصافير . كيف يمكن أن يترك حديقة والدته تتدهور بهذه الصورة في حين أنه يقوى على مثل هذا التحنط ! » . وقد ذهب الظن ببعض الأجانب الذين مروا بالمكان الى الظن بأنه تحجر بسبب شروره . في حين أن بعض الزعران الآخرين أشاعوا عنه بأنه حول نفسه الى تمثال لكسي يجسد العاشق المجهول على صورة الجندي المجهول في البلدان التي تخوض الحروب .

وخلال ذلك ، أغرمت مسعودة عديمة اللقب بعباد الشمس ، وغرست منه على طول الحاجز القائم بين حدود حديقة الخضراوات والبيت . وراح عباد الشمس يتنامى بصورة مفرطة ، وربما كان ذلك بسبب الدم البشري الذي يمتصه كل فجر ، والذي تصبه مسعودة بحذر شديد ولكن دون أي تقدير . كان عباد الشمس محل عناية كبيرة ، يسقى جيدا ، ويتم اخصابه بأعجوبة بفضل الأسمدة الشهيرة الكاليفورنية ، فراح يدور حول الشمس دون توقف وبسرعة تتزايد حسب تقدمها حتى تصبح جنونية عندما تبلغ كبد السماء . حينذاك تفقد الزهور الهائلة صوابها ، وتهيج حتى أنها تدور مثل أجنحة طاحونة هوائية بين دبيب الحشرات وصرير الجدجد . وكانت مسعودة شديدة الاعتزاز بتلك الزهور الصفراء ، فهي فضلا عن كونها تزين الحديقة : تعطي بزرات تستخرج منها نوعا من الزيت الذي يصدر حتى الى « لابونيا » لتشحيم الزلاقات الثلجية . ثم ان تلك الزهور تسمح أيضا بتلطيف الجو في الدار كلها فتتحول هذه بفضل الطاقة الشمسية الى مراوح هائلة متعددة تسير بلا انقطاع من طلوع الشمس الى غروبها على وتيرات مختلفة حسب حدة الضوء . وهذا التشغيل الطردي لعباد الشمس كان يحدث أثناء جمود محمد عديم اللقب . فطوال الاسبوع الذي قرفص فيه عند مدخل ماخور المنامة ، أكلت الغيرة قلوب شقيقاته ، ولم يتوقفن عن محاولة التأثير في أمهن شيئا فشيئا وحفزها على الغضب عليه : « كان من حقه على الأقل أن يغرم بامرأة من أرستقراطية الساحل الم تره يفعل ذلك في الوقت الذي تدور فيه شمسنا بقوة ! يا له من فظ ! » . ولم تأخذ مسعودة بعين الاعتبار تلك الكلمات الغريبة . وعلى الرغم من أنها كانت دائما صارمة ازاء بهلوانيات ابنها ، الا انها لم تكن تحب كثيرا أن يتدخل أفراد

العائلة فيها ويغتابونه بنذالة . حتى الشقيقات التوائم لم يكن لديهن الحق في ذلك ه ولكنها لكي تتجنب استشارتهن في هذه الفترة العصيبة التي ينتظرن فيها دوراتهن الشهرية ، التي لم تكن تستطيع تأخيرها ولا ترويبها في بطونهن مثل حليب قديم جدا ، فانها كانت تتصنع عدم السماع لأقوالهن وتنهمك في تغذية الدجاج وتنظيف اقفاص الكاميشي وغسل الصوف وقتل الكسكسي وعصر الطماطم للاحتفاظ بها الى الشتاء ، وتقديد اللحم ، وكشط الطفيليات عن نزوتها الاخيرة المتهمة في شمسها النباتية ذات الالوان الصارخة . وعندما تنتهي من عملها هذا تجلس على رخام فناء الدار وتمد رجلها وتفسح المجال للظلال المتقاطعة لكي تعبرها ولهبات النسيم في مواجهة الزهور الهائلة التي تكون في عز دورانها .

أصبحت الفتيات اللاتي راعهن ذلك الانتظار الجديد للابن النابغة ، يصرون بأسنانهن وينشفن بتربية دود القز خفية عن أمهن . كن يأملن شديد الأمل ان تتبرعم الشرائق بسرعة لكي يحضنها بحرارة افخاذهن ، مثلما تفعل ذلك نسوة المنامة ، وذلك على الرغم من ازمة الحرير العالمية وسيطرة الشركات الاحتكارية ومناورات الحاكم الذي لم يكن يجعل هذا النشاط عرضة للتقلبات محسب ، بل غير نافع أيضا . وفي سبيل ان يتجنبن اية مفاجأة من والدتهن ، كن يتخذن لهن مكانا في الغرف العلوية ويغرقن في اللذة بفضل زهرات عباد الشمس الواسعة مثل أجنحة طاحونة هوائية ، ويجمعن بين فتحات الظل والضوء كلما غطت تلك الزهرات الشمس أو انسحبت عنها . وكانت نقرات خفيفة تهرش أعالي افخاذهن كلما غادرت دودة ما شرنقتها واصطدمت بباب انوثتهن الذي ينتظر التفتح تحت نير ذكر قادم ، لا يكذب يذكرن هيجانه حتى يشددن افخاذهن ويقلصن مروجهن ... وكانت لهن حينئذ رغبات جارفة ملححة في التبول ، وبما انهن كن غاضبات على أمهن كن يمسكن عن ذلك حتى تنتدى سراويلهن ، ويشعرن بلذة هائلة ويضايقن مسعودة التي كانت الرائحة الغريبة تجعلها تكشف حماقات بناتها . وعلى أية حال ، لم تكن مسعودة تشعر بأي ندم في تأخير زواج عذارها الثماني اللائي لم يكن الفارق بين الواحدة والاخرى الا ستة أشهر . فقد كانت كبراهن أكبر بأربع سنوات فقط من صفراهن . وفي الوقت الذي ظل فيه محمد عديم القلب مواصلا كمونه قبالة الماخور ، بلغت « عتيقة » كبرى الشقيقات الثامنة عشرة في حين ان صفراهن سميكة لم تتجاوز الرابعة عشرة . وبما ان أختهن التي تزوجت بماسح

الاراضي وهي في السادسة عشرة فان الكبريات منهن بدان في الثورة على ذلك الاستغلال الذي كن ضحية له من قبل والدتهن ، ورحن يصفين عليها صفات غول رهيب يتعطش الى الدماء والى الاموال الطائلة . على انها كانت تسيطر بأحكام على مقاليد السلطة ولم تكن تضطرب لمثل تلك الامور التافهة أما الفتيان الثمانية الذين مكثوا في الدار ، والذين كانت اعمارهم من نفس أعمار الشقيقات ، فقد راحوا يربون السلاحف التي تجتذب الضوء وتنسج اشكالا مهفهفة على أوراق الخس التي تقضمها . جعلوا يدرّبونها على عدو مسافة مائة متر ويحلمون باستبدال المراهنات حول الاكباش بالعباب التكهّنات حول سباق السلاحف . وقد غادر اكبر التوائم الدار منذ زمن طويل واستقر به المقام لدى أخته بحجة تعلم مهنة مسح الاراضي مع صهره . وفي الواقع لم يكن ليقوى على التخلص من عشقه الفاسق للمليكة التي كانت تتجنب ان تكون وحيدة معه لشدة خشيتها من الجموح المفاجيء العنيف لهذا الذي تحبه حبا بريئا .

وبعد انقضاء الأيام السبعة ، اتضح ان محمد عديم اللقب لم يكن يعاني من مرض النعاس ، بل كان واقعا في حب جنوني لتلك الخيلة ذات الاصل النبيل التي تحمل نفس اسم أمه . وفي اليوم السابع وفي منتصف الليل على وجه التحديد ، وخلال جو رائق لا تبليه الريح الرملية ، غادرت مسعودة السعيدة الماخور والتحقت بالرجل الذي احبته طوال حياتها والذي ظل جالسا باصرار في نفس المكان يقظا تمام اليقظة وان كانت قد نالت منه تقلبات الطقس وانداء الليل وقذارات الطيور العاقبة التي نسيت كل العناية التي احاطها بها الا اذا كانت لم تتعرف عليه لأنه هزل كثيرا . نهض كأن شيئا لم يحدث ، دون أن ينبس بكلمة . وبمجرد ان انطلق في المشي ، قلدته وراحت تتبعه عن بعد ، في صمت اولا ، ثم عيل صبرها فانتهى بها الامر الى القول : « بم تفكر ؟ » ودار نحوها ونقل لها فكرته من خلال نظرة صوبها اليها : « نذهب الى دار أمي » .

وعندما وصلا الى الدار ، تصنعت مسعودة وبناتها النوم . أما الابناء فكانوا منشغلين بالعريضة في الماخور . وفي اللحظة التي دخل فيها عديم اللقب مع مسعودة السعيدة غرفته ، سمع كبير التوائم المقيم لدى مليكة ، أخته تن من اللذة وتهز الفراش الزوجي . وفي اليوم الذي نزلت فيه بالدار ، أدركت القادمة الجديدة ما تتضمنه تلك الزفرات المختلطة المصطنعة من تحد صارخ لها : واعترفت بأن للمرأة العجوز احساسا

الضيافة كبيرا ، ولكنها كانت تخصصه بلا شك لنهار اليوم التالي . ولم يترك محمد لمسعودة السعيدة الوقت لنزع ثيابها ، بل طرحها أرضا وشمر جلبابها الى خصرها وسفدها عشرين مرة ما بين منتصف الليل ومنتصف النهار . وفي كل ثانية كانت تشعر بالرغبة في الصراخ وفي التلفظ ببعض الكلمات الفاحشة وفي التمرغ في مني عشيقها . ولكنها احتزرت بتلك الليلة وأحجمت عن الصراخ من اللذة بعد أن استعادت حرقتها على اثر الضريبة التي دفعتها لقبيلتها . وعرضت نفسها دون أي تحفظ . وسلمته كل وشوشات خصوصيتها الفائرة ، وجعلت بينها وبين العالم الخارجي مستنقعات صاخبة من الحشائش البحرية والاسماك الثعبانية ذوات البطون الملساء التي تتغذى على حشرات المياه والاعشاب الهمجية المتواجدة فوقها مثل مطر نباتي في منطقة من هذا العالم الفسيح الذي كان محمد يقرأ رحلاته وطوافه في مخطوطاته التي تعرفها مسعودة معرفة جيدة . فهناك بين دجلة والفرات ، وقبل قرون عديدة كانت الآلاف من الروافد تخلق بعد الفيضانات بحيرات ومستنقعات كان العبيد السود الذين يؤتى بهم من زنجبار والنوبة والسودان ومن افريقيا الشرقية كلها يفرغونها من مياهها لكي يحولوها الى اراض خصبة ذات طين خارق مثل طينتها الموضوعة في فرجها الصقيل حيث خطر له أن يترك روحه . بالها من عاشقة بارعة ، لا سيما وان رأسها كان مليئا بغليان وصخب تاريخ هذا الشرق الذي يمتد حتى الغرب وحيث قامت الحضارات بضربات الاسنان والخدوش والسيوف المختلفة في انتظار المدافع والبارود والبنادق . وراحا يقضيان الليل والنصف من نهار اليوم التالي متخبطين في مذاق ريقهما الحريف لشد ما كانت اللذة جارفة الى حد العماء والذهول . واصلوا الانتقال من لذة الى أخرى ، ملتهمين بعضهما بعضا ، متالمين غارقين في عالمها ، بينما أزيد جنسهما وترطبا مثل فتحات تمتد بكل جنون فوق الجرف والصقيع ، وترتبط فيما بينهما بحبل يطبع ذاكرتهما ويدها وراء كل أسى بشري .

وأفانقا نهار اليوم التالي دون مساعدة طيور الكاميشي التي اغمضت عيونها عن تطرفهما الشبق ، وتخبطاتهما العاشقة ، ووجدوا سلحفاة مينة رائعة قديميتها الى الهواء وقد طلي بطنها باللون الاصفر كإذار على هشاشة كل شيء . غير انها ضربا صفحا عن هذا النذير الاحمق ودفنا السلحفاة تحت شجرة من عباد الشمس مصابة بداء التعلق ، قبل

أن يذهب للبحث عن الأم التي نسيت أن ولدها قد دخل مع هذه المرأة التي تحمل اسماً مماثلاً لاسمها . كانت منشغلة بجمع حبات التين لاعداد مربى الشتاء . وعندما وقفنا بجانبها خاطبت مسعودة السعيدة دون أن تراهها وقالت من اعلى شجرة التين : « ينبغي عليك أن تغيري اسمك ! لا يمكن لنا أن نقسم الرجل نفسه والبيت نفسه والاسم نفسه دون أن تصطدم الواحدة منا بالأخرى ودون أن نحطم الكراسي بمجرد النظر إليها ! » . وهكذا دخلت مسعودة السعيدة الدار العتيقة وقبلت من طرف المرأة الرهيبة التي راحت تحاصر النهار بأنشطتها المتعددة حتى انها كانت تفجر الساعات الجدارية التسع عشرة التي لم تكن تحتل وتيرة الزمن المفروضة عليها . على أنه بقي مشكل الاسمين اللذين يتصادمان ويلقي أحدهما بالآخر في لعبة مرهقة . ظلت القادمة الجديدة على حذرهما منشغلة بغسل جسدها وتعطيره وتسليمه عند خروجها من الحمام لنفحات المسك والعنبر ، بل انها ظلت محتزنة ، تسمع خفقات فرجها الذي عصرته اللذة ، لانه على الرغم من كل شيء ، كانت حرب الاسماء قائمة دون خنادق ولا جوقات عسكرية . أما مسعودة الحقيقية والوحيدة فكانت تعود الى سقاياتها ، وتقف بالمرصاد للمطر ولنافستها . وكانت تحذر الثلج الذي قد يتساقط ويحطم من جديد فزاعاتها المطروحة بصورة مائلة أو على جوانبها أو وجها لوجه . ولكنها في هذه المرة قد لا تقوى على تحمل الطلاء الاسود وهو يتقاطر على وجوه تماثيلها القماشية المشدوهة ذات القبعات القبيحة والعمائم المشرشبة . انها قد تموت كمدا ! .

اذ قد تجتذبها الاخرى من جانب الضعف فيها ، وتقترح عليها بنوع من الاندفاع ان تصنع لها فزاعات مربعة حتى انها لن تنام ابدا بل ان دوار الشمس قد يفقد صوابه . وهكذا تم الصلح بينهما ! الورق المقوى العجيني . المقص . الصمغ . الثياب البالية . صخب وضحك وتواطؤ ضمني . وها هي ذي القادمة الجديدة تحيط بالتاريخ عن ظهر قلب ، وتقتطع مستنسخات الحقد . الحجاج بن يوسف ، ترسم صورته بصفة شنيعة وهذا كل ما يستحق . افلم يسمى بجلاد العراق ؟ المعتصم وقد عرفه التاريخ لقساوته ازاء السود ومطاردته لهم . وهو الذي قضى على اول ثورة حقيقية عرفها الاسلام . ثورة الزنج . لقد دامت خمس عشرة سنة ، وهزت بغداد من قواعدها ما بين ٢٥٥ و ٢٧٠ ، حسب التقويم الاسلامي . وفي هذه الفترة بالذات ، جعلت الامهات يرهبن اطفالهن مهددات اياهم باخفاء زنجي تحت السرير . وقد اقتنعت

مسعودة عديمة اللقب بعدالة القضية ، فقررت الا تصنع فزاعات سوداء أبدا . لقد عاشت في الجهل ، وها هي اليوم تنتشي . صور للجلادين والطفافة ، ومصاصي الدماء . ابو العباس السفاح . لقد تعود على سلخ اعدائه وملء اجسادهم بالنخالة ليضعهم داخل قفص حتى يستخدموا كلعبة للقردين اللذين روضهما لهذا الغرض . وكان من الفاطميين الذين حكموا مصر وافريقيا الشمالية ما بين ٢٩٩ و ٣٤٤ للهجرة . ابن خلدون يتحدث عنه في كتابه . وماذا عن محمود الثاني ؟ لا مجال للتشهير به . فمسعودة قد لا تفهم شيئا . اذ كان مثلها الاعلى . قد يحدث تحول في ذهنها ولكن بعد وقت طويل وتدرجيا . لنترك الامر الآن . وماذا عن مذابح « خيو » ؟ لقد ارتكبها في ربيع سنة ١٨٢٢ . تنهدت بمسعودة وقد تذكرت اصولها البعيدة . وبرز تاريخ القراصنة ، وحاجب المروحة . قرصان الساعات الجدارية التسع عشرة . . . وراحت المراتان تعملان دون توقف . اما الابن فكان مأخوذا بعشقه ، لذلك فقد اوقف كل شيء ، ولم يعد يغادر غرفته أبدا . وتخلّى عن طيوره المصبرة والاخرى . وكان يقرأ الشعر الاباحي للقرون الاولى . وصارت مسعودة عديمة اللقب تلميذة لأول مرة في حياتها . كانت مأخوذة بالرسوم الرهيبة ورؤى الفظائع التي كدسها التاريخ . وكانت الاخرى تتحدث بنفس السرعة التي يدور بها عباد الشمس حول نفسه . ولم تعد الفتيات في حاجة الى اذرعهن لتعليق الفزاعات على الاشجار وبين النباتات وفوق البطاطا وفوق سطح الدار . هل يكفيك هذا ؟ كلا ، بل كان يجب صنع فزاعات اخرى . العديد منها . الورق المقوى . الصمغ . المقص . الخيوط . الابر . لم لا ؟ سفيان بن معاوية : كان هذا مختصا في اغتيال الأدباء . فلقد أعدم ابن المقفع بعد اتهامه بالزندقة في تلك السنة السوداء ، أي سنة ١٤٥ للهجرة . وما أسرع ما جمدت تقاطيع وجهه . وصار فزاعا . الرسم ، التقطيع ، اللاصاق ، الخياطة ، اللباس ، ولحية صغيرة حمراء . كان خجولا مع النساء . في حين ان المجنون الآخر كان يفرق ذكره في الدواء الاحمر وينطح الاناث . أصبح اغشى البصر ، تثبت بثور فوق اهدابه ، مندفعا في هواه وفي جشعه . غير أن مشكلة الاسم ظلت عالقة بينهما . ثم أن صناعة الاجهزة التي ترهب العصافير لم تكن لتستمر طول الحياة . فهناك العديد منها ، وفي كل مكان ، وقد بلغ الامر بالعائلة ان اخترنت الفزاعات في غرفة الطمث التي كانت على درجة حرارية ثابتة . كان محمود مهتما بها لانه هو مهندسها . ولم يزاوِل اي

دراسة ، لكنه كالذي فعل . بله وتفق . أما عديم اللقب فكان يقضي كل وقته في الحمام ، ويكتب الاشعار . وعرفت مسعودة الوجه الآخر للتاريخ . لم تكن تعلم أن هناك حروبا وأعداء ، فقد انشغلت بانجاب التوائم وبتربيتهم ، خاصة بعد موت زوجها . انها مسألة حياة . « لقد انتظرت هذا الوقت كله لكي تأتي تحبة صغيرة فتعلمني كل هذا ! أين كنت ؟ ولكن أين كنت ؟ » وعاد حقدھا على الحاكم يصعد الى شفتيھا . فوضعت رسما اوليا له وقطعته بالمقص والصقته وخاطته وعلقته على قمة اعلی شجرة في حديقته ، وقالت لمسعودة السعيدة : « ستعلميني اشیاء كثيرة ، وانا بالمقابل سأحني لك شعرك . ولكن يجب توضيح المسألة التالية بكل سرعة : أريد توأمين . فلقد تعذب هو كثيرا لكونه ولدا منفردا . أما بخصوص الاسم فسوف نتفق ! » وسرعان ما قضي على العصافير ، وغيرها من الطيور المهووسة بالسرقة . وكانت تنقل عند انقضاء النهار على متن جرافات كبيرة . وانتهر محمد الفرصة لكي يقذف بأكياسه الواقية التي اشتراها في سوق التهريب بسعر مرتفع . بينما كثف اخوته تدريبات السلاحف . فقد تملكته فكرة طرحها على السباق لأنهم في حاجة الى الدراهم . وكانت الحمى مسيطرة على المنامة . فالبلغايا غاليات الثمن ، والثروة على مرمى منهم بفضل الرهان على السلاحف . وقد أعلن محمد الذي صار شحيحا بكلامه وحركاته : « انه لامر مفرح ! » ذلك أنه سمع أمه تتحدث ، وازدادت خشيته منها . فكيف يمكن صناعة أزواج من جنسين مختلفين ؟ انها سعادة الانجاب . فبالإضافة الى الفزاعات ، ينبغي النجاح في انجاب التوائم . كانت القادمة الجديدة تداعب بطنها المزغب ، وتذهب في كل ساعة لكي تعمل على تدفق بحيرات فنلندة ولتوانيا . وتعود بعينين أكثر سوادا من المعتاد . أما هو ، فقد افلقت الخيوط من يده ، لكنه ازداد تشبثا برأيه ، فاما هذا او الموت !

و ذات صباح وجد عديم اللقب لزوجته اسما جديدا . لقد امضى الوقت الكافي لذلك . انها معجزة حقا ، ذلك انه بدا ذاهلا عن نفسه ، تائها في المياه السديمية . وتدرج من غرفته وقال : « فليكن اسمها شجرة الدر ! أمه ، ليس لديك ما تخافينه الآن . . . » وتبادلتا التهاني . انها قصة طويلة حقا ! وهي تعرفها جيدا . لقد كانت تلك المرأة الملكة الوحيدة في الاسلام . فقد حكمت مصر وسوريا وتركيا ، وفقدت زوجها خلال الحملة

الصليبية الثامنة والاخيرة . قتله شخص يسمى سانت لويس في معركة
 المنصورة . واحتفظت بالسلطة خمسة عشر عاما ، من ٦٤٧ الى ٦٦١ .
 ويا لجبرتها المحترمة ! من جهة المعتصم الذي رسم وخذل في شكل فزاع
 لحراسة شجرة الزعرور . ومن جهة تخرى سانت لويس التائه بين
 انفه وروحانيته . وفي مواجهتها كان كل رجال الارض المظلومين
 المضطهدين . لقد استثارتهم وتزوجت بأحد خدمها . قالت ربة الدار :
 « قصة من قصص الزنوج أيضا ! يا للمساكين ! » كلا . كان ابيض وقادما
 من الاناضول حيث كان للناس الخيار بين رعي الاغنام او حراسة
 الشعوب . فاختار أن يكون عسكريا . ودخل في خدمة الملكة . وقبلها
 على السرير معتقدا أنه قادر على قلبها من عرشها . فقطعت رأسه
 وخصيته . واتخذت الف عشيق كلهم سود . كان هذا لونها المفضل .
 وقبلها بزمان طويل ، فوجئت ملكة ألف ليلة وليلة وهي تمارس الحب مع
 اثني عشر عبدا أسود . ولكنها قضية أخرى . لقد سويت مشكلة
 الاسمين اذن ! وتم ضمان وقاية الحديقة . ولم يدع محمد عديم اللقب
 الى حفل زواجه الا الاسكافي . ولم يجيد ناظره عن صاحبه القديم الذي
 سكر سكرة وبكى على وفاة « جوزيف جوجاتشغلي » المكنى بالجورجي ،
 اما الحاكم فقد أرسل من يتسقط له الاخبار ويسجل ما حدث . ومع ذلك
 فقد اقتصر الحفل على الاهل : مسعودة عديمة اللقب وفتياتها السبعة
 عشر المزاج بالاضافة الى مليكة بناصر وزوجها وبناتها . واعلنت ربة
 عائلة عديم اللقب هدنة مدتها أربع وعشرون ساعة مع اعدائها الطيور ،
 وانزلت بفزاعات الحرب لكي تزين القاعة الكبيرة حيث يجرى الحفل لانها
 كانت تراها خارقة . وشرحت للاسكافي : « لا تمثل هذه الفزاعات كل من
 هب ودب . لقد مزقت التاريخ ، وملأت المقابر . انني لا اتحدث عن هذا
 الحاكم المخصي . لقد رسمناه ، لكنه لا يساوي شيئا كبيرا . يبدو أنه
 يريد بيع ماء النيل الى كشافي المستر براون . ليس هناك ما يؤمل منه .
 ولكنه لا يخيفني . اليته ضامرة . لا يجرؤ على مواجهتي ! » وقد سجل
 وشاة الحاكم أيضا هذا الخبر ذا الاهمية الكبرى . ولكن ما الذي كان
 يستطيعه ؟ كل الناس على علم بأنه اشترى بحيرة التمساح وأنه يستعد
 لارسال الماء عن طريق القنوات لتزويد مقر الكشافة . وبالإضافة الى
 ذلك ، كان الاسكافي هو الوحيد في القرية الذي يعرف اصلاح النعال . ولم
 يكن باستطاعة أحد أن يستغني عنه . ولهذا السبب تمتع دائما بحريته
 على الرغم من عقائده السياسية . وكان حاكم المنامة منذ فترة طويلة قد

صار محل سخرية للناس اجمعين . وقد مضى وقت طويل منذ ان لف النسيان القانون الذي أصدره ضد الكحول وصار عديم الأثر . بل ان سيارات الاسعاف المختصة في التحقين غابت عن البلدة . فالحانات وغيرها فتحت أبوابها من جديد . وكل شيء عاد الى مجراه الطبيعي على الرغم من التحريم الرسمي الذي وقع هو الآخر ضمن قائمة القوانين التي تحايل عليها الناس ولم يعد لها تأثير .

وما ان انتهى الحفل حتى عادت مسعودة عديمة اللقب الى تعليق فزاعاتها والصقت بالباب الخارجي اعلانا مفاده أن لها ثماني فتيات تريد تزويجهن . ووضعت قائمة بأسمائهن وسجل اعمارهن ومهرس خصالهن . وقررت تزويج فتاة منهن كل ستة أشهر . وجاء دور « عتيقة » وحسبت اصفرهن وهي « سميكة » انها سوف تتزوج في سن الثامنة عشرة مثل شقيقتها التي تكبرها . وكذلك الامر بالنسبة لكل الفتيات الأخريات اللاتي لم يكن لديهن سوى ان يبدن اعجابهن بحيلة والدتهن . فهي لم تكن تبعد أية واحدة منهن عن حق الزواج هذا ، وفي سن متوازية بالنسبة لهن جميعا ، ذلك لأن الفتيات مثل الفتيان كن قد ولدن كل ستة أشهر برتبة المترونوم . ولم يكن هناك من غيور ، حتى شجرة الدر نفسها حين علمت أن رسالة التهاني الأولى التي اتصل بها زوجها قد جاءت رأسا من سيدني . كانت على علم بوجود « كلثوم » وبقصّة الاصبع الذي يرتاح في محلول الفورمول داخل بوقال مغلق موضوع على رف بغرف طالبة في اللغة الانجليزية بالحي الجامعي للمدينة المذكورة . وفي هذا الصدد ، عبرت الزوجة الجديدة عن اعجابها بكلثوم وقالت لحمايتها المتجعدة : « انها صنييدة حقا ... » ولكنها لم تكن تدري بأنه منذ وصولها لم تعد الساعات الجدارية تنفجر في الدار وأن الساعات المائية الوحيدة التي اشتغلت في زمنها لم تعد تقذف بدموع الدم والعرق في كل غضبة من غضبات مسعودة . وبعد زمن طويل . طويل ، طويل . أي عندما زوج محمد عديم اللقب فتاته التوام الأولى تذكر تلك الرسالة من كلثوم التي وضعته مرة ثانية في حالة من النقص بفضل أصلتها وعفويتها .

دار الحاكم ، كانت لا تشبه في شيء قالب الحلوى المرشوش بالسكر
المبلر المجروش . بل كانت تفصح عن ذوق رفيع . اذ لم يبخل رب
الدار بالرجال ولا بالمواد النفيسة . فبعد أشهر قليلة فقط من تنصيبه
على رأس البلدة ، نزل بالمنامة المهندسون والمعماريون والطوبوغرافيون ،
والرسامون والزوقة . كانوا كلهم اجانب طيعين ، يخضعون تمام
الخنوع لأوامر صاحب الدار الذي يدفع لهم أجورا خيالية . وذهب
به الامر الى أن يهتم بأوقات فراغهم ، واضعا في مضاجعهم راقصات
مختصات في مقاومة كآبة ووحشة الرجال المتنقلين ، وراشا أمسياتهم
بالمشروبات المتنوعة والخمر الرفيعة . وقد جنى الحاكم ثمرة جهوده
فبمجرد انقضاء الحول ، تسلم من المقاول الاجنبي المفاتيح المذهبة لمسكنه
الفخم . وكان هذا أشبه ما يكون بخلاصة أصيلة للفن العربي القديم
والعمارة الاسكندنافية المعاصرة . واتضح في عيون اهل المنامة أن الحاكم
لم يفرط في أي نوع من أنواع المواد : فهناك رخام « كارا » وخشب
« كندا » الاحمر ، وصوف الكشمير ، وبلور « بوهيميا » وزجاج
« سيليزيا » ، وفولاذ اليابان اللامع ، وحديد اصفهان المزخرف ...
وكانت الحديقة كثة . لكن لم يغرس بها نبات عباد الشمس . ذلك أن اهل
المنامة لم يعلموا بوجوده الى أن غمدت مسعودة الى غرسه فأصبح تقليعة
متبعة . وكذلك ركب داخل الدار التي لم يكن يخلو منها مكان الا وشقت
فيه النوافذ الجدارية والفتحات ، جهاز قوي للتكييف . ولم تكن الخاصيات
الترويحية ولا الطاقة الطردية لبتلات عباد الشمس معروفة في فترة بناء
الدار . وكانت الدار من الروعة بحيث كان اهل المنامة — حتى قبل

الانتهاء من بنائها — يخرجون للتنزه حول ورشتها الفسيحة . وعندما تم انجازها ، واثت ، وزينت ، تحولت الى أعجوبة محلية ، حتى ان أهل النامة أصبحوا يفخرون بها بدافع من الغرور والزهو . على أنه بمجرد ما حاول الواحد منهم الاقتراب منها ، رد الى أعقابه دون مراعاة من قبل ألام الحاكم وحراسة المسلحين بالعصي الحديدية . وظل الناس مشدوهين ، يذهبون بانتظام لتأملها تاركين مسافة كبيرة بينها وبينهم ، من فوق هضبة أقيمت عليها الحانات والمطابخ ودورات المياه العمومية . بل ان الهضبة صارت مكانا يحج اليه الناس ، منذ اليوم الذي استقر فيها احد المطبيين منتهزا فرصة المختلفين اليها لاستجلاب الزين . وما أسرع ما جعل الناس يصعدون اليه في مواكب متحمسة ، براياتهم وشموعهم العملاقة . وقد أصاب أهل النامة المعروفين بدعائهم عصفوريين بحجر ، واحد كما يقال ، حينما جلسوا يتأملون دار بندرشاه بخنجياتها ، ومسبحها ، ويستغل كل واحد منهم الفرصة فأحدهم يعالج ربوه وآخر بواسيره ، وثالث تسوس أسنانه ... وكان المدرس يصطحب تلاميذه النجباء ، والأمهات اطفالهن الطيعين ، غير أن المسبح وحده هو الذي يمثل مشكلة في حد ذاته . وبالفعل ، فالماء نادر بالنامة ، ومن ثم وجب قطعه طوال النهار للتمكن من ملأ المسبح ذي المقاسات الأولبية . ونتج عن ذلك أن أهل النامة لم يكونوا يحصلون على الماء الا في الليل . واضطرت النسوة الى قلب جدول أشغالهن راسا على عقب ، ونظمن أنفسهن حتى يستطعن القيام بشؤون بيوتهن وغسل الثياب وطهي الطعام وتنظيف الأواني ليلا ، والنوم نهارا . وبلغ بهن الأمر الى أنهن لم يعدن يرين أزواجهن الذين لم يغيروا شيئا من عاداتهم ، ذلك لأن الإدارات والمتاجر والأماكن العمومية استمرت في العمل حسب المعايير النهارية . وكان من نتائج هذا الوضع المعكوس أن انخفض عدد المواليد انخفاضاً واضحاً ، في حين أن النامة كانت الى ذلك الحين ، قد عانت من انتشار ديموغرافي رهيب . ورأى البعض أن الحاكم بملئه للمسبح قد وجد طريقة جيدة لحفز الرجال على التقليل من الانجاب خاصة وأن واقبات الحمل وموانعه ، وغيرها من المعقّمات الميكانيكية ووسائل الاجهاض الماثلة متوفرة في السوق السوداء . وهكذا فبدلاً من أن يصدر الحاكم قانوناً لتحديد النسل ، لن يحظى باحترام أي شخص ويكون مدعاة للسخرية ، أثر — حسب أقوال البعض — اللجوء الى المكر ، فقرر بناء ذلك المسبح الرائع قبل رسم التخطيطات لما صار فيما بعد أجمل دار في البلدة .

وسرعان ما صدم اهل المنامة بهذه الحيلة الماكرة التي استخدمها بندرشاه ونتج عن الحرمان الجنسي وانعدام التوازن بين الازواج وسقوط نسبة المواليد ان اجمع الناس امرهم ضد المسيح العظيم ، فتم تحويله تحت ضغط الجواهر الى حوض ياباني لا يجدد ماؤه الا مرة في الشهر . ويزين بزهور عرائس النيل المستوردة من كوريا الجنوبية وبالسّمك الطيار الذي اهداه حاكم جزيرة القمر الكبرى .

وخلال هذه الفترة بالذات ، استغفل الحمال محمد عديم اللقب وزوجته مسعودة الحاكم بندرشاه ، فجعلا ينجبان توأمين من جنسين مختلفين كل ستة اشهر ، متحدين بذلك نواميس البيولوجيا البشرية ومضايقات الدكتاتور الصغير الذي نسي انه ارسل الى عين المكان للاشراف على مشروع خيالي لري الصحراء واستصلاح الاراضي . وكان ابنهما محمد عديم اللقب قد ولد منفردا بعد حمل طبيعي دام تسعة اشهر كاملة . ولهذا السبب ، كتب عليه ان يعاني من ذلك التمييز بينه وبين اخوته واخواته الذين ولدوا اثنين اثنين . ولكنه لم يعلم ابدا ان نقص الماء ، وانخفاض نسبة المواليد قد دفعا بوالديه الى اتخاذ قرار بالاقلاع عن انجاب التوائم . وكان ذلك منها تحديا ووقفا — ولو سلبيا — في وجه طاغوت اي سلطة مدنية وسياسية في البلدة . ولكن تبقى هذه الخارقة محل اثبات : فالبعض ينطلقون في الافضاء بأسرارهم ، ويزعمون ان حكاية التمرد هذه التي تكون وراء الخصوبة الخارقة لمسعودة انها هي محبوبكة بالخيط الاحمر . بل يشتم منها نفقات الدعاية الشيوعية البشعة التي قام بها ضد الحاكم ذلك الاسكافي الغرير المسالم في ظاهره . على ان الاشياء اكثر جدية في واقع الامر ، وقد وجدت فعلا نواة صلبة من دعاة البلبلة وسط الجماهير . وتلقى هؤلاء تكوينهم في مدارس خاصة بالخارج ، غير ان الاسكافي لم يكن بينهم الا واجهة للتضليل . فهو بمظهره المسالم الهاديء ، يضطلع بدور سري فعال في التمويه الاستراتيجي الهائل . على انه كان من الصعب فك تلك المعضلة المنامية . ومهما يكن من امر فان الدار التي بناها الحاكم لزوجته وبنتيه اللتين تدرسان معا في سيدني ، بالغة الجمال وتكشف عن ذوق رفيع . على ان الشائعات نسبت ذلك كله الى زوجته التي بهرت سكان البلدة بجمالها وثقافتها ورفعتها ولباقتها وانزوائها . لم يكن احد يراها ، بل ظلت منعزلة الى حد ما في دارها الرائعة كانتها هي داخل سجن خططته وانجزته وزينته ونظمته تبعا

لأنواعها ورغباتها . باستثناء مربى السمك الهائل المبني تحت قاعة الاستقبال والذي كان سقفه الزجاجي الصلب بمثابة أرضية . وهكذا فإن الزوار السعداء والمحظوظين الذين يستقبلون في القاعة ، يشعرون وكأنهم يمشون على الماء بين الأعشاب البحرية والأسماك والقشريات وفقاعات الهواء المنفخعة من الجهاز الذي يغذى بالأكسجين ذلك التعبير الصارخ عن وصولية الحاكم . وعندما وصف البعض ذلك النشاز في البناية الجميلة لمسعودة عديمة اللقب قالت : « هذا الامر يدهشني ، فقد كان والده بائع سردين . ولقد رأيت دائها يدفع عربيته الصغيرة وينادي على بضاعته مثل مجنون ليبيع سمكة لسكان الحي الذي ولدت فيه ! انه يحن الى بؤسه الاصلى الآن ، لانه لم يعد يعرف ما الذي يفعله بأمواله ... هذا امر طبيعي ، ليس من السهل القضاء على رواسب الفقر » . وتوقف الامر عند هذا الحد . ولم يعمد احد الى تأكيد او تكذيب هذه الرواية ، لا سيما وانه جرى القول بأنه ليس عيبا أن يكون للإنسان والد يبيع السردين . لعل الحاكم نفسه تنباهى بهذه الشتيمة التي قدمتها لمسعودة . وهي ملاحظة لم يكن لها نفس التأثير الذي أحدثه بين أهل المنامة موضوع نشاطه السابق كبراح في مواخر الساحل . وقد بادر الى كل المحاولات بخصوص هذا الموضوع في سبيل الحيولة دون انتشار الفضيحة ، ودفع الثمن غاليا لاسكات عدوته اللدودة حيث واصل تزويدها بالاسمدة الكاليفورنية . حتى ان اخصاب بستان منافسته كان ضربا من الخوارق اكثر مما كان هو نتيجة للعلوم الفلاحية ، خاصة منذ أن مكنت زراعة عباد الشمس من تكييف الدار بطريقة ذكية قليلة التكاليف . أما في دار بندرشاه فقد حدث العكس ، ذلك أن الربو والزكام احداثا اضرارا كبيرة بسبب آلة تستخدم في تكييف الهواء وتشتغل بواسطة بطارية يحركها خدم محكوم عليهم على الدوام بتأدية تلك المهمة ، لان الصيف بالمنامة يدوم اثني عشر شهرا .

وعلى الرغم من كل ما قيل لشجرة الدر عن الدار وعن محيط المسيح وطريقة ملئه ، وعن أرضية قاعة الاستقبال التي تتخذ شكل حوض أسماك مائل وعن أصل خصوبة حماتها ، فانها مع ذلك لم تشعر ابدا بالرغبة في الصعود الى قمة الهضبة التي تحولت الى ساحة واسعة تحت رحمة بائعي المأكولات الخفيفة والافاتين والمشعوزين وحواة الثعابين بالاضافة

الى عجوز قميء انتهazy يدفع بزوجين من اليام مصبوغين بالوان الحاكم الى القيام بقفزات في الهواء . وعرضت للبيع صور الحاكم بابتسامته الغامضة ، يرتدي بزة استعراضية وكأنه يقول لكل الذين ينظرون اليه : « انني اراقبكم ! » وعندما زودت الحديقة بالفراعات الرهيبة التي بلغ عددها عدد طيور الاذى التي يفقدها الذعر وعيها فتهوي من اعالي الاشجار وتتهشم على ارضية الحديقة حيث تلفظ الروح ، انهكت شجرة الدر في التطريز . حينذاك أدركت انها حامل . اما زوجها فانهمك في اشغاله ، ولكنها بمجرد ان تغيب عنه اكثر من ساعتين ، ينزل للبحث عنها ويصعد معها ليمارسا الحب . كانت تحس به عصبيا ، وخيل اليها انه يبالغ بعض الشيء عندما يضاجعها عشرين مرة في اليوم الواحد . لكنه كان خائفا من عدم انجاب توأمين من جنسين مختلفين على غرار والديه قبل عشرين سنة . وعبثا طمأنته ، واكدت له انها سوف ينجبان توأمين نزولا عند رغبة والدته ، لكنه لم يتمكن من تهدئة قلقه . وواصل ايلاجها بنفس الوتيرة ونفس الاندفاع ، في حين انها كانت حاملا منذ شهر ، وكأنها اراد بذلك الفائض من المنى اخصاب الجنين الى اقصى حد . اما والدته فانتهجت نفس السلوك مع اشجارها ونباتاتها وزهورها الياينة بفضل دماء الطمث والاسمدة الامريكية . وكان السباط الاول من حرير المنامة الطبيعي الذي نسجته « شجرة الدر » تحفة حقيقية بشفافية رسومه ، والوانه المختلفة ، وغرزته البالغة الدقة ، حتى يخيل للناظر اليها انها مطبوعة على النسيج او هي جزء من الحبكة نفسها . وسارعت شجرة الدر الى اهدائه الى مسعودة التي كانت منشغلة بالاستحمام داخل جرة كبيرة مسخنة بخشب الحديقة على الطريقة التقليدية . وانبهرت مسعودة بذلك العمل الدقيق حتى انها خرجت من الجرة ناسية تغطية عريها . ولاحظت كنتها ان جسدها لا يزال على نصارته ، على الرغم من عشر ولادات وان لها ثديين ضخمين يفرق بينهما وشم ازرق رائع . وفاجأت مسعودة نظرة شجرة الدر التي وقعت على عانتها فندت عنها صرخة صغيرة واخفت فرجها الذي يقطر بالماء تحت السباط المطرز . ومنذ ذلك اليوم قيل عن اي شيء تنسجه شجرة الدر بانه « غطاء العورة » . وقد وجدت هذه الأخيرة ، على الرغم من ميلها الى التفكه ، بان التندر دام طويلا فانشفلت بتزيين البسط . وقالت ابنة « مليكة بناصر » عندما عادت لتوها من دار جدتها خلال العشاء : « عمتي منشغلة بتطريز غطاء عورة كبير كبير » . وهذا ما اضحك الوالدين اللذين قصا الحكاية على

أفراد العائلة الآخرين . وفي اليوم التالي ، أطلق على البسط التي طرزتها « شجرة الدر » : اغطية العورة الكبيرة . وبعد بضعة أسابيع ، نال السأم من تلك المرأة الفتية فقررت التحايل على تلك الصعوبة بتطريز الملاءات . وسمتها مسعوده وهي تضحك بـ : غطاء العورة المفرد وغطاء العورة المزدوج . على أن شجرة الدر التي تعبت بحملها وبمعاركها الفرائشية لم تحتل المزحة الأخيرة وقررت تجاوز الناس كلهم . وبدأت في تزيين الأكفان . في اليوم التالي ، جلست واجمة في مكانها المعتاد وراحت تعمل بهدوء على تطريز كفن من الحرير الأخضر . وتجراً « أحمد » عديم اللقب الأخ الثاني لزوجها حين مروره بالغرفة السفلية حيث تعودت ممارسة عملها ذاك ، وواجهها بمزحة مخادعة سائلاً إياها عما تفعله ، فاجابته بهدوء : « انه كفن ! » . فوقف مشدوها كأحمق فاجأته لطمة . فابتلع سفاخته غاصا بها . خاصة وأن أفراد عائلة عديم اللقب أصبحوا متطيرين منذ أن لاقى والدهم حتفه تحت رزمة من ورق الحلفاء . « آه ... إذا كان الأمر يتعلق بكفن .. » وسارع الى الخروج . وهكذا ، صدفه ومن جراء حادثة الحمام نشأت في المنامة صناعة الأكفان الحريرية المطرزة ، التي زعزعت فيها بعد اقتصاد البلدة . فتعاظم مصيرها فجأة الى حد انها أصبحت أكبر مصدر للأكفان الحريرية في العالم . وكان في ميسور عائلة عديم اللقب أن تنعم بالرخاء الاكيد على اثر ذلك ، لأن تلك الصناعة جعلت العملة الصعبة تتساقط على المنامة ، بل انها جرت رؤوس أموال أولئك الذين كانوا بالأمس القريب فقط يفرضون قانونهم على سوق الحرير الكاسدة .

لم يدرك محمد عديم اللقب ذلك الخطر الا بعد زمن طويل . ففي البداية ، كانت له نفس ردود فعل الآخرين ، وابتهج للاختراع الذي جادت به قريحة زوجته وفكر بتوسيع الصناعة المحلية عن طريق تسويق مخزونات الحرير التي تعرضت لمنافسة الانسجة التركيبية والتجمعات الاحتكارية الضخمة ، التي تصنع اقتصاد البلدان الصغيرة وتحطمه حيث تشاء . وهذه الحمى الجديدة التي استولت على العائلة بتلك الصورة الفجائية ساعدته على نسيان قلقه بخصوص مطلب والدته بأن تنجب له زوجته توأمين من جنسين مختلفين . ووقع في فخ المخاوف . وركب الجميع موجة مسعوده المعديّة بينما أشرفت شجرة الدر على الإدارة التقنية . وبمجرد أن بدأت هذه الأخيرة في تطريز الأكفان ، تخلت عن

وضع الرسوم للطيور والاشجار والتهاول العربية ، وانهكت في الخط . وكانت النتيجة باهرة حتى أن العجائز استولت عليهن نوبات هستيريا . وتمنين الموت في اقرب الاجال لكي تحظين بالدفن في كفن من تلك الاكفان الرائعة المنسوجة بأجمل حرير في العالم والمزينة بخطوط تتحدى روعتها العنكبوتية عبقرية بني الانسان . واتضح أن شجرة الدر فنانة كبيرة بالاضافة الى جمالها وتنبؤاتها . وفي البداية ساعدتها التوائم السبع بعد أن تجافين عنها مدة طويلة . ووقعن بعد ذلك تحت تأثيرها منذ اليوم الذي ظهرت فيه بالقرب من الخابية حيث راحت والدتهن تستحم ، وأهدتها ذلك السباط الذي بدا وشيه وكأنه حلم تجريدي منسوج على الحرير بخيوط الازل .

ولم تتمكن التوأم الثانية من المشاركة في هذه العملية البهيجة لأنها انشغلت بتحضير عدة زواجها . فبعد سويغات قليلة من نشر والدتها لذلك الاعلان ، تهافت العشرات من الخطاب على الدار ، فاخترت من بينهم الشخص الذي تحبه سرا منذ سنوات عديدة . وهو شخص يدعى « علي لفته » ، بائع الخضراوات الذي كانت تربطه بمسعودة علاقات تجارية . والحقيقة أن لطافته ومظهره المنعش دوما قد سحراها . كان في واقع الامر بشما قميئا ، أميل الى السمنة . لكنه بالاضافة الى خصائل اللطافة والمسالة جعلها تعتقد أنه رجل ذو مغناطيسية خام ليس في ميسورها أن تتخلص منها . أما الوالدة التي نسيت مزاعمها بتزويج بناتها الى أمراء أصلاء فقد قبلت اختيار عتيقة مثلما فعلت ذلك مع مليكة فيما مضى . وعندما ظهر أن شجرة الدر والتوائم السبع غير كافيات لتأدية المهمة ، استدعى التوائم الثمانية ، فأقدموا على العمل بكل حماس . باستثناء امحمد ، ذلك لأن التوائم الفتيان لم يريدوا التخلي عن تدريب سلاحفهم التي اوكلت مهمة تربيتها الى شقيقهم الثاني ، ذلك الذي لم يعرف أبدا كيف يخطط أو يطرز كفنا . ونظرا لضيق الغرفة التي يجري فيها العمل ، بنت مسعودة فوق الدار ورشة كبيرة مزودة بكل المرافق العصرية . وكانت زوجة ابنها تراقب بطنها وتهتم بأمور زوجها بعد أن تكونت لديه عقدة بسبب خوفه من عدم انجاب توأمين ، وتشرف على تسير ورشة الخياطة وترسم الخطوط العربية التي يطرزها بعد ذلك افراد العائلة بخيط الحرير ذي الالوان الساطعة . كان كل واحد في المنامة يريد أن يحصل على كفته ، ويشتريه بنفسه وهو على قيد

الحياة ، ويحتفظ به الى جانبه في حالة ما اذا داهمه الموت . ولم يكن مثل هذا التصرف ناتجا عن هوس بالاموات بل انبهار بالجمال السريالي لتلك الكتابات . وبعد ذلك بزمان طويل ، طويل ، طويل ، استبدلت التعابير الدينية والصور القرآنية بمراثي اختارها محمد عديم اللقب من بين أجمل النصوص العتيقة . وساعدت هذه الفكرة على تطور السوق السذي اتسع اتساعا هائلا وبلغ نسباً مقلقة . حينذاك أراد زوج شجرة الدر أن يحذر زوجته وأمه من الخطر الذي يمكن أن يجره هذا الثراء المفاجيء على التوازن الاجتماعي أولا ، وعلى الاطماع ثانيا وكما يمكن لهذا النجاح أن يثيره لدى الأجانب . وبالفعل ، فعلى الرغم من التصديرات وتهافت العملة الصعبة ، ظل جزء كبير من أهل المنامة يعيشون في فقر مدقع . وبعد أشهر من ولادة التوائم عديمي اللقب بدأ يفد على المنامة رجال أعمال جشعون وممثلون تجاريون ضخام الجشث وسماسرة مقامة . وعلى الرغم من يقظة محمد فقد تمكنوا من التسرب الى كل مكان . ثم انهم حصلوا بتواطؤ من الحاكم على عقود حقوقا بفضلها أرباحا خيالية بأن باعوا الأكفان المشتراة بأثمان بخسة من عائلة عديم اللقب بأسعار تتوق سعرها الأصلي بمائة مرة . وراح أصحاب الملايين من خليجية يستثمرون أموالهم في هذه الصناعة المزدهرة . وأعقبهم أثرياء آخرون من العالم أجمع . وصارت الأخطار حقيقية ، وبدأت الرأسمالية التجارية تتوطن في المنامة . ولم تستطع مسعودة عديمة اللقب أن تدرك مثل هذا الخطر اذ لم يكن لها متسع من الوقت للتفكير . أما زوجة ابنها فقد انجرفت مع التيار الجنوني العارم الذي داهم البلدة بعد الهدوء الذي عرفتة زمنا طويلا . وحاول علاوة الأحمر أن يشرح للناس عواقب مثل هذا الظرف ولكن كان من العسير منهم من الانتشاء بعد ذلك الحرمان المتأبد .

دام هذا الوضع بضع سنوات حتى أن شجرة الدر نسيت أنها تسمى في واقع الامر مسعودة السعيدة . مع العلم أنها لم تتوقف عن المسعى الذي شرع فيه والدا زوجها رغبة منهما في التحدي . فنسوة هذه العائلة وفقا لهذا المسعى ينبغي عليهن أن ينجبن أطفالا كل ستة أشهر على أبعد تقدير ويضعن توائم من جنسين مختلفين . لأن العزلة كانت تجرف بأفراد العائلة الذين اذابتهم رهافتهم . أولم يكن مولد محمد عديم اللقب منفردا ليشرح تلك الغرائب والمواهب الخارقة ! فهناك الظل الذي يحركه على هواه ويخضعه لقانون يتحدى الفيزياء الفلكية .

وقد كان حذرا بطبيعته لذلك فهو لم يرد أن يتركه ينسحب وراءه أيما ما كان موقع الشمس . ونظرا لتعاظم الخطب ، عادت اليه الرغبة في الرجوع الى عربدته وتدبيج رسائل الغرام وتقسيم ضحكات الاطفال الى نصفين وتغذية طيور الساحة واجراء احاديث مطولة مع جده بعد ان يتعته السكر . وتفتتت الثلج المحفوظ داخل كيس من البلاستيك في المبرد ، وبتر ابهامه الايمن مثلما فعل ذلك مع ابهامه الايسر لكي يتصالح مع والدته . وبدلا من أن يعرف الفرح طريقا الى قلبه ، تزايدت عزلته بازدهار تجارة الاكفان الحربية المطرزة وفوائد المراهقات المستخلصة من صراع الاكباش والاكتفاء الذاتي الذي بلغته عائلته بفضل مواهب مسعودة الفلاحية . وجعل يتسائل أحيانا اذا لم يكن في مقدوره أن يتجاوز هذا النقص وهذه اللعنة التي جعلته يولد وحيدا في حين أن أشقاءه وشقيقاته ولدوا اثنين اثنين مثل فراخ البط الذي يمسك الواحد منهم بذنب الآخر . ويعلم أنه محكوم عليه ، فيزداد احساسه ذاك بوجه اخص خلال تلك الفترة التي ازدهرت فيها تجارة الحرير المخطط بالأبيض .. فراخ الناس كلهم ينشفلون بأمورهم في أماكن أخرى وارتسمت على وجوههم ملامح السرور التي تبعث على الغثيان . وواصلت والدته الانشغال بحقلها ، كما ساعدت شجرة الدر على الاعتناء بتواميها قبل الوضع ، فتصبح أمة بسبب حبها الشديد لهما . وكانت الفزاعات تتماسك هذه المرة وزراعاتها ترضيها . على أنها خيبت ظن ابنها البكر الذي شعر بها أقل حركة وأقل حماسا من عاداتها ، كأن النجاح دفعها الى التراخي . ولاحظ أنها فقدت عنفها وغضبها الجارفين اللذين كانا يستوليان عليها فتفجر حبرها الأسود على الحيطان . ولم تعد تقرقع بحمالات نهديها الا لتسلية حفيديها اللذين لم يولدا بعد ، في حين أنها في زمن العصافير راحت تفجّر الساعات الجدارية بالاضافة الى غضبها لأنها تصارعها على وقتها ولكن بصورة مجانية كأنها تمارس لعبة مع نفسها .

كانت لشجرة الدر كل دواعي الاعتزاز . فجمالها الاسطوري راح يحدث خرابا في عقول الرجال المضربة وحبها لمحمد عديم اللقب لم يتناقص لحظة واحدة . وعلى الرغم من مشاغلها العديدة ظلت واثقة من كسب رهانها بانجاب توائم من جنسين مختلفين . اما عملها في صناعة الاكفان الحربية المطرزة فقد تجاوزت كل المطامح الجنوبية . لكنها سرعان ما نسيت أنها استعارت اسمها من ملكة : الملكة الوحيدة في تاريخ العالم

الاسلامي جابهت العديد من المؤامرات والعديد من التواطؤات ونفخت في امبراطوريتها روح الحرية . وجعلت النساء يعرفن كيفية الاستفادة منها لكي ينقلن الثورة في كل مكان يوجدن فيه ويحاولن رفع السيطرة التي يمارسها الرجال على فروجهن وحقوقهن . وقد ربطن مطالبهن النسوية بمطالبات المضطهدين الآخرين من قبل السلطة . وكانت مصر في ذلك العهد تفتك بها المجاعات والابوة . وبلغت احقاد العساكر الأتراك يومها ذروتها . وسخر منهم الأدباء وصوروهم بأبشع الصور . ووضعوا لهم رسوما هزلية سمروها بمسامير ضخمة . وبدا هؤلاء العساكر عنيدون متصلبون دمويين مخدوعين من قبل زوجاتهم . وقال محمد في ذات نفسه : « هذا موضوع قد يكون منبع الهام لزوجتي » . وبلغ به الأمر أن يأسف على فترة الفراغات السعيدة حين كانت المراتان تمزجان بين ضحكاتها وتلصقان الورق المقوى وتتحدثان عن تاريخ العالم ومصره . في سنة ٦٥٠ أقدمت ملكة مصر وسوريا بعد ثلاث سنوات من الترمل على التزوج بخادمها ، حبا منها في التحدي . ثم انها سرعان ما أرسلته الى الحرب وانتهزت الفرصة لكي تقضي حياة عريضة مع العبيد السود . وتروي شجرة الدر الحكاية بينما تصغي اليها مسعودة بعينين مشدوهتين . لقد كانت للسلطانة بشرة حلبيية ، لذلك تأففت من ذوي البشرة الصافية . وخطر لزوجها ان يستولي على العرش لكنها كانت أسرع منه ، فأمرت بفصل رأسه عن جسده متخذة حذرهما ، واضعة خصيتيه في فمه المفتوح على سعته . اهي الدهشة التي تسبق الموت أم اعتراف من المعذب في وجه جلاده ؟ على اية حال ، لم تدع للاضطراب من سبيل الى نفسها ووقعت في غرام عبد نوبي ، مما أدى بها الى فقدان سلطتها ، فالقانون لم يكن يمنحها مثل تلك الامتيازات . وهكذا انتزع منها عرشها فماتت وهي في السبعين من عمرها في ذروة العشق ووسط احاسيسها الصاخبة . وغضب محمد عديم اللقب على زوجته لأنها وقعت في فخ التجارة ونسيت النموذج التاريخي لتلك المرأة التي كانت ولا شك تتعاب من السأم كلما قطع احد عليها لذتها لكي يطلب منها امضاء أو توقيعاً بالاحرف الاولى . على ان العزلة التي أقضت مضجع عديم اللقب من جديد جعله يقول : « اننا لم نخسر كل شيء » . وفجأة أحس بنفسه متراخيا هو الآخر . وجعل يتعثر ، ولا يقوى حتى على حب طفليه اللذين أوشكا على الخروج من بطن أمهما . في حين تنبأت مسعودة بأنه سوف يكون لهما شعر أمهما وعيون والدهما .

واغرب ما في الامر هو ان الحاكم هو الذي جاء لمساعدته على غير انتظار وبصورة تهرجية كما يفعل حينما يحشر انفه في شيء ما . لم يكن الحديث قد انتهى بعد ذلك العقد مع كشافي المستر براون لبيع ماء النيل حتى صدر قانون جديد لم يكن ينتظره احد . وعلى الرغم من أن أهل المنامة يعرفون تمام المعرفة ولعه بالتمويه الا انه باغتهم هذه المرة . بما فيهم محمد عديم اللقب . ناهيك بأمة مسعودة التي تملكها جنون الفزاعات من جديد ، وكذلك شجرة الدر التي شغلت كثيرا بالبحث عن الاشكال الخطية الاصلية . على انه ذات صباح من يوم السبت وعلى الساعة التاسعة بالضبط تحشرجت مكبرات الصوت الموضوعه في أماكن حساسة مصدرة كريرا اربع الطيور في الساحة وأرهب المشاركين في المسابقات الاعتيادية . ولم تكن تلك المكبرات قد تقيأت سموم المراسيم منذ صدور القانون الذي يمنع الكحول . واصطف الجميع لسماع نشيد الحاكم الذي لم يكن الا نوعا من الاقتباس الاخرق لمقطوعة « رسالة الى اليزا » لبيتوفن . وراح الجميع يبالغ في التظاهر ، لانهم لم يكونوا ليهتوا بشيء باستثناء الطيور بل كانوا راضين بكل شيء املا منهم في الحصول على الراحة والوقت لكي يستسلموا لاهوائهم بكل حرية . ومهما يكن من امر فان محمد عديم اللقب يعلم ان بندرشاه وظف من صنائعه ومتسقطي الاخبار واختارهم من بين هؤلاء المهوسين بزقزقة الطيور وشغشقاتها . وبعد الاستماع الى نشيد اليزا وسط صخب الطفيليين وجعجة الطيور التي عادت مسرعة الى الاشجار بعد ان تعرفت على صوت الحاكم الذي لم يعد يخيفها ، اصفى الحاضرون لمضمون المرسوم بتلك السرعة في السرد التي يعرفونها عنه . ولكونه اميا ، فقد كان يحفظ خطبه عن ظهر قلب قبل التفوه بها . وهذا ما كان يمنح كلماته تلك الوتيرة المنقطعة المبهمة الشائنة المتعجرفة . وعلم الناس أيضا انه عندما يتلو مرسومها هاما عليهم يحزم نفسه داخل بذلة المراسيم مثلما يظهر في الصور التي تباع على رأس الهضبة المواجهة لمسكنه الفخم . وجاء المرسوم موجزا شديد الابهام ، يقضي بمنع الزواج بين الشاذين جنسيا ابتداء من ذلك اليوم وعلى الساعة الصفر . وبلغت دهشة الناس الذروة ، فما كان أحد يعرف ان هناك شواذا في المنامة ناهيك بوجود من يعقد مثل هذا الزواج . وفجأة شعر كل انسان انه معني بالمرسوم . وقصص كل رجل اليته دون وعي منه . ونفخ صدره وتقمص هيئة مصارع ثيران في الحلبة . ولكن ما كان هناك شيء ليغير الامر . فالدودة داخل الثمرة وكل واحد منهم يشعر

بان المرسوم وتلميحاته تشير اليه . وسيطر التوجس على البلدة وتوقف كل نشاط ذلك ان الناس ارادوا ان يعرفوا مغزى هذه الحكاية . اما عائلة عديم اللقب فقد تلوت ضحكا بدلا من أن تفجع . كانت لمسعودة نوبات ضحك تهز الفزاعات المشدودة الى الاشجار . واضطرت شجرة الدر الى ان تشرح كلمة « لوطي » لابنة اخت زوجها . اما محمود عديم اللقب الذي شغل باصلاح مبرد قديم عاطل فجعل ينظر الى نفسه على صفيحة مصقولة وبما انه كان أمرد بعض الشيء فقد قرر أن يترك لحيته تنبت على هواها وأن يطلق شاربيه لصد أي احتمال . واكتشاف طائر من طيور البغاء التي علمها محمد الكلمة الجديدة فراح ينشدها بكل لغات المواني ، كأنها هي تهمة مضيئة لسكان النامة كلهم . وفي الطرقات اخذت ربح حذقة فاترة تزف ثانية . ولم يعد الافراد الذكور من العائلة الواحدة يتبادلون القبلات حين الفراق أو حين اللقاء ، ورفض الآباء ان تطبع القبلات على أياديهم كدليل على الخضوع والاحترام من قبل الأبناء . ولكن أدهى ما في الامر كله جو الحذر الذي استقر ثانية بالبلدة بعد ان كنسها الرخاء . ومثلما يحدث في هذه الاحوال تسببت الوشاية في خراب البيوت وهوجمت مكاتب الحاكم من قبل الوشاة الذين اتخذوا حذرهم فأخفوا وجوههم لكي لا يتعرف عليهم أحد . وبما أن الهاتف لم يكن موجودا في البلدة ولا غيره من المرافق العصرية الأخرى فان ناقلي الاخبار لم يستطيعوا اغفال ذكر اسمائهم على غرار ما هو معمول به في البلدان أو في المدن الأخرى التي واتاها الحظ فلم تنعزل عن العالم بمثل تلك الاسوار التي شيدتها الحضارات والعهود المختلفة . وقد رأى الناس اخوة واقارب يفضح الواحد منهم الآخر ، بينما راحت النسوة غير الراضيات عن نقص الحيوية لدى ازواجهن يصوبن نحوهم اصابع التهمة لدى السلطة الزاجرة . واختلط الحابل بالنابل ، وتكثف الجو بنوع من الذرات الملبسة بمعادن بنفسجية متأكلة ، اشد من غلاف غصري يظل معلقا على ارتفاع عشرين مترا من الارض . ولم تعد القضية تتمثل في معرفة من اللوطي من غيره ، لأنه منذ تلاوة المرسوم راح كل واحد يلصق هذه الصفة في كل انسان . وعلى العكس من ذلك ، لم يكن أحد يستطيع فك اللغز حول قضية الزواج هذه . وبالفعل ، فان الناس الذين كدرهم الامر تساءلوا كيف انهم أغفلوا من قائمة الدعوات لمثل تلك الحفلات وكيف انهم لم يسمعوا أي حديث عنها .

ولم يكن محمد عديم اللقب أقل الناس انشغالا بهذه القضية بطبيعة

الحال لأنه معروف بفضوله الاسطوري وبارادته في فهم الظواهر . وهكذا راجع كتبه . . . واعادة قراءة ابن خلدون ليعرف اذا لم يكن قد اثار الى مثل هذه الطقوس المتجاوزة جدا في هذه المرحلة لتطور عقليات البلدة . سأل المخطوطات . استشار الاسكافي العجوز . ذهب يسأل حارس محطة البنزين التابعة للحاكم ، الذي ظل يستمرىء الخمر الذي سكر به قبل عشرين سنة في بورسودان والذي كان عميد المنامة وهو في الثامنة والعشرين بعد المائة . دون جدوى ولا طائل . وهكذا قرر اقحام عائلته كلها لمحاولة فك هذا اللغز الذي بدا له خاطئا او مرقعا بخيط غليظ من قبل بندرشاه . وكان أن تدهورت تجارة الاكفان الحريية المطرزة ، وترك حقل مسعودة عديمة اللقب على هواه فزحفت عليه الاشواك . ثم ان العصافير بدورها خربت الفزاعات الرهيبة التي بثت الرعب فيها زمنا طويلا . وعزف أمحمد عديم اللقب عن تربية سلاحف السباق التي تعود تدريبها كل صباح خارج الاسوار . وتوقف كل نشاط . وجعل كل امرئ يحاول فك اللغز حسب امكانياته . وفقدت مسعودة عديمة اللقب بهجة الحياة . وتقاذفتها الشكوك والظنون خشية أن يكون ابنها محمد مصابا بتلك العاهة ، بسبب ولادته وحيدا منفردا .

عندما حطت شجرة الدر حملها كما يقال بلغة المنامة المزهرة ،
اي تواميهما الاولين من جنسين مختلفين ، لم يبق الا شهران على زواج
عتيقة عديمة اللقب ، التوام الثانية من على لفطة بائع البقول . ولكن في
الليلة التي سبقت العرس ، انفجرت قضية منع الزواج بين الشواذ ،
وفشل المشروع كغيره من المشاريع الاخرى العديدة . وارتاح لذلك كما
قيل العريس الذي بدا الهلع يسيطر عليه بعد ما اصاب احلافه الجسد
من رخاء واضطراب وشذوذ . كان يؤمن بالخرافات ، لذلك خشي
مصاهرة عائلة منشغلة ببيع الاكفان فيفقد بذلك راحة باله . ولهذا
السبب قيل عنه انه الوحيد الذي فرح حقاً وصدقاً بالمرسوم دون ان
يفهم منه شيئاً . وصار بالتدريج مناصراً متحمساً للحاكم . وعندما علمت
مسعودة بسلوكه قررت ابطال الزواج ابطلاً تاماً . ولم تر عتيقة أي حرج
في مسايرة عائلتها التي لم يكن لها أن تصاهر شخصاً يقدم للحاكم كل
صباح ، فضلاً عن كل شيء ، حبات البطاطا الكبيرة التي تزن الواحدة
منها خمسة كيلوغرامات . غير أن هذا الخبر دفع بالدم الى رأس
والدتها . وبما أن بستانها جعل يتدهور ولم تعد تقوى على تبريد الدار
بواسطة عباد الشمس الذي تعطل هو الآخر عن النمو ، فانها لم تستطع
كبت غيرتها ، وقطعت العقد بين ابنتها وعلي لفطة المكس بالنعسان .
وذات صباح عثر على جثة عتيقة داخل كفن رائع أخضر مطرز بالحريز
الابيض . لقد غابت اذن دون أي صخب أو زبد ، وتدفرت بأغطية الظروف
الطارئة التي تسببت في العديد من الخرائب ضمن عائلتها . أما والدتها
فقد افلتت من يدها زمام الامور . ذلك لأن عتيقة لم تقل شيئاً ، ولعلها

نسيت أن تودع أهلها ومعارفها بسبب الحزن الشديد الذي انتابها قبيل انتحارها المثالي على طريقة اليرقات التي تنفلق حول خواتها في شبكات من الحرير الناعم . لقد تأسفت دائما لعدم احتضانها لتلك الشرائق تحت جلابيها الدافئة المملأ بصخب الحياة القوية وبالتناقضات التي تغذيها بمقدار ما كانت والدتها تزرع ثراتها وبقولها وزهورها المروية بدم الطمث الذي يحمل في بذوره أشد العواصف خرابا وأعظم الكوارث والطف أشكال الحنان الشبيهة بالندف الثلجية التي لم تتساقط على المنامة الا مرة واحدة . شخصية فذة ! أدهشت الناس كلهم حين وقع اختيارها على بائع البقول التافه النعسان ، مع أنه بمجرد نشر الاعلان ، طلب يدها أجمل الرجال وأكثرهم صدارة في المجتمع وأشدهم حنينا وتوقا . لقد ذهبت اذن حاملة معها سرها المبطن بعد أن فصلت ثوب موتها من أنسجة الغياب الاخضر . ونزل هذا الاكتشاف كالكارثة على العائلة . اما مسعودة التي تملكها شعور قاتل بالذنب فقد وقعت مغشيا عليها . وبعد أن عاد اليها صوابها بعد بضعة أيام كانت عتيقة قد دفنت خلال جنازة عظيمة ، بينما فقدت هي قدرتها على النطق . لقد صدمها ذلك الانتحار اللامعقول ، ذلك أن بنتها بدت أنها موافقة على ابطال الزواج . وادى الحداد الى افلاس العائلة افلاسا تاما في وقت أوشكت فيه على الغرق بعد الجمود الذي سيطر عليها على اثر قرار الحاكم . وبعد أن استعادت مسعودة رشدها ، جلست على أريكة في غرفة الاستقبال الكبيرة . وبرزت من النافذة الاغصان المتيسسة المعقودة لعباد الشمس الذي اثار فيها مضى اعجاب الجميع . في مكانها لاتريم ، تدبر بؤبؤيها بأسرع مما كانت عليه خلال العشيات الرائعة التي تقضيها في صناعة الفزاعات ، وتستمع الى شجرة الدر التي تدفعها الى السرور وقد جعلتها الفاجعة تتلعثم في حديثها وترغي ، كأنها ترغب في التخلص من سر عظيم ينقل عليها ، غير أنها ما كانت لتتوصل الى ذلك على الرغم من كل العناية والعطف اللذين أحاطتهما بها عشيرة عديم اللقب بأسرع ما يمكن . وجمعت العائلة صفوفها في مواجهة اللسنة السليطة ونذر الشر التي زعمت بأنها وقعت تحت وطأة الشقاء منذ أن شرعت في تجارة الأكفان وتحدثت تحديا صارخا ذلك المصير الذي كان من المنتظر أن يبددها ويشقتها فردا فردا . وكان الناس يحسبون حسابا لحظوظ كل شخص منها وينتظرون أن تحدث سلسلة من الوفيات العنيفة في صلبها . بل ان الكثيرين منهم راحوا يزعمون بأن الشخص القادم الذي سيخيظ كفه

ويغلق نفسه داخله انها هو امحمد توام عتيقة . ذلك انه اول من علم ان زوجة اخيه قررت صناعة الاكفان المطرزة عندها دخل غرفتها ، ولعله قال لها حينذاك : « هل تتقدم صناعة غطاءات العورة ؟ » فأجابته : « بلى انها تتقدم بصورة لا بأس بها » . على انه في واقع الامر سالها عما تفعله ، غير انها وهي الصامدة ، ردت عليه وقد فرحت بالتأثير الفجائي : « انها مجرد اكفان » . لقد فوجيء حقا وهو المغموم بتربية السلاحف التي كرس لها وقته املا في تنظيم منافسات تشتهر عبر العالم ، وتحل محل مصارعات الاكباش التي يراها عنيفة جدا . وعلى الرغم من تلك التقلبات ، فانه لم تحدث أية بلبلة في العائلة بفضل برودة دم محمد عديم اللقب وزوجته . ولم يغلق محمد على نفسه في الخابية التي تستخدم للاغتسال حتى ينجو من الموت ، ولم يعمد الى التغابي فيترك حيواناته لمصرها . ولم تصدق أية واحدة من التوائم تلك الترهات التي تروى حول التحار عتيقة . وفعلا ، فقد راودت محمد ذات يوم الرغبة في الاتصال بالفقيدة فسكر سكرة شديدة . وعينا انتظرها طوال اليوم التالي في فناء الدار بوجه عبوس قمطير . أراد أن يريح قلبه على الرغم من معارضة زوجته التي لم تعد تؤمن بالاشباح منذ أن تم في قريتها الاصلية بناء محطة وراح القطار يعبرها مرتين في اليوم الواحد . لقد لاحظت أن صخبه العنيف حال دون خروج الارواح الشريرة من قبورها بعد أن أرقها الندم ومنعها من التجول في المنطقة . غير أن القطار لم يكن قد وصل الى المنامة على الرغم من أن الحديث قد سبق أن جرى حول موضوع الوعود التي قطعت منذ عشرات السنين . وعلى أية حال ظل العديد من الناس بالمنامة يؤمنون بالظواهر الخارقة الغريبة . على أن ذلك لم يكن حال محمد عديم اللقب الذي تعود الى حين لقائه بمسعودة السعيدة أن يتحادث مع جده بفضل الرؤى الناجمة عن الافراط في الكحول . ولا مناص من القول بأنه منذ زواجه لم يعد يلجأ الى مثل تلك التصرفات ، بل انه فقد عادته السيئة في الوقوف موقف الحذر من كل شيء وفي عدم ترك ظله ينسحب وراءه . واعترف الناس ايضا بأنه عمل كثيرا على نقل عدد كبير من مواهبه نحو مناطق أخرى من احاسيسه . بالاضافة الى انه اندفع رأسا نحو السعادة البريئة الى ذلك الحين باستثناء الهزات التي عبرتها بعض السحائب المتولدة عن الثراء السريع وعن خوفه من أن يخيب ظن والدته . فقد اشترطت انجاب توأمين للحفاظ على السلالة التي ازدادت هشاشتها وعرضيتها لكونها لا تحمل أي اسم مثل سائر الآخرين . ولانها اضطرت

ان تكتفي منذ اربعة اجيال بهذين الحرفين الاولين وما ينطويان عليه من اغفال للهوية ونكران وشطب اسف بها كل الاسفاف . ولم ينج من ذلك حتى جده محمد عديم اللقب المكنى بونفوس الذي راق له ان يفقد مرتين متتاليتين وجهه وانتهى به الامر الى ان يغرسه في اللج الرخو ببصباحه المضموم الى صدره وتلك القصاصة من الورق التي سبق ان كتبها شخص آخر وانكشفت في قبضته المغلقة أبدا : « اسمي محمد عديم اللقب » .

الم يترك نفسه يموت من البرد تماما مثل عتيقة التي أغلقت على نفسها داخل كفن بعد أن خاطته على جسدها ؟ لقد ماتت ميتتها فعلا . واذا لم يكن أحد من افراد العائلة قد شك في زوجة الشقيق الأكبر ولم يتهمها بأنها جرت الشقاء على العائلة فان هذا لم يمنع من القول بأن انتحار عتيقة صار يثقل على ضمائر الجميع . بل وزاد الناس فقلاوا بأن انتحار مسعودة التي ظلت خرساء انما هو دليل ملهوس على الشقاء الذي نزل على هذه العشيرة المتكاثرة الشاذة المقلقة الذائعة الصيت في المنامة .

لقد جاء ذلك الموت في وقت أغرق فيه لغز الحاكم البلدة في حالة من الاختناق المستديم واصاب عائلة عديم اللقب بالجمود ولم تراود الناس الا فكرة واحدة . من كان ماذا ؟ من كان هذا ؟ من كان كذلك ؟ من لم يكن كذلك ؟ من كان الذكر ؟ من كانت الانثى ؟ كيف يعقد مثل ذلك الزواج الغريب ؟ هل هناك من خطاب ؟ وبما أنه لم يكن في مستطاع أحد أن يجيب على أسئلة شائكة مماثلة ، فقد شاور الناس امام المسجد . وبين تنسك وتفسير أفلت من فيه حكمه الثوري : أن الدين الحنيف متسامح مع الشذوذ ، وحيث أن هناك عقود زواج فليس هناك أي منع مطلق . وظل الناس على سذاجتهم . وأعلن الكفرة بأن الامام واحد منهم ، وبقي الآخرون موزعين بين موقفين غير مريحين على الاطلاق . وبالفعل فان هم آمنوا به وقعوا في الورطة وان هم احجموا فان ذلك يعني انهم لم يؤدوا واجبه الديني . وتعمدت المشكلة أكثر من ذي قبل ، وانقسمت البلدة الى قسمين : قسم يناصر الحاكم وقسم يخاصم الامام . وقاطع الحاكم صلاة الجمعة وكل الادعية الاخرى مثل صلاة الاستسقاء وصلاة الغائب وصلاة الترحم وغيرها من الصلوات التي لا تقل الواحدة منها أهمية عن الأخرى . اما الامام فأحجم عن الذهاب الى الحفلات الساهرة التي يقيمها الحاكم ولم يختلف بعد ذلك الى ديوانه حيث يدخن زواره النرجيلة ويتحدثون في الفلسفة ويستمعون الى بعض الشعراء التفهاء وهم يمدحون سيدهم بقصائد طويلة . أعلنت الحرب بين الطرفين ولكن بدون ايمان

كبير منهما ، ذلك انهما كانا يعلمان تمام العلم انه بذلك يبطل احدهما مفعول الآخر . وما اسرع ما تخلت البلدة عن تلك الحمى الجديدة التي استولت عليها بعد الحكم الذي اصدره الزعيم الديني وعاد الجميع الى طرح السؤال الجوهري : اين يوجد هؤلاء اللوطيون الذين يغالون في تحرشاتهم الى درجة عقد الزواج فيما بينهم ؟ وكرس محمد عديم اللقب وقته كله لهذه القضية . وساعدته زوجته بكل جدية . اما مسعودة فانها لم تتحس كثيرا في بحثها عن الحقيقة . بل ان ابنائها ظنوا انها تبدد الآثار وارتابت زوجة ابنها في امرها فشكت في انها مطلعة على السر ولعل مسعودة ارادت حماية بندرشاه لانها قد تحتاج اليه حينما تعمد الى تنظيم بستانها . على انها في واقع الامر كانت تتخوف من أن تكون عائلتها على صلة قريبة او بعيدة بهذا الصنف من الناس . اشتد قلقها بوجه خاص على ابنها البكر الذي كانت حساسيته طالما ادهشها وجودها لدى الرجال ، بل وأكثر من ذلك كانت تشتتم من هذا القرار نوعا من التآمر الدنس من قبل عدوها اللدود لكي يلطخ سمعتها ويعاقبها على غرورها واحتقارها له . ولم تتمكن من أن تفهم فهمها واضحا طبيعة هؤلاء الافراد الذين يتحدث الناس عنهم كثيرا . ها هي اذن قد صارت محتشمة لا تجرؤ على طرح الاسئلة التي تعبر ذهنها بعد أن كانت تطلق الكلام على عواهنه وتقرقع بحمالات نهديها . وجاء اليوم الذي دخلت فيه غرفة زوجة ابنها بمظهر العبي المتآمر وبعد الف والدوران سألت بصورة مندفعة : « قل لي ... هل يستطيع هؤلاء الناس الذين يجري الحديث حولهم كثيرا انجاب اطفال ؟ » غير أن قهقهة كئنتها الجمتها . وسارعت الى مغادرة الغرفة وقد ساءها أن تتصرف بتلك السذاجة الطاغية . كان الأمر قد بلغ ذلك الحد عندما أقدمت عتيقة على الانتحار فقلبت كل شيء راسا على عقب واستقر الشقاء في الدار ، وردت الجفاف الى البستان وتهرأت الجدران ، وفقد الاثاث مساميره ، وأضاعت الساعات الجدارية اوقاتها ، وفقدت الطيور لون زقزقتها ، وسيطر الفراغ بثقله ، وأحجمت الزهور عن استخدام روائحها لتظل مزهرة خلال القيلولة الماحقة ، ولم تعد الظلال تنحت الزمن بامتداداتها الاعتيادية ، وفقدت الشقيقات التوائم قوتهن الخارقة في دفع دوراتهن الشهرية . بل وأخطر من ذلك كله ، صار سلوك الفزاعات غريبا . فقد سمحت لنفسها بالقدوم الى المطبخ وفتح الثلاجة والاطلاع على ما اذا لم تكن بداخله زجاجات البيرة لأن الشمس في الخارج كانت شديدة الوقع ، ولم يعد هناك من شيء يمكن

حراسته ، بعد أن تركت المزروعات لشأنها . وخلال ذلك ظلت مسعودة على خرسها وأدارت بؤبؤيها في محجريها بسرعة مذهلة كأنها تريد أن تقلد عباد الشمس وخيل إليها أنها تسمى كل طفاة التاريخ يدخلون غرفتها ويجلسون الى جانبها على الأريكة حيث تقضي ساعات نهارها ، وزجاجة من البيرة الباردة في يدها ، فيتقاطر جليدها شيئا فشيئا . وسيطر عليها خوف داحر حتى أن عينيها جعلتا تدوران دوران الخدروف كأنها تريد أن تطلب النجدة . وكانت تصر بأسنانها ، وتقرقع بحمالات نهديها ، وتحدث صخبا يصم الأذان ، ويبلغ أطراف الورشة التي كان يصنع فيها كل يوم خمسون كفنا من الحرير الأخضر المطرز بالخطوط الأثرية . حينذاك يهبون لمساعدتها ، وما كان أحد منهم يفهم ما تريد التعبير عنه بتلك الكلمات التي تحتبس في حلقها ولا تقوى على القذف بها . وتبذل في ذلك جهودا مضنية تتضح من أعصابها وعروقها المنتفخة التي كان اعوجاجها يشوه وجهها بصفة بشعة . على أن صديقة إحدى التوائم هي التي أدركت أسباب ذعر والدتها : « أنها تهذي . ينبغي تحطيم الفزاعات » . وما أسرع ما عمدوا الى التقاط تماثيل تلك الشلة وكدسوها وأحرقوها فسي الحديقة مستصحبين معهم مسعودة لكي تشهد تلك النهاية بنفسها . ومنذ ذلك الحين لم تعد تخشى شيئا بل ظلت جامدة وفقدت عيناها حيويتهما ، الى حد أن أبناءها راحوا يتساعلون اذا ما كانوا أحسنوا صنعا بالقاء الفزاعات الى النيران .

و ذات يوم وصلت رسالة من كلثوم يحمل مظروفها طوابع عليها صورة ملكة انجلترا . لم يتجرا محمد عديم اللقب على فتحها اعتقادا منه أن دارهم المنكوبة لا يمكن أن تتحمل ازمة من ازمات الغيرة من جانب زوجته . على أنها انفجرت بعد شهر قائلة : « افتح هذه الرسالة اذن ! ولا يذهبن بك الظن الى انني غيورة وانها ستظل في البيت طول الحياة . سوف ينتهي الامر بالأطفال الى أكلها وقد سبق لانيك أن لعق لصاتها كله » . وفتح محمد المظروف . وبعد بضع دقائق من القراءة ، أطلق ضحكة رنانة ، حررت نفسه وجعلتها طليقة في تلك الدار التي يوجد فيها ابنها . وأرادت أن تقول شيئا ولكنها تذكرت أنها فقدت صوتها ، فمالكت نفسها لكي لا تنفجر : « انها مكيدة أخرى من ذلك الحاكم الاحمق ! » . وفي تلك اللحظة بالذات دخل ابنها الغرفة والرسالة على أطراف أصابعه وقال : « امه ، ان اللوطيين الذين يتزوجون فيما بينهم موجودون في قصر بندرشاه . هذا ما هو مكتوب في الرسالة » . وبالفعل كانت كلثوم قاطعة

في اتهاماتها تلك . فحينما استقر الحاكم قبل عشر سنوات من ذلك التاريخ بالنامة ، وبنى داره الرائعة ، استقدم من خارج البلدة جالية من السود للعمل في خدمته . كانوا عشرة أفراد في مجموعهم ، يعيشون في الطابق الارضي ويضطلمون بمختلف المهام البيتية بالقصر ، وينتسبون الى الدين الزيدي الذي يعتبر المال والاطفال تفاحة شقاق بين الناس . ومن ثم راوا انه من الاصلح لهم الغاء المال والاطفال حتى يعيشوا في تناسق تام . ولم يكن اعضاء هذه الطائفة الدينية يعملون من أجل الربح . واطلع الحاكم على أمرهم ، فانتهاز الفرصة بأن وضعهم في خدمته . وكانوا يمارسون اللواط حتى يتفادوا انجاب الاطفال . ثم انهم يعملون في صمت وبفعالية ويعيشون فيما بينهم ولا يتسببون في أية مشكلة . وكان لهم الحق في ثلاثة أيام من الراحة سنويا لزيارة اهليهم المقيمين على الهامش ، دون الدخول في أية ضراعات مع جيرانهم . ذلك أن هؤلاء قبلوا منذ فترة طويلة قواعد حياتهم وتركوهم ينظمون عيشتهم على هواهم . وكان للشذوذ بينهم تشعبات طقوسية وروحية . ثم انه كان مقدسا الى حد انهم يفضلون الموت بدلا من مضاجعة النساء . وكان منهم قلة من الذكور المولدين حكم عليهم عن طريق الاقتراع بنكاح النسوة للحفاظ على نسل الجماعة شريطة أن لا يبلغوا درجة الالتذاذ والا وقع عليهم غضب الآلهة . وذات يوم خشي الحاكم أن ينكشف أمر هؤلاء الناس فتخيل أن مسعودة عديمة اللقب مطلعة على القضية . فراح يحاول استباق أية فضيحة لصرف النظر وابعاد الشكوك عن داره وانقاذ سمعته مع الحفاظ على خدمه . وقدمت رسالة ابنته عنصرا ثانيا حول الاسباب التي دفعت بأبيها الى استصدار قراره في حين ان ناس النامة يجهلون هذه القضية كل الجهل : اذ كان ملك خليجية قد طلب يد ابنته الكبرى فانتعش الوالد لهذا التشريف واراد أن يبرهن لصوره القادم الذي ينضح بلده بالبترول بانه مثال يحتذى في التطهر .

وعند تلاوة تلك الرسالة ، غابت مسعودة عن وعيها . وحين استفاقت ، اكتسبت صوتا جهرا لم يعرفه أحد عنها وصاحت : « سوف يدفع الثمن ... هناك ضريبة دم بيننا الآن ... الحمد لله على انكم لستم منهم ... لقد الجمني الذعر » . وتوجهت لابنها : « الأفضل لك أن تطلب من تلك التافهة أن ترد اليك ابهامك على متن أول باخرة . وخلال ذلك ينبغي ترميم هذه الدار المتداعية » . وعلى الرغم من مرور

فترة قصيرة على وفاة كبرى القوائم العازيات ، فان ذلك الخبر الذي
 ارسلته كلثوم ذوب التوتر مثلما تنصهر قطعة سكر داخل فنجان من
 القهوة الساخنة . وتخلصت عائلة عديم للقلب من العبء ، ولكنها
 اجمعت عن افشاء السر حتى لا تخون ثقة كلثوم ، وتسمح لابيها بصب
 جام غضبه على هؤلاء المستخدمين المساكين الذين قد يبيدهم عن آخرهم
 ولا شك . وأحاط أفراد العشيرة الامر بالكتمان التام . ولم تكن الام
 متفقة مع ابنائها بخصوص اخفاء مهزلة الحاكم . لكن كثرة الاعمال والامور
 التي تود تبيانها منعتها من مجابتهم لذلك فانها قررت اعادة بناء أسس
 الدار التي هزتها تلك الحوادث الفجائية ، وشوحتها نباتات الحديقة
 بجشعها . وكانت الجذور قد تركت وشأنها ، فأرسلت فروعها تحت
 الدار للهروب من الشمس ، بينما أدى نقص الظلال والرطوبة الى
 انفجارات مدوية في الاسمنت المسلح واهترأت أخشاب الأقبية . كانت
 تريد ان تغرس الحديقة ثانية وتصنع فزاعات جديدة وتزرع نباتات من
 عباد الشمس أضخم من تلك التي زرعتها فيما مضى . فعلاوة على تبريد
 الدار تبريدا طبيعيا ، يمكن لتلك النباتات أن تشغل طاحونة عائلة صغيرة ،
 نالت تفكر دوما في بنائها في اعماق الحديقة وبمساعدة ابنائها وتستكمل
 بذلك استقلالها الغذائي ولا تصير مرهونة بأهواء الرياح . لم تكن
 الشمس لتنقص ، ثم ان عباد الشمس يمكن له ان يسير الطاحونة بعد
 استبدال اجنحتها ، وهذا بفضل الطاقة الشمسية . وبقيت امامها صناعة
 الحرير . لقد تركتها معلقة ، غير ان زوجة انها سارعت الى حرق ما
 يبقى من الاكفان والقماش وغيره من أنسجة الغياب الاخرى حتى لا
 يحتفظ الا ببعض النماذج على سبيل الذكرى وكشهادات على عهد زاهر
 منصرم . وعلى أية حال فان الناس لم يعودوا ينادونها الا باسم
 « الدر » ، ذلك لان مسعودة التي ظلت تعاني من بعض الصعوبات في
 النطق على الرغم من صوتها الجهر الجديد ، كانت تنزع الى اختصار
 الاسماء واتخاذ الطرق القصيرة الخاطفة عبر الاشياء والحاجات والاحداث
 كأنها تريد ان تواجه اي طارئ من طواريء الامور . ثم انها ارادت ان
 يستمع بالوقت الكامل لكي تصنع كل شيء من جديد وتتجاوز هكذا ذنبها
 العظيم ازاء ابنتها التي توفيت عذراء على الرغم من ذلك الدم المتدفق
 الذي طالما روى الحديقة . واطلعت ايضا بملء الساعات الجدارية بعد
 ان فرغت من زمنها مثلما تفرغ أية حياة ، وأولتها عناية خاصة . ومنذ
 ذلك الحين خولت لنفسها حتى الاشراف على حراستها وتعديلها ثم

تسترق النظر اليها بعين واحدة حتى لا تعتمد على الفتن ولا تلتهم الايام بدون عقاب ، اذ اصبحت تلك الآلات الشيطانية ذات قيمة جوهريه بالنسبة لامرأة جاوزت الخمسين .

ولم يقدر للبلدة ان تعرف خاتمة قضية اللوطيين ومر الزمن شيئا فشيئا وعفى عليها ونسي الناس هذه الحكاية التي صدمتهم زمنا طويلا وفرقت فيها بينهم وثبطت عزائمهم . غير ان نشاط مسعودة الخارق سرى فيهم سريان العدوى واستعادت الحياة مجراها بمضايقاتها الاعتيادية ومصارعة الاكباش ومسابقات الغناء بين الطيور ، وامتلأت المقاهي بلاعبي الدومينو ، وزاول الناس أعمالهم اليومية . وعادت تربية دود القز الى احسن مما كانت عليه ، وتحدى العديد من الصناع مصائرهم ففتحوا ورشات عادوا فيها الى صناعة الاكفان الخضراء الشهيرة . ووهبت الدر رسوما وخطوطا للذين طلبوها منها ، ولكن عندما لم تعد تمتلك شيئا منها في ادراجها شعرت بالثقل ينزاح عن كاهلها واتخذت بضعة ايام من الراحة لأول مرة منذ دخولها دار عديم اللقب ، واغلقت البيت على نفسها . ومنعت دخوله حتى على زوجها الذي تضاعفت قواه التناسلية منذ ان عرف بأنه ليس شاذا بفضل الرسالة الآتية من استراليا . على ان تجارة الاكفان تطورت بصورة تدريجية وأبعد الوسطاء الاجانب بكل لطافة ، رغم مقاومة الحاكم الشرسة . فقد حاول بالمضايقات الادارية وباختلاس الاموال والتهديدات المباشرة ان يمارس ضغوطه على الصناع الذي انتظموا منذ ذلك الحين في تعاونيات مسيرة ذاتيا بمساعدة الدر . فهي التي خطرت عليها فكرة الكفن الاول حتى لا يطلق — تندرا — على كل ما تنسجه اسم : « غطاء العورة » . أما الماخور الذي أغلق ابوابه خلال الازمة ، فقد فتح من جديد ، وعادت النسوة المشطورات الى شطرين اثنين بالوشم الى الدورات الموسمية : سبع يجثن وسبع اخريات يغادرن المكان . وعاد امحمد الى سلاحفه والى التدريبات بقصد اجراء مسابقة عالمية حلم ان ينظمها ذات يوم في عين المنامة . اما محمد عديم اللقب فبعد ان حاول الحصول من زوجته على اشارة الى المكان الذي وضع فيه ابن خلدون مصنفه العظيم حول الاجتماع والتاريخ العالمي ، فقد انتهى به الامر الى استئناف تحرياته على الرغم من الوعد الذي قطعته عليه بأن تقول له الحقيقة في الوقت المناسب . وسرعان ما استعاد بعض مواهبه الخارقة واستطاع ثانية ان يتحكم في ظله على

هواه ، ويكثر ضحكات الاطفال وتوقاة الدجاج وجمعجة الرحي الشعرية . وبما أنه جعل يساعد والدته على بناء الدار من جديد ، فانه عاد الى كتابة الرسائل الغرامية بأسلوب مزركش بالتعابير الملتهبة ثم انه اضطلع بتربية الدرر وطيور الكامشي والجنة وبعض البيغاوات التي علق اقفاصها في ورشة الاكفان الهائلة بعد ان صارت لا تصلح لشيء .

وقام مرة أخرى بتغذية الطيور العادية في الساحة وباعطاء دروس في الموسيقى لغيرها من الطيور الاخرى الاصيلة ثم انه عاود التحدث مع جده بكرة كل يوم في فناء الدار . وهو بطبيعة الحال لم يكن يعتمد الى ذلك الا بعد كل سكرة مع الاسكافي ومع ساكن جديد حل المنامة منذ وقت قصير . وكان هذا الاخير خبيراً ماهراً في اصلاح الساعات في حانوت معتم فتحه بالقرب من دكان علاوة الاحمر في شارع البلدة الرئيسي . وعلى الرغم من كل هذه الاشغال والخوارق فانه وجد الوقت لمطالعة المخطوطات القديمة والكتب الحديثة ، ولتربية ولديه وممارسة الحب مع زوجته كالمعتوه . ويفضل الارق الذي يسيطر عليه على الدوام توصل الى التوفيق بين هذه الامور كلها . على عكس امة التي عادت الى التجافي مع ساعاتها الجدارية . وظل كذلك يأمل ان يرى الثلج يتساقط لكي يعيد تشكيل مخزونه من العطف الملموس ويحميه في المبرد الذي لا يزال يشتغل بالبطاريات . وقد عهد محمود منذ أيام الحداد الى اصلاحه ، وانشغل ايضا بترقيع عدد من الاواني والزجاجيات التي تكسرت خلال الهزة الاخيرة التي جابهتها عائلة عديم اللقب بصبر عجيب على الرغم من مرض مسعودة . اما الابناء الآخرون فقد وضعوا انفسهم تحت تصرفها وراحوا يساعدونها بأقصى جهودهم وطوحت بهم خيالاتهم بصورة تكاد تكون مرضية لشدة ما كانوا يهوون تفكيك الواقع واقصاءه عن دواليبه حتى تتداخل اقطابه ويتراخي فيصير نوعاً من الصلصال وبعد ذلك ، معجنونه على كيفهم ويولدون دوائر الجنون البرتقالية . وعلى الرغم من هذه الميول فانهم كانوا ينطرحون من التعب بسرعة ، نتيجة للنشاط المفرط والعناء لأن والدتهم رفعت بينهم وبين شبح ابنتها سورا من الرمل والنسيان .

وما كاد مندبل العرق والدموع ينشف آثار الكارثة حتى راح الحاكم من جديد يسمع صوته للناس . كفاء هذه المرة عن استعمال مكبرات الصوت ذات البطاريات ، فلم تكن المنامة تتوفر بعد على الكهرياء ولا

على غيرها من مكاسب العلم البشري . وعاد الى الاخذ بالتقليد القديم اي
البراج العمومي . واقتضاه الامر فلجا الى خدمات الاستاذ بربي الذي
تناساه الناس كلهم . كان يعيش خارج البلدة رفقة طبله الذي يستعمله
كمخدة دون أن يدري ما يفعل به ، سوى أن يحتفظ به كشاهد آخرس
على النوازل البشرية . وقد طرد قبل وقت لأن ضربات طبله التي تعلن عن
بداية الاعلانات العامة الرسمية ونهايتها ، كانت ترهب طيور البلدة التي
ارادت أن تنتقم منه فراحت تخرب حديقة الحاكم المزهرة . وجعلت تصل
ضمن أسراب متكافئة ثم تنتشر فوق الاشجار المثمرة وتنظفها بسرعة مذهلة
ثم تقوم بين الشمس وبين دار الحاكم وتفرقه في عتمة حالكة مضيئة
آلاف الظلال عليه . وبعد بضعة أشهر ، وضع بندرشاه حدا لوظيفة
البراج المتحمس رغم كونه محترما من قبل الجميع . فتحول الى سكر
يثير الشفقة ويحمل معه على الدوام أدواته مثلما يحمل الشهيد وزره ،
وزجاجة خمر لا تفرغ أبدا . معجزة برمتها ! لقد اخطر قبل أيام بأنه سوف
يستعيد عمله كبراج عمومي ، وهكذا عمد السى تشحيم طبله بزيت
الزيتون ، وكف عن الشرب ، وحلق لحيته ، وارتنى بذلته الاستعراضية
ووصل بهدوء الى ساحة البلدة ، منزلقا من شجرة الى أخرى . وعندما
بلغ وسطها دوى بطبله فاقف زقزقات الطيور الكامنة في اقصاها وغيرها
من الطيور التي اغترت بنفسها فاخترت العيش داخل عش حقيقي وفوق
شجرة طبيعية . وكان أن تسبب التأثير الفجائي في خسائر رهيبة .
واضطرت الطيور المذعورة الى أن تندفع في التحليق واعطت في البداية
احساسا بأنها تسبح في السماء لشد ما كان الولع مسيطرا عليها بسبب
ذلك التدوير الرهيب . على أنها تماكنت نفسها بسرعة وتوجهت صوب
حديقة الحاكم . لكنها فوجئت مفاجأة عنيفة عندما استقبلها العشرات
من الرماة فبددوها عن آخرها . وخلال ذلك كان الطبل يعلن عن نفسه
ويزيد ويبالغ حتى أنه لم يعد يستطيع التوقف لشدة ما كان مأخوذا
بعودته الى آله العتيقة والحيوية . غير أن الاعلان لم يفاجئ أحدا
وبالخصوص عائلة عديم اللقب التي سبق لها أن اطلعت عليه عن طريق
كلثوم . وانتظر الناس أن تتزوج البنت الكبرى بأحد الملوك . ولكن اي
ملك ؟ فهناك العديدون منهم عبر العالم الرحب . أما خبر الزواج بين ليلي
بندرشاه وملك خليجية فلم يسلب الباب الناس فحسب بل أسعدهم حقا .
وبما أنهم علموا الكثير عن هواجس هذا الملك التطهيرية وعن منع الخمر
في بلاده منعاً باتاً ، انتابهم على كل حال القلق وخافوا على مصيرهم

وراحوا يشتاقون الى سيارات الاسعاف التي لم تعد تمر بالبلدة ثم زایلهم قلقهم هذا لابتهاجهم بمصاهرة رجل ثري جدا . ولأول مرة في حياتهم راهنوا على ذكاء الحاكم ، واستمروا في التفرغ لمهامهم منتظرين الحفلات الكبيرة التي تقام لهذا العرس الموهل . وقد انتهت المنامة كلها بعودة النجمة الفتية التي كان والدها يتوقع ان تلقن الرقص لمحظيات زوجها الثري . واعتقد معظم أهل البلدة أنهم سوف يستفيدون من هذه الهبة التي نزلت على سيدهم ، بل ان أشدهم إيمانا بالخرافات فكروا بأنهم قد يستطيعون التخلص من صناعة الأكفان التي تضمن حياة القرية . وبالفعل كان سكان هذه البقعة أناس لهو ومجون لكي يتمكنوا من التعايش طويلا مع الاموات ، سيما وأنهم كانوا يشعرون ببعض الخجل أمام العالم أجمع بسبب صفة حفاري القبور التي اشتهروا بها والصقت بهم ظلما ... كانوا يحبون الشرب والعريضة في مأخور من أشد المواخير تسامحا عبر العالم ، بمصاحبة البغايا الجيالات السلاتي ما اتخذن المال كمعيار في علاقتهم بل قوة احتمال الزيون ومثابرته .

واستدعي الاستاذ بربري ثانية لكي يعلن هو وطبله عن مقدم ليلى بندرشاه في ظرف خمسة عشر يوما صحبة كلثوم اختها الصغيرة . وقيل بأن هذه الأخيرة تأتي لتزيد بجمالها من رونق حفلات الزواج التي تقرر ان تمتد لمدة اسابيع . ووصلت الاختان بالفعل يوم غرة ماي في عربة مكشوفة ، عليها اشرطة ذات ألوان صارخة بينما راح الجوق العسكري يعزف مقطوعة « ايليزا » بطابعها الشرقي المتماوج . واتخذ الناس امكنتهم في المقصورات الامامية ، باستثناء عائلة عديم اللقب وحلفائها . فامتنع الاسكافي لانه رأى من العار ان يحتفل في عيد العمال بجبروت الملك واقتنع ان مثل هذه الصدف غير عفوية . أما صديقه الساعاتي فصرح بأنه لا يرغب في أن تسحق حديثه وسط المتراحمين الذين يلقون بالياسمين وحبات الشعير على العروس وعلى كلثوم . وكانت العلاقة في الواقع سيئة بين الاختين . وظلت كلثوم تحمل على الدوام بوقال الذكريات الشهير ، مجتذبة أنظار الفضوليين الى حد أن غطت على بهرجة النجوم وصخب الموسيقى وفخخة ذلك الاستقبال البهيج . وقيلت أشياء كثيرة عن محتوى ذلك الاناء . وذهبت المراهنات مذهب شتى . ولم يدر أحد بأنها كانت تحمل فيه ابهام محمد عديم اللقب الذي اخذته معها الى سيدني كليل على جنب الرجال . وعندما التقى بالخبر الى مسامع محمد ، احمر

وجهه وتلعثم . غير أن زوجته علمت أن طرف أصبعه المبتور يهرسه فراحت تحكه طوال استمرار الحفلات بعودة بنتي الحاكم . أما مسعودة فقرقت بحملات نهديها وقالت : « لقد كررت مرارا بأنه عليك أن تستعيد ابهامك ... سوف تسخر منك ! مع أنك أب لتوأمين في حين أن زوجتك تنتظر اثنين آخرين » . وبعد زمن طويل . طويل ، طويل ، أي فسي اليوم الذي زوج فيه محمد ابنته القوام الاولى ، أدرك أن غضبة أمه تلك كانت طريقة حيية خجولة منها لكي تعلن بأن زوجته تنتظر توأمين للمرة الثانية . ولم تنس مسعودة أيضا تلك التينة الرهيبة التي فقدت فيها ابنتها بسبب ذلك القانون الشهير والملعون . وكلما أرادت استعراض تلك المرحلة سمتها « سنة اللوطيين » لكنها ، الى يوم موتها ، بل الى ما بعد ذلك ، لم تدرك أبدا ما تعنيه بالضبط تلك الكلمة الفاحشة ، كما أنها لم تفهم مغزى الضحكة التي افلقت من كفتها عندما سألتها عما إذا كان هؤلاء الرجال قادرين على الانجاب أم لا .

لم يكن الحاكم يريد لتلك النشوة التي تولدت عن اعلان الزواج بين بنته وملك خليجية أن تتوقف أو تتناقص . وعلم بفضل الاسلوب الكتوم الذي يقوم به صنائعه ان الراي العام في صالحه ونجبه يتصاعد بسرعة مذهلة . ومن ثم تعين عليه أن يبقى على البهجة الغامرة بأية طريقة كانت . وما كان له بأن يبخل بشيء وهو على وشك مصاهرة واحد من أقوى الملوك وأثراهم في العالم . وأعمل الفكر طويلا ، واستشار الملك عدة مرات قبل أن يضبط قائمة بالمشاريع التي يؤدي انجازها الى قلب الوضع قلبا وجعله في صالحه . وعندها سيقتضي على ترددات أعدائه الأخيرة بعد أن لمس منهم أنهم على أهبة الخضوع له ، ان هو عرف كيف يقنعهم . اما المشاريع فضخمة ورنانة . لا يقل الواحد منهم عن الآخر . واخذ ذلك الخيال الشاسع بملك خليجية نفسه الذي فرح لروح المبادرة الجامحة والعمل الخارق الذي مني بها حكم المنامة . ورغم عدم وجود الهاتف بالقرية ، الذي حظره بندرشاه لأنه اعتبره آلة شيطانية على غرار العديد من الابداعات العلمية والتقنية الأخرى ، فان المتأمرين اتصلا ببعضهما على الطريقة القديمة التي تعتمد على الاشارات الدخانية . يشعل أحدهما النيران على جبل ما ، ثم يعتمد عبر شبكة متشابكة من نقاط الاتصال الى ارسال الاخبار من نقطة الى أخرى من نقاط الكرة الأرضية . وكان سموه متحمسا لتلك المساعي ، وفتح للحاكم حسابا غير محدود في بنك ضخّم له مقره في زوريخ . وكان المشروع الأول الذي يريد الحاكم انجازه على وجه السرعة يدور حول المطر الاصطناعي رغبة منه في اغراق البلدة حتى يحيلها الى مدينة بحيرية . وسبق له ان وضع

التخطيطات وصمم المناظر المزهرة التي جاءت نوعا من التألف العلمي بين جنون المدارات وغزارة الاجواء المعتدلة . وقبل اسبوعين من انجاز هذه العملية الخارقة ، استدعى سرا الاستاذ يربي البراح العمومي ، وطبله . ثم امرهما بأن يعطنا عن الحدث لاهل النامة الذين سايروا طبائعمهم فبدأوا في نسيان الحفلات الضخمة التي اقيمت بمناسبة عودة البنيتين وراحوا ينددون به . ولكن الكتبة وهم يحرون نص الاعلان جوبهوا بمشكل لغوي شائك : فكلمة « اصطناعي » غير موجودة في اللغة النامية ، اذ ان سكان القرية سخروا حياتهم كاملة منذ قديم الزمن لعبادة تكاد تكون طقوسية لكل ما هو طبيعي وخاصة منه الحرير الخام . لذلك لم يكن هناك مكان لكلمة مماثلة في بلدة يتربي فيها دود القز بين افخاذ النساء بصورة طبيعية ومألوفة . وخشي الكتبة غضب سيدهم فتحاشوا المشكل بأن خولوا الحل للبراح العمومي ولطبله . ذلك ان ثرثرة الاستاذ يربي وقدرته على الارتجال امران معترف بهما من قبل الناس جميعا .

ووجد البراح نفسه ذات صباح في ساحة النامة الواسعة ، وقد عاد اليه صفاءه الذهني بعد ان استدعي لشغل وظيفته من جديد . وكان المسكين قد عبر صحراء الحلم والتراب وعرف بتجاوزها بأن زود حياته بأحلام لطيفة وكحولية وهادئة ، وبأن وقع عاشقا لطبله . وصل هذه المرة بكل ابهة الى المكان واخذ كامل وقته حتى ان الطيور الموجودة على قمم الاشجار او داخل الافقاص ، استطاعت ان تتخذ حذرهما حتى لا تصاب بالذعر والرعب ، لأن تدوير الطبل الخارق تسبب في زلزلة احساسها وكأن نهاية العالم قد اقبلت فجأة . وبدأ الاستاذ يربي يعلن عن مضمون الاعلان بمساييرة مربى الطيور بعد ان اعترفوا بجميله ذاك في حين صمتت العصافير وخبأت رؤوسها تحت اجنحتها حتى تتحاشى انفجار النهار مزقا مزقا ، داخل بشرتها الهشة . وعندما بلغ البراح كلمة « اصطناعي » بالنسبة للمطر ، لم يجد مقابلا لها للتعبير عن تلك الغرابة ، فانتابته الحيرة وانتهى به الامر الى أن يتحايل على الصعوبة ببناء شبه جملة مبهمه . ثم انه ، بحركة عنيفة وبنفس واحد اطلق على ذلك المطر الخصوصي تسمية « المطر بدون رب » . وانفجر الحاضرون بضحكاتهم وهم يسمعون تلك الصيغة التي تكاد تكون تجديفا في الله . وهكذا فشلت المفاجأة التي انتواها الحاكم ، وصدم بذلك الفشل الوبيل ، وادرك الطبال انه ارتكب خطأ وان العقاب واقع عليه . وراح الحاضرون يهئونونه على

ذلك الكشف البريء بعد أن أدركوا مغزاه وصيغته الالحادية ، وبعد أن تسلوا بتلك النادرة عن المطر الذي لا ينزله الاله سبحانه ، وعن الرجال الذين يريدون صنعه كما تصنع البيرة والليموناضة والخمور . وفرغت المقاهي من زبائنها . وبعد أن ضحك الناس طويلا من مهزلة البراح العمومي ، تفرق شملهم وعادوا الى دورهم حيث رووا تلك النادرة الطريفة على نسائهم اللواتي كن منشغلات لعادتهن داخل استكانتهن بتفتح الشرائق التي تلتصق بأرجلهم مثل علقات جعة لها نعوسة الحرير . غير أن المطر الاصطناعي لم ينزل تلك السنة ولا في السنوات التي اعقبتها . الا أن الحاكم حمل البراح العمومي مسؤولية ذلك الفشل الذريع . وطرد المسكين شر طردة ونهائيا ، فراح يستعيد حواراته الكحولية الطويلة المسهبة مع طلبه . ودخل تعبير « المطر بدوت رب » في اللغة المنامية المزهرة الخام . ثم تحول التعبير نفسه الى علامة سياسية وجغرافية وتاريخية في آن واحد . وأطلق على تلك السنة تسمية « عام المطر بدون رب » وصارت مرجعا لعدد من الباحثين والفضوليين ولسكان المنامة الذين لم يكنوا عن التندر حول ذلك التعبير ، منذ تلك الصبيحة التي اتخذ فيها الاستاذ برربي حنزه لكي لا يرهب الطيور . وقد جرح ملك خليجية في كبريائه ، فعبر بواسطة اشارات دخانية عن عدم رضاه أمام فشل المشروع خاصة وأنه اراد البرهنة لخطيئته بأنه لم يكن اقطاعيا ، ولا رجعيا مثلما قد يبدو عليه . وبطرد البراح العمومي وطلبه ، صرف الخبراء الامريكيون المكلفون بالتجربة المناخية صرفا مباشرا مع عتادهم الفحم الذي كان من المنتظر أن يجعل السماء تمطر على المنامة . لكن هذا الاجراء لم يعمل الا على تشجيع البلدة في عتوها وفي البقاء جافة مغالية . وتلفظت كلثوم بندرشاه بكلمة اشفاق على الشريكين : « انهما سوف لن يتوقفا عن خوارقهما ومعجزاتهما ! » وبالفعل ، فهما لم يقتنعا بالفشل الناجم عن اهمال البيروقراطيين وانشداه الاستاذ برربي . وكان ان اعلنا هذه المرة بواسطة مكبرات الصوت عن قرب وصول جبل جليدي اشترى من بلد يوجد وراء الدائرة القطبية من قبل الملك اعترافا منه بجميل البلدة التي رأت مولد ذلك الوعد الرائع : ليلى بندرشاه . . . ولم يتسلل الفرح الى نفوس السكان الا بعد بضعة اشهر من ذلك التاريخ . وانتظروا وصول ذلك الجبل المتجدد الذي كان جزءا حقيقيا من قاره تمّ سحبه بطريقة مضبوطة عبر المحيطات . كانوا قلقين فانتهى بهم الامر الى أن يقرعوا الباب على محمد عديم اللقب لكي يستفسروا منه أين يوجد المحيط

المتجمد وما هي الطريق التي ينبغي على ذلك الجبل السحري ان يجتازها لكي يصل الى المنامة . وبكل طيبة قلب اثار محمد الى خريطة واسعة مطروحة وسط الحديقة المزدهية وبين لهم موقع ذلك البحر المثلج . وبما ان احدا لم يكن يعرف شيئا عن تلك الشروح والخطوط والاقطار والتوازيات ، فانه توجه نحو البرد واخرج منه قطعة جليدية ضخمة وعلى الماء داخل طبق ووضعها فيها ، واعلن لرفقائه المشدوهين : « هذا ما سيكون عليه مصر جبلكم الجليدي حين دخوله اجواء المنامة القائضة . وما كاد ينتهي من شرحه ذلك حتى كانت القطعة المتجمدة قد ذابت تماما . وشده الناس ، فانطلقوا وهم يهيمون وراوا ان عبقرتهم العلامة هذا كان مغاليا في تبريد حماسهم بتلك الطريقة . وما كان هناك شيء يستولي على الالباب في تلك البلدة التي هجرها الله ذات يوم من ايام الغضب على حد زعمهم . فحتى الماخور لم يعد يجتذبهم لان البغايا الجميلات اتين على شبقهم الاسطوري . وقد وجب انتظار بضعة ايام لكي يصل الى المنامة ذلك الصهريج العملاق الذي نقل الجبل الجليدي عبر المحيطات . حينذاك فهموا جنون الحاكم . وذات صباح طلبت مكبرات الصوت الجنونية من اهل المنامة ان يرفعوا رؤوسهم في ساعة محددة من النهار . ورضخوا بكل طوعية يحدوهم الحماس الشديد واحترموا قاعدة اللعب . وفي الوقت المحدد رفعوا عيونهم مثل رجل واحد ، وبحركة واحدة ، فراوا جبلا هائلا من الجليد معلقا بين السماء والارض فوق البلدة . وما كادوا يدركون ما يحدث لهم حتى راح ذلك الجبل يذوب بعطر فاتر يرشهم رشا غزيرا ، وانتهاز الاطفال الفرصة لكي يثرثروا بكل صخبهم وتشويشهم . ولكن اهلهم خابت بسرعة ، فما كادت دقيقة واحدة تنقضي حتى توقف ذلك الدفق الهائل ولم يترك اي أثر على الارض التي تصلى نارا انطلاقا من الساعة السابعة نهارا . وفي اليوم التالي وقع في روع الناس انهم كانوا محل سخرية من قبل الحاكم واعتقد البعض الآخر منهم انهم في حلم ، بينما اكد البعض عكس ذلك كله . وانفجرت الصراعات في المقاهي حيث يلعبون بدون هوادة لعبتهم المعتادة . وبانتهاء النهار لقي ثلاثة من الرجال حتفهم واصيب عشرة منهم بجروح . واصدر الامام حكما بتكفير بندرشاه وهنات مسعودة عديمة اللقب نفسها على تلك النظرة العلمية لدى ابنها الاكبر . اما كلثوم فتعكر مزاجها وهاجمت أختها بعنف في نفس الصبيحة : « كان على ملك الغبي أن يضع ذلك الجبل الجليدي حيث تستحقين ، اي داخل فرجك... ولعله بذلك يكون قد لام جرحك القمى بصورة نهائية .

وجنب هؤلاء الفقراء مفاصلة اكبر وهم في حياتهم ! » وفي هذه المرة بالفعل ، ادرك اهل المنامة شؤم الحاكم وارادته في أن يعتبرهم اطفالا سذجاً غير قادرين على فهم أي شيء من شؤون الحياة المتشابكة المترابطة حولهم . أما الانصار المتحمسون لسيد البلدة فبدأوا يقلقون ، ثم طعم الجنة الموعودة الثلاثئة الجدران بالجليد أحدثت بلبلة في عقول بعد الناس السذج . واتجهت الانظار كلها الى عائلة عديم اللقب ذات الرؤية الثاقبة والمواهب الثمينة وتكشفت اصلاتها في وضوح النهار ، فارحت تهزأ من المحاولات الدنيسة المغشوشة التي أقبل عليها الشريكان اللذان بذرا هكذا اموالا طائلة لكي يبهروا عقول الناس بالخوارق من الاعمال في حين أن البلدة تعيش وكأنها في القرون الوسطى ، دون كهرباء ودون بالوعات المياه القدرة ودون قطارات تسابق الزمن : فلا وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي . وجعل اهل المنامة يضربون المثل بنظام التبريد الطبيعي الذي وضعته مسعودة بفضل حيوية عباد الشمس العملاق الذي كانت أوراقه تلعب دور مروحة خافتة الدبيب وفعالة وغير مؤذية ولا ملوثة مستكنية بالطاقة الشمسية الرخيصة والغزيرة المتكاثرة في البلاد . وعهد محمد عديم اللقب الى سد نقص المياه والى تخفيض الحرارة التي كان يعاني منها السكان . فانطلق ذات صباح في حسابات واحصائيات معقدة وجعل يردد عن ظهر قلب جدول الخوارزميات دون أن يكون له أي علم بها فينمى مضى . وكان الخوارزمي هو الذي عرف الانسانية على ذلك النظام الحسابي فضلا عن الحس باليقين بنقل البرهان القائم على رقم ⁹ . وذلك سنة ⁸³⁰ بهدينته الطيبة بغداد . وتلا محمد عديم اللقب الأرقام دون أن ينسى واحدا منها حتى أن والدته خشيت على توازنه العقلي . وندم البعض من اهل المنامة ندما شديدا على سذاجتهم حتى ان بعضهم انتحس بعد أن رسم بدمه المتدفق من شرايينه المقطوعة ببوس الويل ، شعارات معادية .

وأرسل الحاكم اشارات الاستغاثة الى شريكه شارحا له حتمية الاستعداد لمواجهة أي ظرف طارئ ومنحه مساعدة عسكرية فورية عاجلة ان اقتضى الامر . ولم يتأخر الرد في الوصول بعودة الريح الشرقية غير أنه جاء في شكل سؤال مقلق : « ألا تزال ليلى في هواي ، رغم الفشل الذريع ؟ » وقد تحجر الاب ازاء مثل هذا السلوك العايب من قبل صهره وندم على اعطائه يد ابنته . وجعل الوقت يمر . وبدلا من أن يربح

الحاكم المزد من المال ، ازدادت خسارته على مر الايام ، مدركا في عزلة داره الواسعة ان التطور البناء لا يمكن ان يتحقق بواسطة الالعاب التي تقدمها البلدان الثرية مثل المطر الصناعي والجبل الجليدي المتحرك عبر المحيطات والقرات . وادرك ايضا ان لكل انسان ولكل شيء ولكل ظاهرة موقعا مبدئيا من الصعب ان يقلبه بصيغ سحرية ويحيله اعمالا وابداعات فنية . ولكن بدلا من اتخاذ قرارات جذرية اصر على ان يأخذ بأسباب منطق الساذج وهو ان الشعوب تحب ما يذر عليها من غبار . ويكي حينذاك ويقول بأنه غير محظوظ ويعزل نفسه طوال ساعات داخل مكتبه يلقي بحزنه على مثال حليفه ملك خليجية . وهكذا مني مشروعه الكبيران بالفشل المهيمن بعد ان ابتلعا مبالغ طائلة . وبلغ به الامر الى حد ان ينطلق على مائدة العشاء بأصوات منكرة منهما افراد عائلته باستفزازه . غير انه يسألم كلثوم لانه يخافها ، هي القادرة على الصمود في وجهه . لكنها ما انفكت تستثيره ، فتدخن امامه تفاعلتف بنفسها وتندف اسنانها مثل بحاري نيوزيلندا وتتصنع الغباوة فتسأل عن عدم وجود الخمر على مائدة الأكل ثم تصرح بأن الطهي دون المستوى وتسأل امها اذا ما كانت تفهم لماذا لعظام الثور سرّة مثل الانسان . بل انها ما كانت تضع الفرصة أبدا ، وهكذا تطرح امامها في كل تجمع عائلي حول طارئة الغداء البوقال الذي يسبح فيه ابهام من فض بكارتها ذات يوم عظم وعاصف بريح قوية . ويتصنع الأب بأنه لا يلاحظ تلك الاشكال من الشذوذ ، فيغضب لاتفه شيء على زوجته التي يرى فيها متنفسا لاله بل انه يغضب في بعض الايام الى حد انها قد تقطع رأسه بمجرد ان تصبح ملكة يغالي في بعض الايام الى حد انها قد تقطع رأسه بمجرد ان تصبح ملكة خليجية ، حيث لا تزال مثل هذه الممارسات جارية وعادية . ولم تكن تجهل جلسات التنفيس الصاخبة التي ينظمها ضد زوجها القادم . وبينما كانت التحضيرات تجري على قدم وساق لاعداد العرس ، كتبت ليلي لخطيبها رسالة باللغة الانجليزية الرومانسية تقول له فيها بأنها تشفق اشتياقا شديدا لكنغورو استراليا وزعمت أنها تتيس وتهمل تدريبات الرقص الكلاسيكي والمعاصر . وبعد اسبوع واحد تسلمت هدية منه تتمثل في المئات من تلك الحيوانات وكلها من الاناث . ولم تحتفظ الا بواحدة منها واطلقت الباقيات في البلدة . الا أن اهل المنامة عرفوا كيف يروضونها بكل سهولة . ثم ان الطيور استفادت منها فبنبت أعشاشها في جيوبها العميقة ، على أن الملل سرعان ما دب الى نفس ليلي فطلبت من أبيها أن

يدخل لعبة التنس حتى تستطيع تنظيم مقابلات تمكنها من الاحتفاظ برشاقتها ، بالإضافة الى أنها ستخلب لب زوجها وتجعله في خدمة مصالح عائلة بندرشاه . وتلبية لرغبتها بنى لها والدها بسرعة عشرة ملاعب من العشب الصناعي والمستورد من الخارج وفتح قائمة لتسجيل المرشحات المحتملات . وكانت الهوة التي تفصله عن المواطنين تزداد اتساعا ، ذلك لأن النسوة اللواتي اعتبرن دوما كحاضنات لشرانق دود القز كن أبعد من أن تصرف انظارهن ولو ساعة واحدة في اليوم عن وظيفتهن الطبيعية . وفكر الأزواج بأن الحاكم يريد اباداة بشرية تحت غطاء رياضي ، لأن كل واحد منهم اعتقد بسرعة بأن النسوة سوف يذبن بسرعة تحت الشمس التي لا ترحم ويمتن بهرض النحافة على ملاعب التنس لارضاء ليلي وشطحاتها لا أكثر ولا أقل !

على أن كلثوم لم تتردد باتهام أختها بأنها تعاني بما سببه بعقدة المضرب ، التي تكشف الكثير عن استيهاماتها الجندية . وساعدت نساء المنامة فثرن بزعامتها على ذلك الاذلال الذي تعرضن له في دعتهن وهدوئهن . وارادت أكثر من خمسمائة منهن أن يهجن على دار بندرشاه ، غير أن هذا استسلم بسرعة . وقبل بداية المقابلة التي توجهها ابنته ، أعلن بأنه لن يرغم احدا على ممارسة التنس وأن في امكان النسوة مواصلة حضانة الشرانق . وسرعان ما انتشر الخبر على اثر هذا التراجع والفشل المرير واشيع عنه بأنه ينوي مغادرة البلدة للاستقرار بخليجية حيث تسنح له الفرصة لابراز مهارته في الاعمال وحبه للربح السهل . وقلما كذبت المنامة الاشاعات التي تروج بها ، ولم يغادر البلدة بل فكر في أحسن طريقة يروض بها ترويضها نهائيا هذا الملأ المضعف الجامد لا سيما وأنه رفضه وعبر له عن عدائه . مع انه ظل يزعم بجلب العيش الرغيد لأهل المنامة ، دون أن يتوقف عن التفرغ لشؤونه الخاصة . وتغير غيظه الى غضب جارف . وكما كان يمتلك بمكتبه تمثالا للمنامي النونجي راح ييصق عليه ويقذف بفواحشه الذميمة ، وبحقد واثارة متزايدة لم يحدث له أن فعل ذلك من قبل بصورة حليفه الملكي ، وأندح ما في الامر هو أنه لم يتمكن أبدا من نقل أحاسيس مثل هذه الى زوجته وبنتيه اللتين تشفقان عليه من وقت الى آخر أو تحتقرانه وتكرهانه كراهية ظاهرة وقد تأسف خلال ذلك على نقص الحس السياسي لدي ملك خليجية . وراح يتماوج من وحدة الى أخرى من افراط هيام ، في حين أن قصره يفيض بالنسوة

اللاتي لا تقتل الواحدة منهم روعة عن الأخرى . وقال بندرشاه بأنه ينبغي التعود على مثل هذا الأمر لأن الملوك أنفسهم أخذوا بأسباب المعاصرة في أيامنا هذه . وسوف يراهم الناس عما قريب في منطقتنا وهم يتسوقون على متن الدراجات . هذا حكم لا مرد له . سوف ينتهي بهم الأمر جميعا إلى تقليد ملكة هولندة وإلى عشق الزهور ونبد ورود شيراز . أما هو فقد رغب كثيرا في هذا الزواج لكي يملأ خوابي محطته البنزينية دون أن يدفع سنتيما واحدا . وأدرك قبيل أسابيع قليلة من العرس أنه لم يحصل بعد على أي ربح ملموس . وبما أنه كان يحذر تدليس الملوك وشحهم ، فقد أثر الحصول على ضمانات قبل الزفاف . وألا انطلت عليه الحيلة مثل أي إنسان يخطو خطواته الأولى في الحياة . واغتاط لذلك المال الذي بدده في مشاريع المطر الاصطناعي والجبل الجليدي المنتقل وقد كلفه كل ذلك مبالغ طائلة . وندم على عدم استعمال الجبل الثلجي لتزويد داره بالماء الرطب وحوضه الياباني بالقطع المثجة حتى يسبح حوته العزيز بين زهور النيلوفر وسلاحف الماء . وعلى أية حال ، تعين عليه أن يطمئن حليفه على الحب الذي تكنه له ليلي . استنشق من البرقية ذلك القلق الذي يجتاح نفس العشاق وشرع يرسل نحوه اشارات دخانية ملونة تعبر عن الفرح الطاغي مبرقا ما يلي : « ليلي مجنونة بك كل الجنون . تطلب التعجيل بالزواج . وهي تهدد بالانتحار إن لم تلب جلالتك رغبتها . ولم يطل الرد : « لتفرح راقصتي . ملكها يلغي زيارته الرسمية للخارج . سوف يأتي لأخذها على بساط الريح خلال الأسبوع القادم » . وفاجأ هذا الرد السريع الحاكم الذي لم يتوقع مثل تلك الاستجابة الخاطفة ، لا سيما وأن عدة الزواج لم تنته بعد . وقد ود لو أنه حصل على بعض الفوائد قبل أن يتسلم العروس السلطاني بضاعته . فقال في ذات نفسه أنه سوف يحصل على ليلي دون أن يرد حتى ثمن تكاليف الدراسة في سيدني . . . يا له من لعين شحيح ! وعلى الرغم من هذه الصعوبات كلها أراد أن يعرض عليه مشروعه الثالث لكي يتدارك الآخرين الذين منيا بالفشل وأضرأ بأهل المنامة كثيرا . أدرك إذا تماما أن مشروعه هذا لا يزال غامضا جدا ، رغم جديته وخطورته ، فلا علاقة له بالمطر الاصطناعي ، أو « المطر بدون رب » ولا بالجبل الجليدي . صار يحدث نفسه مثل الطبال وظل يحلم في واقع الأمر بالانفصال عن الحكومة المركزية وإعلان مملكة المنامة الذي يصير إمبراطورا عليها ، إذ شعر بأن صفه قد تعزز بفضل المساعدة الأخلاقية والمالية الممنوحة من قبل

صهره وحاميه . ولكن مثل هذه العملية تتطلب وسائل ضخمة لشراء السلاح وتنظيم جيش قادر على مقاومة كل هجوم من الجمهوريين وظن ان مثل هذا القرار قد يخدم النزعة الجهوية لدى اهل المنامة ، فيحملونه من بعد على الاكتاف وينظرون بعين التمجيد الى المقلب التي لعبها على ذقونهم والى انواع الخيبة التي تسبب فيها والراسم التي فرضها عليهم الى حد ذلك اليوم . فكانت المغالطة ! وضاق حاله بذلك الزواج المفاجيء ، في حين ان عدة ابنته لما تزل في طور التحضير . ولو انه كان على علاقة طيبة مع مسعودة لاستطاع الخروج من المازق . فامرأة مثلها قادرة على تبريد بيتها بعباد الشمس ، لكفيلة بحل مشكلة تافهة مماثلة .

ولم تكن لمسعودة عديمة اللقب نفس الصعوبات التي تواجه عدوها . ورغم الصراع المستديم استمر في تزويدها بالأسمدة الكاليفورنية . وجعلت تتخبط في مشاكل الحياة ، فقررت ضبط ساعاتها الجدارية التسع عشرة بفضل الساعاتي الذي نزل اخيرا بالمنامة واجتذب العائلة كلها بطرائفه اللطيفة . وكانت مسعودة قد جاءت بتلك الساعات من بيت ابيها واستصحبت معها السلاحف والحمام . وطفقت تفاخر بذلك لا سيما وان اجدادها احتلوا مناصب هامة ومارسوا مهنا تخرج عن المعتاد . وهكذا كان في عائلتها احد اسلافها شغل وصيف حاجب المروحة في عهد مراد الاول وفي عهد محمود الثاني ، واسلاف اخرون عملوا مهنة القرصنة مثل ذلك القرصاني الذي نقل من صقلية الساعات الجدارية الفضية التسع عشرة ، وقد ورثتها من والدها كهدية بمناسبة زواجها . واستدعي الساعاتي جيلالي بوحدبة لمساعدتها على تسوية شكل الزمن بصورة نهائية ، خاصة وان المرأة لم تكن تتفق دائما مع الوقت الذي تشير اليه الساعات الجدارية ، رغم رننتها الموسيقية المضبوطة في كل ربع ساعة . ورات انها دائما متفاوتة الوقت الحقيقي ، غير مدركة ان ذلك كله ناجم عن تأثير نشاطها الصاخب . كانت مسعودة تطلق مهماتها كل يوم ضد هذه الآلات الزمنية ، لذا ارادت ان تطمئن قلبها حين جاء الساعاتي ليستقر بالمنامة وهكذا آل بها الامر ان تطلب خدماته . وقضى جيلالي بوحدبة عدة اشهر يفكر في آليات الساعات وتنظيفها وفحصها ، لان مسعودة تمتلك منها ما يساوي عدد الاطفال الذين أنجبته . حينذاك اندركت ولاول مرة انه من المحتمل ان يكون زوجها قد انتحر لكي يتجنب انجاب اطفال آخرين ويمكن كل واحد من ورثته التسعة عشر من الحصول على ساعة

جدارية فضية . وبذلك لم يخلف ورائه مشكلة شائكة من مشاكل الوراثة
قد تشتت شملهم وتدفعهم الى كراهية بعضهم البعض . وقالت مسعودة
في ذات نفسها بأن الحياة تفعل الاعاجيب . أفلم يعوض صوت عتيقة بتلك
التي جاءت وأطلق عليها اسم الدر ؟ أو لم تستعد صوتها وراحت تختصر
كل شيء ؟ وكانت تكرر للناس حولها : « لقد علمني هذا المرض أن اطرق
مباشرة الى جوهر الموضوع » . وبما أن الساعاتي جعل يقضي أيامه في
العمل داخل البيت فقد انجذبت بلطفاته ودقته ورزائته .
وعلى الرغم من حذبه فقد سحرها بسبب ذلك التناقض بين بشرته
الشديدة البياض وسواد عينيه ولون شعره الفحמי . وفي ظرف أيام
قليلة أدرك محمد عديم اللقب أنه أمام شخص مولع بالآليات بالاضافة الى
أنه مبدع في صناعة الأوتوماتيكيات . ودعاه الى العشاء ذات مساء حين
أطال معالجته للساعة الجدارية الصقلية الثانية . وكان من عادة الرجل
أن يخلد الى الصمت حين يجلس الى الطاولة ، غير أنه برهن على
امتلاك ، زيادة عن براعته ، ثقافة فلسفية وعلمية واسعة . أما علاوة
الاحمر الذي كان يشاطره العشاء العائلي تلك الليلة فقد انتهر الفرصة
لكي يحدثه عن ستالين وعن صراع الطبقات وعن نموذج الانتاج الآسيوي
وعن الفائض كما يروق له أن يقول عندما يريد أن يعبر عن فائض القيمة
وغيره من الأشياء الأخرى التي تعالج نفس الموضوع . على أن الساعاتي
باجاباته المحددة المضبوطة ، أوحى الى محمد وإلى الاسكافي وإلى الدر
التي كلفت أثناء العشاء بتبسيط المفاهيم لمسعودة وأعضاء الأسرة
الأخرين ، بأنه قرأ « رأس المال » أكثر من ثلاثين مرة . وعندما تطرق
الحاضرون الى الحديث عن علم ابن خلدون ، أظهر الساعاتي معرفته
وأصبح عينا لا تنضب ، اذ كان على علم بأن العلامة الاجتماعية
كتب جزءا من مقدمته ومن ترجمته بالمنامة . واشتبه الكل في أمره ذلك
المساء بأنه قد جاء الى القرية ليفتح دكانا بها حتى يقوى على العيش
في نفس المكان الذي تم فيه تحرير ذلك المصنف العلمي العظيم . وتأثرت
رشيقة بتلك المعرفة الموسوعية والغزيرة حتى أنها تناسست حذبة
الساعاتي البارزة ولم تقع عيناها الا على عينيه اللتين تحلمان ذكاء
العالم كله ولطفاته . أما الأم فقد لاحظت بدورها اضطراب ابنتها وأدركت
أنها أمام فنان بارع وأصيل وعالم علامة عريف ورجل من طراز خام
ورفيع ، فقررت استدعائه في نفس المساء للبقاء بالدار حتى ينتهي من

عملية الفحص . اتخذت قرارها ذاك على الرغم من خيبتها حين سمعته يقول وهو يعمل بأنه لم ير أبدا آليات بمثل تلك الصلابة والدقة . واكد بنوع من الفرح الداخلي الذي يبرز صفاء بشرته الناصعة البياض : « انها تبلغ حد الكمال حقا ! » وهكذا استقر المقام بجيلالي بوحدة في ورشة الاكفان السابقة . واصل الرجل بكل صبر وولع تفكيك وتركيب الساعات الجدارية الصقلية . جعل ينظف الغبار الذي تراكم عليها في الداخل منذ ثلاثة قرون كاملة ، ذلك لأن تلك الآليات الخارقة استجلبت من مدينة باليرمو سنة 1700 . ومنذ ذلك التاريخ ، لم يفتحها أحد لشدة ما كانت نفيسة ودقيقة في وقت واحد . ولولا هياج مسعودة الذي تنقله الى السلاحف نفسها ذات الطبيعة المسالمة الهادئة لما جاء الساعاتي الساحر ويفتحها ويخرج أحشائها ليزيل الغبار عنها ويزيتها ويركبها ثانية بكل حذق . وبعد زمن طويل . طويل ، طويل . أي في اليوم الذي دفن فيه عديم القلب والدته . وتذكر هو الآخر أن كلثوم بندرشاه نزلت بالدار في تلك الفترة ومعها بوقالها المليء بمحلول الفورمول وطلبت أن تتحدث الى زوجها التي اشتغلت بتنظيف توابيها في جرة الاستحمام ، في انتظار التوابين القادمين . وادخلت الدر ابنة الحاكم الى غرفتها وهي تدري بأن أم زوجها تمر في حديث مستمر مع الساعاتي في ورشة الاكفان السابقة الموجودة بالطابق الثالث . وطفق بوحدة يصفي اليها طوال ساعات دون انقطاع ودون أن يقاطعها أو يتوقف عن عمله وهو يمارسه بالدقة المعروفة عنه . وعندما وجدت المراتان نفسيهما وحيدتين ، ظلتا صامتتين فترة طويلة تنظر الواحدة الى الاخرى . واخيرا نطقت الدر : « انك جميلة ، وأنا واثقة من أن محمد يفكر فيك كثيرا ! فمن الصعب أن ينسى مثل هذا الوجه » . واصفقت اليها كلثوم دون دهشة ، ولكنها ظلت محايدة ازاء تلك البشاشة كلها ، ثم انها اسرت اليها بتولها : « انني اتيت لاعيد اليك ابهام زوجك ... فهو لا يكف عن الاضطراب في الفورمول . وفي بعض العشية حين يستبد بي السأم ، اراه يضرب جدران الاناء ويحول دوني ودون التركيز والتأمل . بصراحة ، لم اعد استطيع الاحتفاظ به ، وأنا لست في حاجة اليه لأبرهن لنفسي بأن الرجال كلهم جبناء يلعبون دور الابطال بحجة أن لهم عضلا زائدا علينا ... » وادركت زوجة محمد بأن تلك الفتاة الجريئة التي لم تبلغ بعد الثامنة عشرة ، ارادت أن ترد الابهام الى أول عشيق عرفته لكي يستطيع اعادته الى مكانه ويستعيد استعماله . وقد لمس هذا المسمى شغاف قلبها ، لا سيما وانها

اطلعت على الحرب التي تخوضها ضد والدها وعلى تضامنها مع أهل
المنامة خلال صدور المرسوم حول لعبة التنس وأحيطت علما بقرابات هذه
الفتاة التي تقلب حياة البلدة على محاورها . لكن الدر رفضت الهدية ،
لأنها تعودت على ذلك البتر المتعمد الذي يشكل جزءا من سحر زوجها
وأصالته وجنونه . وأدركت أنها سوف لا تقوى على حبه بابهاميه ، مثلما ما
هو معروف عند جميع البشر . وفهمت أن كلثوم ، في واقع الأمر ، تريد
إهداء الإناء الشهير لتسوية حساباتها مع الماضي وللارتباط بها . وفعلا ،
طلبت منها المساعدة في ما يخص حملة الدعاية التي تريد شنّها وسط
النساء لتحريرهن من دور حاضنات دود القز . ودامت المحادثات طويلا ،
وعندما هبط المساء ، انطلقت كلثوم بانائها وقطعت وعدا على الدر بأنّها
قد تعتمد عليها في انتشال النسوة من جمودهن والقيام بنشاط سياسي
كبير على مستوى البلدة . أما فيما يخصها هي فقد ضمنت عدم تدخل أبيها
الحاكم لأنه لن يجرؤ أبدا على معارضة مشاريعها . ثم أنها اطلعت
صديقتها الجديدة على قرارها بعدم الذهاب الى أستراليا ، بعد زواج
شقيقتها المتوقع في يوم الجمعة القادم . وقالت : « باستثناء الكنفورو
فالإنسان يموت من السأم كما هو الأمر السائد في المنامة ... ! »

واحتفل بعرس ليلي بندرشاه بملك خليجية بصرية تامة لأن
والدها خشي غضبة الشعب بعد أن كان محل سخرية ثلاث مرات في
ظرف أشهر قلائل . وبالفعل فهناك خرافة المطر الاصطناعي والجبل
الجليدي والقانون الخاص بتجنيد نسوة البلدة في مدارس التنس بطريقة
ماكرة ، بدلا من أن يتركّن منشغلات بالانجاب وبحضانة الشرائق .
ولم يستطع الملك أن يفى بالوعد الذي قطعته بالقدوم الى المنامة
لاصطحاب خطيبته على بساطه الطائر لأن آليات الهبوط لم تضبط بعد
ضبطا تاما . وبما أنه اطلع على عداوة أهل المنامة له ، لم يرغب في الهبوط
حيثما اتفق بالبلدة وفي أية بطحاء ومنبسط . ووصل أخيرا على متن طائرة
عمودية متكررا في ذي قائد عسكري ، وهبط بالحوض الياباني الهائل وقد
أفرغ من مائه بهذه المناسبة . وقضى العشية كلها مع أصهاره ثم انطلق
في المساء نفسه مع راقصته الرائعة بدون أن يعلم أحد بذلك . ولم يتسن
للحاكم أن يتحدث مع صهره حول الانفعال الذي يعمل من أجله ويرغب
في تحضيره . أما وقد تعين عليه حضور الحفلات التي تدوم شهرا كاملا
في عاصمة خليجية ، فوعد نفسه بتسوية المشكل في ذلك الوقت بالذات .
وسرت كلثوم بانصراف شقيقتها ولم تتوقف طوال مأدبة الزفاف عن همز

قدم نسيبها حتى تعطي لهذا الآخر طابعها الخاص . واضطربت جلالته
وماجت وامتاجت وحاولت من حين الى آخر أن تضع يده الكريمة بين
فخذيها ، تحت الطاولة . بيد أن الملك بدلا من أن يقع على اللحم الطرية،
لم يصطدم الا بالقنفذ الاسترالي ذي الاشواك المدبية . وكانت كلثوم المتشيطة
قد روضته لكي يدافع عن باب فرجها كلما حاول متهجم أن يقتحمه . ودامت
اللعبة الدامية هذه بضعة ساعات ، فوجد الملك في نهاية العشاء يده
اليسرى مليئة بثقوب حادة شديدة الالام . واحتفظ بها مخضبة بالدماء
في ثنايا ثوبه التقليدي الذي فصله عند أحسن خياط بروما . واذا أدرك بعد
لاي أن كلثوم أرادت أن تسخر منه ، انتهى به الامر الى أن يهدى نفسه
ورغب في أن يقول شيئا فسألها عما يحتوي الاناء فقالت دون أن تتخلى عن
هدوئها المعتاد : « انها قلفتني ! » . عكست هذه الاجابة كل التقاليد
التراسيمية فتضايق الملك كثيرا وصدم بتلك الجراة والوقاحة ، فكاد
يخفق نفسه . ورغبة منه في اخفاء هزيمته أمام الناس ، أرسل ضحكة
مجلجلة حتى أن طيور الساحة ذهبت للاختباء في جيوب الكنفورو وراحت
ترضع في ائدائها خلصة في حين أن رباعيات الاقدام هذه جعلت تذرع
الازقة المغبرة المتعرجة كعادتها وهي ترضع عصافير السماء .

ولم يطلع اهل المنامة على البذخ الذي تميز به زواج ابنة الحاكم مع ملك خليجية ، الا بعد بضعة اشهر . وتم ذلك بفضل المجلات الأجنبية الممنوعة التي كانوا يعثرون عليها متأخرة في السوق السوداء . لقد تضايقوا حقا بسبب الاهمال الذي جوبهوا به ، فضلا عن أنهم لم يستدعوا الى الحفل ولم يخبرهم احد بما حدث . على أنهم في واقع الامر شعروا بالغيرة لان المجلات المذكورة تضمنت صورا من الورق البراق الفخم ، ذي الالوان المعبرة والموحية التي تبين فستان العروس وحليها المتعددة وتاجها المرصع باللالء ، بالاضافة الى المدعويين ذوي الالقاب البراقة والذي لا يقل الواحد منهم ثراء من الآخر . أما العريس الجديد ذو الوجه الممتلئ الناضج صحة وشبها ، فقد احتل الصدارة . ولعل المصور اراد أن يبرز بشاعة تقاسيمه ووحشية نظراته وشهوانية شفثيه . الا أن ذلك لم يكن شيئا بالقياس الى صورة حاكم المنامة ، فقد ظهر متصلبا صغيرا واقفا على كعبيه كأنما يريد أن يستفيد الى أقصى حد من أدنى سنفتر من قامته القصيرة . وتمنطق في زي الاستعراض الشهي ، وحمل سلسلته الذهبية الشهيرة التي أبصر بها اهل المنامة في الحلم ، وسيفه الذهبي المتوهج الذي لم يعرفوه عنه أبدا . على أن الاسطورة تروي بأن هذا السيف أهدي في اليوم نفسه من قبل صهره ملك خليجية ، أغنى رجل في العالم . وعلاوة على الغيرة التي نشرت الصفرة في وجوه اهل المنامة ، فانهم اخضروا ذلك اليوم من الفزع . لأن معنى السيف لم يغيب على احد . وفي الليلة نفسها احسوا جميعا وفي نفس اللحظة بكابوس مماثل يعترهم ، فراوا في نومهم الحاكم منشغلا بفصل رأس كل واحد منهم

بتلك الاداة الجديدة المفزعة . وكلما عاد رأس الضحية للالتصاق بالرقبة بادر الحاكم الى قطعه ثانية وهكذا دواليك الى أن يستيقظ النائم ، وهو يصيح ويلتصق بزوجته فيصيبها الذعر بدورها . آنذاك تنهال عليه بالسباب وتصرخ بقوة فيستيقظ الاطفال بدورهم وتعم الضوضاء الليلية في ديار المنامة كلها . ولم تكن النسوة على أي معرفة بشؤون السياسة ، فرأى الرجال الا تعرض أمامهم صور المجلات الاجنبية الممنوعة التي تباع في السوق السوداء . بل انهم امتنعوا عن شرح مضامين وخلاصات هذا الوضع الجديد . وكان بندرشاه حتى تلك الساعة في انظار الشعب رجلا تافها أو بيدقا صغيرا ينفعل انفعالا طفوليا بالظواهر . وقد امتلك حكرة على بحيرة التماسيح الواقعة في اعلى الشلال الثاني من ثاني نهر في العالم من حيث الطول . وانتهى بهم الامر الى الاشفاق عليه فشكوا سوء حظه وشعروا في بعض الاحيان بالذنب ينتابهم من التصرف الذي يسلكونه معه . لقد تعودوا على جنونه وشطحاته وحوضه الياباني وبنيتيه وسمعوا الكثير عن حكاية المطر الذي لا علاقة له البتة بدموع الرب الاعلى ، وعن جبل الجليد المستورد وهو عبارة عن قطعة مفصولة عن قارة لم يعرفوا بوجودها أبدا ولا بأية قارة أخرى على كل حال ، لان معلومات الجغرافية غابت عنهم غيابا كاملا وكليا . ولكن بفكاهتهم استطاعوا أن يسووا مشكلة خلق بلدتهم بأن نسجوا قصة فاحشة وقحة تعبر عن عشقهم للخالق وباحساسهم بما هو فوق الطبيعة وقرروا للمرة الأولى والاخيرة بأن المنامة ليست الا برازا أطلقه الله ذات يوم وهو في شدة الغضب . ولهذا السبب بالذات لم يصدقوا أبدا تلك الاسطورة التي اشاعها محمد عديم اللقب بأن البلدة بنيت من قبل تاجر في موقع تتقاطع فيه طرق تجارة الملح والذهب . ولم يكن هدف هذا التاجر سوى أن يجمع ثروة يبيعه لرجال القوافل ساعات رملية قادرة على قياس الزمن في الفراغ وساعات مائية تشتغل برغوة الجهد البشري ، وموازين ومناقل نوعية اخترعها البيروني ذلك النابغة المجنون في القرن التاسع لقياس كثافة السوائل والعرق الذي تضمنته أمثال الساعات التي اراد التاجر بيعها للبدو غشا وتدليسا قبل زمن طويل . في حين كان هؤلاء الرجل يقيسون الوقت حسب حركات النجوم ليلا ومن خلال تعاريج عروقهم المضطربة عندما يطلع النهار . وادرك اهل المنامة أن المستبد الصغير الذي امتلأت أذناه طينينا كلما ترقعت مسعودة حمالات نهديها الاسطوريين ، لا يخفي احتقاره لهم ويستهنهم ويраهم دون المستوى لحضور زواج ملكي

تحدثت عنه صحف واذاعات العالم بدهشة وانبهار كبيرين لشدة ما كان بهيجا ورائعا . وكلف رشيد بناصر بقراءة تعليقات المجلات ذات الورق الصقيل لكي يدفع الجواهر المحرومة على الاحتلام . فكان ان وقع على صورة الحاكم وقد مفر فاه كانه افتقر الى ماء او تذكر على حين غرة بانه نسي قبل مغادرة المنامة تشغيل نظام تغذية حوض السمك بالاكسجين ، وكان السقف الفوقي من هذا الحوض يشكل في نفس الوقت أرضية زجاجية لبهو الاستقبال تتحرك فيه الى جانب الاسماك النادرة الجيلة الخارقة ، اسماك طفولته الزرقاء وقواقع كوابيسه الوردية وقوالب هواجسه الشاحبة . ولم يتضايق أهل المنامة امام ذلك التلق فحسب بل فقدوا نومهم وراحتهم بسبب تلك الهدية المشحونة بالرموز والالغاز التي قدمها ملك خليجية الى مسؤولهم السامي . وآثر البعض منهم الا يناموا أبدا حتى لا يقعوا في ذلك الكابوس الرهيب المتكرر فيتعرضون لتوبيخات زوجاتهم ويوقظوا أطفالهم الشديدي الحساسية . اما عائلة عديم اللقب فلم تفكر حتى في شراء احدى تلك المجلات الملونة التي تتضمن صورا متعددة متكررة باختلاف جوانبها وزواياها عن الزواج . ولكن لوحظ غياب كلثوم غيابا مطلقا عن تلك الصور ، فتأولوا انها قد تسببت في احدى الفضائح أو استقرت جمسة أو صدمت الناس بشطحاتها التي مهزت في اخراجها فجأة وبصفة مسرحية مثل بوقالها من حامض الفورميك وقنفذها الاسترالي المروض . وعلى عكس العامة راح محمد لا يهتم بغياب كلثوم بل يحسب تكاليف الحفل الملكي اعتمادا على عناصر زوده بها صهره ماسح الاراضي رشيد بناصر وصديقه العجوز الشيوعي علاوة الاحمر . وأدرك وهو يمارس بعض القياس الاقتصادي المقارن أن هذا الزواج قد كلف ما يوازي الميزانية السنوية لبلد فقير طوال عشر سنوات . وكان ماسح الاراضي حتى ذلك الحين غير مبال بالامور السياسية ، فكسر ادواته الثمينة من اليأس والتمرد عندما بلغه الخبر . اما علاوة الاحمر فراح يثير شبح ستالين ويؤاخذه مرة اخرى على هجرانه للانسانية التعسة ، ويلومه على هاوية الموت التي وقع فيها وفي غوايتها في حين أن الثورة يعبث فيها ، خاصة والكل يعلم أن مثل هذا العملاق قادر على الخلود : « أجل ، هذا ما يحدث بالضبط . نعم ، عشر سنوات مضروبة في عشرة من ميزانية كاملة لشعب بائس بجمهرته الكثة ، وأنت تهجرنا . هذا ظلم يا ستالين ! ظلم وظلم ! » الا الساعاتي الذي لم يحرك ساكنا وبدأ صمته يقلق عديم اللقب الذي يبصره وهو يعمل من الفجر الى

ساعة متأخرة من الليل في معالجة الساعات الجدارية ، مقعها المكبرة العينية في محجره الايمن وكأنها امتداد شيطاني لعينه وضعت هكذا لايجاد التوازن مع بروز حديثه . ولم يعد هذا الرجل الذي كان رفيقا بطوليا خلال السكرات الخارقة ، يشرب منذ أن كلفته مسعودة بساعاتها الجدارية التسع عشرة . كانت تقضي ساعات طويلة تحاور نفسها امامه وتطلعه على أهم الاحداث البارزة خلال النهار السالف . وتخبره عن معجزات عباد شمسها والمحافظة على حرارة معينة في غرفة الطمث وزواج ليلي بندرشاه وطبيعة الاسكافي ومرض عميدة السلاحف وزعرورها الهائل وفزاعات الدر التي تصنعها معها وبطن زوجة محمد الذي ينتفخ كل يوم تحت تأثير تحركات التوائم الذين تسمعها يضحكان عندما تمر بالقرب من بطن الحامل ونتائج المراهنة الرياضية الاخيرة على الاكباش واستمرار محمد في تدريب سلاحفه لكي يجعل منها بطلات في المائة متر وطبخة الكرشة بالكومون وهي تغلي على القدر وقلقها الميتافيزيقي العابر وانتحار ابنتها اللغز ورعبها امام الخراب الذي أحدثته الديدان في أساس بيتها وموت زوجها الفقيد الذي انسحق تحت رزمة من الحلفاء وتخوفاتها من موضوع ابنها البكر الذي جاء الى العالم بمفرده يتخبط في عزلة مزعجة فكان أن ورث من هذا التناقض حساسية مفرطة واحساسا حادا بالحنين والسحر بالاضافة الى حديثها عن الاشياء اليومية العادية الاخرى وعن رؤياها التهريجية للعالم . لكن كل هذا الكلام لم يكن في واقع الامر الا مدخلا لحديث معه عن الساعات الجدارية ، لانها تعلم انه يكره قلقها واضطرابها بشأنها . فلم يكن يغفر لها حذرهما من تلك الآليات المضبوطة الوفية للمعيار الزمني الكوني نفسه ، منذ أن صنعت من قبل صناع مهرة ذوي الفظاظلة الابداعية لا يوازنها شيء لديهم الا ذلك الجنون العارم الذي اكتسبوه لدى ابن الجزار نفسه وهو سيد آلية الساعات جدارية كانت ام لا ، وارهب هذا العالم الكبير القرن الثالث عشر بآلياته المتفصلة المشنجة ، بالاضافة الى الخزيني الذي ابتكر اول نظرية علمية تتعلق بالساعات والراقصات خلال سنة 1100 . وكانت مسعودة عنيدة وتعرف كيف تستعيد براعتها بعد كل توبيخة مضرة من الاحدب ، حتى تحصل منه على بعض المعلومات حول الساعات الجدارية الجنوبية. ولم تكن تشك في أنها تسببت في موت زوجها فحسب بل اقتنعت أنها تسرق منها زمنها ، وتبالغ في السرعة حتى تذبذب وتيرتها هي ، بل وتقلب الطقس

بالمنامة راسا على عقب ، الذي تمخض في آخر الأمر عن تلج ندف لأول مرة منذ خلق العالم . أما الساعاتي نفسه فلاحظ أنها تخاف من الموت وتتحول عن الحديث عنه بأن تصب قلقها كاملا في الساعات الجدارية التسع عشرة . وكان يحدث لها أن تؤخرها ساعة خلسة وهي تستيقظ ليلا ، فيغرق الساعاتي المسكين في اليأس وهو المسؤول المضطلع بأمور الزمن . وكثيرا ما كانت تتحسس شخصه وهو نائم في الورشة السابقة لصناعة الاكفان ، الى ان يشعر بوجودها على عتبة داره من خلال نعاسه فيأذن لها بالدخول ، مغمض العينين ، منهمكا في سباته . ودون اي شعور بالخرج ومن غير أن يترجأها تجلس على حافة السرير وتأخذ في سرد كل تفاصيل وقائع حياة وموت جدّها الذي كان حاجب المروحة لدى السلطان مراد الاول . فتدحرجه عبر مضائق التاريخ في قارب يتلوى وفق منمرجاته ، مستعرضة حياة آخر سلف لها مارس القرصنة في شطآن صقلية ، في بداية القرن الثامن عشر ، واتي بتلك الساعات الجدارية التسع عشرة التي وقع الاحدب في هواها ولم يعد يضمن بجهد من اجلها . وظل منطرحا في فراشه يستمع الى مسعودة وهي تسرد ذكرياتها المفتحة التي تسوقها دون أن تكون قد عاشتها فعلا وكأنها تبدد حبات مسبحة خيالية . وتضخمت حكاياتها ايما تضخيم حتى أنها لم تعد في نظر ذلك المعتم الجميل المنكوب بحدثه الا ساحرة حقيقية منشغلة باستعراض شياطينها استعراضا طقوسيا . أما محمد عديم اللقب فدون أن يعيد النظر في صدق ردود فعله تجاه مشكل الزمن جعل يشك في أنها تناوش الساعاتي المسكين لكي تتفحص وجهه وتحاول تخيله دون حديثه الرهيبة . كانت مسعودة تجده جميلا وعلى الرغم من ذلك التشويه الخلقي وقد خشيت من أن تقع احدى فتياتها في هواه . واضطرت حينما راودتها الفكرة بأن ضيفها ذاك قد يصاب بعدوى الضجيج المعروف عن كل فرد من عائلة عديم اللقب الذي يسري في شرايينهم ونخاعهم . وخشيت أن يترك الساعاتي الآلات لمصيرها مع أنه لم يفحص الا جزءا منها ، ثم يحطم نفسه بعد ذلك في جرف الغرام . وانتهاز جيلالي بوحدة الفرصة خلال تلك السهرات الطويلة الطارئة والتي لا مفر له منها فراح يشرح لها مبادئ آليات التدقيق ويحدثها عن العلماء العرب الذين صححوا علم البصريات لبطليموس في القرن العاشر ، وعن اشغاله حول قياس الزمن في القرن الحادي عشر ، بل انه حدثها بوجه خاص عن ابن شاطر الذي صنع العديد من الآلات ووضع كتابا قيما سنة 806 بعنوان : « كتاب الحيل

والإبداعات « . وكان بوحدة قد جعل منه مرجعا يعود اليه دائما وأبدا بالإضافة الى قائمة من المراجع الأخرى تساعد على التدقيق في الساعات الجدارية وضبطها بصفة محكمة . أما السر الكامن وراء غياب كلثوم عن صفحات المجلات الأسبوعية المثيرة والتي تخصصت في أعراس الملوك وحفلات العرش ، فسرعان ما تبدد عندما توجهت في زيارة طارئة لصديقتها الدر التي أوشكت على الوضع . وقبل أن تقدم أية شروح طلبت منها أن تبرمج مقابلة مع مسعودة حتى تتصالح معها : « ليس هناك مجال للنقاش ... فيكفي أنها وضعت هذه الصورة الصارخة من الجمال البشري ... ولا حاجة الى القول بأنني أضرب صفحا عن جنبه ، أما إبهامه فهو تحت تصرفك دائما ... انني أخشى أن يعمد القنفذ الذي جئت به من استراليا الى ابتلاعه ذات يوم وأنا منشغلة بتبديل محلول الفورمول » ... وبذلت الدر جهودا كبرى لكي لا تنفجر بضحكة أمام هذا الخطاب الغريب لأنها خشيت أن تنقل مرحها هذا الى توأميها المنهمكين في القيلولة داخل بطنها بعد الصخب العام الذي ضجت به عروقتها والذي دام طيلة الصبيحة وقد قضتها في قص الورق المقوى وطلائه بالوان صارخة . وما أسرع ما قررت تقديم يد العون الى تلك الفتاة التي سحرتها بجمالها وعقوقيتها وغرابتها أكثر مما أثارتها ، وذهبت تبحث عن حماتها بينما انشغلت كلثوم بمداعبة القنفذ الاسترالي الذي عشنش في أعذب فجوة من سروالها ، وانطرحت على نفس السرير الذي فضت بكارتها عليه من قبل عديم اللقب قبيل سنوات . وتذكرت حينذاك أنه جعلها تكتشف ماضي المنامين المثير . وبالفعل لقد أدخلوا ثلاث بنتوجات صينية الى الغرب هي : الحرير والبرتقال والورق نسي القرن الثامن ! والحقيقة انها أرادت التسويف وأحست بأعصابها تزداد توترا حين بلغ مسميها وقع خطوات مسعودة الجنونية وهي تقترب من الورشة التي تجددت فيها وظللت على حذرهما وشعرت برعب داهم لأنها كانت ترهب الناس كلهم بدءا من أبيها بل وحتى ملك خليجية الذي دفعته الى أن يخذل يده اليسرى واضطر بعدها الى اخفائها تحت جلابيته الحريرية عندما أخذت له صورة الزواج التقليدية . وحين دخلت مسعودة ، أحست الفتاة ذات البوقال بكل فوضوية عمرها وهي تتصاعد الى إبطيها الفاحمين وبعضائها تملىء بالضباب حتى أن كل شيء صار صفيقا أمامها ، واضطرت حين قيامها الى الاستناد الى جدار الغرفة . وقد أشفقت عليها مسعودة وتركت

حنفيات العطف واللطفة تفتح لأول مرة . حدثت في وجه ابنة عدوها على الرغم من شبح عتيقة الذي راح يجول في الرواق ويدفع الباب وكأنها يريد الدخول . غير أن الدر كانت يقظة وهكذا أدارت القفل مرتين لكي تجد نفسها صاحبة امرأتين تثيران اعجابها . وسالت مسعودة وكان شيئاً لم يحدث عن عدم حضورها العرس الباذخ الذي جرى تحت الثريات المتلاثة المستوردة من جزر القمر . وقالت أنها تشبه الدموع البشرية عندما تنهمر بكل صدق . فأجابت كلثوم كعادتها بطرافة وقالت بأنها نسيت نفسها في دورة المياه حين كانت العائلة تغادر المنامة لكي تلتحق بخليجية . ونسيت الدر توأميها وضحكت لتلك الاجابة الساخرة ، وأثارت في نهاية الامر عدوى الضحك في نفس مسعودة التي لم تكن تعرف كيف تتوقف اذا هي بدأت . وعاد محمد في المساء بعد يوم قضاه في استخلاص عينات طبوغرافية حسب مخطوطات ابن خلدون . وفاجأ النسوة الثلاث وهن يضحكن ملء اشداقهن تحت تأثير تهريجات كلثوم . وأبصرت هذه لأول مرة بوجه محبوبها الاول وبطيور الكاميشي البرازيلية وبالاتفاص المغطاة بأستار الحياء وجولة الامازونيين بالمنامة وبالالات الضاغطة التي بددت نقوءات تضاريس فرجها الشائك . وفي بضع ثوان رفعت كل أنوثتها الحريية الى عينيها فاستحالتا الى فج بلا قرار ولكنها سرعان ما اعادتها الى مكانها دون أن يعلم أحد بمدى انفعالها وقالت بصورة مبهمة : « ليس هناك رجل واحد يساوي قيمة قنفذي ! » ولم تفهم الاخران شيئاً من تلك الاثارة الطفولية الملهزة والجريئة ، وعادتا الى الضحك من جديد ، بينما أحس محمد عديم اللقب بأنه ضحية اعتداء شجن فائر ان ينصرف لكي يجنب نفسه نكهة الحنين وما يمكن ان يحدثه في احشائه . لقد ادرك جيداً ما تعنيه صديقتيه كلثوم بقصة ذلك الثدي ذي الاشواك لا سيما وأن الشك سيطر عليه ثانية حول قدرته على انجاب توأمين مثلها اقتضت ذلك أمه . أما المصالحة بين مسعودة عديمة اللقب وكلثوم بندرشاه فقد أرسلت نسيما رائقا على الدار العابقة برائحة الكافور الذي يبالغ بوحدة في استعماله لدهن حذبه . وكان يعتني بها ويصونها بكل عناية ، فيخصص لها وقتاً كبيراً أثناء الاغتسال في الصباح وقد انبعثت من الدار أيضاً روائح مخلوطات الزيوت المختلفة التي يستعملها الساعاتي لتشحيم دواليب الساعات الجدارية الصقلية التسع عشرة . وكانت كلثوم دارية بأن غياب أبيها سيطول حتماً ، لذا قررت بدعوة من الدر الاستقرار بدار عائلة اللقب بصورة مؤقتة . وأشاعت الاخبار

المروجة بأن الحاكم قد يعود على متن سيارة « الرولز رويس » ، غير أن أهل المنامة الذين لم يروا قط سيارة في حياتهم ، تصنعوا عدم التصديق وتركوا الحمير تتراكم صحبة الكنغر والكلاب ، وهم يحرسون في ذات الوقت باستمرار المدخل الوحيد للمنامة ، عبر الاسوار حيث جاءت حضارات متعددة لكي تنطح أنفها على الرمال . ولم يدرك أحد ما اذا كان وجود كلثوم قد أثار حوافز الآخرين غير أنه في هذه المرة تنوسي حداد عتيقة ، واستولى فرح الحياة الغامر على الناس كلهم في البيت وتظاهر الساعاتي برفع رأسه عن عمله برهة قصيرة وترك ابتسامة خجولة ترتسم على وجهه . وانتهزت الأم الفرصة وسط هذا الحماس لكي تستقر مع الدر ومع كلثوم في الحديقة لاستئناف صناعة الفزاعات وتفصيلها . كانت تنظر بين الفينة والاخرى الى نبتتها الكثة الغزيرة وتواصل درس التاريخ بعد أن تخلت عنه منذ ذلك اليوم البائس الذي أعلنت فيه مكبرات الصوت عن قانون منع الزواج بين اللوطيين . وهكذا أزيل التراب ثانية عن الجلادين والطفاء . وعدت مسعودة والاخريان الى قص الورق بمقصات اللهفة . خربشة لرؤوس مرعبة واقنعة للويس التاسع المسمى بالقديس وقد تأكلته ديدان الرحيل والاغتيالات المقتنة . ثم بدأت كلثوم الشرح مستهلة الفصل حول حملة الاطفال الصليبية . آلاف الاطفال المعمدين من سائر المدن وآلاف الاطفال القادمين من الريف البائس ، قد ذبحوا عن آخرهم . على حد الموسيقى . او بدمل الوباء . ولم يكن هناك من خيار ، فبكت مسعودة لذلك واضطر الجميع الى التوقف عن العمل لتعليلها . واعيدت السدادات الى أواني اللصاق . وفي المساء أجبر محمد عديم اللقب على التحدث عن كشافي المستر براون الذين أرسلوا ذات يوم . كانوا قد شبوا عن الطوق وتضاعف عددهم بالجوء الى الحيلة عند اطراف المنامة . أما الساعاتي فكان خلال العشاء عبوسا بعض الشيء بسبب انتخاب ربة البيت . فأقام علاقة بين هؤلاء الكشافيين وبين أصحاب الحملة الصليبية القديماء . ولم تفهم مسعودة شيئا من الامر ، بل انها لم تحاول أن تبحث ذلك ، فبكت طويلا عندما أصغت الى الاستعراض المدهش لاستشهاد هؤلاء الصليبيين الصفار حتى انها أصيبت بدوخة حادة طوقت رأسها . وعندما جن الليل ، انتهت الدر وصديقتها من صناعة فزاع القديس لويس ، وعلقتاه سرا اثناء نوم مسعودة على أعلى شجرة في البستان . ومنذ ذلك اليوم وقفت مسعودة موقفا عدائيا من الحروب الدينية ولم تتخل عنه أبدا الى يوم وفاتها .

وبعد وقت طويل . طويل . طويل . اي في اليوم الذي دفن فيه محمد عديم اللقب والدته تذكر تلك الظهيرة التي تعين فيها على النسوة أن يصنعن صورة لويس التاسع . واحتفظ رهن عينيه ذلك المشهد المتواطىء الذي بدأ أحسن بدء وانتهى وسط الدموع وكرائنة اللصاق الذي ساح على مخذي كلثوم . وتذكر بدقة رائحته الجيلاتينية وكيف ايقظت القنفذ الذي كان يقضي وقته في النوم ولا يغادر فجوة الفتاة الحريية الفاترة . على أن رائحة عطر اللصاق النباتي اجتذبت القنفذ الاسترالي ذلك اليوم . وعندما غزت الدار ، كانت مسعودة قد انطرحت وانطلقت في انتخاب طفولي شوه جليد عينيهما المتأجج ، وغشت قلبها سحابة رمادية . فعاقبت كلثوم القنفذ وحرمته من أنوثتها طوال النهار . وقضى الحيوان يومه بمشقة محاولا أن يطمئن ذاته برائحة التربنتين وغيرها من الاكاسير التي تدخل في صناعة اللصاق الاصطناعي . وعاد الجميع الى العمل في اليوم الثاني ، ذلك أن الحديقة انطلقت مع اهوائها في حين أن الزعرور كان في حاجة الى حماية شديدة على وجه السرعة . ووعدوا بأن يراعوا احساس الأم ، على أن الامر لم يكن يتعلق بصناعة العرائس . فالطيور صارت تهدد الحديقة بقدوم الشتاء ، وجعلت تغذ من كل مكان هاربة من الصرد والضباب ، وكانت المنامة هي بلدة الصيف الدائم . وما أسرع ما راح الناس يتحادثون في كل مكان بأن الثلج لم يتساقط على بلدتهم الملعونة ابداً وأنه مجرد حلم يقظة فقط . وندم محمد على قذفه لذلك الثلج الذي احتفظ به زمنا طويلا في الثلاجة لأنه أراد أن يقدم تكديبا قاطعا لتلك الترهات ويعارض بحجة قاطعة تحرشات الحاكم الذي حاول بث البلبلة في وعي الناس المستنيرين . لكن هؤلاء لم يغمض لهم جفن منذ أن شاء لهم حظهم الاسود أن يشاهدوا صورة السيف البلاطيني الخالص الذي اهداه ملك خليجية الى بندرشاه . وعاد الناس اذن الى تداول القصة . وجعل الزمن يسير سيرا عاجلا في حين أن القمر ساعد الطيور على الابصار في الحديقة بكل صفاء . واقتطع الورق المقوى ، وفتحت من جديد اوانسي اللصاق واتخذت كلثوم حذرهما فتخلصت من القنفذ الذي بدأ يبعثها على القرف الآن وقد حصلت على تعاطف عائلة عديم اللقب كلها . حتى الساعاتي انتهى به الامر الى الخروج من دواليبه وبدأ الجميع في صناعة مزاع مراد الاول لكي يروقوا في ناظري مسعودة ، وهو السلطان الذي استدعى لخدمته أحد اسلافها للترويح عنه في ساعات القيط ! صفقت مسعودة بكلتا يديها وخصت نفسها برسم شاربين رقيقين له وطلبت

معلومات بشأنه . اتراه كان طيبا أم شرسا ؟ مكروها من قبل الشعب أم محبوبا ؟ كانت الدر مختصة في تاريخ الدولة العثمانية فروت بأنه كان يعيش آلات الاسطربلاب لكنها لم تتحدث عن غزواته ولا عن حروبه . أية علاقة يمكن اقامتها مع فزاع الامس ؟ سوى تلك القرابة العصبية وذلك التمعش . لقد أراد ان يحصر الزمن ويشطبه في سبيل العلو والخلود . لقد واجه السلطان مراد الاول اعداء كثيرين ولم يتنازل لهم عن أي شيء . لا حاجة للحديث عنه اذن ! وكانت مسعوده في أوج سرورها ، فراحت تنقل نظراتها بين الواحد والآخر . وفي غمرة اندفاعها طلبت ثلاثة نماذج لذلك السلطان العظيم لا لشيء الا لكي تخط رسما لشاريه الفاتنين ، ثلاث مرات متتابعات . وسر محمد وهو يراها راضية مع أنه كان يرتعد خوفا من أن لا ينجب تواميه . وارقه شغفه بالأدب فدخل اللعبة بدوره ، واقترح أن يرسم سرفانتس الذي كان يشبه الدون كيشوت بيد ناقصة وهي اليد اليسرى التي فقدتها في معركة « ليبانتي » وكان قد انتصر خلال تلك المعركة على أحد احفاد مراد الاول الشهير الذي كانت له فكرة توظيف سلف مسعوده عديمة اللقب واعطائه لقب حاجب المروحة . 1571 . تمت العودة المظفرة وفجأة برز القراصنة في عرض البحر ، فوقع سرفانتس سجيناً كفار في مصيدة . قضى تسعة أعوام في السجن بالجزائر ، وفقد حبه للتباهي وغطرسته الحربية لكنه ربح مقابل ذلك عبقرية فذة . 1606 . ألف تصنيفه الكبير دون كيشوت لكي يسخر من نفسه . كان رجلاً مبدعاً حقاً . وسألت مسعوده التي استمعت الى قصة الصراع ضد طواحين الهواء : « ما معنى هذا ؟ » وقطعت الفرحة بقولها : « لا يجب أن أنسى طاحونة التويجات . عباد الشمس ينبت الآن أحسن من المرة الاولى . . . » الهواء عليل في البيت على الرغم من أن دوار الشمس يدور بالمعدل حول محور مركزي محترق . وسرفانتس استقر على الشجرة الزعرور بمعلق يعوض يده المبتورة . وختمت مسعوده قولها بانفعال : « انه يساوي ملكة برمتها ! » لقد أولست الآن بهذه اللعبة ، ومن ثم فهي لا تريد أن يتوقف الناس . انها ترهقهم كلهم وتتجاهل حالة الحمل المتقدمة عند الدر وتردد الجميع في رسم صورة سفيان بن معاوية على شكل فزاع . كان شرسا جدا ، وخشي الحاضرون أن تعود مسعوده الى الانتخاب . وأخيرا وجدوا حيلة للورطة . كان يابا كان . . . هناك مرة عالم يحب الاطفال ويكتب لهم باستثناء الكبار ، وكان اسمه ابن المقفع . ووجد الطاغية كتبه خطرة فحكم عليه

بالاعدام ، فقطعت اطرافه طرفا طرفا والقي حيا في فرن ملتهب سنة 145 هجرية . كان لم يتجاوز السادسة والثلاثين . وكفى بالله رسولا ! ولم تبك مسعودة بل تمالكت دموعها ، فأسرع من حولها وأعطيت لها صورة تبرز كتاب المعدوم . فدهشت لروعة المنمنمات الفارسية . وعلق فزاع القاتل فوق شجرة التين ذات يوم وقد عصفت فيه رياح رملية ، وحكم عليه أن يصلى نارا بدوره . وخشيت مسعودة من أن يكون لها سلف عاش الحياة الخاصة للملوك والسلطين ، حتى وان كان الامر يتعلق بهراد الاول ! وبدأت تباعد بينها وبين حبها له .

على أن الحب المتولد بين بوحدة ورشيقة ثالثة التوائم أخرج العائلة من سباتها المغناطيسي التاريخي . كانت صناعة الفزاعات قد صارت مسرحا سياسيا . واستخرجت كلثوم الاحقاد المتقادمة ، بينما فقدت رشيقة حسها بالواقع وطفقت تهيم في الدار وتضع أذننها على باب الورشة حيث استقر الاحدب ، لكي تسمع خفقان قلبه . أما هو فقد دهش أن يحط عليه حب امرأة ما ، فاضطربت الساعات بين يديه ، وصاحت مسعودة : « كنت أعلم ذلك جيدا ! لقد انشغلت الساعات بصورة مذبذبة منذ اليوم الاول » وتلعثم الساعاتي ، وعبثا حاول اقناعها ، غير انها اشهدت العائلة كلها وطلبت من ابنائها أن يصعدوا من الحديقة حيث كانوا منهمكين في اصلاح اسس الدار التي عمل فيها الزمن أنيابه والديدان والنباتات ، فرضخوا لعزيمتها القاهرة . والحقيقة أنها كانت مسرورة بتزويج ابنتها لذلك الساحر المداهن . وأعلنت بأن أمر الحدة لا يهم وحاصرت قومها . ومن جديد أرادت أن تدور بمثل سرعة عباد الشمس . وعادت فكرة الطاحونة التي تخدم بواسطة الطاقة الشمسية ، بفضل تويجات عباد الشمس ، تطرق رأسها وتزداد رسوخا . أما محمد فاخترت لاقتراب موعد الوضع الثاني . وخافت كلثوم الا ينجب توأمين من جنسين مختلفين مثل المرة الاولى فتجافيه والدته ويضع بعدها ابهام يده اليمنى تحت سكينه الخباز بحجة أنه قصد حائوته لشراء الخمرة . . . أما أهل الدار الذين توزعوا بين نيران الفزاعات وعلان الزواج العاجل عن زواج رشيقة وبوحدة ، فقد اجتمعوا بضع ساعات في انتظار الخلاص . وحين أفرزت الدر سائلها الاميني وقذفا جسدها بتوأمين من جنينين مختلفين ، تنفس الجميع الصعداء . وتنسبت مسعودة ذروة الفرح وخشيت الحروب التي لم يسبق لها أن سمعت

عنها والحروب التي يتنبأ الناس بوقوعها في المستقبل العاجل وواقفت الساعات الجدارية من قبل بو حدة الذي غرق في عشقه ، لكن العملية كانت مؤقتة لا تتجاوز فترة الزواج . ولا شك أن مسعودة افترقت بعد ذلك الى ساعاتها الجدارية التي تدق كل ربع ساعة ، ونصف ساعة وساعة : ولعلها تطلبها ثانية ...

وتم العرس في اليوم السابع لميلاد التوأمين الجديدين ، وهو اليوم الذي يوافق ختان التوأم الاول . وجرى الحفل بكل بساطة وسترة بسبب ذكرى عتيقة ولم يستدع احد ما عدا كلثوم التي تبنت مثل أي فرد من العائلة والاسكافي لأنه قبل أن يلعب دور المطهر ، على أنه أمضى يومه في الدوران حول مسعودة لكي يعرف سر قدرة عائلة عديم اللقب على الانجاب اثنين اثنين . لكن محاولته باءت بالفشل . وقال الاب السعيد انه لو استمر على الانجاب بنفس الوتيرة فانه سيفرق بين جحافل الاطفال . وقرر الحصول على خارقة جديدة حتى يتهالك نفسه ، ولعله فعل ذلك لكي يخلب عقل كلثوم . وبمجرد انتهاء الحفل العائلي الخفي ، انطلق نحو الصحراء كعادته قبل أن يتخذ أي قرار . واستقر الساعاتي مع زوجته الفتية في الورشة السابقة التي أعيد تنظيمها في شكل غرفتين : ورشة للعلوم الآلية المدققة وغرفة للنوم . ووشوشت مسعودة في اليوم التالي في أذن بو حدة لكي تكشف له عن وجود غرفة للطمث ، وعن اصل خزينة الدم الاحتياطية وعن غايتها من وراء ذلك . وما كان منه سوى أن قام بحركات وثيدة مدلا على أن ذلك أمر بديهي . وأكد لها انه جزء من العائلة بل اعرب لها عن استعدادة لتقديم دمه هدية وقربانا . واشفقت مسعودة على سذاجته وبراعته وتساءلت فجأة وبعد دهشة اذا ما كانت ابنتها قد صارت امرأة خلال ليلة دخلتها . لكنها لم تنبس بكلمة لأنها تعرف يقينا من نفسها كيف تتحايل لتشعل النيران في صدور أكثر الرجال بلاهة . ولهذا السبب اجمعت عن فحص حتى الملاحف التي قضى عليها العروسان ليلتهما . لم تكن المسألة تتعلق في الواقع بالسماح لاصهار عائلة عديم اللقب بانجاب التوائم . فهي حارسة السلالة المتيقظة على الدوام ! ولا يهمها أي شيء آخر ... وقالت في ذات نفسها انه ينبغي دائما تعويض عدم وجود الاسم العائلي بهذه الحركة الدؤوب والتوالد المستمر . وعاد محمد بعد غيلب دام يومين

وهو يكتسب موهبة القضاء على كل المنعطفات التي قد تواجهه كرها
منه في الملتويات والأشياء التي تفتقر إلى الصراحة وإلى الشفافية . وقال
لامه : « من يدري ! ليس هناك الخونة وحدهم الذين يجب الاحتراز
منهم ... » وانتظرت مسعدة نزول المطر لكي تملأ حوضها بالماء
العذب وتدفق فيه قنطارا من الملح وتضع فيه حوينات السردين التي ما
انفكت تتمتع بكسلها على الدوام ، داخل وعاء السمك الزجاجي
المستدير . وجعلت تحلم بتحويل المنامة إلى أضخم ميناء مختص في صيد
أكبر أنواع السردين في العالم !

في ذلك الصباح الصقيعي المذهل من يوم 9 أكتوبر 1010 ، راحت الجحافل العربية تغادر مدينة فيينا بدون استعجال ولا اضطراب كبيرين . ولم تكن تلك المرة الاولى ولا الاخرة التي تفشل فيها في محاولتها للاستيلاء على المدينة . مر الفرسان وهم يرتعشون من البرد قبالة فرن المعلم « بينهورست » الذي انكمش وراء كوته يتألمهم وهم ينطلقون بأحسنتهم الرائعة ذات المناخير التي بحلقات حلزونية من البخار . وسر الخباز سرورا هائلا لانسحاب الغزاة الاجانب ، لعدة اسباب . ووقفت زوجته « دوروتي روثمان » وراءه على أطراف قدميها محاولة الا تضيع شيئا من ذلك المشهد الجديد الذي يمر امام عينيها . وبمجرد أن ابتعد وقع حوافر الجياد بصخبها المولع ، ضمها زوجها الى صدره وشعر بأن يومه ذاك سيكون يوما مشهودا ، ففاض فرحة من كل جانب . واسرع مندفعاً نحو الحوض الخشبي حيث يعجن العجينة ، ودون أن يقول كلمة لزوجته ولا لصانعه الذي خرج من نومه متثابها حتى بدأ يقطع العجين وهو يدندن بكل مرح . أما زوجته التي تعرف فتور شعوره ازاء المسائل الوطنية ، فقد دهشت وهي تراه سعيدا مغمورا بهزيمة العرب . لكنها حين لاحظت أن شكل الحلويات الصباحية غير عادي ، أدركت دهاءه والقت بنفسها عليه وقبلته على شفثيه أمام انظار صانعه العبوس الذي جعل يخرج بمشقة من نوم حامض كان له مذاق الخمرة . كان انذاك زمن الرأسمالية التجارية المتهيجة والمنتصرة . وكادا يختنقان من الفرح . لكنهما سرعان ما عادا الى العمل . وقع بينهورست هذا على فكرة عبقرية في ذلك الصباح المقذع من يوم 1900 أكتوبر 1010 . وبدلا من قطع

المعجن الذي يصنع منه الحلويات قطعاً صغيرة دائرية ، أثار أن يعطيها شكل هلال . وهكذا ولدت حلويات « الكرواسان » بفينينا . ووجد الشعب غايته فيها حين راح يلتهم رمز العدو بنهم وامراط . ودخل الخباز مسرح التاريخ واكتسب أموالاً طائلة . وعظمت شعبيته الى حد أنه انتخب بعد بضع سنوات على رأس المدينة من قبل مواطنيه الذين جعلوا من « الكرواسان » الناضج نشوة وطنية ومتنفساً لحسرتهم أيام الاحتلال العربي . وهكذا بلغ استهلاك الحلويات المصنفة على شكل هلال الرامز الى راية الاسلام ، نسبة مرتفعة ، وعلم الناس أن هناك منافسين للمعلم « بينهورست » في براغ وفي بودابست وفي هامبورغ وظهر « الكرواسان » في كل أرجاء العالم ، لكن استهلاكه أثناء فطور الصباح ظل مقتصراً على طبقة معينة وضيئلة جداً . خاصة وأن هذا النوع من الحلويات لم يجد أي صدى في الامبراطورية الاسلامية ! وكانت هذه الاكلة الصباحية تعبر لا فقط عن رمز سياسي ملصق بالراية الاسلامية ، بل كان له بعده الماورائي وجذره الروحية . قالت كلثوم في هذا السياق : الهلال هو مفتوح ومغلق في نفس الوقت » . واجابت الدر : « لا هو اتساع ولا هو تركيز » . وأضاف محمد : « انه الخط الدقيق الذي لا يكاد ينفلق على نفسه حتى يتوقف فجأة ويترك فجوة يمكن لها أن تكون خرقة من الخوارق وبإشاراتها وتلميحاتها الخبيثة » . ولكن ما مغزى كل هذه الحكاية ؟ من هو هذا الخباز ؟ ولماذا يقبل زوجته بهراً من صانعه الذي لم يستفك من نومه تماماً ؟ سوف نشرح لك الامر فيما بعد يا مسعودة ! انك تتظاهرين بعدم الفهم ، ليس الا . أما نحن ، فلا نجهل سنة 1010 ولا سنة 830 ولا سنة 1700 ولدينا البرهان على ذلك بواسطة الرقم 9 . وبعد وقت طويل من ذلك اليوم ، حفظت مسعودة عن ظهر قلب تلك التواريخ . في سنة 830 ، طرد العرب من فينينا . 1700 : هاجم جدك مصطفى قرصافي مدينة بالرمو واستولى على تسع عشرة ساعة جدارية من الفضة الخالصة . 830 : وضع الخوارزمي البرهان بواسطة الرقم 9 . أما جيلالي بو حذبة المطلاع على علوم القرون الوسطى ، فقال عن موضوع الهلال ورموزه الاسلامية : « فلنرجع الى لب الاشكالية ! من حيث الشكل فهو ينفلق ويفتح ثم يختنق ثم ينفلت فجأة وينطلق في الفضاء اللامحدود . وواصلت الدر قائلة بأنه علامة على المبدأ الانثوي . فهو سلبي — تعثرت عند هذه الكلمة — ومائي في زمني الوقت . وبدأ الفهم يغمر مسعودة ، فهي لم تكن ترى من أول وهلة العلاقة بين

الهلل والسك ونظرا لارتباطها ارتباطا مباشرا بشؤون الحياة الملموسة ، عادت الى المعلم بينهورست والى عبقريته في شؤون التجارة . وأكدت بسرعة انها تكرهه . وبحثت عن الكلمة الملائمة فصاحت أخيرا : « يا له من وحش ! » شددت مقصها وأقحمته في الورق المقوى وبسرعة أحدثت فتحة هائلة في المادة الخام واتخذ الرسم معنى شرسا قبيحا . 1010 . أكتوبر . اليوم العاشر منه . صباح جلدي ووقع حوافر الخيل العربية ذوات المناخر المنتفخة بكأبة الهزيمة وها هو الخباز يحمل عوض بطنه جبلا جلديا وما أسرع ما يمر عليه اصبع أحمر الشفاه الذي تملكه الدر . لقد حاولت أن تضع له وجها محمرا تريلا ، بعينين زرقاوين باردتين خنزيريتين . وهكذا تكتمل الحلقة ! ثم يأتي دور زوجة الخباز الداعرة الهولاء المنفوشة الشعر ذات الفرج المنكمش الذي تنعكس صورته على صفحة عينيها الصفراوين . مسعودة القاسية ! تجهل فحوى الرموز وتبالغ وهي توجه الكلام الى كلثوم : « أنا متيقنة من أن الحاكم يفكر بالكرواسان كل صباح » ... والجواب بديهي بطبيعة الحال . تاريخ ملموس . نوع من الانتقام بخبزها المحمص بالزبدة الزنخة والمحشو بالطماطم والفلل الحار . انها الطليقة بمثل هذه الامور . وهذا الطبخ من اختصاصات البلدة . اكلة الفقراء ، بالتدقيق ... اما عن كيفية تجنب البواسر فثمرات الصبار دواءها . لكل واحد اختصاصه وتفنينه . والانسان لا يصنع الحلويات ولا يطبخ دون أي عقاب . التاريخ دليل على ذلك . المعلم بينهورست هو الآخر مشدود الى دوروثي زوجته بحبل السرة من الورق الوردي ينطلق من فمه وينتهي داخل فرج المرأة . ووضعت اللمسات الاخيرة وعلقت الفزاعات النمساوية فوق شجرة المشمش العتيقة ، عقابا على تحايلها وعلى سخريتها واستهزاء بالراية المرسومة بهلال الرسول المقدس ...

كانت أشجار المشمش التي تملكها مسعودة ثلاثا . الاولى طاعنة في السن وهي مغروسة بالحديقة قبل أن تستقر بالدار . والثانية أصغر من الاولى بقليل وغرستها بنفسها . اما الثالثة فثمارها مرة تستعمل غب المرارة المبطنة في ثمرات الاخريين . وكانت مسعودة تهد كل ربيع جبلا بين الاشجار الثلاثة وتنشر عليه حبات المشمش المرة بواسطة مساكات الغسيل المصنوعة من خشب الزيتون . وهي ثمرات قادرة على حسب صنفها وتطيرها على ابتلاع الحموضة التي قد تنتشر في الثمرات السليمة العذبة ، بها في ذلك الحموضة التي قد تغزو قلوب سلالتها الثمينة ، وحضر

حلوانسي نيينا وزوجته تلك الاعجوبة الفلاحية ، على طريقة عرش عديم اللقب ، وهما صامتان ومضطربان في نفس الوقت . ولعلهما ابصرا بدون شك بعصارة المرارة المنبعثة من الثمرات الحلوة والمرّة وهي تسيل على حبل الفسيل ومعجزة الاستطراق هذه كانت عادية ومعمول بها في المنامة ، لأنها تمكن أشجار المشمش من ضخ حلاوتها كلها عبر جذورها السخية . وظل الناس بالقرية يستخدمون نفس الطرق الكيماوية التي استعملها آنفا جابر بن حيان ، ذلك الخيماوي الكبير الذي قضى حياته في تحويل الحديد الى الذهب والذهب الى الحديد . اكتشفت سنة 721 طريقة سبك هذين المعدنين وبهر بعمله سحرة سرقسطة وأخبار أمستردام ، وابتدع الحبر الفسفوري ، وصنع أصلب وأجمل زجاج بلوري في العالم بدءا من أوكسيد لم يكن يعرفه أحد في ذلك العهد . وأغرب ما في ذلك الامر هو أن عمله ذاك بلغ المنامة وهكذا ولدت صيغة نقل المرارة من ثمرة الى أخرى ويرجع الفضل في ذلك الى مخطوط منتحل ، استخرجه من تحت التراب محمد عديم اللقب الاب ، أي زوج مسعودة المنتسبة الى عائلة القوصاني ، حين قلب أرض الحديقة التي حولتها زوجته بعد سنوات طويلة الى حقل فردوسي . وبمجرد ما تم الاطلاع على تلك الحقائق البسيطة ، حصلت مسعودة على أحسن انواع المشمش في البلاد . لهذا السبب فان أقدم شجرة وأخصبها كانت محمية الآن من العصافير والسنونو وطيور الفردوس والفردوسيات والكاميشي واللقاق والكاكاتويس والبيغاوات والكوكسيرج والكولييري والطواويس والرغول والسرران والبنغال والكوليس والتنغال . ويعود الفضل في ذلك الى اندفاع حارسة السلالة الآخرة لعائلة عديم اللقب ، الى صنع أدولف بيبنهورست وزوجته دوورتي . لكن البستانية الساهرة المتطورة لم تكن على حقد متأصل بل كانت ذاكرتها ضعيفة نوعا ما ، فسارعت بالندم تجاه هذين الزوجين النمسووين الكافرين . وهكذا وخلال يوم كانت ريحه ساخنة ورملية فاجأها أهد توأميها وهي تنزع فزاعي الخبازين المنتقمين من أعلى الشجرة . فارتبكت ولم تدر ما تقوله امام نظرة ابنها المستفسرة والمشككة في آن واحد ، وهو الذي يدري ضعفها ! وأفلتت منها كلمة بنوع من الاثارة : « انها غريبان آتيان من بلاد البرد والصقيع ولم يتعودا على قيظ المنامة الشديد . . . » أما ابنها وهو حميد التوأم الرابع المعروف بحيائه وخجله فأصيب بالدهشة أولا ، ثم تأثر كثيرا بذلك الحس الفطري الحاد للضيافة لدى مسعودة . والحق أن طبيعتها كانت أبعد

من أن تكون أسطورة . ذهب حميد نحو أخوته وأخبرهم بقصة الاحترام التي نكته مسعودة لأعدائها ، وكانوا منهمكين كعادتهم منذ فترة طويلة باصلاح أسس الدار القديمة التي رأت مولد الجد عديم اللقب المكنى « بيونفوس » المصباحي السابق لدى شركة السكك الحديدية المختلطة . وهكذا صار التاريخ الذي أعيد صنعه بواسطة الفزاعات وبفضل تدرج وتداخل عوامله مع معطيات الحياة اليومية مفهوما من قبل الأم بصفة جيدة . وعندما كانت مسعودة تجد نفسها وحيدة في ذلك البيت المكتظ بالناس — وهذا نادرا — تردد بصوت عال : 752 . اغتال معاوية بن سفيان ابن المقفع . 830 . اكتشف الخوارزمي البرهان عن طريق رقم 9 1700 . خرب مصطفر قرصاني بالزمو واستولى على تسع عشرة ساعة جدارية . 1010 صنع ادولف ودوروتي بينهورست حلويات الكرواسان في الكون . 758 . اكتشف جابر بن حيان حبر الفدغوري . 1375 . بدأ ابن خلدون كتابة مصنفة حول تاريخ المجتمعات العالمية بقرية نائية ملعونة سماها أصحابها بالمنامة . كانت اللقالب قد هجرت البلدة باكرا ذلك الصباح . وخلص الساذجون العاديون الى القول بأن مفعجا وخارقا على وشك الحدوث . وبما أن الناس كلهم اطلعوا عن طريق عائلة عديم اللقب على هزيمة العرب بفيينا 1010 ، فقد ساد بينهم نوع من التوتر بسبب وجود القرية ابدا على هامش الاحداث التاريخية الكبرى . ولولا الاسكافي الذي لعب دور همزة الوصل بين عائلة مسعودة وبقية الناس لما علم احد بأمر تلك المهانة المدوية ، ولكنهم لم يقطعوا براى حول هذا الموضوع . فها هي اللقالب قد بدأت تهجر المنامة جماعات وزمرات كأن نفس الكابوس الذي عاشه أهلها خلال نومهم لا يكفي لكي يقضوا عيشهم بسلام . ونعموا على المصدقين بالخرافات والمتطيرين الذين لاحظوا مغادرة البلدة من طرف اللقالب . اما الصمت الذي ساد بعد ذلك فقد وقع فجأة على البلدة مثل غشاوة من رصاص . واستبدت الحمى بهم ، فراحوا ينتظرون بهدوء متكلف حدوث الكارثة التي تسحقهم جميعا . وما كانوا في حاجة الى انتظارها مطولا : فحين انتصف النهار وخزت كلثوم اصبعها خلال انشغالها بالخياطة صحبة الدر ورشقت قطرة حمراء على الصدار التي نسجه للتوام الثانية من توائم صديقتها . وقالت وهي تلعق اصبعها الجريح : « لقد عاد أبى وفي نفس اللحظة ظهرت سيارة الرولزرويس الاولى التي لم ير الناس مثلا ابدا في المنامة . على حد ذلك اليوم كانوا

ينتقلون راجلين او راكبين ظهور حميرهم بما في ذلك بندرشاه نفسه !
كان سائق العربية الفخمة يرتدي زيا صارما ، شديد الزرقة . والحاكم
يجلس وراءه وقد ابتلعه مقعده الى النصف ولم يعد تظهر الا عينيه
الموقدتين . وكانت زوجته الموقرة تجلس الى يمينه وهي ذاهلة عما يحدث
حولها . ورغم حركة المعركة الخافتة وطواعية دواليب السيارة ، فان
الطيور اصبحت بالرؤى وكذلك الكنغر والحمير . وحاول كل منها أن يجد
ملجأ لنفسه في أعماق البلدة . وظل اهل المنامة مشدوهين بذلك الوحش
الفولاذي الذي تسبب لمعانه في صداد رهيب ، في حين قال البعض من
المشهورين بدهائهم بأنهم سوف يتألمون وجوههم على صفحاتها
اللماعة ويعوضون بذلك عن عدم وجود المرايا بالقرية . واحيطت السيارة
في ومضة البرق بالعاطلين الذين راخوا يجرون وراءها . وفجأة استبد
بهم أكبر رعب عرفوه في حياتهم عندما وقفت السيارة لكي تتجنب دجاجة
الحلاق التي انهكت في التقاط الحب في قلب الساحة الخالية من الطيور .
وغطت سحابة من الغبار العربية فغابت بضع دقائق عن انظارهم ، على
انه ما اسرع ما سرى الخبر بأنها طارت مثل ما فعل البراق أيام محمد
عليه السلام وحمله الى الفردوس . لكنها مجرد أقاويل . . . ومن يدري ؟
أما أول من ارتبك عندما هبطت السيارة ثانية ، فهم الراجلون ! وظهرت
الاعجوبة التاسعة عشرة في العالم من جديد . ورأى الناس بندرشاه يبرز
من مقعده الخلفي ويضغط على شيء ما ، واذا بنشيدته يتردد صده في
الاجواء بقوة مائة ألف ديسيبيل مزقت طبلاات اذان العديد من المتفرجين
الذين حضروا في المكان عينه . وفي ظرف ثلاث ثوان ، خلت الساحة منهم ،
وأغلقت المقاهي ابوابها ، وظنت النسوة أن نهاية العالم تصلهن من
تحت جلابييهن حيث تعود الشرانق للتجمع . وسعد الحاكم بالتأثير الذي
مارسه منبهه الموسيقى ، فتلوى من الضحك في مقعده . وبعد بضعة
سنوات من ذلك التاريخ حكى السائق المفصول عن عمله قصة السيدة
بندرشاه التي لم تظهر في أي يوم من الايام اي هيجان ولا اي مزاج من
الامزجة . وقال بأنها خرجت عن تحفظها المعتاد وصفعت زوجها مرتين
فتلوى امامها مثل أرضة . وزعم نفس السائق انه توقف فجأة وأصدر أمرا
بانزالها امام باب القصر . ولم تصدق كلثوم هذه الاسطورة ، لكنها لم
تطرح اي سؤال على أمها . والشئ المعروف عن هذه القصة هو أن
سكان المنامة المساكين انكمشوا طوال ايام عديدة في أعماق فراشهم ولولا
شجاعة مربى الطيور الذين تجرأوا على رفع أنوفهم خارج أعشاشهم

لما وجد أحد منهم الشجاعة الكافية من نفسه لمواجهة مزار الحاكم . وعلى أية حال ، فإن اهل المنامة أجمعوا رأيهم ولم يقتربوا أبدا من الوحش الذي أهداه ملك خليجية الى حاكمهم . وأطلقوا عليه اسم « الصوت الرباني التاسع عشر » . ولم تغرهم نفوسهم على الاقتراب مرة ثانية والى الابد من الوحش المغني أما اشداهم حيلة ممن حلموا بتأمل وجوههم على صفحة الابواب البراقة فقد اعترفوا بسذاجتهم المفرطة . وكانت السيارة الثمينة تحمل الرقم 19 . أما اللقاء بين كلثوم والدها فكان فاترا . وأسرعت الفتاة الى مهاجمة أبيها وجها لوجه : «لماذا تخفيهما في صندوق الرولز ؟ هل تريد أن تبرهن بأنه قادر على احتواء العديد من الجثث ؟ » وأذهل الأب في البداية ثم عاد الى غضبه ثائرا : « الظاهر أنك عائدة لتوك من دار عديم القلب ! لقد أفلحوا والصقوا مرضهم القذر في معرفة كل شيء قبل أن يحدث وقبل أوانه ... اذهبي الى غرفتك واستعدي للعودة الى سيدني ، فلقد انتهت العطلة التي طالبت أكثر من اللازم ! » ولم ترفض كلثوم تنفيذ هذا الامر فقط ، بل وأرغمت أباهما على ان يفتح صندوق السيارة الرائعة ، فنزل منها بالفعل رجل وامرأة اجنبيان ومسنان ، متكئان على نفسيهما ، يثيران نفور من يراها على الرغم من حركاتهما المتملقة العذوبة الظاهرة على ابتساماتهما . وغادرا صندوق السيارة وأرادا أن يصافحا كلثوم فردت عليهما بثنائهما الاسطوري المعروف عنها ، وألقت نظرة قاسية على والدها وقالت : « هل هما رسامان حقا أم يخيل الي هما جاسوسان عالميان ! » ووصفها أبوها بالغباء ولخص لها حياة الرسام في جملة أرادها واضحة ومقنعة بالنسبة لابنته العنيدة ، فقال : « انه الرسام السابق للامبراطور باوداي نفسه ! انك تعلمين انني ابحث منذ سنوات طوال عن فنان كبير . او لم يقصر كل الآخرين الذين توالوا الواحد بعد الواحد قامتي وشوهوني ... »

وفعلا كان الرسام الاخير الذي وصل الى القرية في نفس الوقت مع جيلالي بو حدبة ، لم يمكث طويلا بالمنامة . اختفى ذات يوم دون أن يودع احدا . أما القادم الجديد فكان له تملك الاسيويين وسمنة الاوروبيين وعين من زجاج . وكانت له عادة التجول مجلجلا بعيونه الزجاجية الاحتياطية في جيبويه ، ذلك انه كان يستهلك الكثير منها ويلقي بها على الارض كلما غضب او فشل في رسمه . لقد عاش طويلا في سايفون وكان حقا رسام الامبراطور باوداي الرسمي الى حين اقتصائه عن الحكم . وانتهى به الأمر على غرار العديد من المغامرين الى اللجوء الى البلدان النفطية .

ووجد نفسه في خليجية حين زواج ليلى بندرشاه ، حيث التقى بحاكم
المنامة الذي وظفه على الفور . وقد استمر هذا فعلا في مداعبة مشروع
الانفصال عن الحكومة المركزية والمطالبة باستقلال هذا الاقليم حتى ولو
اقتضى الامر ان يطلب يد المعاونة من كشافى المستر براون الذين ما
زالوا مستمرين في نشر الرعب والولع والخراب والدمار في المناطق
المجاورة ، وهذا في حالة ما اذا رفض صهره الجلف المساعدة لأسباب
السياسة الداخلية . واستقر الوافد الجديد مع زوجته في جناح منعزل عن
دار الحاكم ، وانطلقا معا في العمل .

راح يضع الرسوم التخطيطية الاولى وكانت امراته تضطلع بخلط
الالوان وبمد قماش اللوحات وبالتقاط اجزاء الزجاج المحطم الذي يأخذ
الكثير من وقتها . ذلك لان زوجها كلما غضب ، أقحم سبابته في محجره
الايسر ويقذف بالعين الزجاجية الملتصقة به ويرمي بها بعنف عرض
الحائط ، فتنتشم على الجدار . وجعل يردد هذه الحركة مرات عديدة في
اليوم الواحد ، دون ان يشغل باله هذا التذير لانه كان حذرا ولا ينفصل
ابدا عن حقيقته الملائى بكريات احتياطية ، وبهذه الطريقة لا تقهره
الحاجة طوال سنوات عديدة . التزم الزوجان الهدوء في البداية وراحا
يقضيان حياة كلها انتظام وانضباط ، رهن اشارة بندرشاه الذي كان
يستدعيهما الى بهوه المائي كل صباح قبل الابتداء في عمله اليومي ، فيجلس
طوال الساعات والرسام منهما في تصويره بالالوان الملتهبة . وفيما
عدا ذلك ، كانت كل عائلة تعيش منفردة وتتناول غذاها على انفراد .
ووضع رب الدار تحت تصرف الزوجين فردين من اللوطيين من خدامه
للقيام بشؤونهما من طبخ وغسيل وترتيب . وعلى الرغم من نفقات كلثوم
المزدرية ، فان المصور الرسمي لبندرشاه كان يعيش في ظل حاميه حياة
رغيدة ومطمئنة ، رغم ان الحاكم لم يكن راضيا كل الرضى عن انتاجه .
وسرعان ما استيقظت الشياطين الآسيوية الحنين والشاهية في نفس
الرسام فرغب في طهي المتبل المعهود لدى الامبراطور باو داي . طغت
عليه الرغبة في اكل طبخة خاصة بالهند الصينية تطهى بالسنة الطيور
المحضرة بمرق من الكمون والفلفل الاحمر . وعرف في البداية كيف يتحكم
في نفسه بفضل نصائح زوجته ويلجم شهوته ويكبح رغبته ، خاصة وان
مشهد الطيور التي تملأ سماء المنامة قبل هبوط الليل اعطاه تقلصات
رهيبة في البطن . وذات يوم لم يستطع ان يتمالك نفسه ، فطلب من خدمه
ان يحضروا له في اليوم التالي طبخة السنة العصافير ، على الطريقة

الباودية . ولبي الخدام الزيديون أوامره وبكروا بالنهوض خلافا لعاداتهم وفاجؤوا العصافير الفارقة في نعاسها واعملوا فيها تذبيجا رهيبا . وعندما انتصف النهار قدمت الطبخة المفضلة لرسام الحاكم بنذر شاه رب المنامة وسيدها ، وذلك حسب الاسلوب المعمول به في عهد الحكم الباودائي البائد . وسر الفنان سرورا فياضا بالوليمة ، وخاصة بالسرعة التي لبيت بها رغبته الجنونية ، فشعر بأنه يحلق في الهواء كما حلقت عصافير المنامة قبل أن تصبح ضحية المجزرة التي تسبب فيها من فرط نهمة وحنينه . . . ونتيجة ذلك الفرح الذي غمره بعد اكله اكلته المفضلة بدأ يعمل على تحسين فنه بأن حسن المظهر الجسدي لسيده ومولاه . وبعد محاولات قليلة انتهى الحاكم الى الرضى الكامل عن تلك اللوحات التي كانت تنجز يوما بعد يوم ، حتى أنه قرر أن يتخلص من مرأت بهو الاستقبال واستبدالها يوميا بلوحة كبيرة جديدة . واستطاع حينذاك أن يتلذذ بالنظر الى نفسه كأنه أمام امرأة حقيقية . وزاد من عجبه أن الرسام الداهية راح يصغر عمره بسرعة مذهلة لكي يخدعه عن نفسه . وأبصرت كلثوم باللوحات تتواتر دون أن تقول كلمة . جعلت تتعاقب بايقاع سريع وبتغيرات جذرية حتى انها لن تستطع ضبط لسانها ، فانفجرت امام الطاولة ذات يوم : « لو استمر في العمل بنفس السرعة ، فانه سوف يضطر بعد بضعة أسابيع الى أن يرسمك في صورة رضيع ! » وحدها والدها بنظراته ، وغادرت والدتها غرفة الطعام حتى تتجنب مشاهدة معركة بينهما . وامام مثل تلك الصراحة العنيفة ، أثر الحاكم بدوره أن يبتعد عن الطاولة ، فبقيت كلثوم وحدها قبالة اناء الفورمول الذي تطفو عليه قطعة من لحم وظفر كانا فيما مضى الايهام الايسر لذلك الرجل الذي احبته حبا شديدا حتى انها طلبت منه ذات صباح رائح الاشرار أن يضع كاميشه في فرجها . يا للجرأة . حدث ذلك في وقت كانت فيه العذرية اثنى شيء في عين المرأة المنامية . وبكت من الغيظ ، وقذفت بالاناء على آخر لوحة لأبيها فتحطم عليها ، وسرعان ما اكل حامض الفورميك تقاسيم وجهه الطفولي الساخر . وجمعت كلثوم الحطام وذهبت الى غرفتها لكي تهلا اناء آخر بالسائل الواقعي ، وغطست فيه ابهام محمد عديم اللقب ثم بكت من الوحدة والندم والتمرد . وظل الرسام غزير الانتاج لانه لم يكن يتغذى الا بالسنة الطيور التي يصطادها الخادمان في الحديقة ، ويقتلان الآلاف منها بقذفات من حصيات الكوارتز . ثم يستأصلان السننها واحدة واحدة ، ويطهونها على نار خفيفة بعد اضافة التوابل المستقدمة من تلك البلاد التي نزل بها ابن ماجد

صباح الثامن والعشرين من شهر مارس 1498 . وهو الذي قساد فاسكو دي جاما ، وسجل رحلته تلك شعرا رديئا جدا حسب قول محمد عديم اللقب .

كانت مسعودة هي اول من دق ناقوس الخطر حين لاحظت ان الطيور تقل في سماء المنامة المحمرة عند الاصيل . واستدعي ابنها لكي يشرح هذا اللغز ، فأجاب بأنه منهمك في تحويل المنعطفات الى خطوط مستقيمة ووضح بأن هذا العمل الذي يفوق الجهد البشري يتطلب منه تركيزا تاما . وخاب ظن امه ، لكنها وهي التي لم تعد تخشى شيئا على حديققتها المكتظة بالاجناس وبمختلف العهود ، اضطلعت بمسألة ندرة الطيور في فضاء المنامة . وطلبت من كلثوم ان تتداخل بدورها لدى ابنها لأنه ما كان ليرفض اي شيء للتي تحتفظ بابهامه . واكتفى محمد عديم اللقب بأن قال لها : « الخونة هم الذين لا يحذرون المنعطفات ، ليس الا ! » وبما انه لم يكن البتة خائفا في يوم من الأيام ، اتخذ قراره بالبقاء على يقظته لأنه اكتشف الوسيلة في الغاء المنعطفات حين مروره بها . وادركت هي أنه يعاني من ازمة وأن الثلج عاد يفعل فعلته في جسده ، لكنها لم تتمسك بالشكليات كعادتها ازاء مثل تلك الاجابة المربكة ... حينذاك قررت توضيح المسألة لأنها ظلت حائرة بدورها بسبب جهود فضاء المنامة عند غياب الشمس وراء الاسوار . وظننت لفترة طويلة ، ان ذلك عائد الى انتشار الصدى القوي الملصق بمنبه اعجوبة العالم التاسعة عشرة . ولاحظت ان الوضع لم يتحسن حتى بعد انتزاع اسلاك المنبه بوقت طويل . وعيل صبرها ، فأخذت تهتم بالرسمين الاجنبيين ، وبعد مجاملة طويلة تمكنت من انتزاع دعوة للعشاء لديها . وعندما قدم لها الطبق المتبخر الذي تنبعث منه رائحة الزعفران والقرنفل ، استبد بها الجوع لأول مرة في حياتها ، غير ان الخادم رأى ان ينبهها بقوله : « حذار ، يا آنسة ، انها السنة طيور الكاميشي البرازيلية المزوجة بالسنة طيور التروبيال المحلية ! » وتقيات ما في جوفها وحزنها في الطبق ، وذهبت لتلتجئ بانائها . وتوصلت الى ان تخرج محمد من حيرته المتشابكة بفضل مسعودة التي صفتت حمالات نهديها بغيظ قاتل ويفضل الدر التي زرقت دموعها على الطيور المفقودة . وتمكنت ايضا من شن الحرب الى جانب حلفائها الاعتياديين منذ ذلك اليوم المشهود الذي قررت فيه عدم العودة الى « سيدني » والزواج ان عاجلا أم آجلا بواحد من افراد عائلة عديم اللقب . ولاحظت ان له نفس رائحة اخوته الذين اشتقت اسماءهم

من اسمه على الرغم من ولادته منفردا . ومهما يكن الزوج الذي تتخذه من بينهم ، فانها سوف تنام في رائحته بين العسل البري والقمح المحمص ، وبين التبغ والقش وبين الزعرور والمشمش . وأعلنت الحرب رسميا عندما سرقت كلثوم أنابيب الألوان والكتان الأبيض من جناح البيت الذي يسكنه الاجنبيان وحملتها الى مسعودة حيث لا تقع عليهما اية عقوبة . وتحايل « بنذر شاه » على هذه الصعوبة فأرسل في طلب شحنة من الألوان والكتان لدى صهره . لقد علم بالأمر ، ولكنه تصنع عدم الفهم لكي يداري عدائية كلثوم وتقولات مسعودة التي لم تفض بشيء عن عمله السابق في ماخور من مواخير الساحل .

ولم تقف ابنته عند هذا الحد . بل سرقت الحقيقة التي تحتوي على الاعين الزجاجية لذلك الذي أباد الطيور عن آخرها . وفي هذه المرة ايضا ، قدمت مملكة خليجية مساعدتها ، واضطر الرسام الى ان ينتظر ثلاثة أيام، ظل خلالها بعين واحدة، قبل وصول كمية من الاعين الزجاجية . ولكن ، كيف أنتهى تذبيح الطيور ؟ أولا بهوت الباز « يوبا الثاني » الذي يتغذى باللحم النيء . والحقيقة انه المخلوق الوحيد الذي احبه حاكم المنامة حبا حقيقيا . كوت كلثوم عنقه عندما كان يحلم بأنه يوشك على التحليق . ثم بايادة السردين الذي سيمحق بالزرنیخ من قبل الفتاة المتشيطنة صاحبة البوقال . وقد اعطت مسعودة النصيحة التالية لكلثوم : « السردين يمثل طفولته ! ان نحن فتلناه اصبنا اضعف نقطة في نفسه ولن يعط الامر للخدم بالاقتلاع عن مطاردة العصافير الا بعد هذه الهجمة العنيفة . وانتهت الحرب باستسلامه استسلاما تاما وبانصراف الجاسوس الذي ذهب ليستقر في الصحراء ويتحول الى رسام فولكلوري ليخفي نشاطه كجاسوس في خدمة بلد اجنبي . بل انه بالغ في الإدارة حتى انه اعتنق الاسلام ، وتملق احساسيس المتعصبين ، فصار مرابطا محترما لا يزال يحتفل الناس الى يومنا هذا بقداسته وبذكراه

كان حميد في نفس السن التي بلغتها كلثوم اي في الثامنة عشرة وكانت له عيان خضراوان صانيتان كأخيه الاكبر . وقد انسحق بخوارق هذا الأخير وبشخصية أمه المتقلبة ، فبقي مدة طويلة في انتظار خجول يساعد على تأدية مختلف مهام البيت ويتجنب ادمان الشرب عندما يستصحيبه اخوته الى المواخير . وعشقت كلثوم رائحته التي تماثلا مطلقا رائحة محمد . ولاحظت عمره فانددهشت حين علمت بأنه ولد مثلها في اليوم نفسه .

وأحبت عينيه وخجله اللذين جعلها تنتقم من صلف أخيه الأكبر وسيطرته على الناس الآخرين بفضل قدراته الغريبة ومواهبه المتعددة ، على أن الموهبة الأخيرة التي أضافها محمد لنفسه لم تكن بالضرورة أحسنها وأقواها . وبما أن كلثوم كانت واثقة تماما من جمالها الذي ما زال يتسبب في اقتتال البعض بالسكاكين في الحانات المشبوهة « للبورن » ، راحت تؤاخذ « حميد » على افتقاره الى العبقرية والاصالة . وحدثته بكل صراحة ووعدته بأن تقوم بعمل يكذب مخاوفه . على أنه وهو الذي لم يعرف الا حنان البغايا المخيب للنفس شعر لأول مرة في حياته بما يشبه رغبة الصابون تتسلق جسده الى ان تبلغ راسه متخذة طريقها عبر اروقة عظامه حين قبلته كلثوم على شفتيه في غرفة الطمث . لقد نصبت له حينذاك كميذا ذكيا . ارادت أن تتأكد من تلك الرائحة التي تتراوح ما بين الزعرور والشمش والعلسل البري والقمح المحمص . وهي الرائحة التي تنتشر في أجساد هؤلاء الاخوة وفي آباطهم . وأغلق حميد على نفسه في الغرفة التي يتفاسمها مع أخوته التوائم العزاب مثله . وبعد وقت قصير قرر أن يحترف مهنة اللصاق . واستقر عند مدخل الوكالة البريدية التي فتحت أبوابها أخيرا بالمفاتيح . وراح يتضي ساعات نهاره مترصدا الزبائن ، مقترحا عليهم ريقه للصلاق طوابعهم ومظروفاتهم مقابل سعر معقول . وانجرف مع هواه ذاك ، فلم يدر أبدا من أين جاءت تلك الشجاعة للحديث عن مخاطر اللصاق على الجسم اللصاقي واستطاع ان يقنع معظم الزبائن . وفي نهاية اليوم الاول ، عاد الى البيوت بجيوب مليئة بالقطع النقدية ، ولكن بلسان منتفخ حتى انه لم يقو على الكلام . وما كانت كلثوم في حاجة الى الكلمات لكي تدرك الطرافة الكامنة وراء تلك المهنة خاصة وانها تعلم ميل المناهيين الى الحذر من كل شيء . وهكذا طلبت يد « حميد » من والدته . وفوجئت هذه كل المفاجأة بذلك المسمى الغريب وبروح العبث التي عمدت اليها كلثوم لكي تقلب الأدوار كلها . وخشيت على الأخص من ردود فعل الحاكم الذي تعرف مدى حبه لصغرى بننيه . فهي تمثل في نظريه المخلوق الوحيد الذي يمكن ان ينال منه بمجرد الامتناع عن التحدث اليه بضعة أيام . وكبت مسعدة ، واعتزت في نفس الوقت بالاختيار الذي وقعت عليه الفتاة ، فخافت مع ذلك ان تجد نفسها وحيدة أمام فزاعاتها ودروس التاريخ الملموس . وخشيت ان تتردد الحوادث والتاريخ مثل امرأة مهووسة ، وتعيد كل شيء من البداية فيتخذ الناس بعدها قرارا باعتبارها مجنونة ، بالاغلاق عليها داخل

كفن اخضر مطرز بالحريير الابيض . وعلمت ان « الدر » احتفظت
بالعدد الضروري من الاكفان لدفن سلالة كاملة من عائلة عديم اللقب حتى
يعثر الجيل القادم على اسم حقيقي بدلا من حرفين رمزيين هما مدعاة
للسخرية والعار . الصقهما المشرع الاجنبي بالعائلة حتى ينتزع شخصيتها
ويحرمها من هويتها . وحاول الا يجعلها تتخذ مكانها من المدارج التقليدية
بين الناس بل منعها من أن تدرج في سجلات التقلبات اليومية العادية .
فراحت تسفل من غرط حنقها بسبب حذرها الشديد حتى انه يكفيها ان
تنظر الى واحدة من ساعاتها الجدارية التسع عشرة لكي تفرغها من وقتها .
واضطرت ايضا الى توجيه احد ابنائها للتخصص في النبريد لكي تخزن
موادها الغذائية حتى لا يفتقر اي واحد من افراد عائلتها الى أي شيء
من الحنان . وشعرت فجأة بأنها صارت عجوزا أمام جنون كلثوم
وحيويتها ، وبدلا من أن ترد عليه بالايجاب مثلما رغبت في ذلك ، قالت
لها : « أريد أولا تركيب الطاحونة في اعماق الحديقة . عباد الشمس
رائع هذه السنة وينبغي الاستفادة منه ! »

كان اهل المنامة على علم بأن الحاكم لا يزال يجتر مرارته على اثر فشله في استئزال المطر الاصطناعي الذي أراد أن يفرق به البلدة ويحولها الى مدينة بحرية ، وفشله في استخدام الجبل الثلجي الذي كان من المنتظر ان يصقع ذاكرة رعاياه وينسيهم خيبة أمورهم وشقاءهم . وحدثوا ان المبادرة المقبلة سوف تكون لها بالضرورة علاقة بالسيف البلاتيني الخالص الذي أهدي لدكتاتورهم الصغير . ومهما يكن من أمر ، فان هذا السيف قد غاب عن انظارهم منذ ان تعرفوا عليه عن طريق المجلات الاجنبية المشتراة في السوق السوداء . وخلال هذه الفترة استقرت هذه السوق فوق الهضبة قبالة قصر الحاكم بالذات ، وصارت قلب البلدة النابض ومكانا للجدل السياسي . ولم ينس أحد اعجوبة العالم التاسعة عشرة ولا بوقها الرهيب . لقد اختفت تماما . على أن « بندر شاه » كأي وصولي مطابق لنموذجه غطى سيارته الرائعة بقطعة نيلون وأغلق عليها داخل المرآب . وظل الوضع وشيك الانفجار . حتى مروض الحمام العجوز غير قناعه . فقد استمر في العابه البهلوانية بحمائه ، وراح يبيع خفية وصفات لصناعة قنابل تقليدية مكتوبة بالأرقام ، أي برموز مشفرة سرا . والتي بلغته بواسطة اعضاء طائفة تدعى جماعة القرامطة . وكانت هذه الاخيرة قد بدأت نشاطها الارهابي والثوري سنة 289 من التقويم الاسلامي ، وصمدت في وجه كل الامبراطوريات العربية الى أن سحقوا كاملا ولكن غير نهائي سنة 740 . ووشوشت السنة السوء بأن مروض الحمام كان حبرا في العلوم الخفية ، وأنه جاء الى المنامة لبيث دعواه ويجند اكبر عدد من الانصار في جماعته . وبرهنت السنة السوء

تلك على دعواها المغالية بأن القرامطة كانوا يتراسلون بواسطة الحمام الزاجل وكررت أمام الذين اجهدوا نفوسهم في الاستماع اليها داخل المقاهي بأن طيور العجوز لم تكن تمارس القفز البهلواني الا لتقويم حراس الحاكم . وقد اتفق أشد المؤرخين موضوعية على أن الحركة الثورية القرمطية التي دامت من القرن الثالث للهجرة الى القرن الثامن من نفس التقويم القمري قدمت للعالم أول شيفرة سرية ، وكلمة صفر التي شوه معناها كل التشويه ، كما ادخلت استعمال الحمام الزاجل . وكان محمد عديم اللقب مولعا بتاريخ الثورات في العالم الاسلامي منذ صدر الاسلام الى يومنا هذا ، فاستشير من قبل بضعة أشخاص من أصحابه ، لكنه ظل محتفظا كل التحفظ حول قضية مروض الحمام لانه انشغل هو الآخر بسيف الحاكم الذي بدا له أنه يمثل في وقت واحد رمزا مقلتا بالطوايا السينة ولعبة باترة بين يدي مجنون . وازداد انشغاله لا سيما وأن الحاكم لم يعد وحيدا وأن تحالفه مع ملك خليجية ينبغي ان يؤخذ بعين الاعتبار . ومن ثم ، كان من المتوقع ان تحدث ردة فعل عنيفة من قبل « بندرشاه » لذي لم يهضم بعد مرارة فشله في استئزال المطر الاصطناعي وفي استقدام الجبل الجليدي بل حمل في نفسه ثقل الخيبات التي أذلته اياها اذلال : اخفاقه في حضور حفل زواج ابنته بالمنامة ، وهو الحفل الذي تم على عجلة من امره ، وتوقف في النصف مما اضطر الملك الى الوصول النقل اي بساطه الطائر الذي يشغل بريح الشرق . وخيبة امه في فقدان ابنته الصغرى الى الابد . وهي التي يكن لها حبا ابويا جارفا ، على متن طائرة عمودية بدلا من ان يستخدم افضل وسيلة من وسائل بل ويحبها اكثر من أي شيء آخر في العالم بالاضافة الى الباز الذي يغذيه بنفسه باللحم النيء عدة مرات في اليوم الواحد . وهل من امان مع رجل تهالكت نفسه بعد مقتل طائره الكاسر خاصة وأنه مات مخنوقا بين يدي حبيبة قلبه التي استقر بها المقام الآن لدى عدوته اللدودة ؟ على أنه مني أيضا بخيبة أخرى حين أجبر على طرد احسن رسام حصل عليه . والذي صار قديسا يمجده سكان احدى القرى المجاورة منذ ان اعتنق الاسلام في سبيل قضية التجسس والاستعلامات بين القارات .

وبعد عودة الحاكم على متن سيارة الرولز رقم ٨٩ بيوها الطوفاني ، انتهى الامر باهل المنامة القلقين بطبيعتهم الى أن يستأنفوا عاداتهم الليلية ويناموا ثماني ساعات دون أية كوابيس تعترتهم بسبب سيف

« بندرشاه » . لم يعودوا يستيقظون هلعين في نفس الوقت ، ولا صاروا يشيرون صخباً شيطانياً يصم آذان البلدة طوال ساعات . خاصة وان صرخاتهم القلقة كانت ترعب الاطفال وتخرج النسوة عن اطوارهن . ومن المعلوم انهن كثيراً ما وبخن ازواجهن متهمات اياهم بتعمد اخافة الصغار البريئين الذين قدر لهم ان يولدوا في هذا الثقب بأقصى العالم . وما علم احد بما يخفيه الحاكم في جعبته داخل مكتبه ولا بالبرقيات التي يتبادلها مع صهره حول موضوع الانقلاب الذي يريد القيام به لا لشيء الا رغبة منه في ان يفاجيء الحكومة المركزية وابنته كلثوم ومسعودة عديمة اللقب على حد سواء . وزحف النسيان تدريجياً على ذاكرة السكان لان الحاكم خبأ سيفه جيداً وسيارته لأسباب مختلفة . ومع ذلك ، فهو لن يحرم نفسه من التبختر ومن تدشين معارض الزهور وقطع اشربة اللاجدوى والظهور على لوحات الحاسوب « البودائي » دون سيفه البلاطيني الخالص الذي عفن رقادهم وعلاقاتهم الزوجية . وآلوا الى القول كعادتهم بأن السيف لم يوجد أبداً . وان المسألة لم تكن الا كابوساً مفزعاً ! وسرعان ما جعلوا يلومون أنفسهم على قدرتهم على الحلم كأن الأمر لم يكن يكفي بتجميع كل الأوهام التي يمكن لصحراء قاسية ان تنتجها مثل الصحراء المحيطة بالماناة عدا عن الشمس اللافتة المحرقة التي لا تترك الراحة للانسان ولا للنبات بما في ذلك نبات الحرض المعروف بكراهيته للظل . وبعد زمن طويل . طويل . طويل . أدرك أهل الماناة انه من المستحيل عليهم ان يبينوا الأشياء على حقيقتها ولا أن يعددوا بدقة ما هو واقع ملموس أو حلم وما هو سراب أو تخريف . واختاروا حينذاك الحل الذي في متناولهم وقرروا دون التشاور فيما بينهم بأن الحياة ليست الا حلماً وأن لا فائدة من ان يتعب الانسان ذهنه أو يخرج الحراذين التي تتقاعس تحت شمس أدمغتهم . ولفترة طويلة ، راح المنامي النموذجي حين التقائه بواحد مثله يلمسه ويقبله بعناية لكي يتأكد من انه ليس شبهاً أو بقية من حلم أو أثراً من آثار الكوابيس المفزعة . ولا يحييه الا بعد ان يقتنع من كثافته كانسان . وهذا ما يتطلب وقتاً طويلاً ويعطي للناس عادات سيئة ، حتى ان الواحد منهم جعل يداعب الآخر دون أي حرج وبكل بساطة لكي يبرهن عن وجوده ولكي يستجلب بعد ذلك بعض اللذة البريئة . على ان الناس كلهم لم يكونوا من نفس الراي . فهناك دائماً أناس يريدون التميز عن الآخرين وخلال فترة الشك هذه في واقع الأشياء والظواهر حدثت مشاجرات دامية عديدة ولم توضع قائمة محددة عن عدد القتلى

والجرحى فيها . وبعد بضعة أشهر ، أجمع أهل المنامة على الاعتراف بأن بندر شاه لم يتسلم من ملك خليجية سيفاً من البلاطين الخالص . ووجد كل واحد مبتغاه في هذا الاعتراف ، ولا سيما المعني الأول بالأمر ، فقد تصاعد نجمه بصورة مذهلة مما أثار حفيظة مسعودة التي ترقعت بحالات نهديها بأقوى ما تستطيعه حتى أنها أفلقت « الدر » اللطيفة وتصادمت معها لأول مرة تصادماً حقيقياً . وضايقتها بقولها : « عندما تشرق المرأة اسم ملكة ، فإن عليها أن تعرف التحكم في أعصابها ! » .

وأصيبت « الدر » في كبريائها فأعلنت بأنها ستستعيد على الفور اسمها الحقيقي « مسعودة السعيدة » . وأرسلت في طلب الداعية المتنكر في زي مروض الحمام وأمرته بأن يرسل إحدى حماتها الموهوبات إلى قبيلتها ليعلن لها بأنها تستعيد اسمها وليخبرها أيضاً ببيلاذ أربعة توائم ولدوا اثنين اثنين في ظرف اثني عشر شهراً . وراودت الشكوك محمد عديم اللقب في أمر البهلواني على اثر رفضه خاصة وأنه تسلى كثيراً بالصراع بين والدته وزوجته . وسائر الاشاعات المنتشرة بين أهل البلدة فشك فيه بأنه آخر داعية ينتظره انصار القرامطة منذ القرن الثامن أي منذ هزيمتهم على أيدي الفاطميين في معركة الخندق وفي سنة 740 على وجه التحديد . وقد وعدته « الدر » بمبلغ كبير من المال أن هو حمل إحدى حماته رسالة إلى عائلتها . وعلى الرغم من هذا الرفض ، قررت استعادة اسمها الأول ، وما أسرع ما لاحظ أفراد العائلة أن التوأمين الأولين يشبهان أمهما وجدتهما والعكس بالعكس ، بل لاحظوا أن التوأمين الثانيين يتشبهان بنديي مسعودة عديمة اللقب لرضعتهما لأن مواهبهما الخارقة المتوارثة أو لأن قدراتهما على التقليد قد دفعتهما إلى الخلط بين المسعودتين على الرغم من أن نديي أمهما أقل حجماً بكثير من نديي جدتهما . وعندما أدركت الجدّة الانقلاب الذي تسببت فيه حين طلبت من زوجة ابنها استعادة اسمها الأصلي ، أصيبت بالأسى العميق وازدادت رهبتها خاصة وأن أبناءها كلهم جعلوا يسخرون من ولعها الأخير ويبرهنون في نفس الوقت عن طواعيتهم وحنانهم فقرروا فيما بينهم على تسميتهما بمسعودة الأولى ومسعودة الثانية . على أن ربة الدار لم تعجب بتلك التسمية التي تفيض بالسخرية . وخيل إليها في بعض الأحيان أنها لاعبة كرة قدم . وكان أولادها مولعين بهذه الرياضة وتعودوا التحدث عنها أمام طاولة الغداء ، وهذا ما دفعها إلى أن تطلع اطلاعاً دقيقاً على هذه

اللعبة التي استخلفت في المنامة بصراع الاكباش . ويخيل اليها حيناً آخر انها ملكة بدون سلطة ، تضطلع بدور ثانوي حسب مقتضيات الدساتير ذات الطابع الديمقراطي البورجوازي . وكانت نائبة في كلتا الحالتين لانها تكره كرة القدم التي يمارسها ابناؤها في حديقته سراً وحسب المناسبات فيخربونها بأحذيتهم ذوات المسامير ، كما انها تهفت كل ما له علاقة بالملكية المتوارثة منذ أن تسببت دروس التاريخ التي ألقتها عليها « الدر » في حساسية طاغية لا مرد لها . على أن مسعودة الثانية باسمها البراق اللامع فقدت حيويتها وخشيت ألا تنجب توائم لشد ما صارت تتوق الى تلك الفترة التي مارست فيها ملكة الاسلام الاولى سلطتها بكل عفوية واطلقت العنان لهواها مع الفحولة الزنجية . حينذاك اعلنت دفعة واحدة لزوجها المنشغل في مداعبة فرجها المتوفز : « خسارة الا تكون لك بشرة سوداء ! » وأدرك محمد تلميحاتها الى زوجة السلطان ايوب الذي قتله سانت لويس في معركة المنصورة في شهر جوان 1246 من تقويم الكفار . وسحب نفسه عن فرج زوجته ، والتحق بأمة المنشغلة فوق سطح الدار باستخلاص دم الطمث . وطلب منها ان ترجع عن قرارها حول موضوع اسم مسعودة 2 وهددها بقطع ابهامه الثاني ان هي لم تلب طلبه ذاك فوراً . ونزلت مسعودة عند رغبته ، وقد سعدت بالآ يكون لها بعد ذلك مظهر قلب الهجوم أو ملكة فاسدة . ونزلت من السطح لتتصالح مع زوجة ابنها وتعلن بصوت جهير بأن الغموض والاستخفاف طالا زمناً طويلاً خاصة وأن الأمر يتعلق بسلامة الدار ويتوازن أحفادها وسعادة زوجة ابنها التي دك جمالها الاسطوري الاسوار كلها .

واستطاع محمد عديم اللقب مرة ثانية ان ينادي زوجته باسم « شجرة الدر » واستعاد طمأنينته والاعيينه وتحكمه المحير في ظله ، ومواهبه في قطع الضحكات الى اثنين وقوقاة الدجاج وجعجة الرحي على مسافة مائة وستة وستين متراً . وتمكن من استخدام قدراته في الغاء المنعطفات بعد ان قرر تركها للخونة والكذابين ، واستأنف محادثاته مع طيور الكاميشي والكورليس والكوكسيرغ ، ومقابلاته السرية مع جده المصايحي ومطالعته لخطوط ابن خلدون ... وكان أن علم بأن هذا الرجل الذي أولع به والذي روى قصة غرق عائلته كلها في خمسة أسطر بائسات يمقت السلطات السياسية التي يخدمها . على أن خيائته وتواطئه صاراً اليوم مضرب المثل ، وهو ما أدهش دانمار ابن مسعودة الى اليوم

الذي فهم مفتاح اللغز . فابن خلدون هذا جعل ذكر المنامة يطبق الاتفاق حين قضى بها أربع سنوات لكي يتصل من أيدي الملوك المستبدين الذين حيرتهم فترة الانحطاط والفرار متوجسين دمويين تتقاذفهم الأهواء . كان ابن خلدون يحققرهم جميعا ويتحرش بالواحد ضد الآخر ويتصرف ازاء مطالبهم وأوامرهم بنفس الخسة التي يعمدون اليها . وكان حقه عظيما، فهو لم يعرف جده الذي خفقه ملك اشبيلية حين كان وزيرا لخزائنه . ونشأ الطفل في جو الحقد والطغيان ولم يغتفر أبدا ذلك الاغتيال البشع الذي راح جده ضحية له . ثم انه بعد ذلك بزمان طويل اضطلع بدور المنظر ، وفهم بأن رجال الحكم يحبون احاطة انفسهم بالعلماء والمثقفين لا حبا في العلم أو الفن ، بل لأنهم قلقون بمنزلون ، ومن ثم فهم في حاجة الى الحماية . ويقال بأن موت جده ترك بصماته عليه الى الأبد ، فضلا عن انه شهد تدهور الممالك وخرابها فتظاهر طيلة حياته بأنه في حاجة الى حماية الحكام . وقد اضطلع بالوزارة الاولى ، وصار قاضي القضاة وطببيا ملكيا وجاب بلاد الاسلام شرقا وغربا ، واتخذ ما بين فاس وبغداد موقف الحقد والاحتقار ولم يتخل عنه أبدا . وعلم ان الاوضاع تؤول الى الخراب وان الانحطاط الذي لم يكن الا في بداياته سوف يدوم زمنا طويلا . وكان همه الوحيد كلما دخل بلاطات الملوك ان يتمكن من الوثائق لكي يكتب تاريخه العالمي ، ويحلل العناصر الملموسة في السلطة السياسية ، ويقيم العلاقة ما بين شخصية الامير ونشاطه السياسي ، لم يكن لديه الوقت اذن ليهتم بالشاعر والاخلاق . غرقت عائلته كلها في عرض البحر بالاسكندرية في شهر مارس (آذار) ١٣٩٨ . وبعد سنتين من ذلك التاريخ ، قابل تيمورلنك الذي يحاصر دمشق وأعلن له ولاءه . وتساعل محمد عديم اللقب : اتراه كان خائنا ؟ كلا ! ليست هذه هي المسألة ! الاسلام ، الوثنية ، تيمورلنك المغولي (الناصر) التركي ، لا فرق بينهم جميعا . فالجوهرى في نظره هو المعرفة ، هو شرح دواليب التاريخ السياسي . وفي شهر جوان 1400 فرغ من تحرير مصنفه حول المغرب وسلمه لذلك المغولي . ومحمد عديم اللقب لا يجهل بأنه سلمه أسراراً عسكرية ايضا . انه يفضل الا يسهب حول هذا الموضوع . وماذا عن احراق دمشق سنة 1401 ؟ لقد كان موجودا بها الى جانب الغازي . وأكدت « شجرة الدر » انه يمكن شرح عبقرية الرجل انطلاقا من مقتل جده . وعرف زوجها عن تجربة ما تعنيه . فجده هو الآخر أرقه دائما . ولولاه لما فهم بكيفية ملموسة ما صار احتلالا اجنبيا وظلما استعماريا .

لقد اخطر حينذاك : « انظر الى ما هم قادرون على صنعه ولا يذهبن بك الظن الى ان الجواد اجهل ! » ثم ماذا عن الثلج ؟ هذا التعبير عن الحنين والحنان والندرة ! لقد ملأ جيبوه ، غير ان الشيخ سخر منه قائلا : « انه لا يؤكل ! » كان مطلعا على الحقيقة ، في حين راحت القاطرة تسبح في الليل داخل دواماتها الدخانية . يا للمصائر المتقاربة ! المنامة تتأرجح بين الملح والذهب لتجد نفسها بعد عشرات السنين بين الهوان وصرعات الشمس . لم تكن تلك الا مرحلة بالنسبة لابن خلدون . فقد هرب من تلمسان وبذخها ليختبئ في هذه الصحراء المنكشة حول نفسها داخل ثلاثة أسوار عنيدة . في سنة 1375 لاقى اعز أصدقائه مصرعه خنقا بين أيدي جلاديه في السجن . وهذا ما ذكره بشيء ما . وتظاهر بالخروج الى الصيد ثم انطلق خبيبا نحو الصحراء ، المنامة ! وعاش فيها في فقر مدقع بعد أن كان وزيرا أول في بجاية سنة 1365 . سفيرا متنقلا سنة 1364 . عميدا لجامعة تونس سنة 1363 . قاضيا كبيرا في غرناطة سنة 1370 . المنامة ورياحها الرملية ، المنامة وحصارها ، المنامة وغيرها الذي يتساقط بصورة عمودية من السماء . أربع سنوات كاملة قضاه في العمل . وضع مصنفه وأعطى للانسانية أول منهج في علم الاجتماع التاريخي . وهكذا ثار لجده وصديقه العزيز اللذين لقيا مصرعهما خنقا على يدي الملك . الليالي المحمومة . الصراع بين شجرة الدر ومحمد عديم اللقب . لم يعد ينبغي الاكتفاء باسم الدر فقط ! أتراها كانت معاصرة لابن خلدون أم ضده ؟ أما محمد فقد وجد نقطة ضعف وحيدة عند هذا الرجل بعد أن اطلع على نفسيته الآن . وهي أنه كان شاعرا رديئا . غير أن الزوجة وقفت منه موقفا متشامخا وقالت : « لم يكن يريد تقريظ الملوك . ولعلك تعلم أن التاريخ يبرهن على ذلك ، ففي فترات الانحطاط يزدهر فن المديح ! » .

لاحظت مسعودة عديمة اللقب التوتر بين الزوجين . فلم تتدخل ، وشعرت بالذنب ، وخشيت أن تعود زوجة ابنها الى القول : « انت جميل ولكن ، يا خسارتاه ! وددت لو أنك كنت أسود البشرة . مثل النوبيين الذين عشقتهم شجرة الدر زوجة السلطان أيوب ! » غير أن المسألة لم تكن في هذه النقطة بالذات . فالامر يتعلق بجد ابن خلدون . كان من المحتم ان يلتجئ بالمنامة ، فقد سجل ذلك في بنيته الوراثية . يتشابهك التاريخ مع البيولوجيا . وجعل محمد عديم اللقب يهذي ، يسكر

يوما ويصحو آخر ، ويتواعد على اللقاء مع جده بين الحين والآخر . وكان لقاءه مع جده امتحانا عسيرا ، خرج منه مكهرا ، قادرا على تشويه العالم لأن التاريخ أرهقه ولم يعد يكف عن اقحام ذاته في طلبه ليدفعه على الفيضان . وتوصل اخيرا الى اقامة العلاقة بين موت جد ابن خلدون وجده هو . وبما انه لم يكن شديد الطموح قال لنفسه بأنه ينبغي اقامة علاقة أخرى بين موت الجاحظ وموت أبيه . فكلاهما مات بالورق . كل على طريقته بطبيعة الحال . وتدخل القدر هنا ايضا في البنية الوراثية . كان الجاحظ مجنون الى حد أن استقر به المقام لدى احد الوراقين بالكوفة ليقرأ ليلا نهارا . وكان من المحتمل ان يموت منسحقا تحت كتاب . وقيل انه في مقدور الانسان ان ينظر الى اثر جسده على الارض بعد أحد عشر قرنا . اما والد محمد عديم اللقب فكان يحب العمل في ورشة الورق . وكان من المحتمل عليه هو الآخر ان يقتل برزمة من الحلفاء المصنعة . على أنه لم يبق منه أي أثر على الارض في المخزن الذي وقعت فيه الحادثة ... انه الفرق بين المحير والموت . لعله ترك نفسه يموت بتلك الطريقة بسبب الساعات الجدارية الصقلية التسع عشرة !....!

وعلى الرغم من هذه الانشغالات التي حاصرت محمد يوميا ، فانه لم يحد بنافذيه عن بندرشاه . لقد خشي انتقامه بعد ان استقرت كلثوم في دارهم واغرمت بأشد اخوته خجلا ولطافة ، الذي لم يجد احسن من ان يتعاطى حرفة الصاق طوابع البريد منذ أن فتحت أبواب الوكالة اليهودية التي مولها خليجية ولا شك لمساعدة الحاكم على التمهيه . ذلك أنه ما كان احد يدري لم يعمد المناميون الى التراسل ، اللهم الا لانفسهم او لجيرانهم الاقربين او لاصدقائهم الذين يلعبون معهم الدومينو في المقاهي . وجعل حميد عديم اللقب يحقق مكسبا يوميا معتبرا بالصاق طوابع الآخرين ومظروفاتهم الفارغة . وكثيرا ما سمع الناس رجلا ما يقطع على صاحبه لعبة الدومينو ويقول : « لقد بعثت اليك برسالة . وأرسلتها هذا الصباح بعد أن الصق طابعها حميد عديم اللقب نفسه . اياك ان تتفاجأ . لن أقول لك محتواها » . على ان الرسائل لم تكن لتصل ابدا . بل تمر بالرقابة لدى الحاكم . وكانت زوجته تسلي نفسها وتدفع كلثوم الى قراءتها مرة ثم أخرى مثل رواية شيقة . وعلم محمد عديم اللقب ان قلق الطغاة دليل شؤم على الشعوب بفضل التجربة التي اكتسبها من خلال قراءته لكتب التاريخ . وبما ان الحاكم فقد بنفيه ولم يشغل نفسه ، واضاع زوجته

التي اغرمت برسائل اهل المنامة الى بعضهم البعض حبا في التباهي وعملا بالموضة المنتشرة ، فقد كانت هناك حظوظ كبرى في ان يعتمد الى الترويج عن نفسه . على انه ظل حزينا منذ موت الباز الذي اعطاه اسم يوبا الثاني — ذلك البربري الخائن الذي سلم نوميديا الوسطى الى الرومان — . ولم يعد يرغب حتى في الخروج لصيد الغزلان . وراح محمد عديم اللقب يترصده ، ويراقب حركاته بواسطة ابله القرية المسمى « فكرون » الذي يتمتع بمواهب شرطي عبقرى وبذاكرة خارقة على حفظ الارقام . وبما ان الناس كلهم اعتبروه ناقص العقل فقد كان في وسعه ان يذهب الى حيث يشاء وان يغزو حتى حمام النسوة دون أن يتلقى اي عتاب . واستطاع بذلك التسلل الى حديقة الحاكم بل الى بيته حيث سرق الاحتياطي من المواد الغذائية . غير ان بندرشاه الذي يؤمن بالخرافات تركه يتصرف على هواه لظنه انه قديس أخبله عشق الله .

وفي تلك الاثناء انشغل محمد عديم اللقب بتعليم اطفاله . وعلى الرغم من انهم لم يزلوا رضعا فانه قام بمساعي لتسجيلهم لدى المعلم الذي يكرهه بسبب مناقشته في كتابة رسائل الغرام . وقد وجب تسجيل الاطفال قبل خمسة أعوام من دخولهم الى المدرسة . فما وجد بالمنامة سوى قسم واحد مكتظ بالتلاميذ ثم ان نسبة المواليد ارتفعت بشكل غريب بعد ان انخفضت نتيجة للء حوض السباحة . وكان على التلميذ حينما يتوجه الى المدرسة لأول مرة في حياته أن يصطحب معه كرسي لان الخشب غير موجود بهذه البلدة الواقعة في اطراف الدنيا ثم ان الحاكم قرر الا يزود القسم الدراسي الا بالطاولات ! اما الكراسي فتقع على كاهل التلاميذ . وكان محمد عديم اللقب موجودا حينذاك عند نجار البلدة ، طالبا منه اربع كراس صغيرة لتوائمه عندما بلغه الخبر : انشأ الحاكم جيشا وعمل على ايوائه فبنى ثكنة فاقت ابهتها افخم القصور في البلدان الثرية . وبعد عهد طويل . طويل . طويل . اي في اليوم الذي دفن فيه والدته تذكر تفاصيل تلك الصبيحة حين ذهب الى التجار لشراء الكراسي الاربعة وكيف غادر محله على حين غرة لكي لا يعود اليه ابدا .

ووظف بندرشاه سلكا من المتطوعين واعترف آل عديم اللقب بان مسعاه قد حقق النجاح لان الجنود لم يكونوا ليسكنوا دارا فضة فحسب

حيث لكل واحد منهم غرفة وما اليها من قاعة استحمام ، بل ان اجورهم بلغت ارقاما خيالية . وهب صعاليك المنامة كلهم لانتهاز الفرصة . على أن كراهيتهم لكل ما هو عسكري وافتقارهم الى التقاليد الحربية ولعلمهم بالتناقض والمفارقات جعلهم يحيدون عن هذا الهدف . ولم يقبل بارتداء البزة العسكرية في آخر المطاف الا المعتوهون والعجزة والمنبوذون ، وتجنّدوا في جيش الحاكم الذي يموله ملك خليجية بطبيعة الحال . وتنصيب هذا الجيش كان مرتبطا بمشروع بندرشاه المبهم الذي اراد ان يعلن الاستقلال وان يمنح نفسه لقب امبراطور مملكة المنامة الواقعة في مفترق الطرق بين الملح والذهب . وخشي محمد ان تحدث امور لا تحمد عقباه على الاطلاق نتيجة لهذه البادرة الجنونية من قبل بندرشاه : فقد تسنى له ان يرى لأول مرة في حياته نجاح مسعى من مساعيه ومن ثم فان هذا النجاح بالذات بالاضافة الى المساندة التي يتلقاها من صهره قد تجعله يتجرا على ارتكاب حماقة وخيمة العواقب على شعب المنامة بالدرجة الاولى الذي تناسى سيفه البلاطيني الخالص وراح يتأرجح ما بين الحلم والسراب . ومارس محمد ضغوطه على تلك التي تستحوذ على ابهامه الايسر لكي تلتحق ببيت ابويها مؤقتا . على أن الاعمال التهديدية تعطلت كثيرا بسبب حب « حميد » الجارف لكثوم . وراحت هذه تحاول ان تعوض هذه العلاقة الغرامية بحبها العنيف الذي لا تزال تكنه لمحمد . وكان « حميد » في تلك الاثناء قد ذاع صيته بأنه احسن من الصق الطوابع البريدية بأصفر كمية من اللعاب ، وجمع ثروة صغيرة خبأها تحت فراشه خوفا من ان تحتجزها أمه ، لأنها كانت في حاجة ملحة الى الدراهم وتتمنى دائما ان تبني طاحونتها التي تشتغل بزهرات عباد الشمس العملاقة . على أن العاشقين أدركا أن مسعودة لن تسمح لهما بالزواج الا بعد انجاز المشروع . وبالفعل فقد اختلقت الاعذار حين تقدمت كلثوم لخطبة حميد وقالت بأنها لن تجيب بشيء الا بعد تسوية شكل الطاحونة وضمان الاكتفاء الذاتي في العائلة . وفي تلك الاثناء زایل الانتفاخ لسان « حميد » . وجعل يعود الى الدار كل مساء ، بعد ان تغلق الوكالة البريدية ابوابها ، ويتلقى العلاج من كلثوم التي تنشر مرهم ريقها على لسانه المكود باللصاق . واستطاع مع مرور الايام ان يعاود الحديث كسائر الناس اجمعين ، والاكل بصورة طبيعية . ونتج عن ذلك أن محمد لم يستطع القيام بمساعيه حسب ما يأمل ، لان كلثوم ظلت تعتنى بخطيبها ، الوحيد الذي يقوم بأوده بين اشقائه التوائم . فملأها هذا فخرا .

كان « حميد » هذا هو الذي عاد ذات مساء من الوكالة البريدية فلقني في طريقه تلك القافلة الطويلة من الشاحنات والسيارات التي تحمل ارقاما اجنبية . وابصر بها تندفع صوب ساحة الطيور مثرة كتلا من الغبار وجمجمة من زعيق المنبهات . ولن يتأخر طويلا . . . بل سارع الى الدار ظنا منه ان الامر يتعلق بغزو لا اكثر ولا اقل . وشاهد المنامين يطلقون اقدامهم للريح مثله ، والتجار يغلقون حوانيتهم ، والمقاهي تنقيا زبائنهم بدفوعات مقطعة والطيور تقذف بنفسها في جيوب حيوانات الكنغورو التي راحت تتسلق الاشجار ، بل انه ابصر بجنود بندرشاه المشلولين الكتع ، العور ، المشلولين يهربون نحو ثكنتهم الفخمة كل حسب مقدرته واقفرت الطرقات من الناس ، واطلعت كلثوم على الامر لكنها عجزت عن شرح المسألة وذهبت تتسقط الاخبار عند امها . ورجعت بعد بضع ساعات وهي تشد بطنها بسبب نوبة ضحك طاغية دامت عدة ايام حتى ان مسعوده فاجأتها وقرعت بحملات نهديها بقوة غريبة . حينذاك قفزت كلثوم من الرعب وتوقفت دفعة واحدة . واعتراها الفراق فسقتها مسعوده وضربتها على ظهرها وادارت مفتاحا تحت ابطيها حتى تتوقف عن هزاتها الجنونية . وخشي « حميد » على حياته فالتقى نظرة عدائية على والدته جعلتها تدرك بانها سوف تفقده ولا شك ، لان العشاق من سلالة عديم اللقب مندفعون في هواهم . وكانت البلدة كلها قد اطلعت على ما وقع حين استرجعت كلثوم لسانها . فالشاحنات والسيارات لم تكن تنقل الا السينمائيين الامريكيين الذين جاؤوا لتصوير فيلم ضخّم مأخوذ عن الف ليلة وليلة . واصطحبوا معهم قصور بNDAR وحوريات الفردوس وعلاء الدين وفانوسه السحري وملاحى البصرة ، وعوالم الجن ، والخواتم السحرية والعبيد السود وقصور الجليد واقرام هارون الرشيد ، واجمل الشقيقات السبع في الدنيا ، وخصيان الحريم ، وجبال النحاس ، والعور السبعة ، وملك التتار ، كسرى فارس والاطباء الهنود ، وعلماء الرياضيات السريانيين ، والحجر الفلسفي ، ومدينة النحاس ، وخيامويي الكوفيين ، ومنجمي القاهرة . وفلكيي الصين ، وسماسم الانفتاح الكوني ، وغلّمان بخارى وكهوف الهاوي ، والبسط الطائرة ، واللصوص الاربعين ، وجرار الزمرد واهلة ابن البيطار والحكيم ما شاء الله الذي اختار الموقع والوقت المؤاتي لتشييد بغداد والتصانيف الطبية الستة والثلاثين التي

وضعها الرازي ، واليهودي حنين بن اسحاق الطبيب الشخصي للمأمون ، والمخطوطات العربية المائتين والخمسين بعد الالف المبعثرة في مكتبات اوروبا وامريكا ، وكتاب المجسطي للشيرازي ، والجداول الفلكية الاخيرة لابن معشر ، وقرود السند ، وأول ضرس اصطناعي أنجزه الزهراوي بعظم ثور ، وصانعي الزجاج بدمشق ، ومنمنمات بهزاد ، واسطرلابات البيروني ، والاعداد الكاملة والمفرطة والصديقة التي وصفها ابن قرة ، وبراق النبي ، والسجناء القرامطة ، والعبيد الزنج لبلاد ما بين النهرين ، والطائر الازرق الذي تتحدث عنه الاسطورة والبيغاوات المنشدة وجاؤوا — بطبيعة الحال — بالملك شهريار وبنصف أخيه شاهريناه وبزوجتيهما الخائنتين وبدينار زاد وأختها شهرزاد الرائعة .

التبست النامة في اعين الناظرين اليها ذلك الصباح . وبدت وكأنها
سيجت بالالات العملاقة التي نصبت عبر ارجائها او حوصرت بالجرارات
وسلك الترافلينغ ، والاسلاك الضخمة التي انطلقت عبر منعرجاتها على
طول كيلومترات عديدة . حبال اسفلتية . براميل خضاب الدم .
صناديق الجليسرين . ديكورات الورق المقوى المتراصة طبقات ، طبقات
في شرائح متوالية . تشابك المصابيح الساطعة . سماء مغزوة بالاسلاك
المعدنية والسقالات المتداخلة . خوابي المياه الضخمة القادرة على احداث
طوفان عارم . فلائك مصنوعة من الباغة . رافعات ذات صفراء تخذش
وجه السماء . رياش زاهية مكللة بألوان بين وردية وبرتقالية . قوالب
حديدية عجيبة تحصر الفضاء مقربة بين ابعاده في وقت قياسي . تثبيت
خطوط الربيع والخريف الاعتدالية المصطنعة . صفائح معوجة ومنقفخة
مغطاة بالورق الذهبي . اقمار من ورق الالومنيوم المشرشرة بأسلاك
التنغستين .

اكياس مساحيق التجميل . مطر اصطناعي ، حقيقي هذه المرة .
اقوى مراوح العاصفة . ادوات الخداع التي تصل حد الكمال . آلات
مركبة على سيقان القيامة . اجمل نساء العالم . اقوى رجال الدنيا .
اسمنهم وابعثهم على القرف . اقصر الالتزام . ملكات جمال ما عرفن
كيف يزدن عريا لشدة ما نضون عنهن من ثياب . اكثر الازياء ابتكارا ،
المع السيوف حدا . انبل الجياد العربية على الاطلاق . ليال مسيرة
آليا . ايام سرمدية . شهب محشورة في اكف . سماوات مطاطية لدنة .
بواخر سارية على عجلات . بسط الريح الطائرة على ارتفاع خفيض .

ساعات مائية لقياس اللذة . ساعات جدارية لا قرابة لها بصقلية .
قارات من الطين ، جبال الكليمنجارو المصنوعة من السكر . بق ذو
عقل . جمال ذات سبعة سناعات ، اشجار تنزف زرقاة . اقواس قزح
محشوة داخل مفرقات . قصور من الجص . قرده ناطقة . ببغاوات
سباحة . سمك طائر ... انتصبت كل هذه المشاهد العارمة قائمة في
ظرف ليلة واحدة حين كان اهل النامة يغطون في نومهم هادئين . وعندما
اسفر الصباح فتحو اعينهم على سعتها وتناخزوا ورددوا اسماءهم
والقابهم وتواريخ ميلادهم ومهنتهم دون جدوى ! فقد عجزوا عن
التعرف على بلدتهم وعلى بعضهم البعض وعلى انفسهم بالذات .
وسرعان ما انطلقت الشائعات دون قيد او ضابط ، وزعم ذوو الحيلة ان
البلدة انقلبت سافلها على اعلاها خلال الليل وظهر منها وجهها الذي
كان مخفيا تحت الارض الى ذلك الحين . وذهب البعض منهم الى اتهام
الحاكم بأنه نوام قويتهم مع مدينتين اخريين : بغداد وشيكاغو بعد ان
حملها اعماق نفسه املا منه في الاضطلاع بالامور على احسن ما يرام .
وقيل بأنه انطلق بعد المراسيم التقليدية لكي يضع هاتين المدينتين فوق
عرينه وفي المكان الذي اراده . لكن المسألة كلها لم تكن الا مجرد تقولات
ساذجة . والحقيقة الحقيقية تنحصر في كون البلدة قد تحولت الى
ديكور هائل من الورق المقوى بعد ان الصقت مختلف اطرافه باللبان
المستورد من الولايات المتحدة . وفجأة ، زحفت على النامة المفتقرة
دائما وابدا الى المطر روائح الزنخ والماء الراكد ، فترأى لها مناخير
الناميين بعد ان صاروا اقلية في موطنهم . اما السماء التي تتحجر كعادتها
بدءا من السادسة صباحا بفعل الالتهاب الجهنمي فقد كشفت بدورها عن
وجه انسفحت عليه زرقاة هادئة صافية . وتغطت صفحة الشمس
بالسيلوفان ففقدت سطوعها . وبرزت ارضة من العدم وقد غصت
بالبشر . ونصبت حواجز حول قلاع براقة فتوهم الناس انهم امام
بحيرات ، في حين ان البحر كان يبدد قواقع على الاطراف . والتوت
الثعابين حول الانزع الموشومة التي اشتهر بها ملاحو البصرة . اما
السندباد فراح يدخن سيجارة من التبغ المعطر بينما انطلقت نداءات جهيرة
من صدور الملاحين فطغت على ما دونها . وتارجحت الارصفة بالعوارض
الخشبية العتيقة . والصخب عجيب عندما يصدر عن مشخصين ذوي
نبرات هوليودية محضة ! والحموضة خائقة عندما تنتشر فوق الفضلات
المصنوعة من الالياف !. الازقة كلها تحولت الى اقنية تشبه تلك التي

كانت في بلاد ما بين النهرين . وفي الخارج ، وضعت تصميمات على
مرمى البصر لكل من دجلة والفرات وللآلاف من الروافد التي تتقاطع فيما
بينها فوق مدينة بنيت في رمشة عين خلال صبيحة واحدة . والصقت
بتلك المدينة لوحة هائلة كتبت عليها كلمة : البصرة . وكانت هذه
واقعة في نقطة الالتقاء بين نهرين ، بين طين وماء ، بين يابسة وبحر ،
بين مياه راكدة ومستنقعات ، بين تربة مبللة وطيني . وقام احد العمال
المهرة برتق جوامع دمشق وبغداد على انه ظل هو نفسه مشدوها بطرق
المخادعة والتويه الفنية . اما طرق الكوفة القديمة فراحلت تتلقى
اخر لمسات الخياطة تحت انظار اهل المنامة الطائفين في تهويماتهم المدوخة
والزائدة عن الحاجة مثل بقية الديكور الذي نصب في طرفه عين من قبل
الاجانب الذين حلوا بالمنامة خلال الليلة الفارطة ، واضعين بين شفاههم
سيجارا يهتر بغطرسة الجبروت ، بينما انطلقت من حلوتهم لهجات
اشبه بوقع الحصى في شلالات امريكا الهائجة السرعة . وندت عنهم
حركات جعلت الناس ينفرونهم من أول وهلة . وذاقت عيونهم بفعل
الخيال الجامح الذي يكشط الواقع ويجعله تافها وهميا من خلال جعجعتهم
واستبدادهم وتعاليمهم واحتقارهم ونبذهم لاهل المنامة ورفضهم رغضا
قاطعا ارجاع البلدة الى اصحابها الاصليين . واغرب ما في الامر هو
ان المناميين لم يوضعوا في محل للاعتبار ولم يستشرهم احد في امر
بلدتهم . وما كان من محمد عديم اللقب سوى ان قال للاسكافي الذي قذف
به الاجانب خارج حانوته ليحولوها الى منطاد : « لقد احتجزوها منا ! »
اما رشيد بناصر ماسح الاراضي فتسائل متعجبا : « اهذه هي السينما !
سوف تسحقنا عن آخرنا .. ها نحن تحولنا الى صعاليك تافهين مع
اننا لم نشاهد قط في حياتنا ولو مصورا واحدا من المصورين المثقلين ! »

سيولة الواقع تجعله يلوب امام الانظار ويتلغم فيرسل من الرعب
اشارات برتقالية وينفسجية مثل كابوس انقسم على شطريه لكي يتمكن
من تشرب الالوان والانطباعات المنبثقة عنه . ويختر هذا الواقع وكل
ما يحتوي عليه من اشياء وحاجات يختر داخل النعاس تحت الصور
وقد تهشم بعضها وهز بعض اخر وشطب ما تبقى منها في ذاكرة الالام
والشراسة . وتتجزأ معاني هذا العالم المصنوع في اعين المناميين دون
ان يقوى احد منهم على التخلص من شقائه او حتى من نفسه . فيعجز
الجميع عن استباق العناصر المتناقضة ويبدون كأنهم زناير تكاد تنسحق

تحت نخاريبها التي ولدت بها وضربت اصولها فيها ، ويحدث ذلك كله على الرغم من النزعة الجارفة في نفوس المنايين الى حب التمعش والتأمل ولعل ذلك راجع الى ذلك الاحتراق الرهيب عندما تتربع الشمس في كبد السماء وترحف على البلدة زحفا وتفرقها بقيظها الطاغي ، ويختفي وجه المنامة وراء الاشياء الصفيقة والحركات الضيقة وينداح انذاك كل شيء في شكل لوحة تجريدية تتقاطعها الوان الحبر والصدأ ويلطخها الزعفران والحمرة الشديدة . وكل هذا المشهد يظل منفلقا على ذاته بشطحاته الخيالية ويندفع نحو الماضي ، لكن لا يكاد يبلغه او يساويه بل يتعثر ويلعنم لان الخوف اخذ بتلابيبه ولان التحدي لا يجدي نفعا اذا ما انسحق تحت وقع الكلمات والخطب المتكررة . وتزداد المنامة ذهولا عن نفسها عندما يعمد العدد العديد من الحشرات الجشعة الى محاصرتها من كل صوب وهي بين نوم ويقظة ، او تتصنع النعاس ، او تتطفل وتريد السيطرة عليها وافراغ المنطقة كلها من ثرواتها ... جعل محمد عديم اللقب ينتقل داخل هذا الديكور العجيب وقد انطبعت على ذاكرته وعلى بشرته احساس اغرقته الى حد الاشتباه في الامكنة والحركات والعهود التي تمتزج بعضها ببعض ، قائلا في ذات نفسه : « ها هم يحتقروننا فنصبح مجرد ديكور بالنسبة لهم ! وماذا عن الف ليلتهم هذه؟ خديعة لا اكثر ... يجب الاطلاع على الوجه المخفي للامور والاشياء المستترة ... » ، والافعال وردود الافعال ، كأن ذهنه المهشم قد جهز الى الابد بما يشبه المصابيح المستخدمة في ارسال الاشارات ، وشعر بنفس القوة التركيزية التي يتمتع بها عباد الشمس والهزات الارضية العنيفة التي تصدر عن العواصف العاتية بعد مرور الاعاصير . واحس باحديابات متلوية تتنامى في راسه وتتطامن وقد امتلأت بشحنات كهربائية ، سريعة ، متقطعة ومتواترة . وعاد التاريخ من جديد ينحبس في رثيته واستبدت به الرغبة في الانفجار كربة في تفجير بطن شجرة الدر عندما يشعر بالدافع الشديد الى ممارسة الحب ، فتطلب اليه هي ان يصبر قليلا بحجة ان لها فزاعا يجب ان تنتهي من صنعه . كان الوضع قد بلغ هذا الحد ، في حين ان الاجانب اجتاحوا المنامة متكرين في ازياء فرقة مكونة من افراد ظلهم خفيف ومرحهم بليع وحركاتهم عفوية جاؤوا لخدمة قضية السينما الكريمة . وادرك محمد عديم اللقب ان عليه ان يعرف اقتناعهم ويتحدث اليهم بوضوح ويبتعد عن التقعر في كلامه . بل ادرك ايضا انه ينبغي اطراح السحر وغيره من الخوارق والطلاسم لانه لم يكن

يجهل بأن السينما مرآة لا ترحم في امكانها ان تبهر القبرات المنامية بصورها . ولم يعلم الناس بالضبط اذا ما كانوا موجودين حقاً ام مجرد صنائع جيء بها من قبل الاجانب كغيرها من الآلات وزجاجات الوسكي . واخطر ما في الامر كله يكمن في غياب الشمس بصفة نهائية . لقد طارت هي الاخرى ولم يعد يسمع للعصافير صوت وتردد على المنامة نوع من الصفير المرقق المختلط بالصرير والوشوشة واحتكاكات الورق وظلت تلك الهمسات مبهمّة متباعدة كأنها تحمل في طواياها اصداً نهاية العالم .

وظف عديم القلب ينظر الى الاجانب بسر او يلهم القصيرة وهم عراة الصدور يزرعون ساحة الطيور ويهزون اكتافهم وينادي بعضهم البعض بأصوات جهرة ويتضاربون ويثيرون الصخب كيفما شاؤوا . وبدوا وكأنهم بديارهم ، يتصرفون في المجال على هواهم ويدفعون بحدود الجدران خارج محيطها المعتاد ويهدمون الاسوار الصامدة ويبدلون مواقع الساحات ويحولون الطرقات ويمزجون الحوانيت المعتمة فيما بينها ويوسعون المنازل وينقلون الاثاث كيفما اتفق ويغيرون هويات المناميين المساكين المشدوهين ويوزعون الادوار من جديد ويفسدون طبائع البغايا في الماخور ويشترون الهواء الذي ينتشر في المنامة ويوقفون الريح ويستنزلون المطر على خاطرهم . المهم في الامر هو ان تلك الفرقة الجهنمية انجزت في ظرف ليلة واحدة ما لم يستطع الحاكم ابداً تحقيقه في ظرف سنوات عديدة وطويلة من الجهود والتهديدات والحرب الباردة والقمع الدموي والتضرعات المناقفة والخيانات الكبرى والحيل التي لا تخطر على بال احد من البشر . ووسط هذا الخراب الذي حل بالبلدة ، بقي عنصر فريد يشجع الناس ويدفعهم على الامل والتشبث به . فاهل المنامة الذين لم يخرجوا بعد من مرحلة السحر والتطير والتدجيل ، اصابوا بالروع من جراء تلك الفنيات المتقنّة الخارقة وانبجست في ارضهم دفعة واحدة ، ولم تتقبلها عقولهم لشدة تعقدها وتشابكها . وعلى الرغم من انشدها امام تلك التقنية المتقدمة الطاغية التي تحمل في طياتها مختلف المستحدثات ، فانهم ظلوا على حذرهم مع ان الاحساس راود نفوسهم بأن مستقبل العالم مرهون بها .

لم تكن لهم نزعة تطهيرية ضيقة ، ومع ذلك فقد نظروا بعين الريبة الى تلك الفتيات اللواتي تخلصن من حمالات النهود تحت قمصانهن الدوارة المهففة ، واحترزوا كل الاحتراز من النسوة المتبرجات اللواتي

ارتدين جلابيب من التفتة البنفسجية ودفعنهم على الشبق ، وكذلك السيدات المفنجات القادرات على استثارة اشد الرجال برودة ، وغيرهن من الاناث المغريات اللائي زادت لامبالتهن في عزلتهن وحرمانهم . وانبهر اهل المنامة بالامكانيات العديدة التي ينطوي عليها عالم الابتكرات دون وعي منهم ، فلم يعرفوا اذا ما كان يتعين عليهم ان يدهشوا او يفضبوا . طوقتهم الحيرة من كل جانب ، فراحوا يقضون ليالي كاملة في تأمل الانابيب المشعة وهي تنثر دنياهم كلما مروا بالشوارع الاصطناعية التي علقت بها . وقد حدث في مثل هذه الاحوال ان كان بعض المناميين من ذوي الحيلة يعمدون الى قذف انابيب النيون بالحجارة ، وهذا ما كان يتسبب في ردة كهربائية عامة ان لم يؤد الى نشوب النيران . وما كان جنود بندرشاه العجزة ليقدروا على شيء بل تركوا المخربين يتصرفون كيفما شاؤوا لان اصحاب السينما جاؤوا معهم بحراسهم المسلحين بالمسدسات وبالات الارسال والاستقبال اللاسلكية . واكثر من ذلك حيث قيل بانهم استصحبوا كلابا دربت خصيصا لمهاجمة اي منامي تخول له نفسه الاقتراب من تلك المخلوقات الخرافية التي كانت مع ذلك اقل جمالا من بغايا الماخور ومومساته . وانما كانت ميزة تلك النشوة تتمثل في قوة الجذب لديهم وفي بياض بشراتهم وفي ذلك الاتجاه الذي يكشف عنه في اثوابهن . ومهما يكن من امر فان مثل هذا السلوك كان مماثلا بالتشبه مختلف الاجهزة . وهكذا ادرك اهل المنامة ان الكاميرا الهائلة التي افزعتهم ليست آلة لصناعة الجبن المثقوب مثلما قيل لهم على سبيل التندر ، بل جهاز لالتقاط الصور المتحركة . وسرعان ما اعترفوا بأن الصورة التقليدية المتحركة لا تستطيع ابدا ان تخلف مكان عداء حقيقي قادر على الجري بأسرع من ظله المندفع وراه . وكذلك الامر بالنسبة لالة التقاط الصوت التي ظنها البعض في البداية حقيرة ملووءة بالحيل ، واتضح لهم بعدها انها مجرد مسجلة اصوات اضحكت اشداهم احترازا . ومع ذلك فانهم وجدوا ان تلك الالة ليست اجدر من صوت بشري يتذبذب في الهواء ، دون مساعدة اي شيء ، ويحتفظ شديد الاحتفاظ برنته ونبرته المتميزتين الفريدتين . وبمجرد ان زایلتهن الدهشة نظروا بعين الشك الى كل ما جاء به هؤلاء الاجانب . وكان هناك بطبيعة الحال مصروفون على الدوام وبهلوانيون تافهون باعوا ضمائرهم منذ الوهلة الاولى وساذجو خلقة وطبيعة ومربو الطيور العملاء في خدمة الحاكم ، بل واكثر من ذلك كان من بين هؤلاء المتعاملين المترددين من يحن الى السيرك ومن يسحق

تحت هول تلك الآلات والمتطرسون الذين يدعون بأنهم على اطلاع بأسرار السينمائيين ، بالإضافة الى أولئك الذين يغدرون بذاكرتهم واللقطاء المثرثرين المستعدين حتى لمسح احذية الاباطرة الصغار وغيرهم من ضعاف العقل والعزيمة . ولكن خابت آمالهم امام اضواء الليل الامريكي الساطعة وقد راحت تستنزل الليل عندما ينتصف النهار بالضبط . اما عن الاعمال السحرية ، فان اهل المنامة كانوا يعرفون طرفا منها وقد اصبحوا عريفيين مهرة بمثل هذه الامور والخوارق المماثلة . لذا لم يقنعوا بين ايدي البهلوانيين وبيعيدين كل البعد من السقوط في شباكهم المزخرفة ، خاصة وانهم متمرسون بخوارق محمد عديم اللقب وقد صنعوها الواحدة تلو الاخرى بخيالهم الشاسع ، وبشطحات مسعودة الفريدة من نوعها والتي يطغى عليها طابع الانفداع ، وبغرائب كلثوم بندرشاه المتعمدة على كل حال وكل ظرف . وقد تملكهم السرور حين علموا بوجود واقع كاذب ، غير ان ميلهم الى التناقض وجههم للمفارقات دفعا بهم الى ان يبطوا شفاههم من الاستخفاف في ظرف ايام معدودات . وقال محمود عديم اللقب متعجبا : « ان كانت هذه هي السينما ! فاني افضل احلامي الملونة التي لا تتطلب كل هذه الجهود والوسائل ... » وكان قد رشح للعمل على احدى الآلات مقابل اجر زهيد ، ثم احجم عن ذلك قبل التقاط المشهد الاول من الفيلم بعد ان شك ان للحاكم ضلعا في حكاية السينماتوغراف الذي لم يكن له من هدف اخر وراءه سوى استعمار البلدة مرة ثانية بطريقة مأكرة . وعندما علمت مسعودة بسلوك ابنها صرخت قائلة : « اننا لم نتخلص من السماسرة في تجارة الاكفان لكي تفتح ايادينا واسعة لهؤلاء المهرجين ! » ثم انها ذهبت تبحث عنه بنفسها ، وفي المساء قدمت عرضا من الخيالة في الحديقة . فهدت ازارا ابيض واسعا استخدم لجمع دم رشيقة ليلة عرسها . وتمكن جيلالي بوحدة من التخلي بعض الوقت عن الساعات الصقلية ليحضر العرض المثير ويضحك حتى كادت حديثه تطير . واضطلع مسؤولية الخلاصة بعد العرض فقال : « انه طبيعي ولا يكلف شيئا ! »

على ان الاتهامات التي وجهت لبندرشاه كانت ملفقة الى حد ما ، لانه لم يكن ، والحق يقال ، على علم بذلك النزول الاجنبي . ولم يعرف الا في الغداة بواسطة الاشارات الدخانية ان فريق السينما في طريقه الى المنامة مبعوثا من طرف صهره ملك خليجية . وكان هذا منتج الفيلم الذي

يدور موضوعه حول قصة الف ليلة وليلة الرائعة حتى يبين للعالم اجمع مدى ما بلغته الحضارة الاسلامية من ذوق رفيع . وقد استحال عليه انجاز الفيلم في بلاده حيث النزعة التطهيرية والتأخر مسجلان في الدستور ، فرأى ان يعتمد على صهره في الاضطلاع بالمشروع وتقديم كل العون ورفع العراقيل امام الفنانين الاجانب . وكان من المقرر ان يتسلم حاكم المنامة مقابل ذلك عمولة كبيرة كأجر على معاونته وتفهمه . وكان يعلم في قرارة نفسه ان هذا النزول الاجنبي المفاجيء يخرجه كثيرا ويعطل مشروع انفصاله عن الحكومة المركزية ، هذا في الوقت الذي استعد فيه للاخذ بزمام المبادرة ودفع المناهين على نسيان فشله الذريع في استنزال المطر الاصطناعي واستقدام الجبل الجليدي . واضطر الى التخلي عن المخطط الذي سلك عليه قلبه والدخول في اللعبة مع حليفه . وكان هذا مهووسا بالسينما الى حد ان بادر الى تحويل ذلك الانتاج الذي يطمح الى تعريف العالم الاجمع بلؤلؤة التراث الثقافي الاسلامي . وسرعان ما اعني « فكرون » من مهمة التجسس على الحاكم ، واستعاد دوره السابق كأبله وديع في البلدة . وراح جلالته ، ملك خليجية في مراسلاته مع الحاكم يلح على ان فكرة الف ليلة وليلة تحفة ادبية جماعية كتبها شعب الامبراطورية الاسلامية العظيمة خلال العهود السابقة . وقال محمد عديم اللقب عن هذه القصة العجيبة الاسطورية بأنها من وضع فلاحي البصرة عندما بدأوا رحلاتهم صوب الهند والصين . لقد بهرتهم تلك الحضارتان ، فتخيلوا قصتهم تلك وهم في طريق العودة ، ولهذا السبب فهي تحفل بجنيات البحر والاسماك الخرافية العديدة . وما كان مثل هذا الشرح ليثير اهتمام بندرشاه ، بل ادرك انه عليه التحمس للفكرة والنزول عند رغبة قرينه وصهره . وكان القرار الاول الذي اتخذه في صالح فريق الاجانب هو انه اسكنهم في داره الخاصة لان المنامة لم تكن تتوفر على الفنادق بعد . لم يتردد المدعوون في تلبية تلك الدعوة ، وبادروا منذ الليلة الاولى الى سحق العشب بجزماتهم ، وقطعوا الزهور لكي يهدوها الى المثلثات وغيرهن من المختصات في الملابس والتجميل . واحدثوا شقوقا في الارضية الزجاجية ، وبثوا الرعب في السردين والقواقع التي حلت مكان تلك التي بددتها كلثوم بالزرنينخ ، واغتسلوا في الحوض الياباني بعد ان مزقوا زهور النيلوفر بل انهم اكلوا الاسماك نيئة على سبيل التندر — وكانت مهداة الى بندرشاه من قبل حاكم جزيرة القمر الكبرى — ، وعرضوا اجسادهم للشمس وهم عزاة تماما ، وتناكحوا فيما بينهم ، وصبوا البيرة

الباردة في فروج النسوة الشبقات بعد ان عجزوا عن ارضائهن . والتزم بندرشاه الهدوء بل عمد الى الاصطبار وهو يرى تلك الهمجية وذلك التخريب ، ولم يبد اية ملاحظة . وبلغ به الامر ان ارسل في طلب البغايا السبع ، ووهبهن لهؤلاء القادمين الجدد الذين تقياؤا في افواههن من شدة سكرهم . على ان ذلك كله لم يمنعه من ان يكون فجر اليوم التالي في المقدمة لكي يشرف بحضوره تصوير اللقطات الاولى من الفيلم . وقد اهتم بذلك اي اهتمام لا سيما وان ذلك المشهد يصور في اعماق جنانه الواسع الذي لم يعمل فيه الا جانب يد التخريب احتراماً لمتطلبات التصوير .

وقبل تصوير احد المشاهد الجريئة ، وجب ابعاد كل الذين يتدافعون في عين المكان وكل من لا حاجة اليه في العمل . كانت زوجة ملك التتار داخل القصر المبني بالورق المقوى على شكل قصور « سمرقند » تسلي نفسها مع احد ضباط الحرس الملكي . والحقيقة ان المثلة التي اضطلعت بالدور كانت شديدة الجمال ، وتضفي من ذاتها على المشهد لكي تنجح في الاداء لا سيما وانها واقعة في حب شريكها في التمثيل . وذهلت عما حولها حتى انها بلغت ذروة اللذة ، ودفعت بالخرج الى ثورة جنونية عارمة . المسكين ! لم يكن يريد آثارا واقعية في فيلمه ، لذلك وجب اعادة التصوير ثلاثين مرة انتهى الامر خلالها بالبطلين الى بلوغ قمة التلذذ ، ففي كل مرة يدخل عليهما الملك « شاهزينان » لكي ينتقم لشرفه ، يقومان بقفزات جانبية ويحولان دون الاستمرار في التصوير بصورة عادية . واخيرا ، فرغ المخرج من المشهد بعد ان صب مساعده مضمون الكيس المليء بخضاب الدم على العاشقين القتيلين وانتقل الى المشهد التالي . هذه المرة ، تطلب التصوير عددا من الناس . وكان على « شاهزينان » ان يفاجئ زوجة اخيه ملكة فارس وهي في ذروة العريضة مع « مسعود » ، عبدها الاسود بحضور عشر من وصيفاتها انشغلن بارضاء جشع عشر عبيد سود اخرين مزودين بفحولة اسطورية تدفع اشد النسوة شبكا الى الذهول عن الواقع . وراح « شاهزينان » يتأمل ذلك المنظر من نافذة قصر اخيه التي التجأ اليها بعد ان وقع له ما وقع ! حينذاك صاح المخرج : « انتهى التصوير ! » . وعندما تقضى النهار تهاوى الجميع من التعب ، وعلم الحاكم ان خادميه الزبديين غادرا الدار حتى لا تقع انظارهما على النسوة الخليعات وهن يتقصفن بين سيقان السود ذوي العضلات البارزة . واسعفه الوقت ، فلحق بهما خارج النامة بفضل

سرعة سيارته التي اخرجت لأول مرة من مخبئها . وكنا قد عقدنا العزم على العودة نهائيا الى اهليهما .

وعرفت المنامة في ذلك المساء نوما مضطربا ، وتنهدت «شجرة الدر» قائلة لزوجها : « واخساراته ! لقد وددت كثيرا ان لو كنت اسود ! ولكن ، اياك ان تتضايق ، فانت الذي اهوى » . حينذاك ، طلب منها محمد عديم اللقب : « حبذا لو رويت لي حكاية الف ليلة وليلة ! » فكان ان بادرت « الدر » الى ذلك . هل ينبغي الاشارة الى ان الملوك مخدوعون دائما وابدا من قبل زوجاتهم ؟ وان النسوة اشد ذكاء من الرجال ؟ هل ينبغي القول بأن السود اقوى واجمل ؟ لعلك تدري انها مجرد خرافات . عدني فقط انك ستروي لي بدورك الوجه الاخر من الاسطورة والجانب الاخر من المرأة في حالة ما اذا سلكت مسلك شهرزاد . عدني ان تقوم بذلك الى اخر حياتنا التي سوف تنتهي في الساعة نفسها . اريد ان اعرف حياة الشعب ، والعبودية والاستغلال ، والقصور الشامخة التي تطل على العدم ، والجلادين في الساحات العمومية ، والجوامع ذوات القباب المتداخلة وبؤس احياء الكوفة حيث ولد المتنبي . سوف نتحدث عن كل هذا فيما بعد !

لقد عرف كيف يوقف المطر بمجرد بسط يده ، وفتق اللغة العربية . الم يرد ان يكون آخر الانبياء ؟ بلى ! لقد اخضع اللغة ... كان الفرات في ذلك الزمن يندفع اندفاعا خطيرا . وكذلك كان دجلة . وعندما يتلاقيان بالبصرة يحدثان طوفانات لا ترحم احدا . من ذا السذي ارسل لتسخير النهرين يا ترى ؟ زنوج من الحبشة وحرار وزنجبار ومدغشقر وموباسا ومن اماكن اخرى . ولهذا السبب بالذات ، فانا اعشق السود . كان عليك ان تكون اسود البشرة . سوف اصبغك ذات يوم بالام العبيد التي تراكمت طوال قرون . كان يا ما كان رجل تخدعه زوجته ، وكان له شقيق . كلا ، بل نصف أخ . وكان هو الاخر مخدوعا من قبل زوجته . هذا هو الجانب الاخر من الاسطورة ، اليس كذلك ؟ لا ، ليس بعد . اريد فقط ان اشرح لك دور الفاسقين من السود . لقد كانوا الاستثناء حقا ! ينبغي الاعتراف بأن الملوك كانوا قبيحي المظهر ، وبما انهم يمتلكون محظيات عديدات فانهم ما كانوا ليرضوا واحدة منهن . وكان السام يستبد بالنسوة في الحريم ، وتتنامى الرغبة في هتك المحرمات في نفوسهن .

ورأين ان مجامعة عبد اسود ابعث على الاهتياج . خطيئتان في خطيئة . وانتقامان بانتقام . ينبغي الحذر من الاساطير . اتريد الوجه الاخر من المرأة ؟ انه لا يعدو ان يكون حكاية اعتيادية من حكايات الحكم . كانت الممالك تغلق على نفسها داخل تناقضاتها . هل لاحظت ذلك ؟ القصور الملكية مبنية فوق الاهرامات دائما . وبينها وبين المناطق المأهولة لا يوجد سوى الفراغ . كذلك كانت بغداد ، ودمشق . كل حلقة مركزية تمثل طبقة . وما انفكت حدة التناقض عن الازدياد . وحدثت انفجارات وتمردات ، وحدثت ايضا ثورات بالمعنى الحقيقي ! ثورات منظمة ، مهيكلة وناجعة . ولم تكن تطلب الصدقة من احد . بل اخذت السلطة بحد السيف . اتريد امثلة على ذلك ؟ حدثت خمس منها ما بين القرن الاول من التقويم الاسلامي والقرن السادس منه . ثورة في كل قرن . هذا ما وقع بالذات ؟ اسمع ، وسجل ! لقد توقفت مسعودة عديمه اللقب عند الدكتاتوريين والمستبدين والقراصنة . وينبغي ان تضع يدها على الحقيقة . الفيلم الذي يفوز هنا هدية من السماء . حدثت خمس تمردات مسلحة بين سنة ٢٠٠ سنة ٧٤٩ . اولا . تمرد السندباد غرب فارس ودام سنتين . ثانيا تمرد المقنع في خراسان ودام عشر سنوات . ثالثا تمرد « بابك » بالعراق ودام سبع سنوات . رابعا : تمرد الزنج في بلاد ما بين النهرين ودام خمس عشرة سنة . خامسا : تمرد القرامطة في ارجاء الامبراطورية الاسلامية ودام اربعمائة وخمسين سنة . الف ليلة وهي الغربال الذي يغطي الشمس . لو ان مسعودة علمت بالحقيقة لاستهلكت المئات من حملات النهود ... على التوائم ان يطالعوا ولكن ليس قبل ان يبلغوا الاربعين . انه لامر رهيب ، ونحن لا نعرف انها الروايات المهذبة ، اما المخطوطات الاصيلة فهي تحت الحجر . استلبها الغربيون ، واعاد اخر الملوك شراءها . لا هم لهم الا ذلك . التلصص على الآخرين لجلب اللذة . على فكرة كان يا ما كان شقيقان مخدوعان من قبل زوجتيهما . تمنع جيدا في الحكاية . احدهما فارس والآخر تترى . وكان الحكم بين ايدي العرب . لا مساس بالعقيدة في مثل هذه القضية . وعلى اية حال ، كانا مخدوعين معا . ارادا الخروج للصيد . هل يورد سيناريو الفيلم هذا الجانب ؟ . واية اهمية في الامر ! نحن امام فيلم ضخم من اخراج ماضفي اللبان المنع ، تتداخل فيه المشاهد على الطريقة التقليدية . لنعد الى الصيد . فلقد ابصر كل واحد منهما بزوجه تغرز في جسدها اداة سوداء جميلة شديدة الانتصاب .

وما اسرع ما استؤصلت شاة المذنبين ، ثم جاءت شهرزاد . وعندما نامت مع شهريار الخدوع ، روت لاختها دنيازاد صولات اللذة والجماع . وقد وجب عليها ان تصد ١٠٠١ ليلة . تأمل هذه الارقام جيدا . امرأتان اغلق عليهما بين رجلين . انها قصة اللذة والالتذاذ حقا ، من البداية الى النهاية . وفي امكانك ان تلاحظ بانها قصة من نسج خيال البحارين . ينبغي عليك ان تقرا ما بين الاسطر كما يقال ، ورغبت مسعودة ان تقص فزاعا على صورة الملك شهريار ، هذا الذي يكره النساء . البقية كلها عبارة عن الاحلام التي تراود الفقراء . وهي اشد ثراء من احلام الاغنياء دائما . علاوة الاحمر يرد الامور في مثل هذه الاحوال الى فائض القيمة . الحديث عن الجنس في كل صفحة من صفحات الف ليلة وليلة ، والبسط الطائرة ، وهارون الرشيد متكرر في زي متسول . ولا حديث عن بؤس الجماهير على الاطلاق . ستار . ارغب في النوم . البقية غدا . سوف تعلم كيف ان الشقيقين الخدوعين اغتصبا من قبل امراة . وضعت جنبا في فرجها فحضا لاورها . وصار كلاهما في منظور هذه المرأة المسترجلة مجرد رقمين : ٩٩ و ٩٥٥ ! وهما رقمان كانا ينقصانها لاستكمال جدول مآثرها . التاريخ لا يقول اذا ما كان كل واحد منهما رأى الآخر وهو يسعى الى شؤونه . النساء وحدهن هن اللاتي لا يعرفن الاحتشام . اوقفوا التصوير ! اشياء كثيرة يمكن ، ان يقال حول هذا الموضوع . ثلاث وقائع اجملت في واحدة . الف ليلة وليلة ، والزنج والقرامطة . لقد تشابكت الايام والليالي فيما بينها . ففي سنة ٨٩٩ بادر متفقد مياه دجلة والفرات الى انشاء ثلاثين حاجزا ، تعين عليه ان يضبط مقدار اندفاعها . وسرعان ما استجلب العبيد السود وراحوا يردمون اطراف النهرين ويبسطونها . ولم يفضب مصب النهرين بعدها . وكانت النتيجة ان ٨١٦ عبدا جرفتهم المياه وقتلتهم حمى الملاريا والمستنقعات والجوع والسياط . الفرات ليس نهرا كغيره من الانهار الاخرى ، وهو يروي بلاد ما بين النهرين . هذه البلاد التي كانت اهرات للقمح ايام الامبراطورية العربية . وعند مغيب الشمس يصير المشهد بالغ الروعة بالتقاء النهرين فيما بينهما . وانتشرت قرى الصيادين هنا وهناك ، على ان الناس ظلوا يخشون الفيضانات على الرغم من وجود متفقد شؤون المياه . وكان « النيلومتر » مستعملا في ذلك الوقت . وهو قياس عجيب لا مثل له . ولهذا السبب بنيت بغداد بعيدا عن الكوفة والبصرة وبعيدا عن المياه الجارفة . قلت لك ان الف ليلة وليلة ليست

الا وهما من اوهام الملاحين الذين افتقدوا النسوة ما بين الصين والشام !
ستار ! البقية غدا . ينبغي القيام بعمل ما حتى نمنع الاجانب عن فرض
قوانينهم . اهل النامة ناس لطاف جدا . سوف يقعون في احابيلهم .
لقد قالت كلثوم بأن هؤلاء الاجانب خربوا بيت والدها وان قاعات
الاستحمام صارت زلقة بانتشار المني فيها . غير ان الشعب موجود على
الهامش والعريضة ليست الا في يومها الاول . واحتجرت حيوانات
الكنفورو . احرص جيدا على طيور الكاميشي . فبعد البودائيين ،
سيهتم بها السينمائيون . لدينا مجال للتحرك . سوف يحتاجون الى
مثلين ثانويين ان عاجلا ام آجلا !

ولم يطلع محمد عديم اللقب على البقية . وفي وقت متأخر من
الليل ، سكر السينمائيون كلهم وارادوا ان يخرجوا للعشاء في مطعم
شعبي . وكان المطعم الذي نزلوا فيه مزودا بجهاز تلفزيون ذي بطاريات .
يتعين على كل من يتناول العشاء ان يدفع مبلغا محددًا لكي يكون له الحق
في مشاهدة المسلسل الامريكي . وقال مدير الانتاج ان مثل هذا المبلغ
غير وارد في قائمة المأكولات . على ان الطباخ كان تاجرا ذكيا فقبل ان
يناولهم العشاء دون دفع الضريبة الخاصة . شريطة الا يعمدوا الى
الخداع باستراق النظر الى جهاز التلفزيون الموضوع على رف يكاد
يلامس السقف ، والمزين بستار من المخمل القرمزي يرفع عند بداية
العرض . وتمت الصفقة ، وكلما فاجأ صاحب المطعم احد الاجانب وهو
يصوب عينه نحو الجهاز ، اعاده الى مكانه بنقرات خفيفة على ظهره
بعضا طويلة من الزيتون . ووجد الزين هذه الحيلة مسلية فدخلوا
للعبة . تنظر واضرب . وبادر الطباخ وقد اهتمت اعصابه بعض
الشيء الى عصاه ، ووضع طرفها بين يديي مثلة اضطلعت بدور كاتمة
اسرار زوجة الملك شهريار . وغضب عشيقها ، فكسر عصا الطباخ .
واطلع الزين من اهل البلدة على الحادثة ووقفوا الى جانب صاحب
المطعم . وحدثت المجابهة ، ثم ان الاجانب اشهروا مسدساتهم ، وقتلوا
عددا منهم واطلقوا النار على جهاز التلفزيون فانفجر . كان ذلك اول
اشتباك من نوعه . وفي نفس الليلة لقيت سلاحف « محمد عديم اللقب »
مصرعها بعد ان كان يديرها على خوض بطولة العالم . فقد زحف عليها
وباء غريب . وبعد وقت طويل من تلك الحادثة ، اكتشف محمد عديم
اللقب سر اللغز ، ففي اليوم الذي دفن فيه والدته ، علم ان هؤلاء الاجانب

كانوا قد جاؤوا بجرائم راحت سلاحف اخيه ضحية لها . اما سلاحف والدته فقد سلمت من العدوى لانها كانت طاعنة في السن وبالغة العناد على غرار مالكتها .

كان اليوم الثاني من التصوير مقصورا على مشاهد خارجية . واستخدم المناميون الذين اغتيلوا في المطعم لمتطلبات الفيلم وذلك بأن اضطلعوا بدور اموات يتعفنون في الصحراء . وقد ظن الناس لوقت طويل ان الامر لا يتعلق الا بنوع من التشبيه ، وان الجثث المعنية ليست الا شخوصا ثانوية عرفت كيف تجيد ادوارها . واعتقل الطباخ من قبل فرقة مراقبة الاسعار بتهمة رفع الاسعار بطريقة غير شرعية . وبما ان شهود المأساة قد اغلق عليهم الى الابد ، فان احدا لن يطلع على الكذبة الهائلة . لكن رائحة الجثث بدأت تعفن الجو ، بينما راح المتسكعون المعتادون يستفسرون بعضهم البعض . حينذاك عمد عملاء المحاكم الذين توزعوا على اماكن استراتيجية من البلدة الى بث شائعات مفادها ان السينما الجديدة الحديثة ليست الا ما يراه الناس امامهم . وهي لا تقتصر على لذة العين والاذن بل تشمل الانف ايضا . وما قال احد شيئا . فقد جاء الشرح محتملا ، لان السينما قادرة على اتيان العديد من الخوارق والسحر حتى ان كل شيء صار ممكنا بهذا الابتكار الشيطاني . ولم يكن احد بالمانمة قد رأى فيلما في حياته . ناهيك بأن يكون قد حضر اعمال التصوير من قبل . ووقف الناس كلهم عند هذا الحد . وعندما بدأت الجثث تنتفخ بفعل الحرارة ، وتثقت بشراتها بكريات صفراء انفجرت بصفير مخنوق ، صفق بعض المتفرجين لذلك التفنن الذي لا يبلغه الا الممثلون العباقرة . وكان احد هؤلاء قد لقي مصرعه خلال الليلة الفارطة ويسمى « الاخضر السكة الحديدية » ، لانه الرجل الوحيد الذي ركب القطار في صباح حينما كان يسكر باحدى المدن الكبيرة . وعندما جعل جسده يتقيح بفجوات صغيرة من سائل اصفر ، وقف اخوه بين الفضوليين ، واراد ان يعبر له عن فخره واعتزازه ، فحمله بكل سرور قائلا : « انك احسن من بيرت لانكستر . ولكن توقف عن صمتك هذا ! سوف تموت موتا نهائيا ان واصلت هذه اللعبة . وسوف تلومني امي كعادتها كلما ارتكبت حماقة من حماقات ! » . على ان جيرانه الاقربين اسروا له بالسكوت ، لانه يحرصهم في تجليهم ذاك . واوقف مهندس الصوت مسجلته ، واندفع نحو الجاني ، وانهال عليه بالصفعات حتى افقده وعيه

وحمل من قبل جنوده بندر شاه الكتعان . ثم غاب عن الساحة كل الغياب . وعند عودته الى اهله روى بأن اخاه ذهب مع احدى نجوم الفيلم ، ولن يعود بعد ان ذاق الان حلاوة السينما . حتى وان كان قد اسطلع بدور جثة متعفنة فقط . اما الجثث الاخرى ، فقد ترسمت خطواته ، ولامها الناميون على مغادرتها البلدة ، في حين اصبح عليها الان بعد ان برهنت على موهبتها في التمثيل ان تنشئ فرقة مسرحية ، وتنشط الحياة الثقافية . خاصة وان هذه الحياة لا تكاد تتجاوز اشكال الترفيه البالية مثل مصارعات الاكباش والعباب الدومينو . ومهما يكن من امر فان المنامة لم تعد هي المنامة . فبالاضافة الى الازقة التي تحولت الى بحيرات ، والصحاري التي صارت مستنقعات ، نصب المختصون في الديكور والمهندسون في ظرف ليلة واحدة جبلا هائلا من المغناطيس داخل بحيرة من الورق الثقيل ، وراحت سفائن من الاسفنج المركب تسير عليها وتتفكك كلما اقتربت من الجبل . لقد توفر الجبل على خصائص لاجذاب المسامر وغيرها من الشهوذ والزئك والنحاس والصلب ، وبمجرد ان صورت السفائن المفككة ووضعت في الصناديق تنوسيت تماما . اما عربجيو المنامة ، فقد نظروا الى دواليبهم وهي تنفصل عن عرباتهم . في حين ان الاطفال وهم في طريقهم لشراء الحليب ، اصبوا بالروع حين ابصروا بمواعينهم الملائى والفارغة على حد سواء تطير من بين ايديهم بقوة اعصار . وسيطر الرعب على اجراء الحدادين حين لاحظوا ان سلعمهم من القدور والاواني قد غابت كأنها بمفعول السحر . ولم يكن للشكاوى التي رفعت للحاكم اي تأثير ، لان كل واحد اجيب بأنه لا يمكن هدم الجبل المغناطيسي بأي حال من الاحوال . فالمصورون سوف يحتاجون اليه في الربط بين اجزاء الفيلم . ونال السأم من اهل المنامة اي منال ، فاثروا التحايل على التوحش . واضطروا الى ان يتخذوا طريقهم خارج الاسوار لكي ينتقلوا من مكان الى اخر . وفرضوا على انفسهم تحويرات مذهلة لان المنامة محاطة بأربعين كيلومترا من الاسوار القديمة تنتمي الى اساليب وعهود مختلفة . وعثر ذات صباح على عجوز ذي رجل حديدية وقد التصق بالجبل حيث لفظ روحه لانه اصيب بدوار عنيف . وبعد بضعة ايام ، توجهت طفلة الى المدرسة ، واذا بعقرب يلدغها خارج البلدة . كانت البلدة محصنة تماما ضد ذلك النوع من الامات فاضطرت الى القيام بانعطافة وراء الاسوار . وتلقى والدها تعويضات من قبل مدير الانتاج ، وما اسرع ما تنوسيت القضية مثلما

حدث للعجوز . على ان مسعودة عديمة القلب وحدها هي التي مزقت
اثنين من حمالات النهود لشدة ما قترعت بهما عندما بلغها نبأ هؤلاء
الاموات جميعا . وصرخت قائلة : « لو سرنا على هذه الوتيرة لكان
مآلنا الموت ! اتمنى الا يجيئوا فيطلبوا مني الاحتياطي من دم الطمث ...
انهم قادرون على كل شيء ! » .

اما محمد عديم القلب ، فبعد ان استشار زوجته واه وصهره
ماسح الاراضي وصهره الساعاتي وصديقه الاسكافي والتوائم الاخيرين
فقد عقد العزم على ان يدع الامور تتعفن . ومن البديهي الان ان اهل
المنامة منبهرون ومصابون بالروع امام تلك الايادي التي تعمل في الواقع
تشويها وتحريفا على الرغم من البسمات التي ترتسم على شفاههم لا
سيما وانهم وجدوا ان الطقس قد تحسن ومال الى الرطوبة ، وان
الرياح الرملية صارت نادرة بالاضافة الى ان وجود النسوة الاجنبيات
بينهم جعلهم يؤملون تذوق البشارات القادمة من جهات اخرى . وزعم
بعض المتطهرسين انهم نالوا حظوظهم منها ، وان فروج تلك المهور القادمة
من الشمال مزودة بما يشبه السلام . واعلن « فكرون » احق البلدة
الذي يتجسس لصالح عصابة عديم القلب : « لا يبذل الرجل اي جهد
مع تلك النسوة فسرعان ما تصعد الى قمم اللذة ! » وتضخمت الاسطورة
على مر الايام بتقدم عملية التصوير . غير ان محمد عديم القلب كان يتوجه
ببطوره بتعداد الاموات خلال اليوم الواحد . ولاحظ ان ذلك كله ناجم عن
اهمال المسعورين . وروى البعض عن تلك المخلوقات العجيبة ان كل
جزء من اجزاء اجسادهم منبع للذة القاتلة . في حين كانت الاخريات تحب
لعق ذكور الرجال . وهي ممارسة تكاد تكون نادرة في المنامة حتى لدى
نزيلات الماخور . وهمس البعض منهن انهن يحبن شرب بول العشاق
بعد التلذذ . وذهب احد الناس الى حد التأكيد بان نجمة الفيلم التي
اختطفته من الزقاق لها فرج في الظهر ، وتحمل بين ساقيها ذكرا صغيرا .
على ان اشدهم ذكاء . وتوقدا علموا انه ما كان احد ليجرؤ على الاقتراب
منهن . وهن على الرغم من جمالهن واجسادهن الراقعة لا يساوين جمهرة
الباغيات البابليات اللاتي نشأن على تقدير وتقديس اغرب الممارسات
الجنسية واقدم الطرق الاباحية واجرا اشكال السحاق ... وقد ظللن
يأتين سباعا ، ويقضين سبعة ايام بالمنامة ثم ينطلقن من حيث
جئن بعد ان تأتين على قوى كل زبائنهن . ويحملن معهن روعتهن ووشمهن

الذي يفصلهن الى جزئين اثنين بدءا من اعلى الجبهة الى مدخل الفرج . وفي اليوم العاشر من التصوير ، التقطت مناظر المدينة النحاسية التي تفرق كل غريب يريد الدخول اليها . وهي المدينة التي روت شهرزاد قصتها للملك شهريار في الليلة الواحدة بعد المئة . وظن محمد عديم اللقب وانصاره ان الوقت قد حان لجماهير البلدة لكي يستيقظوا من سباتهم ، ويدركوا الاضرار التي تسبب فيها الفيلم . فهم لم يفقدوا الحس بالواقع فحسب ، ولكنهم لم يعرفوا ابدا من اين يتعين عليهم ان يبدأوا الهجوم . وظلوا غير مكترئين بالناس الذين لا قوا مصرعهم عرضا او عمدا . ولم يبدو اي قلق بشأن فقدان عشرة من مواطنيهم اشتهر عنهم انهم مصارعون اشداء ولا يقهرون في لعبة الدومينو والمراهانات على السلاحف التي دربها امحمد عديم اللقب . ولم يعودوا يشهدون صراع الاكباش ، واحجموا عن تنظيم مسابقات غناء الطيور ، وعن تشريف اجساد زوجاتهم او بغاياهم اللطيفات . وامتنعوا حتى عن فهم الحقائق اليومية ، ولن يدركوا انهم ضحايا تزييف يخفي وراءه مقلبا من مقاليد الحاكم الذي حلم على الدوام بأن يمنح نفسه لقب امير المؤمنين . ولكنهم ظلوا معجبين بتلك المدينة النحاسية من مدائن الف ليلة وليلة ، وصدقوا تصديقا قويا انهم اذا دخلوها ذهب اعمارهم الى الابد في حين ان المدينة ليست الا بناء من اللبنة الاسمنتية والورق المقوى الذي ما كان قادرا على اغراق اي انسان . على ان الطليعة المتسيسة في البلدة ادركت ان الامر لا يتعلق الا بمزاج الناميين المتوخز الملتهب ، وعرفت انهم بالغوا الحساسية لكل ما يقال لهم الى حد الذهاب الى الموت محمولين على اجنحة كل ما هو اسطوري خرافي . وكان هذا المشهد اقل المشاهد كلها . اما الاجانب بقيادة المخرج الرهيب ، ومدير الانتاج السادي فراحوا يوظفون الشخصيات الثانوية التي تفننت في التمثيل حتى انها تعالت فوق قوانين اللعبة السينمائية والمسرحية ، وعاشت ادوارها قلبا وروحا فكان ان لفظت ارواحها بمجرد اجتيازها حدود المدينة النحاسية . فمن لقطة كبيرة قاتلة الى مشهد امريكي مميت . وادركوا انهم يحطمون حدود الاصاله ذاتها وان فيلمهم ذاك سيتوفر على عجيبة الواقع التي لا يمكن استبدالها بأي حال من الاحوال .

ومع ذلك ، فان محمد عديم اللقب قد ذهب به الظن ان واجهة تلك القصة في مثل لمعان البلور ، ومن ثم فانها قد تغلب الامور راسا على

عقب ، ويمكن حينذاك لمواطنيه ان يستعيدوا حدة وعيهم الاسطوري وتحيزهم المتزمت ولولهم بالتناقضات . وكانت اسطورة مكينة الفحاس التي تغرق كل غريب يريد ان يفض بكاره امنها تنطوي على بعد سياسي . فالعلاقة بين سلوك السينمائيين ومحاولتهم السيطرة على البلدة ظاهرة للعيان . ولكن الاشياء لم تبلغ النضج بعد . كلا ! ثم ان اهل المنامة لم يعرفوا الى الراحة من سبيل ، وعاشوا انذاك تمزقات داخلية ، وتناقضات مؤلمة . لقد تارجحوا بين وطاة السحر التقليدي وذلك السحر الحديث . ولم يدركوا اين ينبغي عليهم التوجه ولا كانت لهم ردود فعل ازاء تلك السيطرة الماكرة على ارضهم وحياتهم واستقلالهم . ومن ثم وجب ترك الامور على حالها لتزداد تعفنا . وراى الاسكافي العجوز ان هناك امواتا كثيرين وانه ينبغي القيام بعمل ما لايكاف التصوير ، وطرد الاجانب ، وكسر العناء ، على ان الساعاتي كان على راي صهره : فالتاريخ يصنع بالدم ! والا فان الثورات التي لا تأخذ بأسباب الحزم تنتفش بسرعة وتزول . وتم الاتفاق على شحذ المتناقضات في اوساط الناس وعلى استثارة حماسهم لان الامانة والاخلاص سوف يؤديان بهم ذات يوم الى نفخ غبار الخمول عن انفسهم « سوف تحدث القيامة حينذاك ! وسوف ننظف عتبة دارنا ... » . وارادت مسعودة الاطلاع على هذه المدينة النحاسية . وعندما اقحمت اصبعها في احد جدرانها ، فرغ البناء البلاستيكي المنفوخ من هوائه ، وتهاوى ارضا امام اعين الحاضرين المشدوهين . وقالت متعجبة : « يا للغرابة ! الذي سبابة ام جرار » ولم يتجرا احد على مقاطعتها خوفا من عنفها . عندما غادرت المكان ، بادروا الى اصلاح الخسائر . على ان السذج منهم تجنبوا الوقوع في الفخ مرة ثانية . فكان ان دخلوا تلك المدينة منذ ذلك الحين للقيام بدور الشخصوس الثانوية . ولم يعد احد يفكر في الموت بها . وحققوا بذلك انتصارهم الاول . ارولي حكاية مدينة الفحاس ! استطاعت الدر ان تستعيد اسمها المصغر اللطيف . وانطلقت قائلة : « كان يا ما كان ، دولتان تتصارعان على السلطة . الامويون ضد العباسيين او العكس . وقد انتصر الاخرون ، وسرعان ما خانوا مبادئهم واخلفوا الوعود التي قطعوها على الشعب . فوجب حينذاك التموه : لهم القصور والاماء الجميلات والقمر والشمس والفتيان المستوردون من اسكندنافيا . اما الشعب فله الحلم . تلكم هي الف ليلة وليلة . لقد كتبت ولا شك من قبل الشعب لكن ليس في مجموعها . استعملها العباسيون كاشهار

دعائي . وخصوا انفسهم بالدور الاجمل فيها . وراح كتابهم يقومون بالتشذيب والتهديب ، فاستعيدت القصة ، وصار جانب الاعاجيب فيها يلعب نور الكلوروفورم . الواقع ان الحياة كانت في الجانب الاخر . سوف احدثك عن الزنج العبيد . وسوف تفهمين ، يا مسعودة ، السخية ... ولكن اياك ان تبكي ! اتعدينني بذلك ؟ كان يا ماكان بنت لاحد الوزراء تدعى شهرزاد زوجت بملك كان عليه ان يقتلها بعد ليلة العرس اسوة بما فعله بالفتيات الاخريات منذ ان خدعته زوجته مع عبد اسود . غير ان هذه الزوجة الاخيرة ارادت ان تتصل من الموت ، فاستعملت شلالات لعبها وروت اي شيء خطر على ذهنها . ذلك ان اباها رباها على ان الملوك اطفال كبار يحبون القصص العجيبة . وهكذا شقت طريقها راسا نحو مبتغاها ، ونسجت من خيالها قصصا جيدة حتى انتهى بها الامر الى استلطاف الملك ، فرجع عن قراره بقتلها وبابادة غيرها من النساء الاخريات اللاتي يقضي معهن ليلة العرس . ذلك هو درس الانوثة الاول . وانقذت شهرزاد بنات جنسها من الذلة والابادة . ولم ترو للملك شهريار الا ما راق في ناظرها : رحلات السندباد الخارقة . المدن التي تمشي عندما يدفعها الانسان . الجبال التي تحيد عن امكنتها . الامراء وهم ينظرون الى الشعب من ثقب الباب . العشق الفاسق . البيوت ذوات الجدران من الذهب الخالص . المصابيح القادرة على اضاءة العالم . الصيادون الذين يكتشفون اجمل لآلىء الكون . الفقراء الذين يهبون اثنى ما لديهم للملوك . القروء التي تمتلك فن الحظ . البيغاوات التي تبيض بيضا ذهبيا . النسور التي تحمل مدائن باكملها على مخالبها . على ان الشعب لم يكن موجودا في تلك القصص او هو يوجد بها للتدليل على كرم السلاطين والاثرياء . كان يا ما كان ، عبيد سئمو الاضطلاع بالادوار الثانوية في الف ليلة وليلة ، وتجفيف المستنقعات ذات الروافد المتفرعة عن دجلة والفرات . فقرروا الاخذ بزمام المبادرة ، وتكذيب ترهات الطائر الازرق . كان ذلك عام ٢٥٥ من التقويم الاسلامي . وشنوا هجومهم فبددوا الامبراطوريات . على ان اغرب ما في الامر هو ان رئيسهم كان ابيض البشرة . سوف اروي لك فيما بعد وقائع الزنج واعمال علي بن محمد . اما الان فهناك هذا الفيلم الذي قلب احساسنا بالواقع راسا على عقب . لم يعد اهل المنامة يدرون الى اين يسرون . لقد صاروا يتمايلون في مشيهم ويمضفون الشوينغوم . سألت مسعودة : « ما هو الشوينغوم ؟ » انه رمز . مثل . بل هو يشبه اللصاق الذي

يتعثر عليه الذباب .

وماذا عن قفا التاريخ ؟ المنامة ترزح تحت نير الاجانب ، ولم يعد
لمسعودة الوقت للتفكير في طاحونتها ، غير انها ما زالت تتابع سقى
حديققتها ، وتقليب ارضها ، وتشذيب الاشجار ، ومراقبة الساعاتي
الذي انشغل بفحص آليات الساعات الجدارية العقلية . هو ايضا
يروى الجانب الاخر من الاسطورة . كان هناك رجال حاولوا مقاومة
الخرافة والسحر بل وحتى الاديان . كانوا في غالب الاحيان مرتبطين
بالحركات الثورية . واستطاعت مسعودة ان تعلم الاشياء الكثيرة عنها
فيما بعد . اراد المتنبى ان يبرهن بان الله لم يكن الا فزاعا اشهره الاقوياء
للابقاء على الرعاع بعيدين عنهم . ونجح في ذلك . وبدأ ينظم اشعارا قلبت
قوانين الشعر راسا على عقب رغبة منه في البرهنة على آرائه تلك .
كان يعشق الخيل . والليل . والبيداء . والسيف . والرمح . والقرطاس .
والقلم . ثم انه اوقف المطر ذات يوم حينما راح يتساقط بغزارة . فحبس
في مستشفى عقلي يشرف عليه الرازي . وكانت لهذا ايضا افكار اصيلة
حول مسألة الله . فلقد اعتبر ان الانبياء مشعوذون . وفي سنة ٢٢٢
استطاع ان يقابل الشاعر في سجنه . من اثر على الاخر يا ترى ؟ كان
الطبيب منشغلا بأموره ، في حين ان الاخر ظل يتمتع بكامل وقته ،
يكتب كما يتنفس بجودة وسرعة . وكان الرازي قد فتح اول مستشفى
جدير بهذا الاسم . وفهم ان مرض « بوحرون » لا علاقة له بالحصباء .
وابتكر علم الصيدلة كعلم ، واستخرج الزنجار وغيره من انواع الاوكسيد
والرصاص والزنك والنحاس وكبريت الزئبق والصودا الكاوية وغيرها
من انواع كبريت الكالسيوم . لا دخل للخرافة في هذا المجال ! وكان
الاثنان منتسبين الى حزب ثوري يعمل في اطار السرية انذاك . لكن كان
هناك عالم اخر هو الكندي الذي حمل قوس قزح في رأسه . واعطى
شروحا علمية عنه سنة ٧٣٧ هجرية وهي السنة المصرية التي رات
اندحار اخر الحركات التمردية اندحارا نهائيا . ذلك هو نقيض كل ما
يبت الى المعجزات بصلة . لقد اعاد الجميع خلق العالم . وصار
الساعاتي معينا لا ينضب . وماذا عن نظرية الارتفاع الشمسي المرتبطة
بحركة النجوم ؟ لعلها تكون قد وضعت في الوقت الذي راحت فيه
شهرزاد تروي خرافاتها على مسامع الملك شهريار . ومهما يكن من امر ،
فان الاجانب قد عجزوا عن فهم اي شيء . وهم على اية حال ما كانوا
ليصوروا الشعب وهو يصطخب ويلفظ انفاسه تحت نير القمع والضرائب

وحق الليلة الاولى والعبودية ويواجه مختلف انواع العشارين . كان والد المتنبى سقاء بالبصرة ، ومن ثم فانه من الطبيعى ان يوقف ابنه المطر ، ويحمل حياته محمل الجد . لا نبي بعدي . انا الاخير ! وزج في السجن ، حيث جعل يستقبل الكندي الفيلسوف الملحد ، مبتكر نظرية المرايا المحترقة والوجود المادي للضوء . ذلك هو الوجه الاخر من الصورة . الف ليلة وليلة رائعة ! لكن ليس كل شيء موجودا بها . وانشغل السينمائيون بقلب واقع التاريخ وتشويهه . لا يعدو الامر كونه تهويما من تهويمات البحارين الذين افراطوا في الشرب . اما ما هو جوهري فيوجد في مكان اخر .

واطلع آل عديم اللقب على حقائق كثيرة . وهي نفس الحقائق التي ادركها جيلالي بوحدبة ورشيد بناصر وعلاوة الاحمر الذين انضم اليهم المعلم علي الفقيه بعد ان نسي خصامه مع محمد حول الرسائل التي يكتبها للاميين من اهل البلدة . والواقع ان مسعودة حين اقدمت على تنفيس مدينة النحاس انما ضبطت الامور كلها . وخرج اهل المنامة من حالة الغيبوبة ، وادركوا انهم ذهلوا عن انفسهم طوال اسبوعين الى حد الا يكثرثوا لغياب افضل لاعبي الدومينو والمتراهنين على السلاحف الاولبية . وجاءت ردود فعلهم عنيفة ، فخبروا الديكور . وتخلصوا من اوهامهم ، ولم يعودوا يرغبون في العمل بلا مقابل ولا الموت حبا بالسينما ، وادركوا هول الانشقاق والخصام الذي نشأ بينهم منذ وصول فريق السينما . فهم الذين لم يهتموا الا من بعيد بالدرهم ارادوا ان يربحوا اكبر حصة منها . وهم الذين عرفوا بغزتهم على بعد فراسخ من حولهم ، تحولوا الى سمسرة . لقد نسوا نساءهم ، ودود القز ، والحاكم الذي يبغي حياة هنية ، وينتقل من حضن اجنبية الى اخرى ، ويسقي حديثه بالويسكي حبا منه في التباهي . لم يحدث رد الفعل فجأة . وبعد بضعة ايام شعر المخرج بالحاجة الى الف من الشخصوس الثانويين . وما كانت تلك الشخصوس لتلتقى اجورا مقابل عملها ذاك ، بل يكتفيها فخرا ان تظهر اسمائها على الشاشة في قاعات السينما عبر العالم . غير ان هذا الاقتراح وضع النار في الفتيل . ولم يكتف المناميون هذه المرة بتخريب الديكور ، بل اغتالوا الممثل الرئيسي في زقاق مظلم عند هبوط الليل . المجابهة الثانية . وتوقف الفيلم مؤقتا ، وتعرش التحقيق . ثم ان بنذرشاه قرر ان يتخذ رهائن من اهل المنامة ، ويمددهم ان هم لم يكشفوا عن

القاتل في ظرف ثلاثة ايام . ووضعت مسعودة حجابها وقصدته . وسألته عن عدد الناس الذين ينوي اعدامهم اذا لم يكتشف الجاني . فكانت اجابته واضحة : عشرة . قالت مسعودة : « انني افهم . فلا داعي ان تضع رسما لذلك . ابنائي لم يقتلوا احدا . ولكن لو مسست ادنى شعرة من واحد من اهل المنامة لامشيت السر الذي بيننا » . ونطح مكتبه برأسه ، لانه كان قد نسي كل النسيان هذه الحكاية او الوصمة التي لا تمحى ابدا . « هذا ثمن عملك كبراج في احد المواخير . اخطاء الشباب لا تذهب سدى ! » وفي نفس الليلة ، اعلن بواسطة مكبر الصوت ان تشريع الضحية اثبت انها انتحرت بمسدس في زقاق مظلم . واسكن ملف التحقيق ادراج النسيان . وسرت مسعودة عديمة اللقب ايما سرور . وقرقعت بحمالات نهديها من الفرح ، وقالت : « تصوروا ما كان سيحدث لكم لو انني لم اكن موجودة ! » واستؤنف تصوير الفيلم ، ولكن الشخوص الثانوية طلبت ان يدفع لها حسابها بالعملة الاجنبية . وبالسعر النقابي المعمول به في البلدان الثرية . وتعجب مدير الانتاج من مثل ذلك الطلب ، وقال للحاكم : « لقد وعدنا بأن الناس طواعيون جدا بالمنامة ولا يختلفون الى النقابات ، ولا يتعاطون السياسة . ولولا ذلك لكنا ذهبنا الى بلاد اخرى ، حيث اليد العاملة رخيصة جدا » . فسرده الحاكم بأن الازمنة قد تغيرت ، وان اهل المنامة لم يعودوا ناسا مؤاتين ، ثم انكمش على نفسه وقد استبدت به كآبة بنفسجية . واستشير ملك خليجية ، فقرر انه ينبغي تلبية الطلب في اطار من السرية التامة والعمل على الانتشار الفضيحة . وامر بمواصلة التصوير بأي ثمن كان ، وعدم القلق مطلقا لما قد يتطلبه الفيلم من تكاليف ، فالاموال لا تقدر والحمد لله ! لكم يتمنى بندرشاه ان يرى في الحال مبلغا كفيلا بتغطية احتياجاته كلها في حسابه ببنك زوريخ . وكان ملك خليجية يستخدم شيفرة سرية ، فأرسل اشاراته الدخانية الى نسييه قائلا : « سوف نوجه لهم الضربة ذات يوم . ليلي رائعة ! وهي حامل الان ! » .

يوم الجمعة هو يوم الراحة بالمنامة ، بما في ذلك الطيور التي سلمت من ايدي الاجانب . وكان هؤلاء قد راوا طيورا غيرها وامتلكوا دائما فصائل عديدة من الطيور النادرة الجيلة . اما « الدر » فقد جرت وراءها في بداية الظهيرة فزاعا ممزقا ، وخطت دائرة وسط الحديقة وجلست داخلها . ثم راحت تصلح الفزاع بعد ان احاطت نفسها بتوائمها

الاربعة الذين انشغلوا بأكل كليتي ثور مليئتين بالثآليل . ولم يكن ذلك
 الفزاع الا على صورة بندر شاه . ولم تمر عليه يد الاصلاح منذ ان علقته
 « مسعودة » قبل زواج محمد عديم القلب . وطفقت النباتات تعطر الجو ،
 فيما راح ابناء مسعودة بينون الطاحونة التي رغبت فيها اهمهم منذ زمن
 بعيد . وانشغلوا بمعملهم ذاك ايما انشغال . وكان احمد ماسح الاراضي
 صاحب نظرة ثاقبة ، وعلى نفس الحب الفاسق لشقيقته مليكة على
 الرغم من زواجه باخت رشيد بناصر وانجابه لعدد من الاطفال . اما
 « احمد » فكان شخصا موهوبا متفنا في الكسل والتقاعس منذ ما عاد
 له سلاحف يعمل على تدريبيها . في حين ان « حامد » ما كان يغادر
 حجر امه ، واكتسب عادة مداعبة اعلی رقبته . وظل « حميد » مفتونا
 على الدوام بكنثوم ، وتخلّى عن طوابعه البريدية مؤقتا . ولم يعرف
 « حمده » اين يضع نفسه ، ولا اين هو ، في وقت تقاعس فيه « حمدان »
 مثل اخيه « احمد » مع فاروق ضئيل وهو انه لا يحب السلاحف . وكان
 هناك « حمود » الذي يؤثر المقاهي والماخور على الدار و « محمود »
 المهندس الحقيقي الرئيسي في العائلة كلها و « حمادي » اخر من في
 السلالة ، هذا الذي واصلت امه ارضاعه بكل سرية على الرغم من انه
 بلغ الخامسة عشرة . « محمد » وحده هو الذي كان لا يضطلع بأعباء
 العمل المادي لانه اعتبر مثقفا ، ثم انه بحكم مولده منفردا غير قادر على
 العمل الجماعي . وبعد الفراغ من تمنين دعائم الدار والقضاء على
 الديدان وغيرها من القوارض ، بدأ الجميع ، بأمر من والدتهم ، يركبون
 اجزاء الطاحونة ، التي كان من المقرر ان تعمل بالطاقة الشمسية ،
 وان تكون لها تويجات هائلة من زهر عباد الشمس بدلا من الاجنحة .
 وحينما راحت « مسعودة » ترتق فزاع الحاكم بعد ان انهالت عليه طعنا
 وتمزيقا ، صوبت « الدر » نحو توائمها نظرة رؤوفة ، وانتقلت من الظل
 الى الشمس تبعا لتحركات اخوة زوجها الذين انهكوا في اعمالهم ،
 وجعلوا يتخطون بين الفينة والاخرى سلحفاتي اهمهم الهرمتين . ثم انهم
 خلطوا الاسمنت والحصى ، ونادوا الطيور ، وتحدثوا عن تصوير الفيلم ،
 وعرضوا لقضية تبريد البيت ، واطالوا الكلام عنها لان حرارة ذلك
 اليوم كانت شديدة في الحديقة . في تلك الفترة ، راح الزمن يغلي اكثر
 من المعتاد . مع ان اهل البلدة رأوا ان الهواء صار اشد رطوبة منذ
 وصول فريق السينما . فقد هبت نسائم عليلّة نادرة من نوعها في
 المنطقة . وقالت مسعودة وهي تنزل من ورشة الساعاتي المنهك في

« لقد خربوا الطقس . يوم حار يتلوه يوم بارد ! ولكن أين أخوكم الأكبر ؟ أتهنى ألا يقتل خفية على سبيل الانتقام ! كل شيء ممكن مع بندرشاه المجنون ! » . وفي الواقع ، كان الزمن يقفز قفزا ! الحرارة تطفو بغيمات غليظة متكئة متماسكة ، وتثقب الجو بكريات من الغبار . وجلست كلثوم بمعزل عن الانظار في مكان ما من دار عديم اللقب ، وراحت تكتب رسالة عن انتهاء العلاقة بينها وبين حميد . قالت بأنها لا تجن على الرغم من الجهود التي بذلتها في هذا السبيل . وأنها لا تزال تهيل اشد الميل الى الاخ الأكبر ، وتخشى حين زواجها منه أن يقع في روعها ذات يوم بأنها تنام مع الرجل ذي الابهام المقطوع . وراى حميد ان مشاكل الفيلم قد اثارت أعصابها ، لكن هذا لم يمنعه من أن يظل وحيدا . ولم يعد يتمتع برعاية امه بعد ان وعدته بأجل بنت في المنامة كزوجة . وضعفت بنيته ، وصار حساسا مشاكسا ، ولكنه أحسن صنعا حين راح يدفع نفسه بحرارة ذكرياته الجيلة مع كلثوم . كان يمارس العادة السرية في المراحض ويفكر في القبله الوحيدة التي منحها اياه . والحقيقة هي انها لطخت قلبه على الدوام بزرقة النيلة . وظل يحلم بلعابها الذي بسطته على لسانه المنتفخ في تلك الفترة السعيدة من فترات عمله في ابصاق الطوابع البريدية . وانكمس على نفسه ، وأقسم ألا يتزوج أبدا . وشارك ، وهو المسالم ، في صراعات الازقة التي دامت عدة اشهر بين الاجانب وأهل المنامة . اما كلثوم التي تنسبت خطورة الحالة التي آل اليها حميد فقد بررت سبب تراجعها ذاك بقولها : « لا قوة لي ازاء مثل هذا الامر . حبذا لو أنه توفز مثل أخيه الأكبر على كاميشي مكان القضيبي ! »

ولكنها ظلت تحب محمدا . فمن ذا الذي يستطيع ان يتحايل على حله بتلك الطريقة ، ويقاوم السيطرة الاجنبية ، ويقطع ابهامه لجذب الاهتمام ، ويعطي دروسا في الموسيقى لطيور البرازيل ، ويتحدث مع جده حين يتعمقه السكر ، ويحطم الضحكات والقوقعات الى اثنين ، ويتسامى على قوانين الفيزياء الفضائية بالقضاء على المنعطفات التي تضيق حين مروره ثم تنطلق في خط مستقيم نحو الافق ؟ من ذا الذي يقوى على ذلك ؟ ثم من ذا الذي يتوفر على معارف العلماء كلهم ويتحدث السريانية والآرامية والكلدانية ومصرية البردي والعبرانية والبابلية والبربرية وهو يخرج من بطن امه ، ويقوم بأبحاث حول الطريق التي

سلکها ابن خلدون ، ويمارس الحب بطريقة عجيبة حتى يخیل لشریکته ان شجرة سیکویا من خمس وعشرين مترا تنبت في رحمها ؟ محمد عديم اللقب دون سواه ! وقد عاد ذات مساء ، واعلن بأن الاضراب انتهى وبأن التصوير سیستأنف في اليوم التالي .

وبعد بضعة ايام استقر « حمید » بالماخور لكي ينسى الفشل الاخير الذي مني به . وانطرب في الشرب حتى انه رأى امامه معازا ونعاجا وسلاحف ویهامات وهي تخرج من بالوعة دورة المياه حيث تقيا امعاءه ویأسه . واحس بأحشائه تتكور في أعماقه وتلتوي على نفسها . والحقیقة انه منذ ان سمع ذلك الخبر من كلثوم نفسها وهو لا یستطیع التغلب على خبیثته ، لا سیما وان الآمال التي كانت على مرمى یده انطوت مع صفحة النسيان وتقلبات الحیاة الخاطفة . وهو على آية حال عاش حیاة هنية في ظل أمه العظيمة ذات القلب الضخم ضخامة ثدييها الموشومين اللذين یجعلان النسوة یفغرْنَ أفواههن اعجابا في الحمام . وقد تعودت مسعودة ان تحمل ثدييها ببديها وتقول من عل بكل ترفع وكبرياء : « لقد أرضعا تسعة عشر طفلا . المسوها ! ان لهما صلابة العنب الطازج الذي ینبث في بلاد النوبة ! » وواصل حمید عديم اللقب الشرب ، واكتشف بین الجراذین المحصورة بین الساعات الجدارية وفراشات دود القز الزعفرانية التي تنطح برؤوسها أبواب السعادة النسوية ، مجموعة السينمائيين وهم یشبعون شبقهم مع البغايا الاصولات اللائي یبغْنَ أجسادهن من الیاس والقرف . وسرعان ما طرد من الماخور . لقد أراد الاجاب ان یضربوا الفتيات ، ویكسروا الاثاث ، ویمزقوا الفونوغراف الباعث على الحنین والنحس . وعاد الیه وعیه فجأة ، وتقيا ما في جوفه مرة ثانية ، ثم انه اندفع نحو الماخور ، تحدوه رؤیا عجيبة ، وصرع الرجل الذي لم یكن الا مدير التصوير ، وعمل الشيء نفسه مع الرجل الثاني الذي اراد اخراج مسدسه . وقال لنفسه وهو یطرح بهم الواحد بعد الآخر : « من أين استمد هذه القوة ؟ أنا الذي لا أتوفر حتى على كامیشی ملائم ! » وعندما صرع خصومه العشر ، عادت الفتيات الموشومات القهقرى عبر سراديب الدموع المضيئة نحو الفرزدق الذي حدثه عنه اخوه . وكان هذا قد ولد سنة 47 من السنة الاسلامية واشتهر بصعلکته وبعقريته الشعرية ، وحببه للعدالة . وبلغ الامر ان اشترى الفتيات الصغیرات لكي یجنبن الواد من قبل آبائهن عملا بالتقاليد الجاهلية . واحتذى به الناس بعد

تروون طويلة من ذلك التاريخ ، لانه مكن النسوة ذوات الجمال الخارق
من ان يفعلن على سبيل الرمز بوشم ما لكي يدخلن عن جدارة الى عالم
اللذة الاسطوري . واعطين بدورهن احساسا بان الحياة موجودة حقا
وصدقا في هذه الحاضرة التي نشأت من اوهام تاجر مهووس بالساعات
المائية والساعات الملحية .

وعندما جيء بحميد الى الدار ، عملت كلثوم على تنظيف جروحه ،
وغسلت قياه ، وجففت دموعه ، واضجمته وهي تروي له بعض
الاقاصيص العجيبة المستمدة من كتاب الف ليلة وليلة . واحس بوخزات
الآلم وشهقات العويل تهزه هذا . فطلب منها ان تروي له وقائع الزنج
بالبصرة . ولم يكن ذلك منه الا لانه رغب ان يقحم نفسه في عالم الرعب .

قلق الحاكم من ازدياد مظاهر العداء تجاه فريق السينا . وزاد مساعدوه من عندياتهم . واستفسر كل صباح عن مقدار ما تم تصويره من الفيلم . وقد رأى أن العمل بطيء جدا ، وأنه قد يستغني عن تصوير الجبل المغناطيسي والمدينة المصنوعة من النحاس الخام . ولكن لم يكن في مقدوره شيء . فالخرج قاطع في رأيه ، وهو لن يتراجع عن تصوير أي مأثرة من المآثر . فلقد طلب ملك خليجية انجاز عمل فني خارق ، ومن ثم وجب ارضاءه . ودفع لذلك اموالا كثيرة . وكان على فيلم الف ليلة وليلة ان يعيد الى الوجود حضارة مسخت كل المسخ ، والسبب في ذلك ان الامر يتعلق بمجد العالم العربي . حينذاك سيجد المستر براون نفسه في موضع السخرية بكونيدياته الموسيقية التي تتناول موضوع العروق . الدعاية تشق طريقها بكل يسر ان اضيفت اليها توابل الاعاجيب والمعجزات . وسوف يتلقى الرأي العام اكبر صدمة في حياته . لقد ترك الكشافون يحتلون المكان على هواهم ، غير ان بندرشاه اصفى بسامعيه . الاوامر هي الاوامر ! والمسألة تتعلق بفيلم مضاد لكل السموم .

وماذا عن اكون الذي يبتلع مدينة كاملة في بطنه ؟ سوف تصور هذا المشروع ايضا . الحروب الكلاسيكية مضى عليها الزمن ، يا سيادة الحاكم ! حروب الاعصاب هي التي يحسب لها حساب في عالم اليوم . ولا شك انكم تتوفرون على اعصاب ! اتصد اعصاب الحرب اي المال . ولديكم الكثير منه . ان فيلما مماثلا يوازي بدون شك عشر مستشفيات ، وخمسين مدرسة ، وستا وثلاثين قرية مكهربة واثنين

وعشرين سدا صغيرا . ثم ماذا ؟ انتم في حالة حرب ام لا ؟ لا شك في ذلك ! الف ليلة وليلة . خضاب الدم . الجلسرين . عشرة من البطون المستديرة التي تدور مثل اسطوانات للتدليل على الاجواء الشرقية . شمس رقطاء . نخيل تهزه الرياح ، واسواق صاخبة بالكوفة والبصرة . الحوت الذي يتغذى من قرى الصيادين . السندباد ضد ميكي ، الفوانيس السحرية . ضجعة او ضجعتان مع نسوة هربن من الفردوس وبعض الزنوج المصنوعين من الابنوس . القيامة ايضا ، وعلاء الدين بالاضافة الى ذلك . العقدة معقودة . سوف تسيطرون على العالم . وسوف يتحدث الناس بالعربية الى حدود نيوزيلانده . وهذا لا يمنعكم من ان تبيعوا لمن شئتم امتيازاتكم التي تملكونها عند بحيرة التماسيح . لا تهذروا ! اذن ماذا تخافون ؟ هؤلاء الاموات القليلين ؟ لدينا الامكانيات لتعويض العائلات . سوف نفتح نوافذكم ونصور حريمكم وحورياتكم وخصيانكم وصناديقكم المملأ بالذهب واللالء الثمينة ، واسماككم التي تتحدث ، وطيوركم التي تعرج ، وصناديق العجائب ، واحجاركم الفلسفية ، وغللمانكم ، وشعراكم الذين يحولون الحليب الى خمر فيجعلونه يحمر خجلا ، واياحيكم الذين لا يرعون ، وعشيقاتكم الشهيات ، وقصور قرطبة ، ونسمات الياسمين ، والمعارك ضد الكفرة ، وزرايركم الملية بالحيل ، والتاريخ الزاخر بالقلبات ، وساعات هارون الرشيد المائبة التي اهداها الى شارلمان ، والرعب الذي سيطر على شارلمان عندما رأى اول ساعة جدارية تغني ، والسفارات العظيمة ، والمحفات المتهادية ، والحرير الهفاهف ، وحقول اصفهان وشيراز واسطرلابات البيروني ، والفرح بالحياة ، والابهة واللذة والحياة الحقيقية ، بل وسنصور حتى علماءكم ورسامي المنمنمات عندهم . لا تقلقوا لهذه التفاهات ! هل من اهمية كبيرة لبضع عشرات من الاموات ؟ لقد سبق لي ان صورت فيلما في كلكتا . كنا نلتقط الجثث من المزابل . . . هيا ، لا تضطربوا . سنصور اليوم مشهد الحوت الذي يبتلع مدينة بغداد بأكملها ، وغدا ، امبراطورية السند المشعة التي غزوتموها بالقاء قبضة من الفلفل في عيون أعدائكم . اننا نعرف ان ذلك قد تحقق قبل ان يعمد ابن ماجد المشدوه الى فتح الطريق البحرية نحو الهند امام فاسكو دو غاما . لا تشغلوا بالكم بشيء ! المستر براون ينتج افلاما هو الآخر . وهي بالغة التكاليف . ضعوا حدا للرقابة . وسوف يهب اليكم هواة السينما الاباحية من كل صوب . والمناضلون الذين يناصرون الجانب الآخر سوف يعطفون ثيابا سراويلهم في الليلة نفسها .

وتم تصوير مشهد الحوت الذي ابتلع مدينة بغداد . وروت كلثوم البقية
 على مسامع حميد عديم القلب . المسكين ! لقد تشوه وجهه وانغرزت
 شظايا من الزجاج في قلبه . اسمع قصة الجانب الآخر من هذا العالم
 العجيب ! الوجه لآخر للواقع . كان الفرات فيما مضى يندفع بمياهه
 اندفاعا خطيرا . ولم تكن قرى الصيادين تخاف من الحوت . بل لم يكن
 هناك حوت . غير ان الصيادين ظلوا في خشية من تلك الفيضانات
 الرهيبة . الف قرية جرفها السيل حسب ما يرويه المؤرخون . وقد وجب
 ترويض النهر . كانت البلاد ملأى بالمستنقعات الموحلة التي تنتشر فيها
 الاوبئة . لذلك جيء بثلاثمائة الف عبد اسود كلهم من الذكور .
 اصطيديوا مثل سمك ساذج . وحفروا الانفاق ، ورفعوا السدود ووسعوا
 مصبات النهر . ولكن ، كان هناك دجلة في الجانب الآخر . فجيء
 بثلاثمائة الف سجين جديد من دومبا ساوس النوبة ومن زنجبار ومن أماكن
 أخرى . وحفروا بدورهم انفاقا ، وبنوا السدود وروضوا الانهار ،
 وخفضوا نسبة الفيضانات . وأرغموا على وجه الأخص النهرين أي
 دجلة والفرات على الا يتلاقيا ويتصادما ! ولفظ العبيد انفسهم في عين
 المكان . واستبدل الاموات بالاحياء . وهلم جرا . ولكن كان ما هو
 اخطر من ذلك ، أي الآلاف من الروافد التي تتشعب الى ما لا نهاية . في
 ذلك الوقت ، ابتدع الطوسي ، التحليل التوافيقي ، وقام ابن شاطر
 باكتشافاته الاولى في ميكانيكا الري . ماذا وراء ذلك كله ؟ فائض القيمة ،
 كما يقول صديقنا الاسكافي ، وجشع التجار بالبصرة الذين اكتشفوا اخصب
 الاراضي في العالم ، والراسمالية التجارية . وقد تعين قبل ذلك تطهير
 المستنقعات ، وتجفيفها ، واغتراف ماء النهر كله بالأيادي . وراحت الملاريا
 تفتك بكل شيء وكذلك الجوع . مائة غرام من البرغل المغلي لكل انسان
 يوميا ، بالإضافة الى الصراع بسبب التجاور في العيش . ووضع العبيد
 جماعات جماعات من خمسة وعشرين ألفا في محتشدات ضيقة ، يلتحفون
 فيها السماء والمطر والرياح والشمس . ومن الأفق الى الأفق ، كان النهران
 يجريان أسرع من الشمس الفاربية ، وأسرع من هؤلاء الذين يستندون
 الى عكازاتهم ، ويتقوسون في المستنقعات وينتقلون من كتبان الرمل الى
 الطمي وما الى وراء ذلك . عندما كان النهران يتلاقيان ، يحدث نوع من
 الشق في قلب القشرة الأرضية ، أو شيء أشبه بدوامة هائلة تفتح فجوات
 في خيال البحارة المبهورين بانعكاسات الماء وطيور الكناري التي ترسم
 على صفحة البحر ظلالتها الرشيقة . على أن هذا المشهد المرعب كان

يتبدد بسرعة في بخار الحرارة الصاخبة ، ساحقا أعصاب الزنج وعضلاتهم ، وهم يشقون طريقهم بين نباتات الأسل التي تخدش أجسادهم حتى يجبس الدم منها . ثم تتقيح جروحهم هذه بفعل الماء الأجاج والوجل والطوى . في تلك الأزمنة . لم يكن الإنسان قد عرف بعد كيف يعالج الكراز . وعندما تغرب الشمس ، يصطبغ النهران بالخضرة الحائثة ، المبقعة باللون الوردي . ويقوم حينذاك كل شيء في مواجهة الإنسان ، فلا يجد هذا حينذاك سوى أن يزعم بأن الله قد خدعه . وكانت الحواضر تتشابه فيما بينها على مرمى البصر ، في حين تنزل على سكة الجحيم ، وتدور على اجنحة الطواحين الهوائية . مسعودة عديمة اللتب مجنونة كل الجنون ! من يدعي بأن عباد الشمس يمكن ان يبهر السماء ؟ دجلة تسيل وينتهي بها الامر الى ان تتداخل مع الفرات . وترداد البصرة ثراء بين النهرين ، وتجن وتصير جشعة . تلك هي غريزة الارض . والعبيد السود يعملون على استصلاح الطوى فتنبت الذرة ، ويتنامى الارز ، ويضطرب عباد الشمس عند هبوط نسائم الشرق ، ويتهاوج قصب السكر . ها هم العبيد يتعثرون في الطين ، ويهاجمون بين الوقت والآخر رب العمل المتوحش ، ويفطسون رأسه في الماء ، وينتظرون تحليق القبرات قبل ان يتركوه لينزلق نحو القاع وينغمر في الطين . ينبغي الاعتراف بأن مثل هذا الامر نادرا ما كان يحدث . ولكن الوقت قد حمل نبضاته ، وراح صخب المياه يزحف على عروقهم زحفا ، تشرب نخاعهم مثل ورق حريري انكمش بوشوسة الدم ، ثم انه تضخم وصار قادرا على تحويل الافق الى غبار يتصادم بجزيئات الضوء المثقلة برائحة النهر . تسألني عن الزنج ؟ من ذا الذي تحدث عنهم ، حتى القبرات لم تكن تريد الاقتراب منهم . وفي بعض الاحيان ، كانت جثة احد الحراس تنزلق مع الماء ثم تطفو فوق النهر . حينذاك ، يلتقي القبض على عشر زنوج ، ويطلب منهم ان يضعوا رؤوسهم بكل هدوء على الوحش لينهال السيف عليها بضربات الباترة . وبدا الناس في ذلك العهد يعرفون الفولاذ بفضل ابن قرة ، والمبضع بفضل الزهراوي . واذا كان هذا قد ابتكر اول ضرس اصطناعي من عظم الثور ، فانه لم يفعل ذلك في صالح الذين يحولون مجرى دجلة والفرات ، ويروضون بلاد ما بين النهرين . ومع ذلك ، ظلوا يفقدون اضراسهم وشعرهم وجلدهم وخصياتهم ورؤوسهم . الحق أن الجو لم يكن صحيا بالنهرين ، بل كان عبارة عن مناظر مستنقعية تعقبها أخرى . بالاضافة الى ذلك البخار الذي يلوي الاعضاء كأنه غسيل غطس في ماء

مغلي فهو لا يعرف الى الجفاف سبيلا . وقد حدث بين الوقت والآخر ان لقي بعض الملاكين مصرعهم خنقا بين حقلين من حقول قصب السكر . وما أسرع ما كان ينفذ حكم الاعدام في مائة من الرهائن ، وتفصل رؤوسها عن اجسادها . وتنقى ادمغتها وتترك بالمنفيز ، ثم ترسل الى الخليفة لكي يفرس فيها نباتات الجاكاراندا وغيرها من الشجيرات البيتية .

هل حدث ذلك كله حينما كان الملاحون ينسجون الف ليلة وليلة ؟ بالضبط . وفي نفس الفترة . لقد وجدت قصور البلور ، والنساء ذوات الفروج الثلاثة ، والبسط التي تندفع بضحكات التماسيح ، ووجدت مقابلها التماسيح التي تقضم أعضاء الزوج وهم أحياء ، وحتى الحيوانات ، والعبيد الذين يدفعون الى اللواط دفعا ، والتذبيح . المساكين ! لقد أضاعوا كل شيء حقا ! ولم يبق لهم ما يمكن فقداه . كانت الخدوش تصير حكة رهيبية . والقماش المرقع بالحلم ينتفش أمام أعينهم . وهل كان ذلك الا كابوسا مخضبا بحمرة المستنقعات وبخار الضباب الملون بالشمس وهي في كبد السماء ؟ في حين ان الدم يجف بفضل تراكم البزاق الذي يفرز ما يشبه مرهما رطبا فوق الجروح النازفة . وكانت القذارة والطمى في شكل طبقات تتدرج عليها بنية هؤلاء المضطهدين وكفاحهم . انتساعل عن الف ليلة وليلة ؟ انها الحمال المسكين ، والزنجي العبد ، والاجير الدمشقي . انها تنطوي على كل من يسد جروحه الفاغرة بروعة الايام الخارقة ؟ يا للاكتشاف السعيد ! ليس كذلك ؟ وانهر « حميد » فترك القصة تتصاعد الى سماوات الموت . وينبغي ان تعلم بأن الحكاية تسمى نسيجا في لغة أهل المنام . العبد وخيالاته من جهة ، والسندباد ومواهبه العجيبة من جهة ثانية . ولكن السادية موجودة بالف ليلة وليلة . ليس كذلك ؟ انظر الى الارقام العربية . لا اقصد ارقام القرامطة . فهي عبارة عن شفرة سرية ، انها اقصد الاعداد التي نستعملها اليوم في البورصة او في الاسواق المكشوفة . 1001 ، اثنيان مسجونتان في منطادين ذكرين . وهناك ايضا العمالة الذين يضعون البشر على السفود لشوائهم . والثعابين التي تجفف الانهار ، والطيور المنطرفة التي ترتوي من مشاهد القيامة ومن الطوفان الاخير وشينا فشيئا تمتليء السطحات الخيالية بمعاني واضحة . وتتحول الى فضاء خالصة . على ان الزوج العبد المحشودين في بلاد ما بين النهرين كانوا في حاجة الى زعيم قادر على اخضاعهم . وقد نزل عليهم

علي بن محمد ذات صباح عاصف بارد من سنة 255 مسبقا بسمعه كمروض للأنهار . كان أبيض البشرة ومع ذلك عرف كيف يقبل بينهم . وتحول العبيد الى جيش جرار زحف على المدن ونهبها . حتى النهران اللذان بددا العديد منهم صارا حليفين لهم . كانوا يعرفون فروعهما وتعاريجهما ودوراتهما وانعطافاتها . وأرسلت السلطة عساكرها وما اسرع ما أغرق هؤلاء في النهرين . وكان للعبيد أمران سياسيان في صالحهما : أرضية المعركة ، واحتقار الموت . ثم انهم راحوا يواجهون ضرباتهم بعيدا عن قواعدهم ، فوقعت بلاد ما بين النهرين بين أيديهم . وأقاموا البنيات الشيوعية الاولى في العالم . لكل حسب حاجته . ستة اشهر من العمل في الارض وستة اخرى في الحرب . وفي سنة 260 استولوا على « عبدان » المتقطرة بالبترول . غير ان الناس لم يعرفوا ذلك في تلك الفترة . وفي سنة 262 احتلوا الاهواز ، وفي سنة 265 سيطروا على البصرة التي كانت خابية قمح وميناء نهريا في مصب السماء والارض ، ونقطة انطلاق لاحتلال افريقيا وآسيا بالاضافة الى انها كانت مدينة تجارية مزدهرة ومدينة انطلق منها السندباد . لم يصمد امامهم شيء . مزقوا ألف ليلة وليلة وأعدمو الاثرياء بضربات الساطور واحرقوا القرآن الذي شوهدت رسالته من قبل الملوك العاشقين للشرب والجنس . والغوا الصلاة والصوم والصدقة وتقاسمو الثروات وحرروا الرجال والنساء . ولم يعد السندباد الحمال في حاجة الى استخدام خياله . هيا ، تابعي قصتك ! اضطرب الملوك أمامهم طيلة خمسة عشر عاما . وصارت بلاد ما بين النهرين جمهورية خصيبة لمدة خمس عشرة سنة . وتجاوزت المحرمات الجنسية ، ولكن الحكاية لم تدم الا ما تدومه الافلام . خمس عشرة سنة ونيف . فقد وقع تحالف عظيم ضد جمهورية الزنج في بلاد ما بين النهرين وبرز احد الملوك ممن يعرفون مصالحهم فقضى على المتمردين . انتصر « الموفق » عليهم ، وقتل علي بن محمد سنة 270 . وانهارت السعادة دفعة واحدة ، فقررت مسعودة الحداد لمدة ثلاثة ايام ، وأمرت بأن يصنع لها فزاع على صورة « الموفق » ، وانتقل عباد الشمس الى منطقة الظل . وقالت « الدر » لزوجها : « اتفهم الآن لماذا تمنيت أن لو كنت أسود البشرة ! » الحق ، أنها كانت ملحمة انقلب فيها الواقع . وكان الزوج يستعملون أدمغة الامراء العباسيين للتفوط داخلها على سبيل الانتقام . وتخلى النواثم عن بناء الطاحونة . ولم تتوقف « مسعودة » عن البكاء ، فقررت أن

الذكر القادم من سلالة عديم اللقب سوف يسمى علي بن محمد . ما هذا الاسم ، يا اماء ؟ وفي مساء الجمعة الاولى من سنة 270 القمرية ، انطلقت المذبحة على قدم وساق في حين تعطرت الاروقة الملكية بروائح الالوة والسولان . ويا للحمرة القانية المصطبغة بالزرقة الرمادية حين انطلقت لتبلغ عنان السماء قبل أن تحدث هزتها في العالم الذي ظل بين ايدي الخلفاء ! كانت اعين هؤلاء تشرب من الدم المتفجر ، في حين أن ذكورهم جعلت ترشف من الانداء الصباحية في الحقائق المعطرة . لقد بدأت قصة الزنوج قبل ذلك بوقت طويل . وتابعت « الدر » الحكاية بعد أن حلت محل « كلثوم » الى جوار « حميد » الذي ظل جامد الاوصال . والحكاية تعود الى تلك اللحظات التي تعمد فيها الزنوج بالعذاب والزجاج المفتت ، وانهالت عليهم وخزات الرماح والمضايقات العصبية ، واندفنوا احياء . حقا ، البداية تعود الى توصل النسوة الحاملات في مني الغزاة ، والى جيوش الاطفال وهم يتعمدون بطقوس الدماء بالاضافة الى المواشي التي ذبحت في جو من القسوة الطاغية . . . وكانت مدارك السجناء قبل تمردهم قد اضطربت بقطع النحاس التي ألصقت ببشراتهم . وتشققت أجسادهم من الجوع في حين أن فيضانات دجلة والفرات والالوان الصاخبة جعلت المعالم من حولهم معوجة شائهة وذات اشكال محدبة ناتئة . وجعل القلق المبطن يزداد صفاقة حسب وقع الغناء الطويل المهموس الذي لا يكاد يخرج من بين الشفاء . وما اسرع ما كان الحراس يأتون بعضهم ذوات المسامير وبسياطهم وبفؤوسهم . وكان العبيد ينتظرون علي بن محمد وطلاقة لسانه وشجاعته . وراحوا ينظرون الى دم اخوتهم وهو يندفع نحو السماء والى رؤوسهم وهي تفصل عن أجسادهم بضربات الجلاد الذي يكرر حركاته بلا توقف . وتنفجرت الحناجر وسط الصمت ، وصار الموت صوتا طبيعيا بدت فيه البسلام والمادة الصفراوية التي يفرزها الكبد كنوع من الدنتيلا المزخرفة بزرقة السماء أما الناس البيض الذين حضروا تلك الاعدامات فاطلقوا صرخات الحرب تمجيда لله ، وترددت الاصداء بين النهرين المخضيين بالدم الذي راحت الاسماك تلعبه في المياه العكرة . وقبل أن يهوي الساطور على رقبة كل محكوم بالاعدام يترك بذرة تنطلق منه فتتنامى بيضاء متماسكة لشدة ما كان منبها بمشهد مقتله بالذات . وتمازجت الالوان والايقاعات والصخب وسط الموت الذي راح يصبغ الحياة بلون الزعفران ويسجل الثغرة التي تحدث في الواقع . ويكشف عن أساليب

الهمجية لدى الإباطرة . حينذاك تأكلت اطراف كل ما هو بشري وانفتحت في ذاكرة السجناء الآخرين ثغرات هائلة لتطل على عوالم الجنون .

ذلك ما حدث في اقليم من اقاليم الخلافة في حين ان السندباد الحمال استند الى سور القصر الملكي لياخذ بعض الراحة وأبحر مع خيالاته . وكانت النتيجة واضحة كل الوضوح ، فقد تقاطرت جيوش علي بن محمد من كل صوب . وهذا ما دفع بساعات مسعودة الجدارية الى أن تستقر على الوقت الحقيقي . وكان عنف المتهورين اقوى وأشد من عنف مضطهدهم . على أن هذا ليس الا أمرا عاديا . فالشبق والبذخ من جهة والطاعة والولاء من جهة ثانية . والمؤرخون يضيفون من عندياتهم باستثناء المسعودي الذي كانت له مواقف مناصرة للحركة . وعلى اثر هزيمة الحركة الثورية ، انطلقت اعمال القمع دون قيد او ضابط ، وفتحت حنفيات الهذيان على سعتها . ولم يخش القادة على حياتهم بقدر ما خشوا أن تصير أدمغتهم أصصا ليلية في تاريخ العبيد . ودامت ثورة الزوج خمس عشرة سنة . ولم تكن مجرد حادث عرضي .

وقد توفرت الشروط الموضوعية كلها . وسبقها ثورات أخرى ، أقصر منها مدة ولكنها كانت قاتلة مثلها ، متعطشة الى العدالة ، وحاقدة كل الحقد على الملوك واذنابهم . وكان محمد عديم اللقب قد روى حكايات تلك الثورات وأحساها . وتقول الروايات بأن الفلاحين الذين قادمهم السندباد صمدوا ثلاث سنوات في وجه الحجاج بن يوسف ذلك الذي يقوم الآن بحراسة برقوق « مسعودة » . وتزعم نفس الروايات ان المقنع لم يكن سوى امرأة حجبت وجهها دائما وصمدت حوالي عشر سنوات بين حدود العراق وايران الحالية . أما « بابك » فخاض معارك البروليتاريا بالكوفة واستولى على العاصمة ، غير أن الزنج أقاموا دولة حلموا أن يجعلوا منها جمهورية مثالية . وهدمت مدينة « المختارة » من قبل الموفق . هذا فزاع آخر ينبغي تعليقه . ودام الحداد ثلاثة أيام بالفعل ، ثم غادر حميد فراشه ، وزايله حزنه . لا يمكن للإنسان أن يموت من الحب والتاريخ . يجرف ذلك العدد الهائل من الجثث . ووعده نفسه بزيارة « المختارة » العاصمة القديمة الزائلة للجمهورية الحمراء والسوداء التي أقامها ززوج علي بن محمد . وشعرت كلثوم بالعبء ينزاح عنها . لأنها استطاعت منذ ذلك الحين أن تعد العدة لحياتها

معدس . « سوف أشغل وقتي بتنظيف أقمصاص الكوكسبرج وطيور الفردوس . لكنني سأحتفظ بابهامك . آه يا حبيبي ! أتمنى أن يكون للرجال أجمعين لون عينيك . لا تتضايق . علي بن محمد أجمل بكثير منك ، فلقد رايتَه في الحلم . أراد أن يتزوجني . لكنني لم أتجرا على التخلي عن البوقال الذي يسبح فيه ابهامك في بدار والذي . لعله يكون قد أعطاه للسردين .. لم يعد لدي قنفذي لأضع المرتاج على باب انوثتي »

كانت البلدة في عز الفوران . وسقط الناميون في طفولتهم مرة ثانية عندما أبصروا بشدق الحوت الهائل وهو ينفث ليلتلع مدينة بغداد . ولم يستطيعوا تمالك أنفسهم فسارعوا الى التحصن في دورهم . حتى المثلثون الثانويون اقتنفوا خطاهم . واختبأ البعض منهم تحت أسرتهن . وعلى الرغم من تلك الجرارات ، وأجهزة نفخ البلاستيك والرافعات التي تشمخ بأنفها في السماء فانهم قالوا لبعضهم البعض بأن الأمور حقيقية ولا يمكن أن تكون مجرد سينما ، وآثروا التنصل لأن الشك ظل آخذا بتلابيبهم . واختفى البعض منهم تحت جلايب زوجاتهم فأرهبوا اليساريين التي خرجت من شرائقها قبل الأوان . أما البعض الآخر منهم فكانوا أشد حيلة فانتهزوا الفرصة لكي تلتبس عليهم الظلال . واندفعوا نحو جاراتهم اللاتي ما نبسن بكلمة . فالاستثناء يؤكد القاعدة كما يقال . وكان أن ولد لهم أطفال تداخلت ألوانهم . ظهورهم زرقاء كخوف آبائهم ووجوههم صفراء بلون شرائف أمهاتهم . ولم يشعر المخدوعون من الرجال بالغيرة . فقد علموا بفضل تصوير الفيلم بالمنامة أن الملوك والسلطين والاباطرة والخلفاء وسادة الأرض كلهم يمكن أن تنطلي عليهم الخديعة . ودهشوا لذلك كل الدهشة . فلم لا يخدعون بدورهم ؟ وتسبب تصوير مشهد الحوت في توتر جديد . على أن اصحاب الادوار الثانوية الذين تلقوا أجورهم مسبقا وبالعملة الصعبة رفضوا استئناف العمل لشدة ما خافوا من تلك الآلة العظيمة . انها ملأى بالهواء ومصنوعة من البلاستيك ، ولكن من يدري ؟ فهي قد تتحول الى وحش حقيقي نابض بالحياة . وعيئا وضع المخرج رأسه بين شدقي الوحش ، لكن الرجال وجدوا فيه في واقع الامر مكانا دافئا ينسون فيه أرقهم وخيالاتهم الرهيبة . ثم انهم أعلنوا الحرب على الشرائق واستمعوا الى حكاية علي بن محمد دون أن يغادروا جلايب زوجاتهم وجاراتهم . وازدادوا

ربما عندما علموا أن عبيد بلاد ما بين النهرين القديمة كانوا كلهم من السود . حينذاك خرجوا كرجل واحد من تلك الظلمة الفاترة المؤاتية للحنان حيث طاب للنساء أن يحضن الشرائق وعادوا الى مكان التصوير . ونمت النزعة العنصرية في نفوسهم ، وارتبطت في اذهانهم فكرة الخوف من السواد بالخوف من الموت وبالفتره التي تسبق ذهاب الاطفال الى فراشهم . واستؤنف تصوير الفيلم . وابتلع الحوت بغداد . وبادرت مسعوده عديمه اللقب والدر وكلثوم الى صناعة فزاع على صورة « الموفق » الذي اباد الزنج . ولم تتجسرا الام على طرح التساؤل التالي : « اتعتقدون أنهم أناس طيبون ؟ لقد قيل دائما وأبدا بأنهم متوحشون ! » وتغلبت عاطفتها على احكامها المسبقة . ولم تعد الى المبالغة مثلما حدث لها مع الفزاعات الاخرى ، بل اقدمت على عملها ذاك بكل شجاعة . ووقفت الى جانب المضطهدين على الدوام ، وهكذا ، مارس التاريخ الملموس تأثيره عليها . ثم ان الاطار العقائدي كان جيدا . فهناك الاخوة التوائم ورشيد بناصر ومحمد عديم اللقب بطبيعة الحال و « الدر » وكلثوم بالاضافة الى علاوة الاخر . اما التوائم الشقيقات فقد اجتهدن في ضبط مواعيد الطمث ، أي في اليوم التاسع عشر من الشهر القمري في هذا القرن الرابع عشر . وبقي جيلالي بو حذبة الذي هذه الهزال ولكنه ظل منضبطا واضطلع بأمور العلوم والتقنيات والاكتشافات في مجال الكيمياء وجغرافية الظواهر .

من ذا الذي يريد أن يعرف ما آل اليه مصر عميد البلدة وحارس محطة البنزين الغربية التي يمتلكها الحاكم ؟ اذن ، هاكم قصته ! لقد غاب ذات يوم . وكان سادس من يغيب منذ وصول فريق السينما . ولم يبق الاقطه الابيض في عين المكان ليحرس المحطة . وظل قابعا في مكانه لا يريم على الرغم من معجزات السينما التي غيرت الزقاق المجاور للمحطة وحولته الى رافد من روافد دجلة . وراح يتأمل الماء المندفِع طوال ساعات طمعا في أن ترفع سمكة ما خيشومها فيخطفها ويبتلعها بنفس السرعة التي ابتلع بها الحوت عاصمة العباسيين . ولم يعرف أهل المنامة أن العجوز قد اغتيل في المطعم حيث يفترض في الزبائن أن يدفعوا مبلغا اضافيا للتعرج على التلفزيون . وكان له من العمر مائة وثمانية وعشرون عاما بالضبط . ولم يسأل احد عنه بل تناسى الناس انه سكر سكرة العمر في بورسودان وهو في طريقه الى مكة . حتى القط لم يعد

يفقه شيئاً مما يجري عليه مذ أن جرفت التجويف الفراتية الى هذا المكان من الصحراء ، وأغرقت البلدة بشلالات صاخبة مزبدة ، ونصبت الطواحين الهوائية وجيء بجياد « نهاوند » وأرسل الحارس الصوت الى مكان مجهول . لم يكن موجوداً حتى بين اصحاب الادوار الثانوية الذين قاموا بأدوار الجثث المتعفنة في صحراء « نجد » . على أن المحطة ظلت محروسة من قبل ذلك القط السمين الماكر الذي انبهر بالماء المندفِع امامه وبانقلاب التضاريس الجغرافية حواليه . وذهب البعض الى حد التلميح بأن الحارس علق كفزاع في حديقة مسعودة عديمة اللقب . ولم تكن مثل هذه المزاعم الا مبالغات مفرطة غضبت لها مسعودة ولم تتوفر على الوقت للرد عليها . وراحت تبحث عن ابنها الذي ذهب من جديد ليتحاور مع الريح خارج المخامة . وهذه هي طبائع البشر ! يقحمون انوفهم فيما لا يعينهم . وها هم يقعون مرة ثانية وسط خليط من العوالم المضطربة . ولم يعودوا يعرفون ما اذا كان المثلون المتكرون في زي خصيان خصيلنا حقيقيين أم لا . وكثيراً ما يحدث لسكير عائد الى بيته أن ينزلق في الخنادق المليئة بالماء . وعلى الرغم من ذلك كله ، فان صنائع الحاكم الذين يقدمون له تقاريرهم كل صباح ، راحوا يرددون نفس الكلمات : « لا شيء يذكر ايها الكولونيل ! حملات مسعودة هادئة ! » على أن بندرشاه سرعان ما يصاب بالحيرة فيترك الامور تسير على هواها . وكان يتجنب رؤية ابنته كلثوم وهي تأتي الى الدار بين الوقت والآخر لتقبل والدتها الغارقة في صمتها بعد أن تاهت بها الطرق منذ زمن طويل . وكانت ابنتها هذه اذ تراها لا تطلب منها شيئاً ، تحدثها عن التوافه من امور الواقع اليومي وترد عليها في كل مرة بأن تتخذ حذرهما من أجنحة المروحة الصغيرة التي تميل الى الاقتراب منها . ذلك ان السيدة بندرشاه راحت تقضي حياتها جالسة على كرسي هزاز قبالة ذلك الجهاز الذي يروح الهواء الحديدي الخالق . وما كانت تبذل هواء غرفتها أبداً بعد أن أوقفت المكيف الهوائي . وجعلت الاجنحة الحديدية تسحق بين الفينة والاخرى الفراشات البراقة التي تخرج من تحت فستانها الحريري مع أنها ما ربت دود القز ولا حضنت الشرائق في أي يوم من الايام . وكانت تشبه بعض الشبه مليكة عديمة اللقب التي تزوجت ولم تعد جلابيبها منتفخة بالتحويمات الفوسفورية التي تضيء ظلمة انوثتها . وانكشفت على نفسها في انتظار الموت ولم تعد تابه بزيارات ابنتها وارتمت على وجهها دلائل الغياب عن الواقع بالاضافة

الى محفات العزلة التي انتهى الامر بكل المنامين الى ان يحملوها على وجوههم . لكنها لم تكن من هذا العالم . ومع ذلك ، فقد ظلت جميلة بالغة الجمال ، تغتسل كل صباح وترتدي اثوابا فضفاضة زاهية وتقضي ساعات طويلة في وضع المساحيق على وجهها ثم تجلس قبالة مروحتها ، لا تقول شيئا ، ولا تعطي أمرا للخدم ، ولا تنفض اثوابها الموصلية بل لا تكاد ترى حتى أجنحة المروحة . ثم انها تسمر عينيها في الجدار المقابل وتحقق في شيء ما عاد في حوزتها . وتركها ابنتها وحدها وهي تعرف انها تغادر كرسيها الهزاز في أوقات الاكل وتعتبر بهو الاستقبال المائي حيث تسبح الحيتان من تحته ، وتتخذ مكانها من الطاولة العائلية قبالة زوجها الحاكم المستبد بندرشاه ، وتجعل تنقب بعض ما في انائها من الاكل وهي ساهية تماما ، ثم تغادر القاعة كلما امكن لها ذلك لكي تلتقي ثانية بشخير مروحتها الصغيرة ذات الاجنحة الملفوفة بجثث الناموس وحشرات أخرى من هذا القبيل . ورغبت كلثوم ان تروي لوالدتها وقائع الزنج وقصة قائدهم الجريء علي بن محمد بعد ان غادرت حميد عديم اللقب الذي كان طريق الفرائس . لكن سحنة والدتها المتجمدة وغيبوبتها الوجدانية واناقتها الرائعة دفعتها الى ان تقلع عن رغبتها تلك . فلقد عرفت انها انزلت داخل المستنقعات المعشوشبة لكراهية ذاتها والقرف منها ، لكن لم يكن قد وقع في روعها بالمرءة انها قد تموت عما قريب على الرغم من جمالها وفساتينها الموصلية وهيبتها ووقارها وعزها ونبيلها . اذ كانت قد انطلقت في عالمها هذا لتتنصل من تهاة زوجها وسذاجته . وعادت كلثوم الى منزل عائلة عديم اللقب ذاهلة عن نفسها كل الدهول وأعلنت ان والدتها قد توفيت وجاءت بدليل قاطع لتبرهن عن قولها هذا وتحدثت عن الرائحة العفنة التي تنبعث من جسدها ، وعن تلك الفراشات الزعفرانية المتكاثرة المتحطمة على أجنحة مروحتها الصغيرة . غير ان افراد العائلة علموا انه لم يحدث شيء من ذلك القبيل وأدركوا ان هواجر كلثوم بالنسبة لموت امها ، ناتجة عن زخم خيالها الفياض . لان عدوى المستنقعات قد سرت فيها حين روت لحميد عديم اللقب الذي يئس من حبها وقائع العبيد السود الذين استصلحوا اراضي ما بين النهرين وتاريخ ثورتهم في سنة 255 . وهي الثورة التي دامت خمسة عشر عاما الى ان مات قائد العبيد . وتقول الاسطورة بأن علي بن محمد هذا اجمل من محمد عديم اللقب لان خضرة عينيه المائية صارت تجول فيها اسماك الخيال وعدم الانصياع والجمعجة .

وفي تلك السنة لم ترفع زهور البيغونيا هاماتها في حديقة مسعودة لان « رشيقة » زوجة الساعاتي كانت حاملا وما عادت تفرز عاداتها الشهرية فتناقضت التركيبة العلمية التي تعرف مسعودة اعدادها . فكان ان فتحت النوافذ من الغيظ وارادت ان تنطلق نحو السماء لولا ان خطرت على بنتها « حديقة » تلك الفكرة التي أنغذتها . وأدرك من في الدار ان زهور « البيغونيا » لا دخل لها في المسألة ولا عباد الشمس ولا اشجار المشمش التي ظلت تفرز مرارتها وتبعثها نحو الثمار الجافة المتبسة ولا اي شيء آخر في الحديقة . غير ان ثلاثة أمور راحت تؤرقها وآثرت الا تفضي بها وهي : غياب ابنها البكر الذي خشيت عليه اشد الخشية نتيجة لمولده منفردا وبسبب مواهبه الاستشرافية الخارقة . وظلت متخوفة من ان يلعب على نفسه مقلبا خطيرا . ثم هناك تصوير الفيلم الذي ما انفك يتسبب في ضحية وراء أخرى ويهز سكان البلدة هذا ويزيد الحاكم ثراء ، هذا الذي انتهز الفرصة وقطع عنها أسمدته الكاليفورنية . وهناك وقائع الزنج الذين ملكوا عليها قلبها ودفعوها الى الاخذ بأسباب الحذر على الدوام لأنها حين كانت صبية في بيت والديها نشأت في احضان خادمت زنجيات اعتدن على سرقة قطع السكر . وانصت اليها « الدر » ، ولم تستطع ان تكتشف في قصتها تلك أية شطحات . وتصنعت اقرارها على آرائها تلك لبعض الوقت حتى تهدى طبيعتها العدائية . حينذاك روت لها كيف هرب السود نحو الاجام مخنفين وراء شجيرات القطلب والصبار الهندي . وقد لفحتهم شمس لا تقل عن خمسين درجة . وحدثتها كيف انهم حاولوا ان يجعلوا بينهم وبين مطارديهم اكبر كمية ممكنة من الضباب عبر قنوات الصدفة وتعاريج الرعب . وكيف انهم تحدوا الزمن والمجال واتبعوا الممرات المسجلة في عوالم الدوار والانبهار . وهذا بال مسعودة ثم خف التناقض الذي تحمله في اعماقها بسبب لون العبيد . و في الخارج ، كان الحوت يتحرك على هداه ذلك أنه حينما أريد تنفيسه صمد في وجه كل المحاولات والتقنيات الحديثة وظل على حاله معلقا فوق المياه المتبسة من ورق الالومينيوم ومشدودا بحبال تهدد بالتقطع في كل لحظة . على ان الرعب عاود مسعودة وقررت ان تحصي بناتها واولادها ، وفاجأت الساعاتي وهو ينظف فرج « رشيقة » بزيت القطن وقد حسبه ساعة جدارية صقلية . ولم تشعر بأية صدمة بل واصلت العد . ولم تستطع تجاوز الرقم 15 ، ودون ان تدري السبب حدثت نفسها بأن هناك من يلقص

في دفتر المنادة . حينذاك تذكرت محمد عديم اللقب الذي غادر الدار منذ بضعة أيام . وروحت عنها « الدر » بقولها : « اسمعي ، يا مسعودة ، سيعود بموهبة جديدة حتى يقوى على مقاومة الاجانب . سوف أروي لك خلال هذه المدة ملحمة القرامطة . كانوا من البيض !... »
فلكم هو الجانب المختفي من الجبل الجليدي العائم لقصة الف ليلة وليلة ،
كان يا ما كان ...

كان يا ما كان ، شاعر يعرف كيف يوقف المطر عندما يرغب في ذلك . وهل في الامر من غرابة وقد كان والده سقاء ؟ ففي كل صباح يذهب الى النهر للالتيان بالماء ويوزعه في قرب من جلد الماعز خيطت من الداخل وطلبت بالقطران . كان مستقبله محددا مسبقا . سيشغل هو الآخر بنقل الماء . وباستثناء الامطار التي يستنزلها على هواه ، ولد شاعرا وأحدث فتحات فاغرة في بنية اللغة النائمة في ظل الحريم المتثائب من السأم . وكان محمد عديم اللقب الذي يعرفه من خلال قصائده يغار منه في قرارة نفسه . وحين قصت « الدر » لام زوجها ملحمة حمدان بن قرمط ، أبرزت التنافس القائم بين بعلمها والمتنبى الذي يعد اعظم شاعر في كل العصور ، وردت كل شيء الى الشغف الجبوح (الهوى) ؟ وكان لعديم اللقب عذر في غيرته تلك فلم يكن المطر ينزل بالمنامة ابدا . من المؤكد أن الثلج تساقط ذات يوم . ومن المؤكد ايضا ان تقنيات السينما الهائلة اغرقت البلدة ذات يوم من الظهرة الى امتدادها الشبيه بالليل . ولكن هل نزل الثلج بها حقا ؟ وانقسم أهل البلدة حول هذه القضية . في حين أن مهرجي الفنون السمعية البصرية كانوا واقعا رهيبا امامهم . وكان الحوت الذي ظل معلقا على طريقة طيور محمد عديم اللقب المحنطة يسبح في الفراغ زمنا بعد وصول فرقة المهرجين وغيرها من البهلوانيين الاجانب دليلا قاطعا على صحة تلك المزاعم . ولم يعرف النوم العميق سبيلا الى عيون النايين مدة طويلة خاصة وان غياب محمد بدا يطول . وروت « الدر » ملحمة القرامطة . استمعي جيدا ! كل مسعودة آذان صاغية ، مسعودة مستمعة جيدة . تتبنى نفس الموقف الذي اتخذه ابنها حين جلس قبالة

الماخور طوال اسبوع كامل منتظرا أن تلتحق به زوجته . ربما أقل . ولكن
 للطيور ذاكرة ضعيفة ونقرات مذهلة . فلم تتعرف عليه ، وفزقت فوقه .
 هذه بطبيعة الحال قصة أخرى . وظلت مسعودة جامدة تستمع الى
 قفا الامور . وكانت قبل ذلك هادئة . فالف ليلة وليلة هدهدت طفولتها
 وروتها بدورها على اطفالها التسعة عشر قبل النوم . ولكن ها هو الواقع
 يتبدد حولها الآن ، ويتفتت بين اصابعها . وها هي الريح الدوارة الرملية ،
 وها هو الغبار يكسو كل شيء من جديد . ويشوه الاشياء الى
 حد العجز عن تبين القدر من الاناء ولا يقوى معلم البلدة ، فيما يقال ، على
 التمييز بين النجباء من تلاميذه والكسالى منهم . هكذا كان الامر . فالمنامة
 لم تعرف أبدا كيف تختار وقتا ثابتا . وصدرت عليها احكام قاسية فسي
 القرى الاخرى . « انها التذبذب عينه ! سوف تطير ذات يوم ، ولن يقوى
 احد على ارجاعها الى الارض . وحينذاك سيكون الخلاص منها . فأهلها
 كفرة ، صعاليك ! » ليس هذا لب المشكلة أيضا . وروت « الدر »
 كيف ثار القرامطة للزنج ، وكانوا من البيض في أغلبهم ، وعرفوا كيف
 يجندون كل المهوورين . ها أنت ترين كيف أن اللون لا علاقة له البتة
 بطيبة الرجال . لا تقلقي يا مسعودة ! فالحديقة على ما يرام . وزهور
 البيغونيا تعود الى النمو بأقوى مما كانت عليه . وهناك العدد الكافي من
 النسوة في الدار لري الصحراء . الدم لم ينقص أبدا . اصفي جيدا :
 القرامطة احسن تنظيميا من الزنج . لقد مهدوا لثورتهم منذ زمن طويل .
 وابتكروا العمل السري ، والاوراق المزورة ، والعملة المزيفة واستخدموا
 الزينة والجراحة التجميلية لاستغلال العدو ، والارقام المشفرة والحمام
 ذا حاسة الاتجاه ، والهويات القابلة للتبديل ، والصفر ، والحرية
 الجنسية المطلقة والشاملة ، والمظاهر المخادعة ، والتنصل ، والصرامة ،
 والبيوت ذوات الابواب المضاعفة ، والحيطان التي تنزلق على سككها ،
 واجبروا الرجال على غسل الاواني مرة في اليوم ، وأحدثوا فن الدعاية دون
 التظاهر بذلك ، ووزعوا الاراضي ، وألغوا الملكية الخاصة والعبودية...
 فكان المتنبئ ! الاعظم ! الاكثر جنونا وعبقرية ! الاكثر دراية بأمور الغيب .
 عريفا بمسائل الفن . لا يعرف التعربد بالكلمات . زنديقا . ملحدا .
 حاقدا علن كل الارباب والانبياء . ذلك الذي أعلن بعد أن أوقف ذات يوم
 المطر عن النزول وقد انفتحت صنابير السماء .. « لا نبي بعدي ! »
 وكان ينطق باسم الحركة ولا يخفي ذلك . أما زعماء الدعوة فلم يكن
 يعثر عليهم ، اطلاقا . وكانت لهم ، زيادة عن كل هذه الصفات ، خاصية

التواجد في كل مكان ولا يسافرون الا على البسط التي تحركها الرياح . كان لكل واحد منهم تسعة عشر اسما . توقفت الدر فجأة عن سرد تاريخ القرامطة والقت نظرة ملؤها الشك في اتجاه مسعودة وقالت : « هذا الرقم يتعقبا على الدوام . فما رأيك ؟ » ثم انها شعرت بالحرع فحولت انظارها عنها « اكلمي ولا تتركيني أفكر في زوجك الغبي وقد مر أسبوع عن غيابه » ... كان رئيس تسعة عشر اسما مستعارا . وكان ينتخب من قبل الشعب ، على عكس حاكمنا ... يا للمهزلة ! ويتعين على كل مرشح لتلك الانتخابات ان يحمل الدكتوراه في الاقتصاد السياسي واجازة في الرياضيات . وقيل ان « الرازي » ذلك الذي ابتكر طب المستشفيات وفيزياء المواد الصلبة ، وعالج « بو حمرون » الحصبة واكتشف البوراكس ونترات المنغنيز ، هو الذي ترأس الحركة طيلة خمسة عشر عاما . ليكن في علمك بأن السلطة القرطية دامت أربعمئة واحد وخمسين سنة . وامتد اقليمها من اليمن الى مراكش . بينما كان الخلفاء في تلك الاثناء يستمعون الى قصة الف ليلة وليلة من أفواه اماء بالغات كن يغسلن مؤخراتهم بماء زهر البرتقال ! « كلا ، يا مسعودة ، لست وقحة . انها الحقيقة عينها . لقد علمنيها ابنك » . وتأكدت من أنه سيعود بموهبة جديدة تكنس مشرحة السينمائيين الاجانب الذين قضوا وطهرهم بعد أن قضوا على أدنى مظاهر العداء وسلبوا عقول المناهيين . وجعلت تنظر الى الاحداث من زاوية الخيال والقصة . وهكذا ، كان يا ما كان . لا أقصد شهرزاد ولياليها الالف بل حمدان — ما العلاقة مع حمدان عديم اللقب سابع فرد من افراد السلالة ؟ — قرمط واياه 164615 . تسعة عشر عاما بعد هزيمة الزنج ... قالت مسعودة : « كفي عن ذكر هذا الرقم ! لست أخشى عين السوء ولكن ... » في سنة 289 من التقويم الاسلامي تقاطر اشباه البروليتاريا من بلاد ما بين النهرين على المدن بقيادة حمدان قرمط واقاموا عاصمة حصينة تسمى السواد . كانت قلعة منيعة حقا ، تحطمت عندها جيوش الخليفة . وصعقت الحركة الثورية الامبراطورية العباسية الفارقة في عبر المسك . ولم يرحم القرامطة احدا . توزعوا في كل مكان . في العراق وسوريا وخراسان واليمن والبحرين . بنوا مدائن مزدهرة مثل السواد والاحساء والكوفة وسلمية . واستولوا على بغداد ثم اعدوا الاستيلاء عليها . واقرأوا الشيوعية . وكانت هذه في مراحلها الاولى بطبيعة الحال . واستعادوا التقاليد الوثنية الجيدة وطقوس الماء والحب . وسحقوا المحرمات

وعاشوا اللذة الى اقصى حدودها دون ان يكون لهم من هدف آخر سوى السعادة فورا وللجميع . وكان لهم فلاسفتهم العقلانيون من امثال اخوان الصفاء وعلماؤهم من امثال الرازي ومؤرخوهم من امثال المسعودي وشعراؤهم من امثال المتنبي . وقد أعلن هذا في فورة جنونه العارم وخياله الجامح بأن صياغة القرآن غير جيدة .

على ان الناس كانوا بعيدين عن الف ليلة وليلة التي لم تتجرا على ان تبرز شاعرا قادرا على ايقاف المطر ! . وجاوز الحادي ذاته . فقد ولد محرضا سياسيا واجبرت كلماته الباترة كل نظامي القصور والكتبة على الصمت . واحداث شرخا في اللغة واقتحمها ولونها بالفلون ، وجعلها تنزلق من فراشها ونفخ فيها من روح الجنون والهذيان . وكان رجل مبادرات أيضا ! فقد تزعم فرقة من القرامطة وصال وجال في بادية السماوة . ولم يكن يقسم الا بثلاثة أشياء : قوسه وقلبه وجواده . وقاوم جهرا وعلانية لكي يحسن تغطية القادة السريين . والقي عليه القبض سنة 322 واتهم بالزندقة . غير أن التعذيب زاد من حقه على السلطة . وبعد سنتين من الموت البطيء استسلم واطلق سراحه سنة 324 . واجتذبت السلطة اليها وهو منهوك القوى . وصار مادم الامراء الصغار والبورجوازيين الكبار قبل ان يعين شاعرا رسميا ببلاط مصر ! وخابت آمال مسعودة في المتنبي وصاحت قائلة : « لقد خان الثقة ! » اجل ! ولكن القرامطة استمروا بأقصى واصفى مما مضى مثل حجر الصوان والنار . غير أن المتنبي أنكرهم سنة 354 عندما احتلوا الكونة مسقط رأسه . واستعدت كلثوم لتخلف مكان « الدر » حتى تواصل جذب أنظار مسعودة التي قلقت لغيباب ابنها العاق ، وعملت على شد أنفاسها اليها لأنها أولعت بالحكاية . وكان محمد عديم اللقب قد عاد لتوه الى الدار ، فقالت الام لزوجة ابنها : « تحققى من سلامته » فأجابت كلثوم : « ابهامه الايمن لا يزال في مكانه ! — لو تعلم ما روته لي زوجتك . لا تحدثني أبدا عن الشعراء . فكلهم خونة . ما عليك الا ان تنظر الى متنبك هذا . كان من الافضل ان يستمر في ايقاف المطر بدلا من أن يعير صنيعه ملك زنجي ! » وتوقفت مسعودة فجأة وقد تذكرت طفولتها والخادمات الزنجيات والسكر المسروق ! وطيور السادسة مساءً وهي تحلق فوق الفناء المفتوح على سماء الله ! « لن تتغيري أبدا ! » انني احاول ذلك . ولكن حدثني عما فعلته خلال كل هذا

الوقت بالصحراء ! انت خائن أيضا . لقد فقدت البلدة صوابها .
والفراشات تولد ميتة . اختك حامل والحاكم يتبخر . والسينمائيون
يخربون الماخور كل مساء . وفضلا عن ذلك فقد عثروا على سندباد
مسكين يريد أن يمتطي بساطا طائرا . لقد مات بطبيعة الحال وهو
قطعة قطعة . كل هذا يذكرني باليوم الذي جيء فيه بوالدك ملفوفا في
ازار متسخ . وامتنع محمد عديم اللقب عن الرد . لقد كان على علم بكل
شيء لكنه لم يضيع وقته . وقد توصل بفضل التركيز من الحصول على
موهبة جديدة ، وصار قادرا على قراءة آية كتابة بأنفسه سواء اكانت
آرامية أم منامية أم عبرانية أم كلدانية أم سريانية أم بربرية أم مصرية .
وكان انه قادرا على ادراك الروائح التي تبعثها الحروف كلها . وعقد
العزم على التموهيه بهذا المكسب الخارق لكي يحول انظار المنامين عن
سراب السينما توغرافيا ويدفعهم على الانشغال لبعض الوقت الى ان
يستطيع تنظيم مقاومة مسلحة حقيقية ضد الغزاة . وكان أن استقر به
المقام في اليوم التالي على مقربة من مكان التصوير حيث تواصل اخراج
مشهد السندباد وهو يطلق فوق المدائن والبلدان والقارات بها في ذلك
قارة القطب الجنوبي التي تركت جزءا منها يباع في شكل جبل جليدي
الى ملك خليجية ليرطب به جو المنامة الخانق . واحاط محمد نفسه بأكبر
قفص صنع في العالم كله وقد ملأه بالعصافير والبيغاوات والكناريات
والكوكسرج والكاكاتويس والباباغاوي والكاميشي والزرابير وبالعثرات
من انواع الطيور الاخرى ، وجعل يتلو وسط جعجعة تصم الآذان
مخطوطا نبطيا جاء به اليه أحد الماكرين أملا منه في أن يفضحه ويضعه
موضع السخرية . وجلس ابن مسعودة الاكبر معصوب العينين وراح
يشم كل حرف وكلمة وجملته ، فاثبت أنه صادق في مزاعمه . وسرت
الاشاعة في البلدة في لمح البصر . وان هي الا دقائق معدودات حتى
تراحم أهل المنامة حول هذا الرجل ذي الانف الحساس . وخلا مكان
التصوير من العمال . في حين ان الممثلين الثانويين انبهروا كل الانهار
فضربوا بجذورهم في الارض لا يبرحونها ابدا . حتى التقنيون والممثلون
الاجانب تدافعوا وسط الخلق ليشهدوا هذا النابغة الذي لم يتنبأ بزوال
البلدة فحسب كما تدعيه مسعودة بل بنهاية العالم أيضا . وهي النهاية
التي تحدث عنها مفسرو الاسلام وزعموا انها واقعة في مطلع القرن
الرابع عشر . ولم يبق في مكان التصوير الا المخرج ومدير الانتاج لأن

المهندس الرئيسي انتهر الفرصة لكي يلتقط بعض الصور لعديم اللقب حتى يكون له السبق في بيعها للوكالات الدولية .

وتوقف تصوير الفيلم ثانية . ووصل الحاكم الى عين المكان ، على متن سيارة الرولز التي اخرجها من غلافها وزينها بفوانيس كهربائية تشتغل بغاز المستنقعات المنتشرة في بلاد ما بين النهرين . وتفنن في تزيينها فزود كوابحها ودواساتها المختلفة بمصابيح صغيرة مشعة تضيء لأدنى ضغط وتمكنه عند سياقتها بالآلة يشبك ما بين رجليه . وقد عرف عنه بأنه أرعن ومهووس كغيره من الاثرياء الجدد ، بالالعب والاشياء التافهة . ولجأ الى التهديد فما أعار اي واحد من الحاضرين اهمية للسيف البلايني الذي يحمله لأول مرة في حياته . وهو السيف الذي لم يسبق لأحد أن رآه الا على صفحات المجلات ذات الاهتمامات بحياة الملوك . وجعل يهز كتفيه الى أن اقترب من محمد عديم اللقب الذي شغل بتلاوة رسالة كتبها احدى المثلثات خلال الليلة السابقة بنية ارسالها الى زوجها . وما ان وقع نظره على القفص الهائل بطيوره المتعددة التي سمع الكثير من الاحاديث عنها ولم يرها أبدا حتى وقع تحت سحر الاوركسترا الخارقة التي سالت نفخاتها الربانية بمختلف النبرات لكل نوع منها . وخيل للناس انه سيطر بفعل الموسيقى الساحرة والالوان لكنهم فوجئوا لأول مرة بالدموع تترقرق في مآقيه . ثم ان المنامين المطبوعين على المروءة والرحمة صفقوا له . وتأثر ابما تأثر ، ثم وقع في شباك محمد عديم اللقب غير آبه بنظرات المخرج الحاقدة وبمحاولاته لاعادته الى رشده . وأخرج من جيبه رسالة قديمة من ليلى تعود الى الفترة التي كانت فيها طالبة بسيدني والصقها تحت انف ذلك الذي فض بكاره ابنته المدللة . واشتهر بمواهب أخرى رائعة مثل ظله الذي يحركه على هواه ، وجسده الممغنط القادر على كسر ضحكات الاطفال وقوقعة الدجاج وجعجة الرحى على مسافة اقصاها مائة وستة وستون مترا ، بالإضافة الى قدرته على استغفال والدته بتحويل هوية وجنس اشقائه وشقيقاته الثمانية عشر ، وإمكانية التحاور مع جده الذي مات قبل عشرين سنة ، وطريقته في سقي العذارى بالانداء الليلية دون حرمانهن من ذلك الكنز اللائي يحملنه بين المخمل والزغب ، واحساسه بالشرانق وهي تبلغ مرحلة النضج . . . وأسفرت القراءة الانفية التي قام بها محمد عديم اللقب عن النص التالي : « ابي العزيز . استراليا كبيرة والصحراء اوسع

ما فيها . دعاني استاذ الرقص الى العشاء في مطعم رفيع لكنني رفضت تناول الخمر المستورد من غير النامة . اعمل عشر ساعات يوميا ، وقد حققت تقدما مذهلا حسب أقوال رفيقاتي اللاتي يغرن من جمالي أولا ولأن أبي حاكم ثانيا . لا ينبغي أن ترسل لي هذه المبالغ من المال فأنا لا أدري ما أفعل بها . يجب عليك أن تضعها جانبا في حالة ما إذا أبعدت من منصبك ذات يوم . انك لم تعد تعطيني أخبارا عن يوبا الثاني وآمل أن يكون في صحة جيدة وانت أيضا وامي العزيزة . مع قبلاتي وحناني الكبير . ليلي بندرشاه . طالبة في الرقص الكلاسيكي عند الاستاذ فاسيلي فاسيليف » . وانهر الحاكم ، فأراد أن يطبع قبلة على عديم اللقب لكن هذا قفز من مكانه وأزاح العصابة التي تغطي عينيه وقال : « لقد سبق لوالدتي أن اتهمتني بالخيانة لأنني تغيتت عن الدار اسبوعا واحدا . فما الذي يكون عليه أمرها ان هي علمت بأنني سمحت لبندرشاه بأن يقبلني ؟ ودار الحاكم حول نفسه وغادر المكان وهو يبكي بدموع حرة . وعاد الى بيته وانطرح في الفراش . ولأول مرة في حياته أبرق بواسطة الاشارات الاعتيادية الى صهره طالبا منه أن يرسل له عشر أنابيب من أقراص الاسبرين . ذلك أن هذا الدواء غير موجود بالنامة حيث اعتاد الناس على مثل هذا النقص .

ولم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بأوجاع في الرأس ، منذ أصيب البعض من المناميين بالانبهار ، وأغمي على البعض الآخر . ولم يحدث ذلك بسبب المعجزة التي شاهدها لتوهم بقدر ما كان بسبب الصخب العجيب الصادر عن طيور محمد عديم اللقب . وظل هذا يعرض طريقته الجديدة في تحسس الكتابة واستثارة طيوره بالصوت المنبعث من قراءاته الأنفية . وتحولت البلدة كلها الى قفص سحري هائل يضم موسيقى العالم أجمع . وضم مربى الطيور جهودهم الى جهود عديم اللقب ذي الخوارق المتعددة حتى لا يظلوا على هامش التاريخ المندفع قدما الى الامام على الرغم من جموده الظاهر . ثم ان سمعة النامة كصندوق موسيقى عجيب حلت محل سمعتها كبدة وصف فيها ابن خلدون عظمة وتدهور الامبراطورية التي بلبلت رقعتها الواسعة مواقيت الساعات والاجواء والخطوط المتوازية . وكان البيروني العالم النابه قد تمكن من قياس تلك العناصر كلها بواسطة اسطرلاباته ، ثم انه كان أولا من كشف عن ذلك الخط الوهمي المسمى بخط الهاجرة . وانهالت الدعوات

على محمد من كل جانب فلم يعد لديه حتى الوقت لحلق لحيته . على انه ، وهو الذي ابنى الا ان يكون انظف الناس ويحافظ على سمعته امام فتیان الفريق السينمائي ، لجأ الى معارف الاسكافي المتعددة ، فنزع عنه هذا شعره بواسطة موسى دون ان يستخدم أي صابون . واغتاضت مسعودة لذلك : « لم يعد لديه حتى الوقت لكي يأتي ويتناول طعامه في البيت . ايظن بأنه يحمل البلدة كلها على كتفيه ؟ اذا كان هؤلاء الناس قد رضوا بأن تنطلي عليهم الحيلة ، فأنني لا أريد لابني ان يتغذى بأطعمة اشك في كونها طازجة . ايلعب دور المهرج وانا أملك أجمل حديقة للخضراوات بالمنامة ؟ » . وعبثا حاولت ان تثنيه عن رأيه ، فما عاد الى البيت . بل قبع في نفس المكان واراد ان يدفع السينمائيين على القرف متهما اياهم بأنهم قدموا الى المنامة عمدا لمساعدة الحاكم على انجاز مآثرته في وقت يفغر فيه الناس أفواههم امام خوارق آلاف الابطال من الف ليلة وليلة . على أن الحاكم كان خارج الحلبة ولكن بصورة مؤقتة . ثم ان اقراص الاسبرين التي طلبها من ملك خليجية قد تكون مجرد حيلة اضافية او اسما مشفرا لتعيين شيء آخر . وعلى اية حال ، توقف اخراج الفيلم ، وظل الاجانب مشدوهين بخوارق عديم اللقب الذي كان في البداية مولعا بابن خلدون . واحس أشد افراد فريق السينما تعنتا باقتراب العاصفة . واستعدوا لمجابهة المخاطر ، بل انهم ارادوا تبين الحقيقة فما انفكوا عن تقليب صفحات التقارير السرية التي ارسلها الحاكم الى مسؤولية أيام كان الرسام البلوداني موجودا في قصره . وقالت بعض الاشاعات بأن ذلك الرسام قد مات ودفن في مقبرة اسلامية في حين قالت أنباء أخرى بأنه لا يزال على قيد الحياة وهو يضطلع بمهمة جديدة في مكان آخر . وواصل الامريكيون مضغ كميات ضخمة من الشوبنغوم ، وانتوا اغتيال ذلك المهرج الجريء الذي بدأ يقض مضاجعهم بحجة أنه ولد منفردا في حين ان اخوته ابصروا النور اثنين اثنين ، وبحجة أنه ذو حس خارق مكنه من التحايل على ظله وجعله امامه دائما وأبدا بفضل معرفته بقوانين الفيزياء الشمسية . ولم تعد بالمنامة سلطة ، في حين ظل الحاكم ينتظر دواءه . وانهمك عديم اللقب في اشغاله على هواه . وتعطل اخراج الفيلم . بل ان بكرات عديدة منه فقدت منه الى الابد . وفرضت الطيور أهواءها . ولتستكمل الهزلة فصولها غادر المشعوذون المعتادون والذين يزعمون التطبيب ومروضو الحمايم والمجانين بحب الله والقوالون منبسط الربوة والقوا رحالهم الى جانب

عديم اللقب . وباعموه على الوفاء والولاء . وانتخبوه دفعة واحدة ملك الحيلة والعبقرية والتحليل . حتى النساء المتوفزات توقفن عن حزن الشرائق في سراويلهن . وهب على المنامة نسيم قادم من عالم آخر ، وريح جنونية لطيفة بالغة اللطافة . وجعل الحوت المعلق يتماوج وانتفخ ورق الالومينيوم وبرزت احديدابات وثقوب على صفحة الورق الصقيل . وفجأة احسست كلثوم التي غمرها السرور بذلك النصر بمنطقة من الصفاء ترتسم في اعماق اضطرابها . وجعل ابطاها يتاكلانها ، وعلى الرغم من انها كانت تزيل الشعر عنها يوميا ، فقد زحفت عليها جزوة سوداء في نهاية النهار وتدلّت على جانبيها . وانتبهت مسعودة للامر فتذكرت الفترة التي ازدرت فيها بالحاكم فتركت شعر فرجها ينمو بسرعة اضطرت معها الى ان تضفره كل يوم . على ان ذلك لم يكن كافيا بل اضطرها الى ان تلبس عددا من السراويل الفضفاضة من الكتان البحري ورثتها عن سلفها مصطفى قرصاني . وعرفت « الدر » كيف تؤول هذه الظاهرة : « اننا ندخل منطقة اللايقين . وهذا دليل بأن العاصفة وشيكة الوقوع . وعلى أية حال ينبغي استعمال مبيد ناجح من مبيدات الحشائش الطفيلية » . وارسل « حمدان » لشراء كلورور الحامض الكبريتي وتم خلطه بمستخلص الكبريت الاميني ونجح الدواء المستقطر في التخفيف على كلثوم فورا وفي وضع حد لجزوتها التي بعثتها على الخجل .

لم يختار المعلم « بريي » الا فترة الازمة والجنون لكي يدل على وجوده . جاء ليودع طبله العجوز المعلق ، وقد جفت عيناه وقست نظراته . واستعد لمغادرة المنامة بحثا عن عمل في مكان آخر . فما عاد احد يحتاج الى خدماته ولا الى طبله الذي صار مزقا مزقا دون ان يتمكن من اصلاحه . المهم في الامر هو انه كان بصدد الاغتراب . وتذكر المناميون وهم مأخوذون بخوارقهم وسحرهم ان هناك عالما خارج المنامة يمكن للانسان ان يعيش فيه وباستثناء هذا التصحيح الذي بدر عنهم ، فانهم عارضوا مشروع البراح السابق والصقوا به تهمة الخيانة دون ان يتجرأوا على التلطف بها . على ان مسعودة اقترته على رأيه بقولها : « سوف يوجد شخص على الاقل ليشهد ذات يوم بأن هذه البلدة وجدت حقا ! سوف يفرقنا الطوفان . انا اعرف دخيلة الحاكم على الرغم من دموع التماسيح التي ذرفها يوم ان قرا له ابني بأنفه رسالة ابنته . انه

منشغل بتبسيط شيء مع الاجانب . أدنى ملاحظة منا تدلنا على ان الحيلة تنطلي دائما على الناس الشرفاء . حتى هؤلاء القرامطة الذين حدثتموني عنهم لكي تخففوا من حيرتي ، صمدوا اربعمائة واحد وخمسين سنة لا اكثر ولا اقل » . ذلك هو السؤال بالذات الذي راود عقول الناس . كم من الوقت سنصمد . وتم تأويل ذهاب المعلم «بربي» على انه بداية هروب ومشروع تهديدي للهجرة الجماعية . غير ان الطليعة السياسية في البلدة راحت تقرر الابواب . ثم ان علاوة الاحمر ورشيد بناصر وجيلالي بو حدبة وعلي الفقيه وتوائم عائلة عديم اللقب من جهة و « شجرة الدر » وكلثوم بندرشاه ومليكة بناصر المولودة عديم اللقب والتوائم الاناث في عائلة عديم اللقب من جهة ثانية انبثوا في اماكن حساسة من البلدة . البعض منهم لدى الرجال والبعض الآخر لدى النساء . وقدموا شروحا عن الخطر الذي يهددهم والهبا مشاعر المناهين ، وحولوا الحملات الى فرن سياسي وجعلوا المساجد تغلي بالثقافة الثورية بموافقة من الامام الذي ضم صوته من حيث لا يدري الى الافكار التقدمية ، وصارت ساحة الطيور مهرجانا دائما نوقشت خلاله مسألة بقاء المنامة على قيد الحياة ، بالاضافة الى ضرورة وضع حد للاغتيالات اليومية ولحوادث العمل المتعمدة والحيلولة دون تحقيق الحاكم لمشروعه وتوطين الاجانب . وأدرك الجميع ان شقاءهم ذاك ، راجع الى تلك الفكرة الجنونية في استنزال المطر الاصطناعي ، واستقدام الجبل الجليدي عبر بحار الشمال والجنوب والمحيطات وهو الامر الذي يعجل أيضا بحدوث التقهقر في المستقبل القريب . وعلم اهل المنامة ان فتحة واسعة توشك ان تحدث في هذا العالم الغافي الذي يحملونه في دخائل نفوسهم وان ثغرة الصفاء ما انفكت عن التوسع . غير انهم سمروا ابواب الشك ونوافذ الخوف والندم . وعلى الرغم من الرغبة التي استبدت بهم في اتباع المعلم « بربي » فانهم عقدوا العزم على البقاء بالمنامة والصمود وعدم التنازل عن موقفهم قيد انملة . ثم انهم قرروا حماية محمد عديم اللقب من الانتقام والقمع والثار والشرور . وانتشرت في البلدة ملحمة القرامطة التي روتها « الدر » ذات يوم على مسامع مسعودة لكي تخفف قلقها على غياب ابنها المتواصل ، وبادر نحات مجهول الى نصب تمثال من الجبس لحمدان قرمط في قلب ساحة الطيور ، ونصح المعلم علي الفقيه تلاميذه في اطار من السرية التامة بان يمتنعوا مؤقتا عن مطالعة الف ليلة وليلة ، واضطلع بدوره في حراسة خصمه السابق الذي نافسه طوال سنوات عديدة في التجارة

برسائل الحب والغرام . ولم يعد الماضي يلقي ظلاله عليها وتأخيا من جديد . وأرادت كلثوم ان ترى الحركة منظمة على الدوام بعد مرحلة العفوية والاضطراب . فدرست كتب اخوان الصفاء دراسة جدية وتحليلات حمدان قرمط حول حركته ، والوقائع التي أوردها المسعودي والطبري وكبار الاختصاصيين في تلك المرحلة الثورية . وأبدت « الدر » موافقتها فبعثت رسالة سرية الى محمد عديم اللقب بواسطة حمام مختم تخبره فيها بأن الوقت قد حان لحصر هذه الحركة الشعبية وتنظيم شعب المنامة والانتقال الى العمل السري . وذكرته بأن عليه في حالة موافقته على تزعم الحركة ان يعد اطروحة في الفلسفة السياسية مثلما يقتضيه العرف عن القرامطة وان يفكر في عشرة اسماء مستعارة قد يحتاج اليها للتمويه على مصالح الشرطة .

وعندما فرغ عديم اللقب من فك رموز البرقية المشفرة وقراها بعينيه لأنها مكتوبة بعلامات ضبطتها زوجته لأول مرة ، أدرك ان كل ما هو مكتوب سوف يخدم الاجيال القادمة على الدوام والاجيال التي تليها وهكذا الى ما لا نهاية . اذ جاء في تلك البرقية ان الثورة ليست لعبة ولا قضية عرافين حبتهم الطبيعة بمواهب خارقة ، بل هي ضرورة تاريخية رهية تحتاج الى الصرامة والى الوضوح الليلي لكي تنتصر انتصارا نهائيا . ويشترط فيها أن تعيد النظر بنفسها باستمرار وتفحص اعماقها بانتظام وتراقب ذاتها بالدقة التي يعتمد بها الساعاتي الى تنظيف وتشحيم ساعات مسعود الجدارية الصقلية . وأزاح الابن الاعجوبة تلك العصبية عن عينيه ، وطوى كرسيه الصغير المصنوع من الكتان وعاد الى بيته . وكان قبل ذلك قد طلب من مريديه الا يهونوا وأوضح لهم بأنه عائد عما قريب لأنه أحس بالحاجة الى التأمل والى استشارة اصدقائه . ومضغ المخرج قطعة السوينغوم بأعنف من ذي قبل ، أما مدير الانتاج فاكل سيجارتين مشتملتين دون أن يتخذ حذره فيطفئها . وتوقفت الف ليلة وليلة كأن الكواكب تحجرت ، وروى جبالالي بوحدة في نفس العشية بأن مسح الله المنجم الذي اختار موقع بغداد كمدينة قد زاره في الحلم ووعد به بان يديم الليل على المنامة الى أن يغادرها الكفرة . ذلك أن صلب المشكلة انما يتمثل في ذلك الضوء الذي اشتهر عنه بأنه أنشط ضوء عاكس في العالم كله . وأرسلت كلثوم الى أبيها لتطلع عما اذا لم يكن مرضه مجرد خطة فوجدته طريح الفراش ، يتقيأ العقارب وغيرها من الزواحف السامة . أما والدتها

فكانت تتعشى وحدها ، وقد جلست الى طرف الطاولة المستطيلة التي اقتلع حراس الحاكم رخاها من قبور الجبانة الامريكية عندما طوى المستعمرون عدتهم وعديدهم وتركوا وراءهم امواتهم الذين لم يعودوا يخشون شيئا ... عدا ان يعتمد الحاكم المهووس بالاشياء القديمة الى اقتلاع شواهد القبور ويضمها الى حاجاته الاخرى من أحواض السردين والسك الطائر ، وزهور النيوفر المصنوعة من الزنك والورق واقتبية الاموات الرخامية التي تأكلتها ايام الارواح الشاردة ولياليها . « انه مريض حقا ! » تلفظت الام بتلك الكلمات وهي توقف لأول مرة في حياتها مروحتها الشخصية الصغيرة التي تحطم عليها العديد من الحشرات الليلية . « يعذب نفسه لأن صهره رفض ان يرسل اليه اقراص الاسبرين . فهو الآخر يعاني من اوجاع الرأس حسبما تقوله رسالة أختك » . وجعلت تنقب صحنها دون ان تكف عن الحديث . وتنش ذاكرتها كأنها هي تولد من جديد لا في الحياة بل في شيء مماثل . « ابقى معي قليلا . فلن يموت أبوك بهومه هذه الليلة . الا تريدان البقاء معي ؟ لقد مضى علي زمن طويل لم تراودني فيه الرغبة للتحدث الى أحد . سنتعشى سويا . ينبغي انتهاز الفرصة ! » . واستجابت كلثوم لطلبها الحائر . وشعرت بما يشبه الاندفاع نحوها لكنها كبته خشية ان تقلق والدتها لهذا الدفق العاطفي المفاجيء بعد ان أوقفت محركات الحنان . واستقر بها المقام بالدار بضعة ايام تخللتها علاقات بالغة العناية كأن زوجة بندرشاه في طور النقاها بعد تماثلها للشفاء من مرض عاطفي . وكانت الاتصالات بينهما خاطفة كأنهما تتعلمان اتیان الحركات المعبرة في كل يوم . بينما راح التقارب بينهما يبعث الابنة على الرعشة المفرطة ويدفع الام على اطلاق العنان لدموعها الخرساء . ولأحظنا معا ان الواحدة منهما لا تعرف الاخرى وأنهما تعيشان سعادة مصدرها هذا اللقاء الجديد والفوران العاطفي المفاجيء . وتراوحت خطواتهما هادئة خفيفة لا تكاد تلامس الارض ، وجعلت كل منهما توصل الباب وراءها في هدوء مصطنع زاده التواطؤ فيما بينهما غرابة على غرابة . وكثيرا ما كانتا تنفجران بالضحك عندما تتصنع احدهما الاين في غرفتها لكي تجذب الانظار حول عزلتها الرهيبة . ثم ان الواحدة منهما حدثت في الاخرى وقتا طويلا : « انت ابنتي ، وانا لا اكاد اعلم ذلك . لآسترايا ضلع في هذا النسيان وكذلك قصة الابهام الذي يسبح في الفورمول ! هل تحمليه دائما في البوقال ؟ بلى ! ما أغباني وصمتت كلثوم وتركتهما تتحدث . لقد أخذت الى الصمت فترة طويلة .

ولاحظت ان والدتها استعادت شيئاً من حيويتها الغابرة كأنها تحررت من ثقل كبير . ومع ذلك فقد ظلت تفتقر الى شيء ما حتى تنفجر في ضحكاتها وتتخلص من قحط السنين الذي اختزنه في صدرها . وكان من المحتم عليهما ان يتحدثا عن « مسعودة » وعن شجرة الزعرور التي تحمل بين أغصانها أرواح فزاع في العالم . « اليس ذلك الفزاع على صورة أبيك ؟ — كلا ! ولكن له مكانه في الحديقة ! » وفي ليلة اليوم الثالث همست الام في اذن ابنتها بصوت لا يكاد يسمع : « تظنين أنك تفهمين كل شيء . لقد كنت مثلك قبل زواجي ، ولكن هناك أشياء عديدة لا تدركينها . فأنت غارقة في الحب ، وأنا معجبة بقصتك ... » . وظل الحاكم طريح الفراش ينتظر الرد من صهره في حين تواصل اضراب الممثلين الثانويين وتيبس الديكور بهواء البلدة اللافح . وارادت كلثوم ان تتعرف على هذا السر الذي لا تزال تجهله ، وما أسرع ما قالت لها أمها وكأنها ترغب في التخلص من شيء قديم حملته طويلا : « انك تجهلين ان مسعودة قرصاني وأنا أختان بالرضاعة ! » .

عندما حل « بندرشاه » بالمنامة قبل عشرين سنة بتعيين رسمي مغلف ومختوم بالشمع الاحمر ، أصيب بالخيبة من فقر البلدة ومن قبح موقعها ومن عقول أهلها . ولم يجد مكانا لجولته اليومية أحسن من ساحة الطيور بأشجارها الفريدة من نوعها . فالتربة مشققة والارض مليئة بالحصى كأنها مشهد قمري ، والغبار يلتصق بكل شيء ، ثم ان مظهر البلدة المقفر دفعه الى النفور منها حتى انه كلما أراد المشي بعد الغداء ، التجأ الى المقبرة الامريكية ، اهلب واخصب مكان في الناحية . ولم يعد أحد يتذكر تلك الحرب التي نشبت بين الطرفين ، ومع ذلك فقد وجدت بالمنامة مقبرة امريكية يظل عشبها مخضرا طوال السنة ، وتسطع ازهارها وتلتف اشجارها فيما بينها وتظهر قبورها مرصوفة في خط مستقيم وقد تغطت بالرخام الرائع ، مثرة في نفوس الذين تقودهم خطواتهم الى ذلك المكان رغبة ملحة في الموت فينتهزون فرصة ذلك الهدوء الذي ينعم فيه الحارس الوفي المنضبط . على ان بندرشاه ، منذ زيارته الاولى المقبرة ، رسم في ذهنه مخططا للدار الضخمة التي بناها فيما بعد . ذلك ان منظر القبور الرخامية ذوات العروق الوردية الباهتة والفضائية ، بعثت فيه الرغبة فورا على أن يضع في قاعة الطعام طاولة كبيرة قادرة على استقبال خمسين مدعوا ، ويغطي أعلاها بصفحة من تلك المادة النبيلة . وأثناء البناء ، جعل يرسل في كل ليلة عددا من صنائعه لكي يفككوا قطعاً من رخام القبور الى أن تمكن من صنع تلك الطاولة الفخمة التي تجتمع العائلة حولها يوميا لتناول طعامها وكذلك وجهاء المنامة أيام الاستقبال . فلا ليلى ولا كلثوم عرفتاً مصدر ذلك الاثاث الرائع ، غير أن

الوالدة المطلعة على السر سرعان ما أصيبت بفقدان الشهية . ومنذ تلك الفترة راحت تعبت بالطعام الذي يقدم اليها بدلا من ان تأكله وخبث شعلتها شيئا فشيئا بنوع من الكتمان الذي تمليه طبيعتها . وقد اطلعت كلثوم على مصدر رخام الطاولة الكبيرة خلال تلك الامسية التي كشفت لها والدتها عن رابطة الرضاعة التي تجمعها بمسعودة . وبالفعل ، كانت تلك الطاولة بحجمها الهائل تحتل قاعة الطعام بأكملها . وجنت كلثوم من الفيظ وفاضت شفقة على أهلها بعد ذلك الكشف المميت ، فجاءت بمطربة وانهارت ضربا على الرخام . ولم تتوصل حتى الى خدشها ، لكنها ظلت تكيل لها ضرباتها الى ان روعت والدها فنزل من غرفته ودخل القاعة . وارسل تنهيدة متناقلة وهو يرى ابنته وترك هذه الكلمات ثقلت منه : « انه رخام أمريكي ، فاضربي ما شاء لك الضرب . انه اصلب من الحديد واشد عنادا منك ! » ثم عاود الصعود الى الغرفة لينام . وتجمدت أوصال كلثوم من الدهشة فأقلعت عن الضرب ثم تهافت على كرسي . وأرادت والدتها ان تهدىء من روعها وحاولت اقناعها قائلة : « انهم لا يتركون مجالا للصدفة . تلك هي القوة ... ولن تتوصلني للقضاء عليها بمثل هذه السهولة . ومحمد عديم اللقب سيكون بالغ السذاجة ان ظن في نفسه القدرة على بلبلتهم لمجرد انه يحسن القراءة بأنفه ! » وهل في مقدورها ان تجيب بشيء على مثل هذه البداةة ؟ لكنها لم تعرف الى الراحة من سبيل الا عندما حصلت على موافقة منها بالذهاب لزيارة مسعودة وتحقيق مصالحة انزاحت كل عوائقها .

حين غادرت كلثوم امها لتعود الى آل عديم اللقب ، عرجت على مكان التصوير لتتأكد من ان الحوت لا يزال معلقا في مكانه ومملوءا بالهواء دائما . وابصرت به تحت شمس الاصيل المحمرة يتأرجح عملاقا باعنا على القلق ، في الفضاء الذي مهدته الطيور بأجنحتها ، حيث يزيد الشفق من انفجارها الجنوني . ولاحظت ان الحوت يتصلب شيئا فشيئا وقالت في ذات نفسها بان الريح سوف تمزقه على مر الايام . انه صلب حقا صلابة رخامهم ودباباتهم وطائراتهم ! وراودها الاحساس بانها قد طعنت في السن . كانت في العشرين من عمرها وما أسرع ما شعرت بان نهديها يتراخيان رويدا ، رويدا . انني اشبه الحوت تماما . وسوف يهد الحزن جسدي . لا يمكن ان نحب بلا عقاب رجلا له أربعة توائم ومواهب خارقة وعينان بلون الخضرة المائية تفرق فيهما عاشقات العالم كلهن . ساموت عائسا . سوف

تعيد أُمي علاقتها بمسعودة ، فلم تكن تنقص إلا مهزلة الانفصام هذه ! وهذا يعني أن الأخوة عديم القلب هم أبناء خالتي . أحمد الله على أنني لم أتزوج بحميد والا لكانا أنجبنا كاميشيات معتوهة مصابة بداء التعلق بدلا من توائم جميلة . وعندما مرت بالقرب من قلب البلدة بصيص لها التقنبنون الأجانب الذين انطرحوا أرضا ليشرّبوا البيرة التي جاؤوا بها . لكنها لم تغضب لسببين . أولا : استدلت من ذلك أن الاضراب لا يزال قائما . ثانيا : أدركت أنها الوحيدة التي تخرج إلى الشارع وتعود إلى البيت كيفما شأنت ، ثم أنها على وجه الخصوص لا تحمل حجابا من الحرير الخام على غرار النسوة المناميات اللائي يحدث لهن بين الفينة والأخرى أن يغامرن خارج دورهن تاركات وراءهن أطفالهن وشرانقهن . وكلثوم هذه تجهل أسباب المضايقات وأشكالها . حتى أن بعض الفتيات شعرت بالحاجة إلى تقليدها . فقد علمها عجزها عن امتلاك أي شيء من محمد عديم القلب سوى إبهامه الأيسر أن تكون صابرة جلودا . وسوف تفتتح النسوة على المستقبل عندما تنطلق الحرب التحريرية ، أما الرجال فلن يقولوا شيئا لأنهم سوف يكونون غهاب السجون . وصار كل شيء ممكنا في المنامة الآن بعد أن علمت كلثوم أن لم يحدث لقاء بين أمها واختها بالرضاعة منذ زواج كل واحدة منهما . وأدركت أيضا أنها تناولت طعامها بشهية كبيرة طوال خمسة عشر عاما على طاولة تيبست الجثث تحتها ! لعل تلك الجثث قد انفجرت أول الأمر وسالت عفونتها ، وتمازجت أوصالها بأمخاضها المتراخية محدثة صغيرا أشبه بصغير القدر التي لم تعد قادرة على التغطية . يا للرعب ! السقطة المتراخية ليست صرخة بالضرورة ، بل هي إحساس لذيق بأن الإنسان يغرق في عوالم الهذيان . وجثث وجب أسدال جفونها على عيونها الجاحظة المبيضة التي تتناقض ألوانها مع بشرات الخدود بعد أن زحفت عليها الزرقة ، جثث استمرت لحاها في النمو كثة غزيرة إلى أن لفظت الأمعاء كل السوائل التي كانت قادرة على لفظها . وأدركت كلثوم حينذاك أن هؤلاء الأجانب قد ينتهي بهم الأمر أيضا في مقبرة مثل سواهم . ما أشد بطر الإنسان وهو يضع زجاجة البيرة بين شفثيه ويغري النساء بنظراته ! وفكرت في تنفيذها الذي قضى نحبه . أمن الحزن ؟ حتى هو ! علي أن أربي قنفذا آخر بدلا من أن أتحمل مشقة الذهاب إلى ملبورن . والذي ؟ صعلوك ! مهرج منفوخ بالفقايع . وبإسلام التونجستين التي تنسج أفكارا غريبة تحت جهيمته . والآخر أيضا . صعلوك . محمد عديم القلب ... لماذا لم تحبني ؟ أنت مجنون أيضا . والفارق الوحيد بينكما هو أنك أقوى وأصلب .

ثم ماذا عن ابن خلدون ذلك الذي علمك اشياء كثيرة ؟ لك ان تبحث ما طاب لك عن المكان الذي عاش به في المنامة . لقد تزوج بها . انجب طفلا وطفلة . ثم عاود الانطلاق . بجاية . تونس . القاهرة . تاركا وراءه زوجته وطفلين في البلدة . تلك هي العادة المتبعة في ذلك العهد . يا لحمد المسكين ! ... افضل ابهامك داخل البوقال بدلا من جنين محبب مصنوع بمنيك السميك المتماسك ! وانى يكون لي أن أضعه ؟ في أنبوب من أنابيب الاختبار . كلهم مجانين . « رشيقة » هي الوحيدة التي أحكمت ضبط أمورها . انتحار رهيب . خاطت نفسها داخل كفنها . الشطارة نفسها ! لا يبدو على مسعودة أنها تفكر فيها كثيرا . لقد بدأت تفقه أمور السياسة وهذا غريب عند عجوز في مثل سنها . أهذي ثم أهذي وتمرغي في الهذيان ! سوف احتفظ ببوقالي هذا . فهو التعبير السقيم السبخ عن صبابتي وفشل حبي . لم أعد أذكر الا الطيور وهي تشعث أرياش بعضها . ثم الحبر ! ضخات بنفسجية تتصاعد الى رأسي . مغبورة . سعيدة . مفترعة أنا ! وددت لو أنام في رائحته ، لكن جاءت الأخرى ... أتعس ما في الأمر أنني أحبه ... قادرة هي على أن أتناقسه معها ... لكنه لن يقبل ذلك أبدا ! انه عاشق وعندما تحبل زوجته لا يعرف النعاس طريقا الى جفنيه ... يرتعد خوفا من معاكسة تقاليد عائلته . أبي هو المخطيء ... آه ، لو انه لم يتسبب في انخفاض نسبة المواليد بمسبحه الاولبي عندما يملؤه كل صباح بمياه تفتقر اليها البلدة منذ أن بنيت ! يا للغبى ... لا يعرف كيف يسبح . لقد أراد التباهي والتخلص على عجل من رائحة السردين الغريض . حقا الوصلية مرض طفولي منتشر بكثرة في مناطقنا . ما على أهل المنامة الا ان ينظروا الى مساحته : خمسة وخمسون مترا من الطول . وقرية عطشى ... الماء مقطوع خلال النهار . فانقلبت العادات والمواقيت واصبحت النسوة محرومات . وهكذا تفتشت ممارسة العادة السرية . من الجانبين . لكن مسعودة قررت انجاب توائم . وفتحت صناديرها . وخشي ابنها الا يصيب الهدف . فضلا عن انه تعذب العذاب الشديد بسبب مولده منفردا . حبيبي . هو ذا المساء يطلخ بصفرة الزعفران . ولن تنجب توائم أبدا . أنا اقل حيلة من « الدر » . ومع ذلك نكون قد تجولنا خلال تلك ، عندما تخرق طيور المنامة جدار الفضاء ، فتجمد ساعات أمك الصقلية وقد صعدتها الذهول .

في دار عديم اللقب : ثوران وجيشان . الاطفال يمتنعون عن الذهاب

الى فراشهم قبل ان تروى على مسامعهم قصة علي بابا والاربعين لصا .
 فهم يحبون الشعور بالخوف . الدر وحدها بقيت متصلة . فهي ترى ان
 « علي بابا » هو اللص الحقيقي ، وليس هناك من داع الى قلب الادوار .
 حينذاك يرتفع صوت مسعودة صافيا ليفرض الطاعة التامة . يحبها الله
 والجدات اللاتي لا يستطعن تحمل التوائن من اطفالهن حين انقضاء
 النهار . وعادت كلثوم وهي بين اليقظة والنوم وقد ضاقت عيناها .
 واقتيدت الى كرسي ، فابتلعت دموعها وحبا وكسوفاتها . « لم يلمس
 احد بوقالي ! اليس كذلك ؟ » وكان البوقال قد ظل ثلاثة ايام بدون ان
 يتغير سائله . وكاد الابهام اثناءها يتفتت فتحدث القيامة ان لم يندفع
 الطوفان الذي خرب احشاء المنامة . وتصعد كلثوم الى غرفة التوائن
 حيث يوجد سريرها . وتنظر تحته فتبصر بالاناء . شعرت بنفس التوفز
 في احساسها كلها عمدت الى تبديل سائل الفورمول وتناولت بين يديها
 ذلك الابهام الذي انقطع عن اصله ذات يوم من ايام الحنان الطاغي .
 الابهام يقبع في صدارة عالمها المجنون . وهو الدليل القاطع على جبن
 الرجال . لا علينا . بينه وبينها ذلك الوشم الذي يجري من اعلى جسد
 « الدر » الى اسفلها . محظوظة في ان تحمل اسم الملكة الوحيدة في
 الامبراطورية الاسلامية . اما انا فأحمل اسم مغنية معاصرة انتهى بها
 الامر الى ترديد الغناء التافه بعد ان بدات بالقصائد العصماء التي دفعت
 بالبلوغ الى حلقها . وحين انطرح الاطفال داخل فراشهم ، راحت كلثوم
 تفرك بوقالها بمسحة حديدية صغيرة . انها لا تمتلك مفركا بل ذاكرة
 حقيقية . الكل يريد لها ان تتخلى عن رقبتها المنحوسة . وها هي ذي وقد
 بلغت العشرين تتلقى طلبات الزواج في حين انه كان من المفروض ان
 ترسل الى والدها فيها مضى . معلم البلدة هو الذي دبج تلك الرسائل
 حتى يتمكن من سد حاجاته ويخلق جوا من الشاعرية يستنشقه تلاميذه
 ملء رئتيهم . « ردوا من بعدي ! » لا بد لكل شيء من بداية . لكن
 بينها وبينهم الخطاب . وتتراكم الحواجز بما فيها الاشياء والمشاعر :
 بوقال زجاجي ملوئ بالفورمول . ومسحة حديدية صغيرة . تهاول
 مرسومة . ثم خوفها من الاماكن المظلمة الموصودة أو الفائض من الحرية
 وفلسفة القرامطة ولور الخضرة المائية والابهام الذي يطفو وسط
 اليأس . فالى متى كل هذا ؟ وعرفت أو لعها قالت لنفسها بأن يوما ما
 حقا سيأتي ، وستعطي الابهام حينذاك الى السلحفاة الطاعنة اللتين
 جاءت بهما مسعودة من دار والديها مع الساعات الصقلية التسع عشرة

واليامات الثلاث . فمتى يغزر المطر وينزل الشتاء ؟ غير انها سمعت الام ترفع صوتها : « انا امنك من ان تقصي عليهم حكاية علي بابا والاربعون لصا .. ولكن حاولي ان تتجني قصة الزنج كذلك ... يا للفظاعة ! ادمغة بشرية تقولب في شكل اصص ليليه ! كلا والف كلا ! فليصوا ابهامهم ويناموا هادئين مطمئنين ... ان التاريخ مزعج ومخيف ... كفاية هذا الشقاء ... » حينذاك تسرع كلثوم الى وضع ابهامها الذي يسبح في محلول الفورمول داخل البوقال الزجاجي جانباً ، خشية رد فعل مفاجيء من طرف مسعودة .

تواصل الاضراب في حين ان آلات الارسال والاستقبال اللاسلكية ، راحت تنطن بجعجعتها ما بين المنامة وعاصمة خليجية . واشتكى الاجانب من سوء نية اهل البلدة ومن الكسل المتاصل فيهم ومن روح التشويش الطبيعية عندهم . واستعان محمد عديم اللقب بشقيقه محمود وامحمد وبصره الساعاتي ، لصنع جهاز تنصت بواسطة علب الدخان المنشوق ، بعد ان افرغها من محتوياتها وثقب اطرافها وربط فيما بينها بسلك موصل . ونصب هذا الجهاز الغريب فوق دار الحاكم سرا لان تلك الجعجعة المتناقلة كانت تنطلق منها . واستأنف « فكرون » تجسسه واحسن عمله هذا . واغلق زعيم المقاومة على نفسه لكي يمازج هويات أشقائه وشقيقاته بعضها بعض ، لانهم كانوا يتشابهون فيما بينهم تشابها مذهلاً ، وان كان كل واحد منهم يتحایل على ان يحتفظ على الدوام بخاصية من خاصيات طباعه او بلون شعره او بعلامة تدل على اثوابه المختلفة او بأي رمز آخر يميزه عن سواه . على ان حمادي عديم اللقب آخر التوائم أصيب هو الآخر بعدوى الاطلاع وحب المعرفة على غرار أخيه الاكبر ، فكان ان الصق شريطاً أحمر على قمصانه المزركشة فوق يسار صدره . خطرت له هذه الفكرة وهو يطالع كتاباً في التاريخ . وعلم ان الامراء النورمانديين حين غزوا صقلية الاسلامية في القرن الثاني عشر فرضوا على العرب حمل شريط أحمر يميزهم من المسيحيين الحقيقيين وعلى أية حال ، غرق ابن مسعودة البكر في مخطوطات الطوسي ذلك الرياضي الكبير الذي عاش في القرن الثالث عشر وأبدع نظرية الحساب التآلفي . وتمكن بذلك من وضع جرد بمختلف امكانيات التداخل بين أشقائه التوائم من جهة وشقيقاته التوائم من جهة ثانية وبين الاناث والذكور ، مثلما سبق له ان قام بذلك ذات يوم . وعندما

ايقن من صحة حساباته ، وأثبتها عن طريق البرهان بواسطة الرقم
 تسعة قام بتوزيع الهويات ، والذكورة والانوثة ، والإيماءات ،
 والتصرفات ، والاثواب ، والوان البشرات ، وحجم العيون ، واختلطت
 السبل أمام مسعودة . واشتبهت في هوياتهم ، وحسبت الاناث ذكورا ،
 والصفار كبارا وهكذا دواليك . غير أن عديم اللقب كان يعلم في قرارة
 نفسه ان هذا العبث لا يمكنه أن يدوم طويلا . وكانت أمامه مهلة لا تزيد
 ولا تنقص عن خمسة وعشرين يوما ، وهي الفترة التي تتخلص فيها
 شقيقاته من أعباء الطمث ، لأنه خشي أن تعمد والدته الى اجلاس الفتيان
 على القصریات الفضية فوق سطح الدار مثلما تعودت ان تفعل ذلك في اليوم
 التاسع عشر من كل شهر . والحقيقة أنه هدف بذلك الى التمويه والى
 تقليد البنية السرية للحركة القرمطية . بل انه بالغ في عمله هذا فأعطى
 لكل واحد تسع عشرة هوية مختلفة بأوراق تثبت ذلك . وعندما حان
 الوقت لاستبدال أسماء اعضاء اللجنة السرية للمقاومة صار الامر كله
 العوبة طفولية بحيث أن اللجنة نفسها لم تعد سوى خمسة افراد ،
 وهم : علاوة الاحمر الاسكافي ، ورشيد بناصر ماسح الاراضي ، وجيلالي
 بو حذبة الساعاتي ، وعلي الفقيه المعلم ومحمد عديم اللقب نفسه . وبعد
 هذا الجهد الهائل في وضع هياكل الحركة ، اختلط الامر على رجال الشرطة
 الذين يراقبون المتأمرين وما عادوا قادرين على تمييز الواحد من الآخر
 وسط ذلك الخليط من الاشخاص الذين تداخلوا فيما بينهم . على أن
 غباوتهم دفعت بهم آخر الامر الى أن يشكوا في أن الاجانب هم أهل البلدة
 الاصلاء والعكس بالعكس . وكان أن القي القبض على المخرج وعذب
 طوال عشرة أيام لكي يعترف بأنه ليس سوى محمد عديم اللقب المتنكر
 في زي ماضغ الشوبنغوم ! لكن الحوت ظل في مكانه . وأحست الطيور
 بغريزتها أنه رمز كربه للسيطرة والتوسع ، فحاولت أن تثقبه بمناقيرها
 الحادة ، وما أسرع ما تحطمت دون أن تقضي وطرها . على أن الحركة
 ظلت تنتظم بصورة جدية . وتوقفت مصارعات الاكباش وانضم صفار
 التجار بكل عفوية الى المقاومة ضد الغزاة . وألقى محمد رحاله بحانوت
 الساعاتي ، وطفق هذا يصلح الاحذية . في حين أن الاسكافي قد صفر
 سنه بأربعين عاما وتمص شخصية محمد عديم اللقب مع فارق ضئيل وهو
 أنه عجز عن ترويض ظله وعن بث الرعب في الدجاج على مسافة ستة
 وستين مترا . وعن القراءة الانفية . ونتيجة لذلك بادر الشعب الى
 اعلان تضامنه مع الحركة فقدم لها مساعداته ، ثم ان الرجال مكثوا في

البيوت ليستغفلوا رجال الشرطة ، وانشغلوا بتربية الاطفال ودود القز ، في حين أن النسوة اتخذن مظاهر الذكورة وتنكرن في الثياب الرجولية وعمدن حينذاك الى تنظيم الاضرابات هنا وهناك . وطاش صواب المنامة مرة ثانية . فعانت من هذه التقلبات الجذرية ، حتى أن الطبيعة تنكرت لمناظرها . فانزلقت القرية متعثرة وصار عاليها سافلها ، وانقلبت الديكورات من تلقاء ذاتها وحدثت هزة أرضية خفيفة جعلتها تدور حول مركزها . بينها تحول مدخلها الى مخرج والعكس بالعكس . ولم يصمد منها سوى الاسوار . وشعر الاجانب بالخوف لأول مرة ، وذهلوا بدورهم من تلك الظواهر الفريدة من نوعها حتى انهم راحوا يشتبهون في الاشياء فيسمون الجدار ثغرة والظل تنهيدة . ولم يسلم من هذا الخلط سوى اللبان الامريكي الذي استمروا في مضغه لانه كان محفوظا داخل أفواههم ذوات الاسنان اللماعة ، وكأنه يستخرج من السنتهم ، فصار يكسو فكوكهم . وسيطر عليهم الرعب ، فانكمشوا في دار الحاكم الذي ظل طريح الفراش ، ولم يقبل بهم أحد في اي مكان . حتى اصحاب المطابخ التي ابقت ابوابها مفتوحة لتمكين العزاب من تناول طعامهم اخرجوهم بضربات من السكاكين . وأما البغايا فسدن فروجهن بالرصاص وعندما حاول الزبائن المنبوذون ايلاجهن وقع في روعهم أنهم صاروا غنيين . وحيثما اتجه هؤلاء الاجانب جوبهوا بالسباب والشتيمة . وكانوا بين الفينة والاخرى يطلقون النار على من يضايقهم ويعيدون مسدساتهم الى اغمادها كأن شيئا لم يحدث . واستقر الخوف في قلوبهم ، وذهلوا كيف أن قرويين فقراء جهلة هزيلين استطاعوا الصمود في وجوههم بتلك الطريقة . وزلزلت عقدة التعالي في نفوسهم لكنهم لم يعودوا يعرفون من هم . وكانوا بين الوقت والآخر يستعيدون هوياتهم بفضل ذلك المذاق السمج الذي يخلقه اللبان في أفواههم ، ولم يعد لهم موئل آخر سوى الانكماش في بيت الحاكم على الرغم من أنهم ايقنوا من أنه لا يقوى حتى على الدفاع عنهم . وعندما وجد المخرج نفسه حرا طليقا تداخلت هويته مع هوية مدير الانتاج . وسلك الفنانون نفس السلوك وتدخلوا بعضهم البعض . وظلوا حبيسي الدار الضخمة يجترون ذواتهم اجترارا ويتخبطون وسط رعب واحد . وحين أدركوا أن أجهزة الترانزستور صارت عاجزة عن الالتقاط ، حاولوا جميعا مضاجعة زوج الحاكم لكي يبرهنوا لانفسهم بأن فكورتهم لم تتجدد على الرغم من فشلهم الذريع مع البغايا المشطورات من الاهلى الى الاسفل بوشم ابتدعه أحد شعراء العهد الاسلامي الاول

لانقاذ الفتيات من الموت . وانقذت ام كلثوم نفسها بفضل مروحتها .
 فقد استعملتها كدرع ، وراحت تطحن القضيب الصلب لهاجمها الاول «
 ثم الثاني الذي التوت خصيتاه في اجنحتها فاستلقا منه الحياة بحشجة
 تشبه تلك التي تصدر عن قمة الالتذاذ . وظهر أن الضحيتين هما رئيس
 فرقة الكهربائيين والمسؤول عن الآلات . ونقل الاول على وجه السرعة
 الى مستشفى من مستشفيات بلده البعيد لكي يخاط له قضيب اصطناعي
 لا يساعده الا على التبول . أما الثاني فقد دفن دون اي صخب في المقبرة
 الامريكية التي اقيمت بالمنامة خلال الحرب العالمية الثانية . وهي المقبرة
 التي استجلب منها بندرشاه رخام الطاولة التي تحتل قاعة الطعام
 الرائعة . على أن والدة كلثوم بعد محاولة الاعتداء عليها ، استدعت
 ابنتها وأعدت حقيبة صغيرة ثم غابت من الدار . في حين ظل زوجها
 يتصنع المرض مع أنه حاول عبثا أن يتعلم الشفرة لكي يستعملها في نداءات
 الاستغاثة الى صهره الذي التزم الصمت الكامل . وعندما نزل من غرفته
 ذات صباح لتناول كأس من الماء بعد أن دق الجرس على خادمه دون
 طائل ، ألقى الدار مقفلة وأبصر في قلب البهو بمروحة زوجته وهي لا تزال
 مدماة وقد رصعت اجنحتها بقطع من لحم وغشاوات وتضاريف ، فغطت
 الملايين من اليساريع والفراشات والنغضات التي التصقت بها طوال
 عشر سنوات . ودهش الحاكم لرؤية تلك الاجنحة الصغيرة القادرة على
 محق الهواء الصفيق المزجج المنتشر في الجو ، بل وأي مخلوق تسول له
 نفسه الوقوع في براثن رواحتها المركزية التي لا يظهر منها شيء أثناء
 الدوران . لم يبق بالدار أحد اذن ! فالخدم اللوطيون والزيديون عادوا الى
 عشيرتهم ، والبستاني غادر هذه البلدة المجنونة ، وصنائع الحاكم ارتدوا
 عن سيدهم على غرار الناس الذين ينتمون الى ملتهم وطينتهم . حتى
 زوجته اللطيفة التي جف عودها الى جانبه وتلقت ألف اهانة منه كانت
 قد تقبلت على مضض سلوكه المشين وتحريماته الجائرة وثرأه الفاحش
 ووصوليته الرهيبة الصبائية وذوقه السمج وجهله المطلق وعمليات
 التهريب التي يمارسها وقوانينه المخيفة وتباهيه بنفسه وقامته القميئة
 ونفسه الكريه وكل سيئاته ، بل انها تقبلت حتى رائحة السردين المنبعثة
 من جسده ، على الرغم من العناية التي يوليها لشخصه وقوارير العطور
 التي يصبها صبا في مسام بشرته . ولم يعثر الحاكم على أحد اذن باستثناء
 السينمائيين الذين أتلفوا الأرضية الزجاجية وطاردوا السردين الخائف ،
 ومزقوا العشرات من صورته وهو في زيه الاستعراضى — ولكن دون

سيف — وكتبوا بأوساخهم على الجدران رسائل حب لزوجاتهم أو لصديقاتهم ، وحولوا أصص الزهور الى كؤوس لتناول البيرة ، واحرقوا الزرابي الفارسية بأعقاب سجائرهم وياتوا في المحابر المصنوعة في عهد نابليون الثالث . وكان هذا قد اهداها الى الخونة الاهليين حين تدشين أوبرا الجزائر سنة 1862 ، وسلخوا القطعة الوبرية الوحيدة في المنامة وحولوا الطاولة الرخامية الى مجرد طاولة للعبة البينغ بونغ وأحدثوا خدوشا في طلاء الجدران بسكاكينهم ، والصقوا اللبان ببالوعات الحنفيات لسدها ، وذبذبوا الساعات الجدارية التي تعود الى الامبراطورية الثانية بأن زيتوها بالمني ، وابتلعوا الاسماك الطائرة وهي حية . وكانت هذه هدية الى الحاكم من صديقه ملك جزر القمر الكبرى . ولم يجد بندرشاه في نفسه الشجاعة لطردهم بل اعتذر عن اهماله لهم مدة طويلة متذعرا بمرضه الخبيث الذي لم يقو اي طبيب على تشخيصه . واكد لهم انه بريء من دائه ذاك ووعدهم بتسوية المشاكل والخلافات كلها . وامل ان تكون زوجته قد تحصنت في مغسل الثياب الواقع خارج الحديقة ، لكنه لم يعثر الا على الاثواب المتسخة التي لم تغسل منذ عدة اسابيع وقد تراكمت وعشش فيها الدود . حينذاك تهاوى ارضا واطلق العنان لدموعه . وجعل ينتحب ، وقد انسحق بشقائه ذاك ودحرته العزلة التي ظن انه قادر على القضاء عليها الى الابد بفضل المال ومنصبه كحاكم للمنامة . هذا الذي كافح سنوات طويلة من اجل نيله بعد ان تمعش في المواخير ، وقدم خدماته للبغايا فوات الفروج المسننة التي تعض كل من يلجها ، وبعد ان اضطلع بدور الخادم الطبع للعشرات من القادة الصغار ، واستقدم النسوة للمسؤولين الكبار الخجولين منهم والمتغطرسين ، وحمل حقائب التيكنوقراطيين وتكور في قبيء الاثرياء الجدد عند انتهاء السهرات

ولما كان الصباح ، خلق الحاكم لحيته وكبت حزنه في قرارة نفسه ، وتحزم في بذلته التي تصفره عشرين عاما وتمنطق سيفه البلايني الخالص ، ثم اعلن لشعب المنامة انه على وشك ان يضفي الديمقراطية على حياة البلدة وينشئ حزبا مفتوحا للجميع ولكل الانتقادات فيكون بذلك بنية حيوية تسد الفراغ . وهكذا برز الى الوجود الحزب الوطني الديمقراطي . وبمجرد ذهاب زوجته كتب رسالة الى بغى سابقة في احد المواخير التي عمل بها براحا عموميا فيها مضى ، وكانت هذه تشرف

على ماخور في مدينة بوردو . وطلب منها ان تأتي لتولي عنايتها بقلبه الشجي وبشؤونه السياسية . وقد عرفت هذه المرأة فيها مضى بأنها متمرسة في العمليات الجنسية التي تسمو على كل اشكال القيود والضوابط وتتخذ اوضاعا جنسية مذهلة ، وتضاجع رجلين في نفس الوقت بينما يباشرها ثالث من الخلف . ونزلت « جوليت ادم » بالمنامة مرتدية فستانا مهفها شفافا لا شيء فوقه . واوحت بأنها ما زالت تمتلك بعض البقايا المتناسكة نوعا ما وكأنها احتفظت بها منذ ذلك العهد البابلي حيث كانت المواخير بيوت ضيافة حقيقية وحيث لم يكن الحنان قد خضع بعد للمواقيت والتعريفات . وكانت « جوليت ادم » هذه تحمل قبعة واسعة الاطراف اشبه ما تكون بطائرة مائية تستعد للانقلاع بتأثير ريح السموم الكاشطة وقد ظهرت عليها حروف بارزة ح.و.د ، واعلام بندرشاه الصارخة . المسكين ! لقد اراد أن يستيق أعداءه . وقد خطرت له فكرة انشاء هذا الحزب لانه كان يحمل في مكان انفه مقياسا لتسجيل الهزات . يتنوس لادنى الحركات الارضية . وظن أن الناس سوف يتدافعون على باب الحزب هذا حتى تسنح الفرصة لكل واحد بأن يمرر رأسه بين فخذي عشيقته الصلبتين ويتعرف على لون قنفذها الذي اهلكه العمر ولا شك ولكنه ما زال زاخرا فياضا . وما تقدم احد من ذلك المقر الفخم الذي افتتحه لهذا الغرض وزينه تحت ارداف جوليت . وما أسرع ما استبد به الغيظ من عناد المنايمين وسوء طواياهم فحاول التقرب منهم مرة ثانية يأن اهدى صورته التي رسمها الفنان السابق للامبراطور باوو دايي ووقعها باسمه . هباء ! وقد وجد البعض من المهوسين بالجنس وممن تعبوا من الفتيات المشطورات بذلك الوشم الشهير فقبلوا الانخراط في الحزب لكنهم اشترطوا دون ذلك أن يتمتعوا ليلة كاملة بعشيقتهم التي عوضت كبر سنهن بتجربتهن في أمور الشبق المتشعب . لكنهم بمجرد ارضاء غريزتهم غابوا عن الانتظار . حينذاك اعتزم الحاكم الانتقام . وتوترت اعصابه الملتوية بفعل الحرارة الخائفة وجحود البلدة وخيانة ملك خليجية فاتصل بالمستر « براون » وقابله سرا خارج المنامة . وكان هذا الاخير قد استقر بأرض المنامة مع كشافيه الذين تصلب عودهم وصاروا محاربين اشداء فاراد مساعدته لكن بشرط واحد وهو ان يقبل بيع ممتلكاته ببحيرة التماسيح في أعالي النيل واسافله . وهي البحيرة التي تمكن من ري الصحراء واستصلاحها . ووافق بندرشاه على الاقتراح ، ووقع اتفاقا سريعا ختم المفاوضات بين الرجلين . وقد سبق للمستر « براون » ان

حصل على الحق في سقي نباتاته بياه النيل وتلقى بندرشاه وعدا منه بالتحرك صوب المنامة أمام أول نداء يصدر عنه ويكون حينها مصحوبا بصبيان المهرة في الفنون الحربية ذوي التجهيز الفائق والتغذية المفرطة ، والجسارة الفريدة في خوض معارك الرمال . وعادت « جوليت أدام » من حيث جاءت بعد ان حصلت على تعويضات طائلة وتشكرات صادقة من صاحبها السابق . وأخبر الحاكم رجال السينما بالامر واستقر بكل هدوء في مكتبه ينتظر اشارة البدء في العملية التي أطلق عليها اسم رمسيس الثالث على سبيل التباهي والتبجح بموافقة من حلفائه ... وراح يقتل اوقات فراغه بتدخين سيجارات ضخمة وتسجيل صوته حتى يتعلم كيف يجذب احسن التجديف يوم الانتصار في وجه حثالة العالم المتحالفة ضده . وانتظر اللحظة المؤاتية لكنه ظل في واقع الامر يأمل حدوث رد فعل من قبل ملك خليجية او انتفاضة من انتفاضات العزة والانفة او حتى مناورة من ابنته « ليلي » تجبره على الظهور . وما حدث شيء من ذلك القبيل . واغتاپ الاجانب في حين ظل مستمسكا بهدوئه ، يسخر قبل الاوان من هزيمة الشعوذة ويسحب انفاسا طويلة من غليونه الضخم .

توتر الوضع في الجانب الآخر من الزقاق . ولم تكن لجنة المقاومة السرية التي يتراسها محمد عديم اللقب تجهل بأن الهول وشيك الوقوع . واشتبهت مسعوده في ابنها فحسبته « مليكة » وجعلت تلومه على نقص الانجاب . وانهك الساعاتي في صنع القنابل الزمنية متخذا هوية علاوة الاخر . غير ان الانتظار كان ثقيلا . فمن يكون اسبق الى بدء الصراع ؟ وطالب توائم « الدر » عمدا أن تروى على مسامعهم حكاية علي بابا واللصوص الاربعة ، لكن جدتهم رفضت أن يطلعوا على تاريخ الثورة القرمطية . ووسط هذا الجو المكهرب المتوتر وصلت بطاقة مصورة من المعلم « بربي » يعلن فيها لأصدقائه بأنه في صحة جيدة وبأنه وجد عملا في الجانب الآخر من البحر . وقال ايضا انه على الرغم من اخلاصه لدينه وجد نفسه مضطرا الى ان يقبل وظيفة خادم في كنيسة كاثوليكية رومانية . أما أسفه الوحيد فهو أنه لم يعد يمتلك طبله الذي مات منذ زمن طويل بمرض جلدي عضال . على ان صورة المعلم « بربي » البراح العمومي

السابق المتنكر في زي خادم كنيسة دفعت الجميع على المسرح واطلقت
مسموعة العنان لضحكاتها حتى انها مزقت حمالتي نهديها اللذين ينطويان
ما شاء الله على سخاء جسدها المليء بالوشم . وبعد ان زايلتها نوبة
الضحك واستبدلت اثوابها الداخلية صوبت نظرات مثقلة الى السلم
فوقعت على ابنها البكر وحشرته في زاوية قائلة : « لا تظنن انني حمقاء .
كف عن ذلك . اتريد اخفاء الحقيقة ؟ انني أهرم من ان اشتبه في هويات
ابنائي حتى وان هم تشابهوا مثل قطرتي دم . حذار ! سوف يتسرب
الىنا الخطر حتى من شقوق الابواب » .

وعاودت اهل المنامة ذكرى المعلم « بربي » وطبله المجيد . ها هو ذا قد صار خادما في كنيسة يعطر بالبخور توابيت الكفرة ويفرش البسط الحمراء امام العذارى المزيفات ، حين الزواج . اشفق الناس عليه . وكاد الخلاف يقسم البلدة لان البعض من اهليها شكوا في انه يكون قد تحول الى الدين المسيحي . غير ان الحوت الذي لم يفرغ من هوائه ، ظل معلقا هناك يرمز الى الخطر المحدق بهم والمتمثل في وجود الاجانب ، وسرعان ما تنوسيت البطاقة البريدية المرسلة من مدينة « روتردام » . وكانت مسعودة آخر من ضحك بسبب تلك البطاقة حين راحت ترتق حمالة نهديها التي انقطعت بسبب هزة المرح التي عرتها وتدفق سميتها الجنونية . ولم تستطع التوقف عن الضحك حتى استيقظ احفادها من جراء الضجة التي احدثتها . وكانت كبرى التوائم تشبه كل الشبه ابنتها « رشيقة » التي انتحرت بأن اغلقت على نفسها داخل كفن وخاطته بيديها . واستعادت مسعودة الزمن الذي كانت تهدد فيه الفقيدة وتحول ضحكها الى نحيب . وفقدت غضارة جسدها وهي تصلح حمالتها بالخيط حتى لا تتفق ابدا حينما تعروها الهزات النفسية المختلفة . والواقع انها لم تسل موت ابنتها الثانية ولا تناست شعورها بالذنب . وصبت لعناتها على علي لفظة بائع الخضراوات وامرت باستقدامه على الفور لكي تتفقا عينيه . وهذا ابناؤها روعها ، ولفتوا انظارها الى اشياء أخرى فأخبروها بأن زهرة بندرشاه قررت العودة نهائيا الى مسقط رأسها ، واطلعوها على هروب الزوجات الاربعة من اللوطيين ذوي الحس الرهيف واللياقة البديعة . اذ لن يتحملوا هؤلاء خشونة الاجانب الذين غزوا بيت

سيدهم . وشعرت مسعودة تجاه والدة كلثوم بحزن طاغ وأسفت على انها لن تلجأ اليها . لكنها لم تحدث احدا عن رابطة القرابة بينهما بسبب عنادها وخجلها . ولم تعد تطرح التساؤلات حول خصوبة الخدم السابقين . وهي مسألة ظلت تؤرقها وان كانت قد فضلت الا تتطرق اليها لانها كانت تجهلها في مجموعها ، ثم لانها نشأت وفقا للمبادئ القائلة بأن الذكر ذكر والانثى انثى ، لا اكثر ولا اقل . ومع ذلك فانها ادركت بغريزتها أن الامور بالمنامة لم تعد تسير على غرار ما هي عليه في مدينتها الاصلية التي ينعشها نسيم البحر على مدار السنة . وفهمت أن الغربة في هذه البلدة جزء لا يتجزأ من الظواهر والموجودات لانها جربت ذلك اكثر من مرة . وعندما تهب الريح الرملية ينزلق منها كل شيء تريد أن تضع يديها عليه كأنه مدهون بالطين الزلقة . وقد سبق لها أن لاحظت مرات عديدة أن الاشياء تبدل مظاهرها حينما تتغطى بذلك الغبار الدقيق الاحمر . بل وكثيرا ما حدث لها أن وضعت الماء في غربال بعد أن حسبته جفنة من الخشب ! وتأملت كلثوم بعد نوم الاطفال حينما راحت تستعيد ذكرى مدينتها وطراوتها ، وغزارة نباتاتها وتكاثر حيواناتها المائية ، منهمكة في نفس الوقت برتق حمالاتها بالخيط الخشن الذي يستعمله الصيادون في العادة لاصلاح شباكهم . وراحت الفتاة التي تبنتها مسعودة وعائلتها تنتظر منها ان تتحدث عن الثديين اللذين رضعتها المراتان معا وعن العلاقات التي ربطت بينهما فيما مضى على الساحل . لكن ، خاب أملها ذاك لأن تلك المرأة التي تتربع على عرش الدار وتنظم أدق ظروف الحياة المادية منها والماورائية وسط قبيلتها ... لم تنبس بكلمة حول هذا الموضوع وتبعثرت داخل التفاصيل كعادتها ! وانتقلت من حكاية الى أخرى فأضاعت رأس الخيط وذهبت تجوب الاستطرادات المدهشة . والحقيقة ان مسعودة لم تعد تتحدث في صلب موضوع معين منذ بضعة اسابيع بسبب التوتر الذي يسود البلدة . وأمضت شجرة الدر وقتا طويلا قبل أن تتخلص من الحيرة التي استبدت بها حين صعدت الى غرفتها لكي تنام فلم تعثر على زوجها ، خاصة وانها ما راته يغادر الدار طيلة النهار ، لانها قضت وقتها كله في خياطة أثواب لتوائها بالقرب من عتبة الدار وقباله شجرة الزعرور ، بل انها كانت جالسة في مواجهة عباد الشمس ومستمتعة بالرطوبة التي يبثها بدورانه حول نفسه بفضل أشعة الشمس المخزونة في سيقانه حيث تسيل طاقاتها المائعة المتدفقة صاعدة الى بتلاته المروية بسخاء لدرجة انها لم تعد تعرف الاتجاه الذي تدور حوله .

واكتشفت الدر في مكان عديم اللقب عجوزا جالسة على طرف السرير تدخن بسخرية وتدبر تجاعيد وجهها بنفس السرعة التي تدور بها الشمسوس النباتية . وكادت تصرخ لولا ان الجدة المخيفة شددتها بقوة عجيبة وضمتها اليها وطبعت على شفيتها أحر قبله اثارها بتلك الرعشة ، في حياتها كلها . ولم تدرك ان هذه المرأة المسنة التي امامها ليست الا زوجها المجنون ، عندما شعرت بقضيه بين جلابيه الموصلية الفضفاضة . وكان قد تنكر في زي عجوز شطءاء في سبيل خدمة القضية . وتناكحا واقفين بكامل اثوابهما . وعندما تلقت الدر ذلك القذف الرائع جلجل في أعماق أعماق رحمها ، أدركت انها سوف تضع بعد فترة ستة أشهر خمسة توائم ذكور ، دفعة واحدة . وفي ذلك العهد بالذات شاع بينهم ذلك التعبير للتندر : « النكاح على طريقة العجائز » . وطربت الدر لذلك لأنها ظلت في قرارة نفسها تغار من كلثوم التي بهرتها بجمالها ونضارتها وشيطنتها . ثم ان تعبير « وضع كاميشيه » راح يؤرقها لأنها علمت أن هذه الصيغة قد خدمت كلثوم بندرشاه حين طلبت من محمد ذات صباح بالغ الشفافية ان يخلصها من غشاوتها الغبية . ومارسا الحب الليل كله بتلك الحمى التي تنذر بالمعاصف والاعاصير الكبرى . وعندما أمقا في اليوم الثاني ، أدركا أن البيت محاصر بجنود المستر براون وأن البلدة احتلت دون أي ضجة او طلقة نارية فريدة .

واجتمعت لجنة المقاومة في غرفة الحيط حيث الحرارة لا تتجاوز 37 درجة . واحتاج الحاضرون الى مناديلهم لكي يناقشوا جدول الاعمال ويتخذوا القرارات ويوزعوا المهام ويحددوا مواعيد المراقبة . كانت الغرفة عبارة عن محم حميش ! لكن محمود عديم اللقب أحسن توريثها الى ان الاجانب عندما اقتحموا الغرفة حيث كانت تجتمع اللجنة الثورية عادة ، تحولت هي الاخرى وبدت وكأنها سور بلاد الصين المشهور . وكان هذا الجدار الغليظ الذي صنعه محمود يطل على العدم المصطبغ بلون الخلود ولم يلق العساكر القبض الا على مسعودة . فهي الوحيدة التي حافظت على مظهرها الاعتيادي الطبيعي ثم أنهم لم يجدوا لديها اوراق تعريف . فهي لا تملك ايا منها منذ ولادتها . وأقدم الجنرال يهودي فجر أول ماي على مهاجمة النامة على رأس جيش قوامه عشر آلاف رجل مدججين بالسلاح . وقد تلقى أوامر من المستر براون الذي وعده بحماية جوية . وما أسرع ما استجاب للنداء . على أن البلدة بطيورها ودجاجها وأكباشها ودود القز،

وسلخفاتي مسعوده وحائثها الثلاث لم تكن لتبلغ تسعة عشر الف نسمة عدا . ثم ان اللجنة الوطنية للمقاومة تثبت بتلك الاحداث واشعرت المواطنين بترك العدو يتحرك على هواه ومساعدته على تثبيت اقدامه وعلى التغفل بأعمق ما في الامكان وطلبت منهم ان ينتظروا التوجيهات في المستقبل القريب . وخلال الليلة التي سبقت الهجوم كان كل من محمد عديم اللقب وعلي الفقيه ورشيد بناصر وجيلالي بوحدبة يمارس الحب مع زوجته واطلعوا بنقل علب التبغ المنشوق على عدد المهاجمين وساعة الهجوم والاستراتيجية التي حددها المستر براون بموافقة متحمسة من قبل بندرشاه . وكان الهدف واضحا . واطلع المناضلون الموثوق فيهم على السر . اما الشعب فقد احيط علما في اطار من السرية الكاملة : « دعوهم يتصمغون في قذارات الزراير ! » وسرعان ما طاف العساكر الاجانب بالبلدة . واعتزت مسعوده كل الاعتزاز بالقضاء القبض عليها ففرقت بحملات نهديها حتى انها اهاجت طيور المنامة العديدين الذين تعودوا على تلك الموسيقى الحنون وعلى غناء الساعات الجدارية التسع عشرة . وما كانوا ليحقدوا عليها بل تناسوا الفخاخ التي كثيرا ما نصبتها لهم في شكل فزاعات مرعبة دموية بدءا من فزاع الحاكم بما في ذلك فزاعات ابن المقفع والمعتصم وسانت لويس والحجاج بن يوسف وسفيان بن معاوية وملك خليجية ومراد الاول وأبو العباس السفاح والمستر براون ومحمود الثاني . وزحفت على الغرفة التي احتجزت فيها مسعوده ونصبت بينها وبين جلاديه ستارا من الاجنحة المزركشة حتى حجبها عن انظارهم . ولم يبصر بها أحد وهي تغادر مكان الحبس وقد تغطت بالمئات من طيور الكناريا والكوكسريج والزراير والدورية وطيور الفردوس وغيرها من تلك التي جاء بها الامازونيون خلال أولى ازمات الكشف التي شعر بها ابنها محمد عديم اللقب . ثم ان الكتوات اقامت حاجزا شرفيا لها بفضل ريشها الزاهي وجعجعتها التي لا تنضب وتكفلوا بحمايتها الى ان بلغت الدار . وكان ان استقبلت حينذاك بصيحات الفرح وبطلقات من اصوات الببغاوات الناطقة بمختلف اللغات وبزغاريد افراد العائلة الذين ما زالوا محتفظين بتشابكاتهم الدقيقة وعقدوا العزم على البقاء على تلك الصورة حتى النصر النهائي . وراح الجيش يقتل اوقات فراغه فاطلق بضع طلقات مدفعية ارهبت الحوت المعلق بحباله في الهواء . وتقطعت تلك الحبال فتهاوى الحوت أرضا وسحق عشرة من القناصة . وكان هؤلاء قد جاؤوا الى المنامة لاحتلالها مدة طويلة مثلما فعلوا ذلك في القرى الاخرى

التي أفرغوها من سكانها ليستقروا في مكانهم ويستثمروا ما غرسه الضحايا طوال قرون . ولم يكن أفراد الجيش إلا هؤلاء الكشافون الذين توفرت لهم بالإضافة الى غطرتهم إمكانية التمضض بماء النيل المشهور بصفاته المكافحة للتسوس . في حين أنهم كانوا قبل ذلك اليوم وقبل ان يتنازل بندرشاه عن ممتلكاته في بحيرة التماسيح يعانون من اسنانهم المتاكلة المهترئة التي تلتصق بها الزرقة الرمادية وصفرة النيكوتين . ولم يجدوا ما يشغلون به أوقاتهم باستثناء موت ذلك الحوت العتيد . وبعد بضعة أيام من البحث العقيم راوا أن المسؤولين السريين عن الحركة قد غادروا البلدة واستقر بهم المقام تحت الاشجار بساحة الطيور ، وقد أهملوا سلاحهم وبزاتهم ، وجعلوا يقضون اوقات القيلولة بها ويلعبون الورق مع السينمائيين ويطلقون الرصاص هنا وهناك وبين الاعشاب عندما تغالي الطيور في قذفهم بسلاحها ، أو تستثير غيظهم وتزديهم بتكرير النشيد الاممي بصوت واحد متعاقب ومتواصل مثلما علمها ذلك محمد عديم اللقب ، منذ بضعة اشهر حين كان يلقتها دروسا في النوتة الموسيقية اذ كان وقته وفيرا آنذاك . وظلت كلمة السر من دون تغير : « دعوهم يتصففون في قذارات الزراير ! »

وعلى اثر هذا الاستعراض العضلي ، قرر بندرشاه ومخرج الف ليلة وليلة الاحتفال بالنصر قبل استئناف التصوير . وجرى الحفل في حدائق المقر الحكومي بعد أن طليت اعشابها مرة ثانية ، وشذبت زهورها وأصلح حوضها الياباني وأعيدت زهورها المصنوعة من الزنك الى أماكنها وركبت اشجارها بواسطة جرارات قوية . وقدمت فرقة الكشافة مساعدتها . في حين أن الفرقة الموسيقية العسكرية وضعت نفسها تحت تصرف الحاكم مجانا . وجيء بشحنات من الويسكي والعرق المحلي . ووضعت العشرات من الاكباش سرا في مختلف قاعات الاستحمام ، واستخدمت أجهزة الارسل والاستقبال للاستنجاد بالمهارات الحسية لفتيات « الجيشا » بكيوتو والمعارف الاباحية لبنات الهوى بميامي . وأعدت اكاداس مما لذ وطاب من الاطعمة ومن كل ما هو ضروري مفيد لنجاح افخم حفل يشهده القرن . واستدعي ملك خليجية بالحاح فاعتذر عن تلبية الدعوة في فترة يذهب فيها الاباطرة الى المنافي بعد أن يقادوا الى حدود البلد الذي يختارونه وتحرم عليهم الإقامة بامبراطورياتهم . وجاء خلق كثير امتلات بهم حدائق بندرشاه وبدت ضيقة عن احتواء الحفل . وكانت « جوليت أدام » رمز

الحزب الوطني الديموقراطي موجودة بين الضيوف المعدودين . وتحول مصور الفيلم الى مصور ولائم واطلقت اشارة البدء في الحفل بتحويلة من يمامات تحمل الوان بندرشاه . وبعد الالعب النارية ، تسارع المدعوون الى الطاولات الحافلة بالاطعمة غير ان الحاكم اشار اليهم بالترتيب والانتظام . ونصحهم الا ياكلوا كثيرا لانه يختبئ لهم مفاجأة هائلة من مفاجآت الطعام اللذيذ . حينذاك تداخل المدعوون بعضهم البعض ، وشد كل منهم على صاحبه وراح يرقص بجنون . وبدأت النسوة يتخلصن من اثوابهن الزائدة عن الحاجة لأن الحرارة خانقة خاصة وأن مسعودة رفضت اعارة عباد الشمس المبرد . وما اسرع ما اقتدى الرجال بهن . وازدادت الحرارة في حين أن المشروبات جعلت تبعث الدفء في القلوب المتجمدة ، وتعري كل واحد من الحاضرين وجرت اشكال غريبة من التداخل الجنسي في جو يسيل الزبد فيه من الفتحات الجنسية التي تحولت الى عيون من الحب الاندفاعي الجنوني . على أن هذا النصر الذي احتفل به احسن احتفال صار دبقا حامضا بسبب الحرارة الجهنمية . ومع ذلك فقد هلل الجميع . وتشابكت الاشياء فيما بينها وتمازجت الافواه . وسالت أقداح البانسون بينما جعل العرق المحلي ينصب انصبابا جارفا في مؤخرات الذين امتلأت حلوهم بكل نوع من انواع المشروبات السائفة والخمر المسكرة . وكلما تقدم الحفل تخلل الجو وبدأت الرائحة المنبعثة من مستنقعات الجنون والهذيان تفعل فعلها في حين أن الفروج اطلقت روائح اشبه بتلك التي تنتشر فوق ركام السردين المتعفن . وتقاطرت الآباط بعرق أسود لزج ، وأفسحت البشرات المجال لصنان كذلك الذي يتعالى من مطاهر مسدودة منذ قرون عديدة . وقد جيء بالخدم من القرى المجاورة وجعلوا يطوفون بالمدعوين ويغسلون مؤخراتهم وينظفونهم ويغرقونهم بالعنبر وزهر البرتقال . ولم يكن من طائل وراء ذلك ، لأن الرائحة الكريهة ظلت تنتشر بين الاشجار ثم ان الحاضرين راحوا يتبولون ويقذفون بأوساخهم على وجوههم لأنهم انجرفوا في دوامة هذيانهم ، فظنوا أنهم في حفل راقص تنكري واتخذوا حذرهم لكي لا يتعرف عليهم احد . بينما البدانة بدأت تثقب اشد الوجوه عبوسا واكثر الاجساد سمنا لان كل واحد منهم ظل ينتظر تلك المفاجأة العظيمة التي حدثهم عنها الحاكم في بداية الحفل ، وترك لنفسه بقعة صغيرة من العناء الذهني وسط الجنون المحاصر . وبقي الحاكم محتفظا بكامل قواه لأنه لم يبتلع قطرة من خمر ولا شرب كأسا من عصير البرتقال ، بل انه لم يأكل شيئا ولم يتعر ، وظل

وقورا ، أنيقا ، نشيطا مبتسما وقد انتصب كالعود ببذلته الصيفية وحذائه ذي الكعبين المضاعفين حتى لا يضيع كعادته أدنى ملمتر من هذه القامة القصيرة التي وصم بها الله ، منذ ذلك اليوم الذي ولد فيه فقيرا في عائلة بائسة وأصيب بالكساح وامتنع عن النمو حتى يضايق والده الذي يكرهه لأنه كان يبيع السراين بدلا من اللآلئ البحرية .

وعندما انتصف الليل وراحت ساعات مسعودة الجدارية ترسل موسيقاها السحرية القادمة من عالم آخر مبهم ، طلب بندرشاه من الحاضرين التزام الصمت . فأنصبوا قائمين ببعض الصعوبة . وسرعان ما جيء بالثلاث من الأكباش وهي تشغو وتخطب خطبات عشوائية . وحشرها الخدم في حظيرة أعدت مسبقا ، ثم انطلق صوت الحاكم مفرقا : « انني ادعو كل ضيف من الضيوف الشرفاء الى ان يذبح كبشا ويعلقه الى شجرة ويسلخه بأسرع ما يمكن . والضيف الذي يكون أول من انتهى من هذا العمل سينال سيارتي الرولرويس التي يشهد عدادها بأنها لم تسر أكثر من ١٩٠٠٠ كيلومتر . أيها السادة ، أمامكم هذا الصندوق الكبير الذي وضع تحت تصرفكم ، وهو يتوفر على كل الادوات الضرورية للقيام بعملكم في أحسن الظروف . وأمامكم أيضا كيلومترات من الحبال تساعدكم على تعليق الحيوانات الى الأشجار . واطلب من النسوة ان يتخذن أمكنتهن على الكراسي الموضوعة في الحديقة ويبادرن الى تشجيع المتنافسين الإبطال . ولست في حاجة الى القول بأن الكبش هو رمز بلدتنا وبأن المراهنات على هذا الحيوان تمثل المصدر الرئيسي لثروتنا بسبب كساد الحرير ! لقد أبيت الا أن أنظم هذه المنافسة لأعبر عن اعتزازي . فأنا أكبر مستورد لهذا النوع من الحيوانات في العالم ثم انني أردت أن أشكر المستر براون والجنرال يهودي على المساعدة الفعالة المنضبطة السريعة التي قدمها لولايتنا هذه . أيها السادة اتخذوا أمكنتكم . انطلقوا . أيتها السيدات افتحن أيديكم هيا الى التصفيق ! » واتخذ التذبيح شكل طوفان أحمر . وشعرت مسعودة بمذاق الطرائد في فمها ، وكانت نائمة بينما كان قادة المقاومة الخمسة مجتمعين بلا انقطاع في غرفة الطمث التي ما نقصت حرارتها الخائقة ولا زادت عن 37 درجة . ثم قالت بصوت جهير : « انها مذبحة ! » وظلنت بناتها الفائحات بالقرب منها أمام رؤيا تستشرف المستقبل فاستيقظن مذعورات واستبد بهن أرق رهيب . وفي تلك الاثناء اتخذ التذبيح أبعادا مخيفة في حدائق الحاكم ، ذلك ان كل واحد

من المتنافسين أراد أن يفوز بسيارة الرولز في حين ان النسوة تحفرن كل التحفز وراحت الواحدة منهن تشجع زوجها أو عشيقها . وجعل المدعوون يخوضون في الدم المتجدد بمجرد ما يسيل من رقبات الاكباش ، ونالت الحمية من نفوس الجميع حتى ان المشاركين في ذلك السباق العجيب اضطربت مداركهم كأن مزقا من نعاس الليلة الماضية ظلت ملتصقة بأهدابهم المتناقلة من اللذة ومن تلك الرؤيا المذهلة عن نهاية العالم . وذبحت الاكباش وسط ثغاء هائل، وتخبطت قدر المستطاع وأقحمت قرونها في جذوع الاشجار التي علقت اليها حتى تسلخ وتستأصل امعاؤها الزلقة الساخنة النابضة . وكان البعض من تلك الاكباش حين تلفظ انفاسها تدفع بقضيبيها الى الانتصاب وتنفخ خصياتها حتى تنفجر انفجارا عنيفا . ثم ان الدفقات الحمراء وهي تندفع الى الاعلى استجمعت في طواياها رهبة الاكباش كلها ووحشية الذباحين الذي انتشوا بالكحول وبرائحة الموت . اما النسوة الجالسات على كراسيهن في الحديقة فانطلقن في جعجعتهم دون قيد أو ضابط لأن طعم الريح والطمع شقق بشراتهن وأحدث فيها أخاديد . والتمعت السكاكين في ضوء القمر وتحركت بسرعة خارقة . وكان على المتنافسين ان ينخروا العظام بضربات قوية محددة على الرغم من سكرهم حتى يكسروا القوائم من حيث يجب كسرهما بشيء من الابهة والافراط . وجلس الحاكم على أريكة موضوعة فوق مصطبة يتأمل الذباحين الثلاثئة وهم يعملون سكاكينهم في الاكباش المعلقة الى اشجار الحديقة الرائعة . وبدا وكأنه مأخوذ بالمشهد ، ونصب نفسه حكما دون أن يغيب عن ناظريه أدنى منافس ولو لثانية واحدة . وتمازجت الالوان والايقاعات والاصوات والاهوال . وحدثت الصدمات وتفجرت الانفخاخ وفاض ملح العظام . وارتسمت الحركات مثل بروق في ذاكرة البشع والرهبة وفي فجوات المفاصل . وتجمعت كل القساوة البشرية في عيون القتلة التي أفرزت حمية دافئة لزجة وقلقا ضاربا الى الزرقة بفعل كتل اللحم الزخم المترهل التي يشدونها بين أياديهم شدا حتى يتقدموا في اعمالهم بكل سرعة . حدث كل ذلك في سبيل شيء تافه كل التفاهة . وبدأ السأم ينال من نفس بندرشاه ، واستبد به الحنين الى زوجته التي ما استطاع نسيانها منذ أن هجرت البيت دون أن تطلب ما لها . وفاز المخرج بسيارة الرولز فقد ذبح كبشه وسلخه وأفرغه من أحشائه وانتزعه من الشجرة في ظرف أربع وعشرين دقيقة وتسع عشرة ثانية وثلاثة أعشار . وضرب بذلك رقما قياسيا ! وانتهى الحفل بأكداس من الشواء . وذرر الحاضرون اللحم

بمسحوق الكمون ورشقوا فيه اعواد القرنفل وسط جداول اللذة وشطحات الجنون .

واحتاج المدعوون الى ثلاثة ايام لتخمير الدم والكحول . وقضوا راحتهم تلك في حين انتهزت لجنة المقاومة الفرصة السانحة لاتخاذ قرارها الحاسم . وهرولت مسعودة نحو غرفة الطمث وأعدت الى اذهان القادة الخمسة انه لم يبق لهم الا اسبوعان وبعدها تكون في حاجة الى غرفتها . وأوضحت بأن الطبيعة لن تتردد عن الكشف عن نفسها في اليوم التاسع عشر من الشهر والحقيقة انها كانت لفنة منها لتحريك همهم وتشجيعهم على التعجيل في الامور . وهي التي كانت دائما تشكو من تسرع ساعاتها الفتها هذه المرة مترنحة متناقلة مثل ابنها وصهرها والمعلم والاسكافي . اما محمود الذي اتخذ شكل « رفيقة » شقيقته فراح يترصد الباب ، واستعد لازلاق الجدران وانزال السقف المشبوه ودفع الى جانبه قنابل مدخنة توهم الناس بأنهم في حمام خائف الحرارة حتى ان الجو يصير ضعيفا معتما يحول دون رؤية بعضهم البعض على بعد ثلاثين سنتمترا . على أن مسعودة منذ ايقافها ونجاتها على ايدي الطيور التي كثيرا ما طاردها واضطهدتها ، استعادت حيويتها وفورانها اللذين افتقدتها بعد دفن عتيقة . وراحت تقضي وقتها في صعود السلالم ونزولها بين قاعة الاستقبال وغرفة المحم الخائفة لكي تقدم الاخبار والطعام والتشجيعات . ونزعت الفزاعات من الاشجار وخبأت وراء الاثاث وتحت الامرشة خباز « فيينا » ادولف بيننهورست وزوجته « دوروتي » والخلفاء وغيرهم من حكام الامبراطورية الاسلامية السابقة الذين اشتهروا بقسوتهم واستبدادهم وتعطشهم للدماء دون ان تنسى المسؤول الحالي عن المنامة . وكان هذا قد غرق في هذيان نهائي بعد ان اضاع سيارته الرولز في منافسة لا تقدر عليها الا مسالخ شيكاغو والمستر براون الذي راح يتلاعب كيفما شاء بمصائر العالم في ممرات التاريخ وسرايب الدم الضائع هذرا . حتى الطيور التي اعترفت بالجبل ما عادت تخرب النباتات المعرضة لتقلبات الطقس والامراض منذ أن كفت الفزاعات عن حمايتها . والواقع أن مسعودة ظلت حذرة من اهوائها ومن نزواتها . وأدركت ان الامر لا يتعلق الا بهدنة مؤقتة وليس بمسألة نهائية . وكانت الاخبار التي تأتي بها من الخارج صحيحة ومشجعة . اما جنود الجنرال يهودي ومخرجو الفيلم الذين تقاعسوا بسبب تلك السهرة الداعرة فقد استبد بهم صدام رهيب . وجعل البعض

منهم يرى الواقع يتضاعف امام عينيه واصيب الآخرون منهم بالعمى المؤقت في حين ان عددا منهم سايروا أهواءهم الى ان ماتوا من الغم والقرف . وتدهورت معنويات الجنود ، وزادت من بلبلتهم تلك امراض التليف والامعاء . وكان البعض من المظليين يقعون تحت وطأة الحمى بين الوقت والآخر فينطلقون دون ان يخطروا مسؤوليهم . ويراهم أصحابهم وقد تمسكوا فجأة بمظلاتهم على سقف الغرفة واندفعوا صوب السماء على الرغم من توسلاتهم وتضرعاتهم وعلى الرغم من أوامر قادتهم . وما كانوا حينذاك يحجمون عن مشروعهما الماورائي ذاك أو يفكرون في بلدهم المدحور الذي تهدده جحافل البدو .

اما معنويات الشعب فكانت جيدة بفضل التنظيم السري المطواع المحكم حسب طريقة القرامطة التي اثبتت صحتها . وكانت تنظيمات هؤلاء قد مكنت من الصمود في وجه ثلاث من اقوى الدول الاسلامية لمدة اربعمائة واحد وخمسين سنة . وهي الدول الاموية والعباسية والفاطمية . وراحت التقارير وغيرها من الرسائل المشفرة بالارقام والاصفار تنتقل احسن انتقال بين القاعدة وقمة الهرم الثوري . ثم ان اختفاء الحوت اعاد الشجاعة الى نفوس المصدقين بالخرافات في حين ان سلبية المواطنين حالت دون حدوث أي رد فعل من قبل عساكر الغزاة . وتحطمت احلام المحتلين التوسعية على الاسوار العتيقة التي تلف كل منامي داخل قشرة لا ينال منها شيء ولا حتى تقلبات الاجواء الصحراوية . وبدأت قيادة الاركان الاجنبية تتسائل اذا لم تقع في كمين تحترق فيه شيئا فشيئا أو اذا هي لم توضع موضع السخرية لأن البلدة لا توفر أي فائدة اقتصادية أو مالية أو سياسية ناهيك بأن تتوفر على موقع استراتيجي . وراح السأم الذي يعرفه المناميون كل المعرفة ينتشر على وجوه القادمين الجدد لا سيما وأن الامر قد انتهى بفتيات الماخور الى مغادرة البلدة عندما ابصرن بتلك الجحافل من الجنود القساة وقد برزت رماح بنادقهم امامهم وتصلبت ذكورهم بين أفخاذهم . واتضح أن العادات المتبعة من قبل البغايا تحرم عليهن مضاجعة العساكر ، وقد هربن من المنامة خوفا من العقاب الذي تصدره عليهن قبائلهن ان هن تجاوزن تقاليد العشق والجنس . وبعد أن تخلصن من الرصاص الذي سددن به فروجهن لكي يحولوا بينهن وبين السين تيسسن ، أرسلنه الى محمد عديم اللقب والى قريبتهم مسعودة السعيدة لكي يذوب وتصنع منه القذائف .

لقد اغلقن الماخور اذن ، وحملن معهن المفتاح والمعلمة التي يفصح جمالها واناقتها عن أصل ارستوقراطي يعود الى اجيال سابقة عديدة . وخلت ساحة الربوة ، في حين ان مروض الحمام الذي اشتبه الناس في أمره وحسبوه الامام الذي ينتظره القرامطة حمل معه طيوره وغادر المنامة . وكذلك فعل القوالون والمهووسون بحب الله وبائعو المساحيق التي تذر في العيون ، والتجار المهريون والمتطببون والبهلوانيون وغيرهم . اغلقت سوق المهريين ابوابها بعد ان بيعت بها فيها مضى كل المحرمات وكل ما لم يكن موجودا في جهات أخرى بما في ذلك الاشياء التي لن يعرف اهل المنامة كيفية استعمالها بعد . وغاب المهريون بدورهم مصطحبين معهم مجلاتهم الاباحية واكسبرهم الممنوع وابر الاجهاض والطواحين التي تسحق الشجن وتحوله الى غبار للبهجة ، واخذوا معهم الجبن المثقوب الذي يذر في الطعام ، والاثواب الداخلية الهفافة ذوات اللون المثير ، والواقيات من الحمل ومن الامراض الزهرية ، والرنة التي تصب للجنة على الاعداء ، وسراويل الجينز التي تحمل علامات على الخياطة الدولية الرفيعة ، والذكور المصنوعة من الاسلاك الشائكة خصيصا للمازوشيين ، والادوية التي تعالج امراض الحنين ، والهواتف المتلفة ، والبسط الخضراء النطاطة المصنوعة فسي طشقند ، والمعقمات الآلية التي تمنح اللذة بالدوران حول ذاتها ، ومجلدات العالم الرئيسيين وهم يظهرون في اوضاع داعرة ، والمكاوي الحديدية المزيلة لتجاعيد الحزن . والآلات التي تخطط حطام البيوت الزوجية . والاوناني التي تخمر الزمن ، وقطع الغيار المستخلعة من سيارة الرولز ١٩ ، والاباريق التي تغلي السام ، والاثواب القادمة من ممفيس ، والبنادق ذوات النظارات التي استخدمت لاغتيال عدد من الزعماء السياسيين ، والخردوات المهربة من ميناء اوديسا ، وسيف سيدنا علي ، ومخطوطاتهم المنتحلة التي صححها وضبطها محمد عديم اللقب ، ومنمنمات الواسطي ، والاجهزة التي تطيل العمر بعشر سنوات على الاقل وبضمان حقيقي ، وحيوانات الكنفورو التي تتكلم اللغة المنامية ، والمقاصل التاريخية ، والاقراص التي تدفع على اللامبالاة ، والاجهزة التي تشوش الزمن ...

لم يعد هناك من شيء يمكن القيام به ، حتى المشي صار متعبا بسبب الحرارة اللافتحة . بل ان اشجع المنامين اجمهوا عن ذلك بعد محاولات قصيرة اقدموا عليها . غير ان الحجارة جعلت تتضاعف في حين ان الصحراء راحت تتسلق الاسوار وتغزو البلدة وانبجست الانصاب

الضخمة من الارض المتشققة من الجفاف ، ونبتت الحجارة مثل الفطريات ،
وتدافعت العناكب العملاقة وتزايدت العقارب . ثم ان محيط المنامة الذي
لم يعد يشجع احدا على التجول ، تشوك بأشواك ما رآها الناس قبل
ذلك ، وتتالت الكوارث . ثم كان في أحد الايام ان نصب كمين للجنة
المقاومة التي ارادت الاستجمام في المقبرة الامريكية لمقابلة منسقي مختلف
المناطق في البلدة . وتسرب أحد متسقطي الاخبار بين افراد اللجنة وسرعان
ما القي القبض عليهم باستثناء محمد عديم اللقب الذي استعمل ظله لأول
مرة بطريقة ذكية جدا . فقد نفخه الى أن صار شبيها به وحسبه الاعداء
الفريسة المنتظرة ، وهو الامر الذي احدث نوبة من الضحك بين رفاقه الذين
اقتيدوا تحت حراسة الكلاب الالمانية . وغادر محمد المنامة في نفس اليوم
واتخذ وجهة مجهولة ، وبعد أن أطلع كلثوم على تلك الكارثة وعلى ضرورة
ان تضطلع النسوة بالامر حتى يعود بألة حربية حقيقية . « لقد انتهت
الخوارق الآن ! وترك القرامطة لنا عدة هائلة في بداية هذا القرن الرابع
عشر ... فعلينا ان نستخدمها ! » . وخلال الفراغ الذي أعقب القاء
القبض على اللجنة السرية ، ثبطت هم المنايمين فاضطروا الى الانصياع
لتحذيرات العساكر . وتواصل تصوير الف ليلة وليلة مرة ثانية بعد ان
توقف شهرا كاملا . وجرى كل شيء في جو صفيق متوتر .

اضطرت فرقة السينما قبل ان تستأنف تصوير الفيلم الى ترميم الديكور ، وملء الاقنية المتييسة ، واسقاط وابل من الامطار ، واخراج الورق المفضض من صناديقه ، ونزع اغلفة الرافعات الهائلة ، وطلبي وجوه الممثلين من جديد اذ فقد كل شيء صورته الاولى ، وتيبس وعلته الشقوق والتجاعيد والعفن بفعل الزمن والرمال والحرارة ... كان لفرقة السينما كل الوسائل ... مقرونة بخيال خصب .

وهكذا ، فانها لم تجدد المنامة ، ولم تعمل على تركيب الواح الديكورات البراقة فحسب ، بل استصلحت مروحة السيدة « بندرشاه »^{١١} شرمت ذات يوم ذكرين عجبين ، واستخدمت مروحتها كمحرك لا مرئي لدفع البسط الطائرة التي كان من المقرر ان تحمل على متنها هؤلاء النائمون الايقاظ الذين تتحدث عنهم الاساطير . وعلى الرغم من الصعوبات المتراكمة فان المتصرفين استطاعوا ان يوظفوا بعض الخونة لكي يظهروا في المشاهد التي تصور في النهار ، واعطت لهؤلاء الخونة الادوار حتى ان النائم الاول سقط رأسا من بساط الريح لكي لا يستفيق أبدا . واستبدل بمجنون آخر فنجح في العملية ، الامر الذي اعتبر ضربا من الخوارق الرياضية والاستفزاز السياسي .

كان مكان التصوير محاصرا بجنود متوترين ، أصابعهم على الزناد ، مستعدين لاراقة الدماء . وعندما انتصف النهار ، وصل الى مكان التصوير تلاميذ « علي الفقيه » الذين دربهم أحد أعضاء الخدمة الاجتماعية لجيش المستر براون . وكان هذا يتحدث اللغة المنامية بكل طلاقة ، وبغثة عمد

هؤلاء التلاميذ الى اشهار لوحات كتبت عليها شعارات معادية للوجود الاجنبي ، فحشدوا ، ثم وضعوا في القسم الدراسي الوحيد الخالي من المقاعد .

ذلك ان التلاميذ كانوا يصطحبون معهم تلك المقاعد في الصباح ويعيدونها الى بيوتهم في المساء بسبب نقص الاعتمادات المالية . وانتزعت سراويلهم وضربوا على مؤخراتهم واحدا واحدا . وما بكى احد منهم بل ان البعض اصيب بنوبات من الضحك مرددا حساسية مرهفة ، ولم يكن لتلك الحادثة تأثير كبير على تصوير الفيلم الذي كان قد بلغ المشهد الخاص بالمدينة المبنية تحت سطح البحر ، وتحول المصورون الى غواصين غير أن الشخوص الثانوية اضطرت ان تلعب ادوارها دون اية افئنة اوكسجين ولا اي لباس واق . وبما ان احدهم لم يكن يحسن السباحة ، ونظرا لرغبتهم في اظهار حماسهم للحصول على العمل كبوابين في قصر الحاكم الذي وعدوا به ، لم يترددوا في الغوص ، وفي ظرف دقائق معدودات ، ابصر الحاضرون بأجسادهم تصعد من الاعماق لتطفو على السطح، فكانت الكارثة . انتشلت على اثرها ثلاثون جثة ، أصبح من العبث محاولة نفخ الهواء في صدورهما . اما الخائن الذي افشى السر عن مكان تجمع اللجنة الثورية فقد اكتشف امره بهذه المناسبة . كان في عداد الفرقي ، وعندما انتشلت جثته ، لوحظ ان سبابته مصوبة نحو صدره — وادرك الشهود انه اراد ساعته الحقيقية والاحتضار ، ان يكفر عن ذنبه ويمارس النقد الذاتي بعد موته . اسمه « العربي حناش » . كان يحوّي الشعبين في منبسط الربوة ، كان الناس على يقين من أنه مذنب لأن جسده انتفخ ثلاثة اضعاف الاجساد الاخرى ، وانكمشت عيناه خجلا بدلا من ان تتسعا كحال سائر الفرقي . اما العنصر الاخير الذي يثبت تورطه وخيائته فهو تلك الرائحة الكريهة التي تنبعث من قبره منذ ان دفن الى ان كف العالم عن الوجود سنة ٤٠١٩ بال ضبط ، حسب التقويم الشمسي ، مثلما تنبأ بذلك دعاة الاديان كلها . وباستثناء هذا التوضيح الرباني ، فان أهل المنامة لاحظوا تلك البراعة المدهشة وذلك التشبث اللبد للذين يمتاز بهما الفنانون الاجانب الذين كانوا مزودين بوسائل ترداد ضخامة على مر الايام ، وقد جيء بها بواسطة طائرات ضخمة قادمة من النصف الآخر للكرة الارضية مرورا بخليجية التي كان ملكها يلعب على الحبلين بغية الحفاظ على عرشه والبقاء على احلافه الطبيعية والتقليدية مع ذوي الشأن . وقد نتج عن ذلك انه حين

استئناف تصوير الفيلم عمد الا جانب الى تغيير الطقس واسقاط الثلج الكربوني الذي لا يمكن تفريقه عن الثلج الالهي ، ازلقوا ساحة الطيور على دريجات كروية ونقلوها خارج أسوار المنامة ، لحاجتهم الى مجال فسيح ، وجعلوا مدينة كاملة تنبجس من تحت الماء ، وتسلاوا بدفع الطرقات للتقاطع فيما بينها بعد ان كانت متقاطبة ، وروضوا الطيور المغرورة المتحررة وارغموها على التفريد أو السكوت ، حسب هواهم ، واقاموا ماخورا ملأوه بالبغايا الرياضيات ذوات البشرات البرونزية اللبابية اللائي جيء بهن راسا من كاليفورنيا وانبثوا اشجار لوز مزهرة من صلب النبل الصماء واقاموا ضيعات ينبت فيها الحشيش الاصطناعي وتخب فيها جياد الازل الشهباء ، بصورة متباطئة .

وموجز القول هو انهم شوهوا طبيعة البلدة ، وحولوها الى مستعمرة يانكو — يهودية كأنها أرادوا الإقامة بها الى الأبد مع أنهم قد جاؤوا أصلا لتصوير فيلم ألف ليلة وليلة بأموال زوج « ليلي » لكي يبرهنوا للعالم اجمع من خلال تلك القصص العجيبة بأن الحضارة الاسلامية ملك للتراث العالمي وجزء من المكتسبات الحقيقية للانسانية . على ان مسعودة عديمة اللقب وان كانت متأثرة بالقاء القبض على أربعة من اقاربها وحلفائها وبالرحيل المستعجل لابنها الاكبر المحكوم عليه في ما وراء الاعمار والازمنة ، لا بالعزلة فقط بل بالنجعة وبأسفار العالم اللامرئي ، حزنت حزنا عميقا بسبب ذلك الثلج الكربوني ، « وأسفاه ! كان في مقدور هؤلاء الاوغاد ان ينتظروا عودة محمد لكي يلقوا بثلجهم من طائراتهم العمودية » وبعد عدة محاولات رشم مشهد المدينة المائية على شريط الفيلم . وصادف رضى المخرج عن هذا المشهد اضطلاع النسوة بزمام القيادة الثورية .

استعادت « شجرة الدر » ذلك الاسم الملكي الرامز لاثوثة اعطت براهينها ، ولم تنس أبدا ان نظيرتها الملكة قد قطعت رأس زوجها واقحمت خصيته في فمه لأنه خان ثقتها . عليها الآن ان تقوم بدورها ، فقيادة المقاومة تقع على عاتقها . وهكذا انطلقت توزع المهام . فكلت كلثوم بمصالح الجوسسة والجوسسة المضادة بفضل التأثير الذي لم تزل تمارسه على والدها . بينما فوضت مسعودة بالاشغال البيتية مثل اطعام أعضاء المقاومة ، وتلميع ارجاء البيت وتنظيف مطائر واقفاص الكاميشي ، واخيرا تنظيم التهوين . أما رشيقة التي كانت قد عاينت زوجها الساعاتي أثناء عمله ،

فقد عينت لصناعة قنابل موقوتة ومراقبة الساعات الجدارية التسع عشرة التي سوف تكون بمثابة كنز حربي في الوقت المناسب . وعلى الرغم من اختلاط هويات التوائم وتداخلهن فيها بينهن ، الا انهن كلفن باجذاب واغراء اكبر عدد من العساكر الاجانب الذين قد يعبرون بالقرب من الدار ويتحطيم حناجرهم بأطراف ايديهن مثلما تعلمن ذلك بمجرد وقوع هؤلاء العساكر في أحضانهن . وكانت مليكة بناصر المرأة الوحيدة التي احتفظت بهويتها وكلفت بالاشراف على تربية الحمام الزاجل الذي سوف تكون المقاومة في اشد الحاجة اليه . وكانت شجرة الدر مطلعة تمام الاطلاع على طرائق حرب العصابات لدى القرامطة فاهتمت بوضع مخطط للمعركة وبتحديد استراتيجية النضال الوطني بكل دقة . وعلاوة على ذلك كان عليها ان تنسق كل شيء وتراقب كل شيء . ولكي تكون مقنعة وعند حسن ظن النسوة ، روت عليهن تاريخ مقاومة نساء المنامة . واستهلت حديثها ذلك بمعركة الخصل الشهيرة التي كان محمد عديم اللقب قد وعد مليكة بأن يقصها عليها قبل زواجها بوقت طويل . لن استهل حكايتي بجملة « كان يا ما كان » اننا نريد ان نستبق الزمن ، فلنعجل اذن . لقد تعرت نسوة المنامة في سنة ١٥٣٢ ورقصن عاريات في في خضم المعركة . فكان ان استثرن الرجال حتى انهم انتصروا على الغزاة الذين كانوا اكثر عدد منهم واكثر استعدادا واحسن عدة . هذا من جهة . اما عن الخصل فهي معرفة ومن جهة اخرى ففي سنة ١٧٢٥ رأت علجية « التي تنتمي الى قبيلة المنامة بأن المحاربين قد انهزموا امام الاتراك ، فعمدت الى تكوين جيش من النسوة اللاتي سحقن الغزاة الاجانب وطردهن الى ما وراء الحدود وأخيرا وفي سنة ١٤٥٠ ثارت نساء المنامة ضد الرجال وانتصرت في حرب الجنس بعد سنة من المعارك والكمائن والمكائد . ثم انهن وقعن بعد ذلك بكل سهولة وبصورة تدريجية بين ايدي المنهزمين الذين لم يحرمنهن من انتصارهن الباهر فحسب بل ومن الحياة ايضا . وهذا الامر لا يزال مستمرا ، بل والادهى من ذلك ، فقد حولن الى حاضنات طبيعيات لدود القز بحجة عدم وجود الكهرباء . علينا اذن ان نستخلص العبر ، يتعين علينا ان نحارب على جبهتين ، فنعمل على الحد من غرور هؤلاء الطرايطر الاجانب ونضع حدا لممارسة همجية تتلخص في اعتبار أمخاذ النساء مجرد اشجار توت » . واما اسرع ما راجت في مختلف الديار الخطبة النارية التي ألقتها صاحبة الاسم البراق للملكة مصر والشام من ٦٤٧ الى ٦٦١ من التقويم الاسلامي . وقبل الرجال الذين أدركوا ان هنالك

اولوية مطلقة ، بهذا الوضع الجديد ودور الصدارة الذي تلعبه النسوة في الكفاح الوطني . لكن موافقتهم التي جاءت على مضض لم تكن تخلو من خلفيات خبيثة ودينئة « لنترك الزمن يفعل فعلته ! وسوف نرى بعد ذلك » قهقهة خاطفة .. صفراء .. زرقاء .. لكن فلنشد عزائنا ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار ضرورات الفترة التي انقلبت رأسا على عقب لتنفذ الى ابعاد اغوار الكون ومناخه وثلوجه المهرية . اخذت النسوة زمام الحكم وبث من جديد الوجه المعتم من حكايات ألف ليلة وليلة . بؤس شعوب تلك الفترة والعبودية والاعدامات الخوزقية والتمردات ، والقمع ، قطع الرؤوس ، الزنجيات غير البالغات اللائي يغسلن شروج الملوك بماء الورد ، الليالي العريضة ، الحريم الخدور ، الاستبداد ، وبطبيعة الحال ملحمة محمد بن علي ووقائع حياة وموت حمدان قرمط ذي الاسماء التسعة عشر المستعارة والحيل التسع عشرة والانتصارات التسعة عشر ، وشرحن التواطؤ السري الذي كان قائما بين ملك خليجية والمستر براون والجنرال يهودي وذلك الحاكم الشبيه بالقرود وماذا عن الف ليلة وليلة ؟ وتصوير الفيلم ؟ مجرد حيلة ! تهديد لاحتلال نهائي ...

تمت الهجمة الحربية الاولى لاهل المنامة ضد المحتلين دون ان يشعر بها احد ، وصنعت جارة لال عديم اللقب تدعى « زبيدة الحلوانية » ، مائة كيلو غرام من حبات « الشكولاته » ووضعت بها حبات السمسم بعد ان دست فيها عشرة ارطال من سم الفئران . وحملت السلعة على متن عربات تجرها احمره هزيلة ، ولم يبق الا الانتظار ... أوقف العساكر الاجانب الموكب ظنا منهم اكتشاف اسلحة ومتفجرات ولم يجدوا سوى شكولاتة مقرمشة من النوع الرفيع . وعمت البهجة . احتجز القائد السلعة ووزعها على اصحابه في نفس العشية . الحصيد : ١٩١٩ قتيلا بالسّم خارجة السنّتهم . وما لبثت ان وشمت زنجرة الموت وجوه العساكر الوسيمة ، اولئك الذواقين الاكولين ، بينها راحت العناكب النطاطة الضخمة تنسج شباكها داخل المخيلة المهترئة للباقيين على قيد الحياة . وقد تعودوا على هز رؤوسهم باستمرار كأنها ليتردوا تلك الرؤى المرعبة التي كانوا يمثلها وشهوها اثناء حفل الانتصار الشهير الذي ختم الصداقة النهائية بين المستر براون وبندرشاه او كأنها ليتخلصوا من حصى تتأرجح بحرية في دماغ كل واحد منهم . هكذا ازيل ١٩١٩ من رجال العدو من المجال الحيوي وتم ذلك كله بفضل فن « زبيدة الحلوانية » المشكلت ، واوضحت

« الدر » بأن هذه الحيلة الحربية هي القرين لتلك الحيلة التي عمد اليها الخلفاء العباسيون ضد القرامطة في سنة ٣١٤ من التقويم الاسلامي حيث ارسلت سفينة محملة بالفواكه بالقرب من الشواطئ التي يحتلها الشيوعيون المسلمون وعندما حجزها هؤلاء ، وزعوا محتوياتها على الشعب توزيعا عادلا . فلقي ١٩٠٠٠ شخص مصرعهم ! أما الحيلة الحربية الثانية فقد مكنت من تفكيك سيارة (الرولز) التي ربحها المخرج السينمائي . وقطرت زوجة الساعاتي التي قدمت يد العون الى بعلها اثناء اصلاح الساعات الجدارية التسع عشرة ، عشر غرامات من النيتروجلسرين في المصاييح التي تزين اجمل وأعلى سيارة في العالم . وانارت الاضواء المتلاثة قلوب اهل المنامة الذين أصبحوا يعانون هوان الهزيمة ومرارة الخيبة ، كانت العربية اصلا ملكا لملك خليجية بعد ان دفع ثمنها من امواله الخاصة ، وصفعتها المهانة بمجرد تلقيه الخبر فأبرق بتعازيه . وسارعت مؤسسة الرولز رويس الى ارسال ممثل تجاري .

وصل الى المنامة عند انقضاء نهار الاربعاء من يوم ١٩ مارس . كان يرتدي بذلة من « الالباجا » المقلمة لها زرقة الكوبالت حاملا حقيبة تنبي عن فخفته بينما كانت ربطة عنقه تلمع الهواء من حوله وكان من الجمال حتى ان اللجنة النسوية السرية ترددت في نصب كمين له وقد جاء ليعرض آخر نموذج من سيارة الرولز وان يغري الحاكم بشراء سيارة جديدة من تلك الدار الشهيرة ، ربما انه كان قادما من بعيد وذا مظهر ملائكي ، فقد اقترح تخفيضا قدره عشرة في المائة لكي يظهر الاهتمام الذي توليه مؤسسته لمشاكل التنمية في بلدان العالم الثالث . وكان من الجاذبية بحيث ان « سمكة » الفتاة التوأم الاخيرة التي كانت مكلفة بتحطيم حنجرته وقعت في غرامه ، غير ان اللجنة كانت على كامل اليقظة وبينما كانت المساومات مع الحاكم على اوجها تولت كلثوم امره واجتذبت الى الحديقة ، ومنحته قبلة الموت .. تحت شجرة المشمش . وعندما هبط الليل ، رفعت الجثة فوق احدى الاشجار بمثابة فزاع تبيست بسرعة وآلت الى ان تشبه مرهب عصافير ، غير ان السلطات غشيت ابصارها عندما اقدمت على تفتيش دار عديم اللقب بحثا عن الفتى الجميل صاحب الحقيبة الذي يعد بمستقبل باهر جدا . وهكذا فقدت مؤسسة الرولز رويس سوقا هامة ومثلها المتقل . وبعد ان سلا فؤاد سمكة ، عمدت الى النقد الذاتي ، واقسمت على ان تكبح هواها الى ان يعود اخوها الاكبر الذي ذهب يبحث

عن ذلك السلاح الفتاك القادر على ابادة سيطرة الاجانب وغرور عملائهم .
اثر كل عملية ، كان الحاكم يحتجز مائة من الرهائن ليحتفظ بها ،
ويعدمها في الوقت الذي يختاره ، وخلال ذلك ، كان يعذبهم يوميا في اقبية
مقره الفخم ، ولم يخطر على بال أحد ان يشك في امر النسوة ، وجعلت
كلثوم لسهولة ولوجها مكتب والدها ، تسرق الوثائق منه وتنقل الاخبار الى
السجناء ، وكانت اثناء ذلك تلتهم الكتب التي تركها عديم اللقب ، وتنظف
بوقالها الذي لا تنفصل عنه ابدا وتفكر في امر العلاقات بين الحب
والسياسة ، وقد عقدت مقارنات لم تدر بخاطر انسان ، وعزت نفسها
قائلة بأن الاهواء الحقيقية هي تلك التي لا يعيشها المرء أبدا . ووقعت
تحت وطأة هذه الفكرة ، فضاعفت من حيلتها ومكرها وتوصلت الى الاطلاع
على الوثائق السرية التي كانت في حوزة والدها ، وعلى الاخص منها
المراسلات بين ملك خليجية والجنرال «يهودي» المنقولة بواسطة بندرشاه .
واتضح التواطؤ من خلالها وبرز الموقف المناق للملك خليجية على حقيقته ،
فهو الذي كان يسير الامور في الخفاء ، وقد استنسخت برسوم رمزية ،
الرسائل والوثائق البالغة السرية ، والدلائل على المؤامرات والمذابح ،
واخرجت الاف النسخ منها ، ووزعتها على سكان البلدة الاميين القلائل
الذين لم يدخلوا السجن . وفي نفس العشية ، نظمت حملة اعتقال واسعة ،
والقى القبض على السكان كلهم باستثناء الاطفال الذين لم يبلغوا تسعة
عشر شهرا من اعمارهم !

في ذلك الوقت بالذات ، قررت مسعودة التي سئمت من تنظيف اقفاص
الكاميشي وطيور الفردوس ، ومن غسل مؤخرات اطفال محمد ومليكة
ومن تنظيف البيت ثلاث مرات في اليوم الواحد ، ومن سقي النباتات الهشة
بدم الطمث العائلي ومن حراسة الطواحين التي ترحى الزمن ، ومراقبة ما
اذا كانت جثة العون التجاري لمؤسسة الرولز رويس تيبس كما ينبغي فوق
شجرة المشمش، ونقل الاثاث من مكان الى اخر للتصويه على العدو، وترصد
الساعات الجدارية التسع عشرة التي كانت تشك في انها تخدعها وتلتهم
ايامها ، قررت ان تكون لها كلمتها في الموضوع . فارتدت أمتن صدرية
ولبست ثيابا بالغة الاناقة ، وغطت وجهها بحجاب من حرير المنامة الخالص
وغادرت البيت دون ان تخبر احدا ، وعندما وقفت قبالة حارس مكتب
الحاكم ، تجنبت اثاره الفضيحة ، فجذبت نحوها والقمته الحلمة البنفسجية
الضخمة لثديها الايسر ، ولما ذاق الفتى حديث البلوغ حليب النسوة لأول

مرة ، غاب عن الوعي وهو يمض شفتيه ، واسترجعت مسعوده نديها الذي كان اكبر من الابن بقليل ، واندفعت بكل صخب نحو مكتب الحاكم ، وهو منهمك في مناجاة صورة زوجته السابقة التي ظل يحبها حبا جارفا . هو صق بما يراه ، تلعث ، وقد ضبط متلبسا بجنحة الحنان . هو ، صار يتملق . هي ، اشفتت عليه ، هو ، غبطها على صحتها المشعة . هي ، لاحظت ان التحلل العضوي حوله الى هيكل عظمي لا يتجاوز ١٥٢ متر . ونبتت له غدة درقية مكان حلقه . هو ، كالمذهول . بالاضافة الى رائحة الكافور والعنبر المحروق التي تبعث على القلس والتي تنفذ من جسده ، والتمعت عيناه ، ثم خبا اللعنان . أنا في خدمتك يا مسعوده . اي ريح جاءت بك الى هنا . لعلك لاحظت انني لم احبس اي واحد من ابنائك ! مسعوده صامتة . تخلصت من حجابها . أحس بأكبر خوف انتابه في حياته . اتمنى الا تخفني بين ندييها ، وضاعف تملقه ، الذباب كثير هذه السنة . تتركه يتنحنج ويثرثر . بهم بحركة ويقفز وراء مكتبه . لقد كان في ميسوره ان يصبح بهلوانيا رائعا ، مسعوده صامتة . يتسائل عما تدبر له . يريد ان يطلع على دوافع هذه الزيارة . واخيرا فهم . سوف يطلق سراح صهرينك والشيوخ والمعلم . انها قضية وقت مجرد خطأ قضائي . لا خطورة في الامر . انهم في صحة جيدة . غمره الابتهاج . ظن بانه استلطفها . وفجأة راحت تقرقع بحمالة صدريتها وسط ذلك الصمت المطبق . كان الصخب جهنميا ، اعصار يجوح المكتب الواسع . والاثاث يهتز ، والمروحة الهوائية تتأرجح ، والاوراق تتطاير ، والمحبرة العتيقة التي استعملها السينمائيون سابقا كنبولة تتدفق عن نوازل بنفسجية .. هي ، تضاعف صخبها وسرعة حركتها . هو يصاب بالدوار : « توقفي يا مسعوده ، انك تعلمين جيدا ان لي دماغ تحت جلد الشعر .. ادنى ذنبه .. » لا تحسب له حسابا . تضاعف الوتيرة والايقاع . تواصل بشدة اكبر . « حسنا ، ما الذي تريدونه ؟ اطلبي ما شئت ، اي شيء ، ها انذا اوقع الامر باطلاق السجناء على الفور » يكتب ، يوقع ، فجأة تتوقف مسعوده بكل عنجهية ، تغادر المكتب بعد ان اعادت الحجاب الى وجهها . وصفت الباب ، تمزقت حمالتا صدريتها . اما الحارس الذي كاد ان يتسم بحلييها الرديء الذي حمض بفعل الغضب ، فقد ظل يئن على الارض ويلق التربة بلسان شبق ...

اطلق سراح السجناء في نفس العشيّة ، مسلحين بالسكاكين

وبالشوكات القديمة ، وزحفوا على ما تبقى من جيش الجنرال «يهودي» . وكان الجنرال نفسه قد أصيب بمغص قلاعي فعاد القهقري ، بطريقة تكتيكية ، وأقام قيادته العامة فوق جبل خارج المفامة . وما لبث أن بدأ يقبل البلدة بكل نوع من انواع القذائف . ردت الاسوار كعادتها تلك القذائف الى مكان انطلاقتها فكانت المذبحة في صفوف العدو . واحتفل بذلك الانتصار الشعبي ، وخرجت مسعودة الى الشوارع مع عائلتها وهي مبهورة بما حدث . كانت اول مرة تغادر فيها التوائم البيت . فقد كان من المتبع ان يبادر الناس الى زيارة عائلة عديم اللقب ولا يذهب هؤلاء لزيارة أحد . وقد سويت مشكلة الحمام اليومي بفضل تلك الجرة القديمة الشهيرة التي كانت أكثر نجاعة من الحمام البخاري . ولم تكن القبينة تذهب الى الحمام الا في الرابع والعشرين من كل شهر بعد توقف الدورات الشهرية عند التوائم . وراحت مسعودة تحدد بقلق في الوجوه بحثا عن ابنها « أتهنى الا يكون قد بتر ابهامه الايمن . هذا الفتى قادر على كل شيء عندما يعصره الشقاء ، انها غلطتي كان عليّ الا اتركه وحيدا خلال اشهر الحمل التسعة » وانحت عليها بناتها باللائمة لانها اطلقت العنان لنفسها في حين ان السكان وهم في غمرة السرور ارادوا ان يحملوها على الاكتاف . ورفضت بكل لباقة : « لست سلطانة ، تحمل على كرسي مذهب ! انا ام محمد عديم اللقب لا اكثر ولا اقل » ، وقد انتهز الجنرال «يهودي» فرصة السرور الغامر الذي سيطر على البلدة فوجه امره الى الطيران ، فانقضت الطائرة المحلقة على ارتفاع قليل ونثرت قذائف المنثار على البلدة وكانت المذبحة هذه المرة في الجانب الاخر . اما الذين نجوا من الموت فقد تراجعوا نحو بيوتهم . وكان آل عديم اللقب وحلفاؤهم سالمين . ومن جديد ، اعيد تنظيم الهياكل السرية ، ولعب بوحدة دور الفواصة بسبب حديثه ، ومعلوماته عن قوانين الفيزياء ، ودخل ما يشبه السرية ، كان يظهر بين الناس ويختفي حسب متطلبات القضية واوامر اللجنة المركزية المضيق التي كانت تتألف من النسوة فقط لاسباب حربية ودون اي تمييز . وتفكر محمود في شكل « رفيقة » نظيرته التوام . وازلق من جديد الجدران على سكنتها ، وفتح السقوف ، ودخن غرفة حفظ الطمث حيث كانت تعقد اجتماعات المسؤولات عن المقاومة . اما الرجال فقد دأبوا على لعب الدومينو ولعبة الورق وصراع الاكباش والمراهنة للتنويه . وتلقت الشخصوس الثانوية التي نجت من الموت ، الامر من المقاومة باستئناف العمل في مكان التصوير . وتغنى المخرج بالانتصار ، وبدلا من ان يمتطي سيارة الرولز رويس علق

على جيب قميصه شعار سيارته ، وتواصل التصوير في جو جنوني مغمم بالوهم والحمى . وحولت المنامة الى اسواق وازقة بغدادية وابتدئ في تصور مغامرات « هارون الرشيد » ووزيره وحكاية المتسول الذي اراد ان يصفعه الخليفة المتكر في زي تاجر بالاضافة الى الصدقة التي تلقاها منه . وادرك اهل المنامة الذين كانوا يشهدون التصوير عن بعد ، المغزى السياسي وراء تلك القصة . اما جيلالي بوحدبة الذي يمتحن حرفة اصلاح الساعات ويقوم بدور الفواصة لاسباب سياسية فقد اختلط بالجمهور وقدم توضيحات عن مغزى القصة « الملوك يرون ان الشعب هو الذي يطالب بالعقاب ، ومن ثم فهم يضطهدون الجواهر ارضاء لاهوائها » وتبادل الناس التعاليق وعكروا جو التصوير . على انهم سرعان ما ابعدوا عن المكان في حين ذهب الساعاتي لكي يرى ما صار اليه امر الساعات الجدارية الصقلية التسع عشرة التي تمتلكها حماته ، رمز المقاومة ومحررة الناس بفضل صديقاتها الاسطورية .

كانت لمحمد عديم اللقب وهو يغادر المنامة فكرة محددة في ذهنه . كان يرغب ، على غرار اساتذته القرامطة ، ان يذهب الى مملكة خليجية ويسرق الحجر الاسود . كان القرامطة قد احتجزوه في السنة المقدسة ٣١٩ من التقويم الاسلامي واحتفظوا به في مدينة « السواد » لكي يجنبوا الحجاج مضیعة الوقت وتبديد الاموال التي يمكن استخدامها للتغلب على المجاعة ويحصر نطاق الاوبئة ولكي يعيشوا سعادتهم الارضية البسيطة . وبما ان الحجر الاسود الذي لا يتجاوز حجم كرة القدم ، كان رمز الدين العقيدة ، فانهم ابعدوه خارج الحرم ، لبعث المؤمنين على التقاعس ، ولنزع الهالة المقدسة عن الشعائر الدينية التي كانوا يريدون مقاومتها وتحويلها الى بضعة قوانين بشرية وقواعد اجتماعية ومبادئ عقلانية تمكن البشر من العيش سعاداء على سطح الارض ، اما الباقي فلا يهمهم ، بل تركوه للملوك والامراء الذين كانوا متمسكين بامتيازاتهم ، مندفعين في النشوة والتبذير ، في حين انهم كانوا في مقابل ذلك يطالبون شعوبهم بالتقشف والزهد والاستشهاد . وقد أحرق القرامطة القرآن مثلما فعل الزنج . والخطا كله يعود الى المتنبى الذي كان مصابا بهرض العظمة ومهووسا بالله وبنفسه . لقد اوقف المطر ذات يوم واعلن بأن اسلوب القرآن ركيك . فقد كان يقدس كل ما هو مكتوب في زمن ساءت فيه النبوءات والمدائح الدينية ويثنى على القلم والكتابة . وقد هتك المتنبى

فيما يقال بكل المحرمات وكان وهو في التاسعة عشرة أول من اراد ان يفضح هذا الرمز الذي كان الخونة يستخدمونه لتضخيم ثرواتهم . محمد عديم اللقب يريد نفس الشيء هو الاخر . رجع الى المنامة بكل سرية . والحجر الاسود تحت ابطه لكنها ذهب الى السوق ورجع بدلاعة ، وصدر امر دولي للبحث عنه . وكان ملك خليجية في ذروة غضبه . وبما ان المنامة لم تكن موجودة على اية خريطة جغرافية جديدة بهذا الاسم فان الدروب اختلطت على شرطة العالم ، وانتظر الناس ان يقدم طلب بندقية .

غير ان عديم اللقب شرح الموقف وقال بأنه لا يريد الا ذهاب الاجانب ونهاية التحالف السري بين ملك خليجية والجنرال يهودي ، وايقاف تصوير ذلك الانتاج الضخم لانه تشويه صارخ للتاريخ الملموس ، واستدعاء بندرشاه من قبل الحكومة المركزية المهددة بوقوع حادث جلل ، وارجاع بحيرة التماسيح الى الفلاحين الفقراء الذين كانت اجسادهم وارضيتهم تفترق الى الماء . وكلفت كلثوم بتسليم الرسالة الى والدها . « من العبث ان نبحث عنه في غرفة حفظ الطمث ، ستضيع وقتك ، انه في مكان ما من الصحراء مع حجره الاسود ، ولا احد يستطيع الاتصال به لانه يحمل معه كيلوغراما من الليتروغلسرين الذي يمكن ان يحيل به الحجر الاسود الى كومة من الغبار ، احذر منه قد يوصله جنونه الى تحديكم ، وهو يطلب الى جانب ذلك ان تنقل هذه الرسالة للحكومة المركزية » . حدث في الامر اخذ ورد ، وعرض ملك خليجية جسرا من الذهب على محمد عديم اللقب ، وارسل زوجته الرابعة ليلي بندرشاه بنفسها لكي تتفاوض معه بشأن الاقتراح . كان من المستحيل الامساك بمحمد بفضل حذائه المطاطي المألوف ، ناصع البياض ، الذي بهر رشيد بناصر منذ ان صار صديقا له وساعده في محاولته تحديد البيت السابق لابن خلدون بفضل ادوات مسح الاراضي ، اي قبل وقت طويل من زواجه بمليقة وقبل ان يصاهره . احيط الشعب علما بالقضية بواسطة منشور رسمه المعلم الذي احجم للمرة الاولى في حياته عن رسم رسائل الحب . وتضخمت الاشاعة لتتجاوز حدود الاسوار ، وحدثت هزة في الحكومة المركزية التي تناست رغم جهودها حتى وجود تلك البلدة في آخر نقطة من العالم ، حيث كان قد سبق لها ان ارسلت اليها بحاكم ولم يتلق عنه اي اخبار . وظن الناس في العاصمة المركزية ان المنامة قد غاصت تحت الرمال او نقلت من مكانها الى خارج الحدود الوطنية بفعل تلك المستنقعات المتحركة المحيطة بها او اندثرت تماما على اثر زلزال ،

وهو امر كثيرا ما يحدث في المنطقة، وتاثر المسؤولون لهذه القضية وانقسموا الى شطرين ، شطر يريد المحافظة على مصالحه مع ملك خليجية وآخر يميل الى قطع العلاقات الدبلوماسية معه . ولكنهم كانوا في قرارات انفسهم معترزين ومعجبين بما حققه محمد عديم اللقب . لقد اعاد تاريخ حمدان بن قرمط الذي اخذ بالنصائح الشيطانية التي اسداها له الشاعر العبري الشهير بالمتنبي واستولى على الحجر الاسود في السنة ٣١٩ من التاريخ الهجري .

لاول مرة منذ زمن طويل ارسلت الحكومة بعثة عاجلة للتفاوض مع محمد عديم اللقب الذي لم يكن يبتغي من وراء فعلته هذه سوى لفت انظار العالم الى استبداد هذا الحاكم القزم والى اطماعه التي لا تحد . الم يرسل ابنته الى استراليا لكي تتعلم الرقص باكاديمية « سيدني » الملكية حتى يزوجها لملك خليجية ؟ وصل الوفد على متن طائرة عمودية كادت ان تصاب بنيران المدفعية المضادة للطائرات التابعة للجنرال يهودي ، هذا الذي ظل بالمرصاد خارج البلدة ، يواصل قنبلتها على هواه ، دون ان يتمكن من دكها بسبب تلك الاسوار المنيعة التي تقوم شاهدا على العديد من الحضارات والعديد من الاساليب المعمارية والمواد المختلفة التي لم يكن في مقدور اي انسان او اي شيء اخر ان ينال منها . كان المبعوث الرئيسي فتى ذكيا ، مطلعاً على نظرية الصراع الطبقي ، فقرر ان يقيم الوفد الحكومي بدار مسعودة عديمة اللقب ، ذلك انه لم تكن توجد بالمنامة فنادق ولان بيت الحاكم كانت اشبه بسوق فارسية تعج بالبشر والديكورات والاشياء الغريبة والمختلفة وبكل ما يساعد على صناعة الواقع وتحريفه في آن واحد . وانطلقت اللسانة السليطة تزعم بأن هذا الاختيار يجسد ارادة المتفاوضين في الضغط بكل سرية . ولطف على مسعودة حتى تعمل على ان يثوب ابنها الى رشده . وهمس البعض الآخر بأن الجمال الاسطوري الخارق لبنات مسعودة هو الوحيد الذي لعب دورا لا يستهان به في اتخاذ مثل هذا القرار . وعلى اية حال استقبل ضيوف مسعودة عديمة اللقب استقبالا حسنا وسلوكا مثاليا بفضل نباهة رئيس المتفاوضين وذكائه وحسن تعامله ...

كان المبعوث الرئيسي الذي اوفدته الحكومة فتى يرتدي على الدوام بذلة من « التويد » وصدارا وربطة عنق ذات عقدة كبيرة من نفس القماش ونفس اللون . وكان قد اصطحب معه صندوقا هائلا يحتوي على حاجاته . كان يبذل ثيابه مرتين في اليوم الواحد ، وتسبب في مشاكل عديدة لمسهودة لانه كان يستحم عدة مرات خلال النهار ويمنعها من سقي نباتاتها . ومن البديهي ان دم العادة الشهرية الذي يصب بنسب صغيرة على نباتات الحديقة لم يكن الا لينح القوة للفواكه والخضروات والزهور ، ولكنه لم يكن ليحل مكان الماء بأي حال من الاحوال . كان المبعوث الرئيسي متأنقا بشوشا دائما ، يخطط انفه بهناديل الموسلين ، اما ثيابه الداخلية فكان لها هزهفة الوهم ورقته . وكان الى جانب ذلك جذابا ، على ان مسحة من الشحوب تكسو وجهه على غرار هؤلاء المتفاوضين الذين تنفخ وجوههم سراديب المفاوضات والخلول الوسطى . اسكن الوفد في قاعة الاستقبال الواسعة ومع ذلك فان مبعوثي الحكومة كانوا مسرورين جدا لان تلك القاعة كانت ارطب قاعة في الدار كلها . اذ كانت تستقبل باستمرار هبات عباد الشمس الجديد الذي صار يتجاوز القديم بضخامته ويسرعه على الدوران حول الشمس . كان هؤلاء الموظفون الشباب مولعين بنبش الملفات . وجلبوا معهم بعشرات الكيلوغرامات من الوثائق والمراسلات الكاملة مع ملك الخليجية الذي كان يطالب بارجاع الحجر الاسود على الفور . كان مستعجلا بخصوص هذه القضية لا سيما وانه لم يبق على موسم الحج اكثر من شهرين . وخطر لهم في بعض الاحيان ان يستبدلوا الحجر الاسود بأي جزع اسود آخر لكنهم خافوا من ان ينكشف امر هذا

التدنيس فيفتجر غضب الملايين من الحجاج الذين ياتون كل سنة لتأدية الواجب الديني عدا الملايين الاخرى من المؤمنين الذين يتدفقون من كل صوب ونج ليشنقوا الملك المسؤول والمؤمن على هذا الحجر الذي يرمز الى تقوى وسذاجة الجماهير التي تجد فيه صداها منذ الاف السنين . وبما انه تعذر ايجاد أي حل لارجاع تلك الكرة السوداء التي ينبغي على الحاج ان يلمسها لكي يتقبل الله ونبيه حجه فقد جاءت السلطة الى التفاوض مع عديم اللقب المتخفي في الصحراء بين الاسوار وخطوط الجيش « البراوني » ، حاملا معه ثقله تحت ابطه ومتقللا من مخيم الى آخر ومن خيمة الى قافلة . كان اهل المنامة مقتنعين من انه يوجد بالبلدة نفسها ، ولكنه صار لا يرى بفضل مواهبه الخارقة والعناية الالهية ، ذلك لان الحجر الاسود الموجود في حوزته كان له مفعول السحر ، ويقيه من كل الغوائل .

استقبلت مسعودة تلك اللجنة الحكومية بحرارة وطلبت من رئيسها ان يعتبر نفسه في بيته ، على انها حذرت « ان لي ست فتيات عذارى وشريفات ولا اريد ان يضايقهن احد والا فانني سوف اضطر الى قطع رؤوسكم واحدا واحدا والى ارسالها الى حكومتكم بعد ان اضع في افواهكم ما يصنع فحولتكم ورجولتكم . اسألوا زوجة ابني ، انها ادرى مني بمثل هذه الشروح ! » وشعر المتفاوضون بالخوف من ذلك التهديد حتى انهم صاروا يتراجعون كلما قابلوا احدى العذارى ، ويدورون على مبعدة منهن او يغمضون عيونهم ويرتلون تراتيل غيبية ويشهدون الله على براعتهم وعلى صفاء نياتهم وعلى عماهم . وجعلوا يشتكون من ذلك الحمل الذي ينوعون تحته بسبب عيشهم جانب تلك المخلوقات الرائعة دون ان يقوى واحد منهم على امتطائها . ونال منهم الاضطراب والقلق والحيرة بسبب تلك الكوكبة من اجمل نساء البلدة ، فراحوا يفقدون ملفاتهم وكروشهم ودردشتهم . كانوا يشعرون بوله خفيف غير انهم احتفظوا بذكورتهم بمنأى عن كل غواية . ولبت الرعب في اعماقهم فتجرات كلثوم ذات امسية وقد حاق بها السأم والضجر ، فروت لهم ما صنعتها أمها بالسينمائيين الاجانب بمروحتها الشخصية . وبدأ المتفاوضون عملهم بواسطة « علاوة الاحمر » المعروف بنزاهته وسنه المحترمة وولعه بالدفاع عن المحرومين وبالصدقة الوطيدة التي تربطه بمحمد عديم اللقب . وقد ساءهم ان يلجأوا الى شيوعي معروف في سبيل ارجاع الحجر الاسود الى مالكيه الشرعيين في رأي بعض المذاهب وغير الشرعيين في رأي البعض الاخر . وبما انهم

كانوا واعين بخطورة الوضع وبذلك النسيان القاتل الذي راحت البلدة ضحية له ، أسكتوا تخوفاتهم ووضعوا قائمة بما هو مقبول وبما هو غير مقبول من بين مطالب محمد عديم اللقب ووافقوا على وضع حد لوظائف الحاكم وعلى حجز املاكه وتحويل داره الفخمة الى ملجأ للأطفال الذين قتل اباؤهم خلال الصدامات المختلفة والمظاهرات وتحت وقع القنابل ، كما وافقوا على تصفية ذلك الجيش المزعوم الذي انشأه ، وتحويل الثكنة الفخمة الى فندق دولي ، وطرد فريق السينما مقابل تعويض مادي ، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع ملك خليجية ، وكفى ! اما فيما يتعلق بارجاع بحيرة التماسيح الى الفلاحين الفقراء فقد اعلنوا بأنهم لا يستطيعون التدخل في الشؤون الداخلية لبلد اجنبي ولا انتزاع تلك البحيرة من ايدي الملاكين الجدد ، فقد كانوا اقوى منهم عسكريا وتكنولوجيا . على انهم قدموا اجابة مماثلة بخصوص ضرورة طرد عساكر الجنرال يهودي من ارجاء المنامة ، ذلك لانها لم تكن قوية فحسب بل كانت تستفيد ايضا من تواطؤات يصعب تمييزها بوضوح تام داخل المنطقة .

بعد بضعة ايام عاد « علاوة الاحمر » منهمك القوى متهاككا فقد رفض محمد كل حل وسط . كان يتفهم كل الفهم الحكومة المركزية في شن حرب ظافرة على العدو الذي ما انفك يقنبل البلدة برا وجوا ولكنه أصر ان يعيد ملك خليجية شراء بحيرة التماسيح . او لم يقدم جبلا ثلجيا بأكمله وبمبلغ يقدر بالملايين من السنتيمات كهدية زفاف الى زوجته ؟ وانطلق الاسكافي بوعد على ان تستعاد مياه النيل وتكون لمنفعة الفلاحين الفقراء الذين يعيشون على ضفافه ، ورجع بعد عشرين يوما ، ظن اثناءها المتفاوضون انهم سيموتون من شدة الحرارة ، واهلوا انفسهم شيئا فشيئا حتى اصبحوا يشبهون المتسولين القذرين مشعثي الشعر واللحي . بل حتى رئيسهم المتأنق وقع مقهورا تحت وطأة المناخ والزحار ، المخجل ، الذي ارغمه على الإقامة في المراحيض بدون انقطاع . كان علاوة الاحمر يتأبط الحجر الاسود المغلف في جريدة تقطر عرقا ، واضطر الى الانتظار حتى يخرج المبعوث الرئيسي من المراحيض لكي يسلمه له يدا بيد ، لكن هذا الاخير كان افرغ جسده من الماء حتى انه لم يدرك القيمة التاريخية لمثل تلك العملية الجديرة باحتفال رسمي . واحتفظ محمد عديم اللقب بحذائه المطاطي البراق وظل متواريا . لقد قرأه على الا يعود الى المنامة الا عندما يغادرها مبعوثو الحكومة حاملين معهم الحاكم والسينمائيين الاجانب والعملاء والجلادين والا

— حسبها حدد ذلك ضمن رسالة بعث بها — فانه سوف يضطر الى وضعهم قبالة فصيل الاعداد وينتزع منهم الرغبة في الحياة . وفي نفس العشية طوى هؤلاء الناس المنبوذون امتعتهم ، طلب بندرشاه ان يقبل ابنته كلثوم فرفضت رفضا قاطعا تلك الرغبة الاخيرة — كان يحبها حبا جما بقدر ما يحب بازه يوبا الثاني الذي — لوت عنقه ذات يوم من ايام غضبها لانها رأت انه من العيب ان يغذي باللحم النيء المستورد من مسالخ شيكاغو في حين ان هناك اطفالا يموتون من الجوع في المنامة . وازاء هذا الرفض ، ترجى صورة منها ، وكان في نيتها ان ترفض على انها قبلت بالحاح من مسعودة على ان تسلم له صورة صغيرة كدراء تبدو فيها وكأنها زنجية تسخر من مصيرها .

ونظم حفل هائل بمناسبة انطلاق الموكب المتكون من سيارات السينمائيين والعربات التي امتطاها صنائع بندرشاه والطائرات العمودية التي استقلها الوفد الحكومي . وشاهد بعض الناميين وهم يذرفون الدموع ويلوحون بمناديل الوداع للحاكم السابق الذي كرهوه كرها اسود . وكان مثل هذا التصرف امرا طبيعيا لناس مرهفي الحساسية ومستعدين لان يغفروا هفوات المهزومين حتى وان كان هؤلاء جلادين قساة قبل ان تدول دولتهم وكان آخرون يكون رحيل الحاكم لفقدانهم فيه اكبر مهرج اضحكهم كثيرا وبدد سأمهم واكتئابهم . لكن السكان كانوا منضبطين على العموم فهم لم يغالوا في اظهار غيظهم والشتائم المتفرقة الذي قذف بها حين انطلاق الموكب كانت صادرة عن طيور الكاكاتويس والبيغاء المتعدد اللغات !لفت انتباه المسؤولين لانهم كانوا بدورهم يرغبون في مغادرة جحيم المنامة لكي يستقر بهم المقام في حديقة وطنية او في احدى الحدائق الظليلة للحيوانات بالعاصمة ، وبدت البلدة خاوية صامتة وخفت حالة الهيجان وكف الجنرال يهودي بطلب من صديقه ملك خليجية عن ارسال القذائف نحو الاسوار بصورة مؤقتة وترك النصر في فم كل انسان طعما مرا ، وراح الناس يسيرون على اطراف اقدامهم ويتنحنحون بأخفت صوت ممكن ويتخاطبون همسا ، ويتشاجرون على انفراد . ولم يغادر اصحاب الطيور ولا مالكو الكباش دورهم — وكان محمد عديم اللقب يتلذذ بتلك الراحة التي كان جديرا بها ويقضي وقته في تبييض احذيته الشهيرة ، وساد الصمت العميق ، وسيطر الجمود .

ديكورات السينما وحدها التي خلفها اصحابها كانت تشهد بأنه حدثت بالمكان حرب عصابات ضد حاكم مستبد ومقاومة مسالمة ضد غصابة من ماضفي اللبان الذين كانوا ياملون تصوير الف ليلة وليلة من خلال تزييف التاريخ . وشيئا فشيئا ، استعادت النماة حياتها الطبيعية . واخرج المولعون بالطيور الابرياء اقفاصهم وعلقوها من جديد على شجر الساحة التي اعيدت الى مكانها بعد انصراف موهي الصورة والصوت ، وكذلك الامر بالنسبة لللزمة التي تحولت طوال اشهر عديدة الى روافد تجحف طميا وطنيا وللدروب التي حولت الى جنة من الحجر الاسمنتي والورق المقوى ، وبعد وقت من ذلك عمد المتراهنون بنوع من الاحتشام الى الخروج من دورهم لكنهم لم يجلبوا الا ذلك الجنس من الاكباش الذي لا يزال يسمى في العالم اجمع باسم جنس عديم القلب اي منذ ان عمل محمد على تهجين الاغنام التي استوردها الحاكم من استراليا بمعاذ النماة . واعيد طلاء الماخور باللون الازرق السماوي في انتظار الوصول المفترض للنساء الموشومات واستأنفت الحانات والمطاعم نشاطها المعتاد تدريجيا وفتح علاوة الاحمر حانوته ، بينما عاد رشيد بناصر الى قياساته مستعملا ادوات بدائية لانه كان قد حطم آلات القياس الحديثة خلال تلك الظهيرة التي ادرك فيها بأن السياسة هي حياة كل يوم وان بندرشاه قد شوه هذه الكلمة وجعل منها ارجوحة الموت البهلوانية ونوعا من القفز في الفراغ دون شبكة امان وانشفل « بوحدبة » ثانية بساعاته الجدارية الصقلية . كان قد فكك ونظف عشرا منها عندما تحول بفعل الاحداث الى ثوري فعال . اما عديم القلب فبالاضافة الى الراحة التي كان يتذوقها بكل هدوء في داره خلص ذهنه من ضربة الشمس التي اصابته اثناء اقامته بالصحراء . وعاد الى تنظيف اقفاصه والى تلقين الموسيقى لطيور الكاميشي وغيرها التي جاء بها الامازونيون قبل وقت طويل للمشاركة في المنافسة الدولية لغناء الطيور بالنماة . واستأنفت مسعودة نشاطها الفلاحي ، وجمعت دم العادة الشهرية للاخيرات من الفتيات التوائم العذارى واقنعت در بكل مهارة بأن تعود الى صناعة فزاعات جديدة لان الحرب مع الاعداء كانت قد وضعت اوزارها ولان المفسرين السابقين كانوا قد ملأوا بطون العث وزحف عليهم صدا الزمن والتهمتهم عناكب النسيان . عاد السلم وبدأ الناس يستنشقون هواء الحرية الذي فقدوا رائحته منذ زمن طويل . وعلى الرغم من قذائف الجنرال « يهودي » التي تعودوا عليها نوعا ما ، فان الحياة تابعت مسارها ، والرغبة في العيش صارت تنفجر في عروق اهل النماة وفي جشعهم

المضاعف من أجل العيش عيشة سعيدة . غير ان شيئا ما كان يحول دون اكتمال سعادتهم . فهم لن يروا بعد اثرا للحاكم الجديد وصاروا قلقين على مستقبلهم . ما الذي كان يخفيه القدر في جعبته ؟ ذلك هو السؤال الذي يطرحه الناس جميعا . اتراه سيكون افضل من بندرشاه ام اسوا منه ؟ وفتحت المراهقات غير ان الرغبة في الحياة كانت تمنعهم من التفكير كثيرا في المسألة والتمعن فيها .

وصل على متن عربية مذهبة اشترت — مثلها علم الناس فيها بعد — من مخازن الحاجات الثانوية اثناء اغلاق الاستوديوهات اليهودية مقابل بضع امتار مكعبة من الغاز الطبيعي . واستقبل بالتصفيق . واعادت الجياد ذات المناخر المليئة بالبخار الى ذاكرة مسعودة الواقفة عند عتبة دارها جياد التراجع العربي عن ابواب فيينا ، ذلك التراجع الذي مكن ادولف بينهورست من ابتكار حلويات « الكرواسا » الشهيرة . واعترف الساعاتي الذي كان منهمكا في معالجة الساعات الجدارية بأن الجياد الاصيله الشقراء استرعت الانتباه اكثر من الحاكم الجديد .

لم يكن مظهره يسترعي الانتباه لكنه كان اطول بحوالي عشرين سنتيمترا من والد كلثوم . واعلنت مسعودة قائلة : « هذا دليل على ذكائه » اما « حديقة » سادسة التوائم ، والثالثة في سلم العزوبية فقد اكدت انه كان من الافضل الاحتفاظ بذلك المتفاوض المورد الخدين الذي وقعت في غرامه دون ان يدري احد . واجابها « حامد » ثالث التوائم بأن الحاكم الجديد يبدو كأنه مخنث ومن ثم فهو غير شريف . وغضبت الدر من هذا الجواب ، فغادرت الطاولة واخذت قولة سليفها على انها مساس بكرامة النسوة . اما الشعب فقد كان ينتظر ان يحكم في الامر عن كثب كان يريد معرفة الطريقة التي سيستخدمها هذا المسؤول الجديد لتخليصهم من كشافه المستر براون الذين يسيرهم الجنرال « يهودي » بكل حذق وكانوا يتساءلون ايضا عن الشخص الذي سيلجأ اليه الحاكم لاستخلاف السيد « بري » في منصب البراح العمومي . واخيرا اراد معرفة القرارات الحكومية الاولى ولم يطل انتظارهم . اولا منعت النساء من تربية دود القز تحت سراويلهن وضجت العشرة الانثوية لآل عديم للقلب من الفرح . اما كلثوم فقد ارادت ان تعبر عن فرحتها فتجولت عارية في الدار واوشكت أن تغتصب من قبل « حميد » الذي لم يكن قد سلا حبها بعد فهددته بمروحة

امه التي التقطتها اثناء تراجع الاعداء السابقين فرقعت مسعودة بحمالة صدريتها من الفرح وهي التي طالما منعت بناتها من تلك الممارسة التقليدية . وهمهم اغلبية رجال النامة من الغضب ، الا ان عديم اللقب الذي كانوا يعتبرونه نبيا منذ ان سرق الحجر الاسود دون ان تنزل عليه صاعقة الله ، شرح لهم بأن الحاضنات الكهربائية سوف تحل اثناء توصيل الكهرباء في المستقبل محل النسوة اللاتي يمكن استخدامهن بعد ذلك في انتاج ثروات اخرى . وهدأت الضجة . ثانيا : اتخذ قرار بارجاع الحوض الياباني الموجود في بيت الحاكم السابق الى ما كان عليه اول مرة وتحويله الى مسبح بلدي مفتوح للجمهور . وتبادل اهل النامة النظرات وقد اخرجوا . لم يكن احد منهم يحسن السباحة . وعلق محمد عديم اللقب بقوله : « هذا اول خطأ يرتكبه الحاكم . خطأ اخر وتثور العاصفة » . ثالثا : قرار بعدم فتح الماخور لاسباب اخلاقية ووقائية وسكت العزاب والداعرون والاعناء على مضض . وتنهّد محمد وقال : « لو حولوه الى مكتبة عمومية لكان الامر افضل » على ان الماخور لم يكن محل قرار ذلك لانهم حولوه الى مخفر للشرطة للسهر على امن المواطنين وراحتهم . رابعا : قرار بتأميم محطة البنزين والقط الابيض الذي لا يزال يحرسها منذ اغتيال معمر القرية وكذلك ممتلكات بندرشاه . وتبودلت التهاني . اما شجرة الدر التي اعربت عن استنكارها اثر صدور القرار الثالث ، فقد صفقت ايها تصفيق . وانتشى الشعب ، واعلنت مسعودة بأن الحاكم شخص جميل اذا نظر اليه المرء عن قرب ، خامسا : قرار بضم حدائق النامة داخل تعاونية جماعية ذلك انه لم يكن في المستطاع انجاز اصلاح زراعي بسبب نقص الاراضي . ووقعت مسعودة مغشيا عليها . وعندما افادت من غيبوبتها ، كانت قد فقدت صوتها للمرة الثانية ، وادارت عينها في محجريها مثلما فعلت ذلك عند موت « عتيقة » . وتجمدت اوصال العائلة ، ورات في الامر مكيدة مدبرة ضد عشيرة عديم اللقب التي ندد بها الامام منذ ان تجرات على الاقتداء بالقرامطة وسرقة الحجر الاسود الشهير من مكة . وادى محمد زيارة للمسؤول الجديد الذي استقبله بكل ترحاب ، الا انه رفض رفضا قاطعا ان يتنازل عن قراره على الرغم من الحجة الدامغة التي قابله بها . « انها مجرد قطعة ارض سقيناها بدمائنا » وفهم الحاكم بأن الامر يتعلق بصورة مستعارة حلت محل كلمة العرق . غير ان محمدا لن يجرؤ على اطلاعه على وصفة والدته . « ليس هناك ما يمكن تأميمه هنا حتى الامام نفسه تقدمي » ورجع الابن البكر لعائلة عديم اللقب بخفي

حنين . ونصح الساعاتي بأن يأخذ الكل بأسباب الهدوء والصفاء . فالمسألة ليست أكثر من حماس لموظف شاب سوف يدرك الحقائق بسرعة . واقره محمد على قوله . فالقراطة هم الآخرون ، أمموا كل شيء ، ولكن لم تكن لبلاد ما بين النهرين علاقة على الإطلاق بالهكتارات الثلاثين من الأرض الفقيرة التي تمتلكها حوالي مائة عائلة من البلدة . حينذاك ، ثابت مسعودة الى رشدتها . واقنعوها بأن لا خطر هناك وجاء « علاوة الأحمر » ذات مساء وتناول العشاء دون ان يدعى الى ذلك . كانت شواربه تهتز فرحا . وحين انتهى من العشاء شرح القرار الخامس الذي اتخذه الحاكم . وقال بأن المنامة سوف تستقبل بموجب ذلك القرار رئيس الدولة عما قريب لانه تأثر ايماءا تأثر لفضائح بندرشاه وتصرفاته . ورغبة منه في اظهار مزاياه ، قرر المسؤول الجديد ان يؤمم كل ما هو قابل لان يفلح لان الإصلاح الزراعي كان على اوجهه في باقي البلاد ولكن ما هي الانجازات التي ينبغي عرضها امام المسؤول الاول في البلاد ؟ أهى تلك البساتين الجماعية؟ « هذه هي السذاجة عينها ، دعوه يزور الامكنة وسوف ترونه » واعلن الحاكم نفسه محاطا بمساعديه الذين خرجوا لتوهم من جامعة العاصمة بأن الزيارة سوف تبدأ في اليوم التالي . وصل في الموعد بالضبط . واندھش بأشجار المشمش الثلاث وشجرة الزعرور وأشجار دوار الشمس الخمس الهائلة والمربع الصغير من البقدونس والكزبرة . فقد كان يتوقع ان يرى واحة . واغاظ الامر مساعديه واحجم الجميع عن تأييم تلك القطعة الصغيرة من الأرض . حينذاك ، استعادت مسعودة قدرتها على الكلام وانشغلت بالامور الجوهرية . وعندما عاد « مهدي واعى » الى مكتبه الغى القرار الخامس . غير ان واحدا من ملاكي اصفر واتفه حقل للخضراوات بالمنامة جعل يضج بالشكوى . فهو يرى بأنه لا يمكن التراجع عن القرار المبدئي . ويعتبر ان حقله ذاك اصبح ملكا للدولة ، وما كانت هناك اى حجة لتهدئته . والحقيقة انه كان محبا للظهور ، يريد ان تنشر صورته الى جانب صورة الرئيس بمناسبة حفل التسليم الرمزي للعقود العقارية وامام صلابة الحاكم قرر ان يدفع شكوى الى المجلس المختص في بحث الخلافات والذي كان قد نصب مؤخرا وما جاءه من جواب وانتظر ساعته . وانتابته حالة من الصمت المطبق حتى ان الناس تخوفوا على توازنه العقلي .

وصل المسؤول السامي على متن طائرة رئاسية حطت على حلبة

تناطح الاكباش بالمنامة . وكانت الجماهير في ذروة الهذيان فتمكنت من كسر حواجز الشرطة الضعيفة خاصة وان اعوان الشرطة حديثو التعيين . وقد كان صاحب الحقل الذي آله ان يعاد النظر في مسألة التعاونيات الجماعية واقفا في الصفوف الامامية منذ الفجر الباكر ، وكان حاملا عصا طويلة ترفرف في قمته شكوى خطها معلم البلدة خلال الليلة الفائتة . وقد الح فيها على ان يتكرم رئيس الدولة بتأميم حقله الذي تبلغ مساحته ١٥٠ مترا مربعا . وبما انه لم يكن يستطيع ان يقترب من ضيف المنامة المحترم فقد وجد حيلة لنقل فكرته . وهكذا ، عندما مرت السيارة الرئاسية قبالته حرك عصاه بكل قوة فبلغت الرسالة غايتها . وقد تأثر الرئيس عند قراءته لها بكرم هذا المواطن فأدرك ما وراء شكواه ، فأخذ صورة معه في حديقة الحاكم السابق التي كان من المقرر ان تحول الى ملجأ للأيتام . وغمر السرور صاحبنا هذا وظهرت صورته الى جانب الرئيس في صف العالم اجمع وحصل على مبلغ قيمته ٢٠٠٠٠ دينار . حينذاك علق محمد عديم اللقب : « هانحن نسقط من جديد في تلك الممارسات المخادعة التي تزخر بها الف ليلة وليلة » فنظرت والدته اليه من عل وقالت : « اعلم تمام العلم انها غلطتي ان كنت قد ولدت وحيدا منفردا ، ولكن لا تنس بانك سرقت الحجر الاسود ، عليك اذن الا تمس رئيسنا بكلمة سوء » . وأثر محمد السكوت . ولم يرد ان ينغص عليها بهجتها بعد ان فرحت ايما فرح بخلاصها من التأم في آخر لحظة . وفي خضم سعادتها استعادت مشروع انهاء الطاحونة . ولم يكن امام ابنائها الا ان ينفذوا اوامرها . فقد كانت تطعمهم وتأويهم وتنظف ثيابهم ، وتعطيهم مصروفهم اليومي ولكنهم كانوا لا يعرفون ما يفعلونه بتلك النقود منذ ان تقرر اغلاق الماخور خلال المدة الاخيرة . وهكذا نسوا الحرمان الجنسي وراحوا يعملون كبنائين حقيقيين . وحامت مسعودة حولهم ، وذبحت دجاجة سوداء طهرت بدمها ارضية البناء . كانوا بصدد بناء هياكل الاستناد حين نقصهم السلك الحديدي اذ كانت البلدة تعاني من نقص في مواد البناء ، فتوقفت الاشغال غير ان دوار الشمس واصل جنونه وجعل يضخم الفضاء باستدارة زهوره وأرسلت مسعودة البقدونس الطري الى الحاكم ، غير انه رده اليها بحجة انه يرفض الرشوة من اي كان وقالت لها الدرة : « ارسلني اليه بكبش وسوف ترين بعد ذلك » غير ان الام فكرت في ذات نفسها بأنه يمكنه الانتظار ما طاب له ذلك ، واذا ما تمتعت في كبريائه فانها سوف تجد له النقيصة التي يخجل منها . كان ذئبا فتيما يعد نفسه لمهنة ينجح فيها . وكان يطمح الى ان يصير

وزيرا للري في يوم من الايام . وكانت المنامة ونقص الماء الازلي فيها يمثلان فرصة رائعة بالنسبة لكل من يريد ان يستعرض كفاءاته ويفتح امام نفسه طريقا الى المجد . كانت مسعودة هذه العجوز الداهية ، تنتظر ساعة افحامه . لكن الساعاتي الذي راح يتعلل بكثرة العمل وبعجالة المهام لكي يتخلص من واجب الزوجية قال لها : « دعيه وشانه » . كل الانظار مصوبة نحوه تترقب زلة . صارت المنامة مركز البلاد ، لن يستطيع ان يمسنا بسوء « اما الشعب الذي استبشر بعبير الحرية الذي صار يستنشقه فقد تناسى بأن الزوجات لم يعد لديهن الحق في تربية دود القز في سراويلهن . وقال احدهم بدهاء « لن يبلغ بهم الامر الى ان يأتوا للقاء نظرة على ما في الداخل » غير انه كان مخطئا . فقد انشأ الحاكم فرقة من مفتشات الاعضاء الانثوية للبحث فيها عن دود القز والشرانق وما شابهها من الحيوانات واتضح بأن الناس كلهم يمارسون التلبس والغش . فتهاطلت الغرامات ، لكن احدا لن يدفع مستحقاتها . وبأي شيء يتم الدفع يا ترى ؟ غير انهم تحايلوا على القانون ، فلأي شيء خلق الله الاباط ؟ لقد اعطى الله اثنين منها لكل انسان فليعبد الى استخدامها . وما اسرع ما تقوس دود القز في تلك الرائحة الناعمة للتجويفات البويرة واحجمت النسوة حينذاك عن انتزاع شعر الاباط ولم يرد المسؤولون شيئا . ويا لذلك الماكر الذي نزل ذات صباح بالمنامة حاملا معه حاضنة كهربائية ضخمة لدود القز ، لقد افلس المسكين في ظرف يومين . فقد كانت تلك الحشرات في مكان اخر ، فصرف النظر عن صناعة الحرير الالكترونية وظل حرير المنامة طبيعيا واحسن حرير من نوعه في العالم . ومن الصحيح انه كان ذا رائحة خصوصية ، تتأرجح بين صابون مرسيليا وجزوات النعاج خلال الصيف . ضحك محمد عديم اللقب على نهاية تلك المغامرة التي اقدم عليها ذلك الصناعي صاحب الحاضنة الكهربائية وفكر في مؤسس البلدة الذي لم ينجح كبير نجاح هو الاخر في ساعاته المائتة التي تشتغل بعرق الجباه وفي ساعاته الملحية . وما حدث ذلك الا لان المنامة كانت على مفترق طريقين : طريق الملح وطريق الذهب . واصحاب القوافل الذين كانوا ينقلون الملح والذهب كانوا مكرين جدا فلم تنطل عليهم فكرة تلك الساعات .

لم يكونوا في حاجة اليها ، لانهم كانوا اذكياء يحددون الوقت بالنظر الى النجوم ويسرقون اوقيات من الذهب ويضعونها داخل انابيب جلدية

ثم يقحمونها في شروجهم وكانت مراقبة ناقلي الذهب خلال القرن الثالث عشر تتمثل في اجبار اصحاب القوافل على التغوط ، ومن ثم فان كل من كان لا يستطيع ذلك او لا يريده يفصل راسه عن جسده في عين المكان . اما الذي يتغوط ذهباً فيلقى القبض عليه . ولم يكن مؤسس المنامة على علم بتلك الاشكال من التهريب وبذلك الصراع المستخفي بين المالكين والمشرّفين على نقل الذهب . وعلى الرغم من قرارات « مهدي واعى » فقد استمر الناس في صناعة الحرير بالطريقة التقليدية . والحقيقة ان اهل المنامة كانوا متعنتين . وقد نزلت زهرة بندرشاه من نفس العربة التي اقلت ذلك الصناعي الذي جاء لادخال الآلات المصنوعة في فرانكفورت . علمت زهرة بندرشاه برحيل زوجها المخزي فقررت ان تعيش بجانب ابنتها . وهكذا استأجرت كلثوم داراً قديمة قبالة دار عائلة عديم اللقب واستقرت بها مع والدتها . واستطاعت ان تهدي لها مروحيتها التي فتكت بالعديد من الفرائشات وغيرها من الحشرات الليلية الاخرى والتي سحقت الذكرين الاجنبيين الهائلين وكانت بمثابة سلاح لردع « حميد » حينما اراد ان يغتصبها ذات يوم لانها اغرقته بانوثتها الرائعة . على انها شعرت بالذبول وهي لن تتجاوز العشرين عاماً واستمرت في الاخلاص جسداً وروحاً ، لذلك الابهام الذي يسبح في محلول الهوى . اما والدتها فقد كست وجهها مسحة شفافة من نور ، وبرز جمالها ثانياً كأنها بمفعول السحر وكشفت عن وجهها امام الجميع . لقد تركت الحجاب يسقط عنها حينما فقد زوجها الذي راح يقضي حياته في عزلة هنيئة ولم تلبس كلثوم الحجاب ابداً على غرار « ليلي » التي انقطعت اخبارها منذ ان ارسلت للتفاوض بغية شراء الحجر الاسود وقد زعمت بعض الاخبار بأنها صارت من السينة حتى انها لا تنتقل من مكان الحريم الى مكان آخر الا بمساعدة زنجيتين هائلتين . وقد شوّهها الشره . ولم يخدمها الرقص في اي شيء ، وقد تخلى عنها الملك بعد ان ارتوى بطراوتها والنهم استدارات جسدها الرائعة ، ووقع في احضان محظية جديدة لم تصمد طويلاً هي الاخرى . وهكذا تركت وشأنها بحراسة امرأتين مرعبتين مزودتين بأسيايف حادة معقوفة ، وارخت العنان لنفسها ولن تعد تستغيث بأحد وبعدت الثقة بينها وبين زمن الرقص التصويري ، وصارت « سيدنى » عبارة عن سراب . وانتفخ جسدها الذي كان رائعاً فيما مضى بمقاييسه المذهلة واطرافه المتناسقة المدورة واقعدها انتفاخها عن المشيء واقلعت عن مراسلة اهلها في تلك الفترة اي عندما كان يرسل اليها والدها برقيات بالشفرة ولا يحصل منها على اي جواب . كان الملك

بالغ المكر وممارساته السرية تمكنه من التصرف على هواه دون ان يعلم به احد . وقد ظلت علاقاته بالمستمر براون سرية ، مثل علاقاته بالجنرال « يهودي » . وكانت الاقاويل تنطلق من كل جهة وتختلط بالحقائق . ويتزلق الحلم على سكة الواقع المرير لكن كل الاوراق كانت مغشوشة والحقيقة تموج في صفيق . وصارت مأساة « ليلي بندرشاه » في حكم الماضي . وانتهى الامر بالناس الى ان يحسبوها ميتة ومدفونة منذ زمن بعيد . على ان والدتها التي لم تعش بالقرب منها وقتا طويلا كانت تستعيد ذكراها بين الفينة والاخرى وترسل دموعها بعض الوقت قبالة المروحة التي لم تكن لتفارقها ابدا . ووعدتها ابنتها بأن تزرع لها امام نافذة غرفتها دوار شمس خارق يمكنها من الاستغناء عن هذه الالة القديمة الصاخبة والتي تشكل خطرا على الفراشات المسكينة . وقد الحت على ذلك لا سيما وانه كثيرا ما كان ينبغي تغيير بطارياتها التي لن يكون من المؤكد العثور عليها في سوق التهريب الشهيرة المهددة غالبا ببعض النقص في المواد . وكانت فكرة زرع دوار شمس سحري هي الحل الصائب وابدت مسعودة استعدادها لتقديم التركيبة وطريقة استخدامها . وعمدت خلال ذلك الى القيام بالخطوة الاولى ، وهكذا ، ودون ان تخطر احدا ، قامت ذات ظهيرة محرقة بزيارة شقيقتها بالرضاعة التي لم تلتق بها منذ ان تزوجت في نفس الفترة تقريبا . وكانت احدهما من نصيب حمال والاخرى من نصيب براح ماخور يحمل اسما مليئا بالوعود « القمر المنفرجة » لقد تم رهنهما لأول قادمين لان عائلتيهما تلقتا ضربات الحرب العالمية الثانية وافلستا في نفس اليوم .

لم تكن الحياة في الساحل سهلة دائما ولكن الطقس فيه كان رائقا .
على ان مسعودة عديمة اللقب وزهرة بندرشاه اللتين نشأتا معا في بيتين
متجاورين ورضعتا نفس الحليب زادتا في الطين بلة عندما جعلتا تضخمان
ثروات عائلتيهما ، وتسهبان في الحديث عن فخامة الاثاث وروعة الزرابي
وعدد الخدم وجنون الجنائن المزهرة والسطوح المكسدة بالازرق النيلي
المطلة على بحار العالم كلها ، والمرايا التي تغطي الجدران والمستوردة من
البندقية والاواني الفضية التي تلمع كل يوم والغرف المظلمة الصامتة
والنوافذ العميقة تنسدل عليها ستائر من القول والهفاهف المتلاشي والروائح
المختلطة بالعنبر والصنوبر والشمعدانات الذهبية المنقوشة في الموزمبيق ،
والثياب المهففة ولحي الالباء الوقورة المعطرة بماء الورد ، والاسرة
المصنوعة من الحديد والارائك المحشوة بريش النعام وناموسييات
الموسلين ومصاحف القرآن ذات الاغلفة الجلدية القرطبية ، وبسط
طشقند والالات الموسيقية التي لا يلمسها احد قبل ان يتوضأ ، وحلي
فاس وجاوي اسلام آباد ، وروعة النسوة الصامتات المتراحيات اللائي
يدعن الزمن ينساب من بين اصابعهن كما لو كان ماء مقطرا . ولم تكن
مسعودة وزهرة بندرشاه لتعجزا عن المبالغة في تلك المباهاة ، وبعد
فترة طويلة ، طويلة ، أي عندما عهد محمد عديم اللقب الى تزويج التوام
الاولى من شقيقاته تذكر تمجيد هاتين الاختين .

ولم تكن هاتان المرأتان تتحدثان عن الازمة التي ألقت بعائلتيهما
على الهامش وعجلت زواجهما برجلين لا ينتميان الى مكانتهما الاجتماعية .
عامل بسيط في مصنع للورق من جهة وبراح في مأخور من جهة اخرى .

على ان مسعودة لن تأسف لشيء ، فقد غمرها زوجها بأن خلق لها تسعة عشر طفلا ومبلغا من المال تأخرت مصالح التأمين عن دفعه ومنحة ضئيلة مكنتها من شراء الحبوب التي تحتاجها حديقتها . وزهرة هي الاخرى لم تندم على شيء ، ذلك لان زوجها لم يعد متعجرفا الا حينما عين حاكما وذاق هوس السلطة . اما قبل ذلك — فيها تتحدث هي عنه — فكان يعود الى الدار مبجوحا لشدة ماضج بعقيرته كالمجنون خلال يومه ذاك . وكان يخلد الى الهدوء ويقوم بصلواته ولا يقلق احدا . بل انه لم يكن يقوى حينئذ على الاضرار حتى بذبابة . السياسة هي التي جعلته مجنونا ، فلم يكن معتادا عليها . لقد وقعت على أم رأسه من حيث لم يكن يحتسب وتغير بين عشية وضحاها وصار يؤثر جراء البحر بعد ان كان مغرما بالسردين المشوي . يا لتلك النقلة ، ويا لها من سنة لعينة ، وعلى اية حال ، لقد ضربت المرأتان صفحا عنها . مع انها كانت سنة زواجهما . اما زهرة ، فعلى العكس من ذلك ، كانت تزعم بأن طعم الحليب الذي رضعته من ثدي والدة مسعودة لا يزال في فمها . يا للعجوبة لم تكن ترفع اطفالها فحسب بل كان الناس يأتون لينظروا اليها وهي ترضع اطفال النساء المريضات واللائي جفت اثداؤهن او ذوات النهود الضامرة وكانت والدة « زهرة بندرشاه » تنتمي الى النوع الاول . كانت رهيبة حتى انه كان من الممكن رؤية شفافية عظامها من خلال بشرتها . وكانت رخوة حساسة الانف والرئتين . يمكن ان تذروها ارق النسمات لذا وجب ربطها بالحبال الى سريرها حتى لا تقفز فوق سطوح العالم التي كشطها توالي القرون وقشرتها رياح الكون . وهي بذلك تنبي عن تعب اعتق منها وكانت عيناها السوداء والكبيرتان اللتان تلتهمان ما تبقى من وجهها الصغير هي كل ما يعبر عن واقعيتها . وبعد سنة من موتها ، كان الوالد قد افلس فتخلص من ابنته الوحيدة بأن زوجها بهذا « البندرشاه » الذي يجهل مدخولاته المشكوك فيها . على انه حين ادرك الحقيقة بعد وقت طويل لم يقل شيئا سوى تلك النبؤة التي تاكدت صحتها بعد سنوات قليلة : « انه من بذرة المحظوظين .. سيأتي يوم يصبح فيه رئيسا » .

اما والد مسعودة فقد ازدهرت تجارته ببيع قماش « البركال » و « الرياش والكتان المزفت والحبال المتينة وشباك خاصة بالصيد على ضوء المصابيح التي. نجذب الاسماك بل وحتى رياحا للسفن الشراعية

كان يشرف على حانوت والده الذي ورثه ابا عن جد بدءا من مصطفى قرحاني « القرصان الشهير ، صاحب الساعات الجدارية التسع عشرة . وكان هذا الاخير بعد ان احيل على التقاعد قد فتح دكانا في ميناء العاصمة . وقد اغلق هذا الحانوت بعد قرنين من ذلك التاريخ بسبب الانفلاس . وفي تلك الظهيرة اللامحة ، فتحت المراتان قلبيهما وتسارتا وتبادلتا قبلا رنانة اخرها القدر زمنا طويلا وتلفظت كلاهما بعبارات الحب والتقدير . وقد شهدت كلثوم ذلك اللقاء التاريخي الذي لن تنساه ما حيت وهي التي تعلم انه ليس من الممكن الاحتفاظ بدون اي عقاب بابهام رجل داخل ابوقال من « النورمول » الى انتهاء الاول .

بدأت منذ ايام قليلة تسير ، يحدوها الشعور بأنها توشك ان تخطو برجليها في الفراغ وبأنها لن تتمكن من التحرك دون الاستناد الى الجدران والاثاث والزوايا وكأن لها هوائيات شاحبة لا مرئية كتبت لها في لب بوتقة حنائها . كانت تحس بأنها تزداد خفة على مر الايام عابرة سبيل تتسم بالخفة ، مستلقية على مطارح الرخاوة والكسل معا واصبح حس الاتجاه لديها يلعب لها بعض المقلب ، وادركت فجأة انها قادرة على التجول مغمضة العينين في اي زقاق من العالم الكبير دون ان تسترشد بأحد كانت تتزحلق على مخاوفها مثلما يفعل الاطفال بمزاجهم وقد نبتت لها بين الاصابع زهيران صفراء بلون الزعفران . وعبثا كانت تقطعها كل صباح وتضعها في مزهريات الشجن لكنها ترشم من جديد خلال الليل بانتظام ومواراة مثلما نبتت لها في الماضي تلك الجزوة الجنونية تحت ابطيها . وكان ثقلها يخف دون ان تفقد وزنها ويعتصرها القلق خشية على عباد الشمس الذي وعدت ان تغرسه امام نافذة غرفة امها . وقد قيل في هذا الموضوع بأنها فقدت طلاقه لسانها وشيطنتها وعنفها وانها لمست قعر بليتها منذ الانتصار السياسي الذي حققه اهل المنامة ، على انها قد تستعيد عن قريب طبيعتها وبسرعة البديهة الخارقة لديها . ولكن لم يحدث ابدا شيء من هذا القبيل ، بل صارت خجولة حساسة تتلعثم في كلامها . ولهذا السبب ، فقد مر وقت طويل قبل ان تطلب تركيبة دوار الشمس من مسعودة التي لم تكن ترفض لها طلبا . صارت تبعدها الان ، في حين انها لم تكن تحتفلها قبيل خمس سنوات لانها رفضت ان تتركها تستولي على ابهام ابنها ، ذلك الابهام الذي كان الى جانب ذلك دليلا مخجلا على جبنه . وبعد مضي زمن طويل ، طويل .

تذكر محمد عديم اللقب اثناء تشييع جنازة امه ، ذلك اليوم الذي غرس فيه دوار الشمس بطريقة طقوسية في دار زهرة وكلثوم بندرشاه . ومسعوده التي لا تفوت فرصة لابرار مزاياها والتفننج حول الاشياء اخذت بزمام الامور تدفعها رغبة شديدة . فجمعت كل افراد العائلة . واستعملت دم « سمكية » الندي اصفر بناتها فقد حل اليوم العشرون من الشهر — ومزجته بماء ينبوع مقدس ، خارج المنامة ، وذرفت تسع عشرة دمعة على التربة التي كومتها حول النبتة الفتية ، ورتلت تعاويذ بلغة غريبة تلك التي تلفظ بها ابنها البكر يوم ولادته والتي لم يتمكن احد من فك طلاسمها الى اليوم ، سريانية ، آرامية ، عربية ، بربرية .

ونبت دوار الشمس بقوة الاعصار في ظرف ليلة . وفي اليوم التالي بسط ظلال وروده الهائلة على البيت ، وراح يتحرك فيبرد الغرف احسن من مكيف هوائي . والقي بالمروحة الى المزابل ، فالتقطها بائع خردوات . وقد بلغ سعرها بعد ثلاثة قرون من ذلك التاريخ سعرا خياليا خلال بيع بالمزاد العلني بقي مشهورا في حويلات التاريخ . ويمكن فهم هذا السعر المذهل اذا عرفنا انه استعمل كسلاح حربي عم الناس استخدامه ومكن النساء من حماية انفسهن من الهجومات الشبقية للذكور الذين لا يعرفون امسك فحولتهم . لقد تبدلت الازمنة وبدلا من ان تعتمد النساء الى اخفاء وجوههن والتهرب من مسؤولياتهن وراء حجب الغياب والانزواء صرن يشهرن تلك الالات القادرة على تفتيت اقوى الاعضاء .

وفي الوقت الذي كانت فيه كلثوم تذوب بتواضع ، بر الحاكم بوعده في تحويل مقر بندرشاه الى ملجأ شعبي للايتام ، وتم التدشين في جو من الفخفة ، لكن سرعان ما برز مشكل خطير امام رئيس البلدة الجديد .

فالناميون الذين تعودوا في ظل نظام بندرشاه على التحايل والاحتيايل والاستهزاء والمراوغة والغش في العاب الدومينو او في الرهان عالى الاكباش على حد سواء وجدوا ان لكل واحد منهم يتيما او عدة يتاه . وقد كانوا في واقع الامر يطمعون في الاستفادة من تلك الفرصة الفريدة والتخلص من اطفالهم بوضعهم في الملجأ . وقد كان من اليسير عليهم ان يستخرجوا شهادات وفياتهم او عقودا مزيفة تشهد على وفاة زوجاتهم حين الوضع . وهكذا ، لم يعد بالمنامة سوى الايتام . واخلى الاباء

السبيل ، تاركين زوجاتهم يتصارعن من اجل الحصول على مكان او على عدة امكنة في ذلك القصر الرائع الذي بناه بندر شاه خلال تنصيبه . والا فان النساء هن الذين كن يقمن بدور الاموات ، وفي هذه الحال ، كان الأزواج المنكوبون يتضرعون حتى يتم التكفل بشؤون هؤلاء الاطفال المحرومين من عطف امهاتهم الذي لا يعوض ، وهجر النوم اجفان الحاكم .

كان صف الطالبين يمتد ، حتى ان الاخيرين منهم كانوا يوجدون خارج اسوار المنامة ضمن سلسلة لا تنتهي . وبما انه لم يكن هناك سوى ثلاثمائة مكان ، فان السلطة المدنية قررت اللجوء الى القرعة . وكان اهل المنامة مولعين بالقمار ، والعباب النرد والمراهانات فقبلوا ذلك القرار بروح رياضية . ولم يكن هناك يتيم واحد من بين الاطفال الذين وقع عليهم الحظ ، ولما انتهش الندم الغشاشين الذين اسعفهم الحظ قرروا ان يتبنوا الايتام الحقيقيين حتى لا يفقد احد ماء وجهه . . ما عدا المعلم ، فقد ندد بتلك العملية المكلفة والدعائية في حين ان المدرسة كانت في حاجة الى المقاعد لان التلاميذ كانوا يأتون بها في الصباح ويصطحبونها معهم في المساء ، وعلى العكس من ذلك ، لم يجتذب المسبح الا عددا قليلا من الناس . وقد تقدم خمسة مراهقين وتجراوا على القاء انفسهم داخل الماء كانوا في مجموعهم من ابناء الشخصوص الثانوية المساكين الذين غرقوا اثناء تصوير مشهد المدينة المائية قبل بضعة شهور . وبما ان تلك العملية لم تكن مربحة ، ونظرا لنقص الاسماك في البلدة فقد انتهت الامر بالسلطة الى تحويل المسبح الاولمبي الذي بناه بندر شاه قبل ان يتعلم العوم الى حوض لتربية الاسماك واخذت البلاعيط تحطم الارقام العالمية في السباحة ، وذلك حتى تقوم بشيء ما داخل ذلك الحوض الهائل . على ان المشكل الحقيقي كان يتعلق باغلاق الماخور . اذ انتشر البغاء في الازقة وعجزت السلطة عن الحد منه . وكانت النسوة يطاردن الزبائن في وضح النهار ، ويلجأن الى حمل طفل رضيع معهن يستعيرونهن من ربات العائلات المتعددة لتتويهن رجال الشرطة وآل الوضع في هذا القطاع الى تدهور متزايد . وجن جنون الحاكم فطارد كل النسوة اللاتي يحملن رضعا واتهمهن بالتعمر في الطرق العامة . على ان الجانيات الحقيقات قد اخبرن عشية الكبسة ، واخذن احتياطاتهن واختفين في حين ان ربات العائلات المحترمات وجدن انفسهن جالسات في محكمة جنح التلبس بالجرم المشهود . فاقمن الدنيا واقعدنها ، وشتن القضاء شتما

لاذعا وخربن البناية عن اخرها فاضطر الحاكم انذاك الى اطلاق سراحهن مع اعتذاراته . وبعث يطلب محمد عديم اللقب لنجدته : « انت الذي ولدت هنا ، قل لي ما الذي ينبغي علي ان افعله انني لم أر شيئا مماثلا في اي مكان اخر . يستحيل ان تكون هذه بلدة ، انها ملجأ للمراوغين المتحيلين » .

تعاطف معه محمد عديم اللقب ، حقا ، كان في وسعه ان يؤاخذة على طموحه السياسي وجشعه الذي لا ينتهي ، غير انه باستثناء ضعفه هذا كان يعترف له بنزاهته وبارادته وبقدراته على العمل الدؤوب وواساه بقوله : « الخطأ لا يعود اليك . تنظيم الدولة امر صعب جدا . اعد قراءة ابن خلدون اذا لم تقراه بعد سوف تفهم بعد ذلك . اننا نعاني من وطأة سبعة قرون من الانفصام ان لم اقل عشرا ذلك لان الدولة في هذه المنطقة كانت قد انفجرت اثناء ضعف العباسيين . وانت لا تستطيع ان تقفز عشر قرون في ظرف عشر اسابيع » وانهمك الحاكم في دراسة كتابات المؤرخ اذ لم يسبق له ان قام بذلك ولم يفهم ما قاله محمد الا بعد ان فرغ من المطالعة . فما زال محمد عديم اللقب محل تقدير اهل المنامة بسبب خوارقه وحيله وشجاعته وكبريائه . وقد ظن « مهدي واعى » اثناء مناقشاته الاولى مع محمد ان محدثه ذاك مجنون . فما علاقه العباسيين بقرار ولائي لخلق ماخور ؟ وبينما كان الحاكم يستوعب دروس العالم باندهاش متزايد على مر الصفحات ، استأنف محمد عديم اللقب بحثه عن البيت الذي قضى فيه ابن خلدون اربع سنوات من حياته .

ومن جديد ، عاد ابن مسعودة البكر الذي بدأ شعره يتوشى بخيوط بيضاء يزرع البلدة عشرين مرة في اليوم الواحد ، واستعاد خوارقه لكي يجد طمأنينته : وهكذا منع ظله من ملاحقته مرة ثانية ايا كانت الساعة .

وتحدث الى عصافير الدوري بتلك اللغة المبهمة التي نطق بها يوم مولده وقدم لها غذاءها اليومي واستأنف دروس الموسيقى مع الطيور ذات السلالة الرفيعة مثل الكاميشي والكناريا وطيور الفردوس والقبرات ... وعاد الاتصال بجده محتسبا ما يكفي من النبيذ وهم نفسه بأنه موجود امامه وبأنه يتحدث معه في فناء الدار في الصباح الباكر مذكرا اياه دائما بتلك الجملة التي لن ينساها : « تأمل جيدا في ما هم قادرون على القيام به واياك ان تقول بأن الجواد العربي الاصيل احسن من كل

شيء » وناجى اباه حول انتحاره واستفسر منه اذا ما كان على اطلاع
بظروف موت الجاحظ . وكسر ضحك الاطفال ووقعة الدجاج وجمعية
الرحى . وابصر بالمنعطفات تمتد في خطوط مستقيمة وتتداخل بالافق كلما
اقرب منها . وذرع المنامة جيئة وذهابا في البحث عن مؤشرات واثار
ودلائل قد ترشده الى المكان الذي استقر به ابن خلدون لان زوجته كانت
تسخر منه كلما طلب منها ان تقضي له بالسر وتقول فجأة : « الافضل
ان تتصرف كالشيوخ لماذا تقلق هكذا ؟ سوف اقول لك السر حين يحين
وقته . لا تشغل بالك .. » وبما انه لم يعد يحتمل الانتظار ، فاجأ
نفسه وهو يهرب المنعطفات التي بمجرد ان تراه تمتد في خط مستقيم
صارم . وما كان ذلك ليفضي به الى نتيجة ما . كان في حاجة الى المعرفة
لان الامر يتعلق بعزة المنامة وفخار عائلة عديم اللقب ومصير التاريخ
العالمي ، هذا التاريخ الذي ينبغي فهم دواليبه وهياكله وتناقضاته لان
الشرط الوحيد الذي قد يساعد الحاكم على اقامة دولة حقيقية قادرة
على طرد الجنرال يهودي وارجاعه من حيث اتى وتجنب الكشافين
الصفار من ان يكونوا مثارا للسخرية ان عاجلا او آجلا . لكن الثغرة
كانت موجودة في الكتاب الذي نصحه عديم اللقب بمطالعة . بالاضافة
الى ذلك التبعثر في السلطة السياسية الذي يدوم منذ قرون ، لان
الشعوب نوعا من الغريزة وتناقضته جيلا عن جيل عبر المتاهات والمسارات
المتعددة التي تعاقبت بدون انقطاع ولا انتقاص . فكان ان اكتسبت تلك
الشعوب نوعا من الغريزة وتناقضته جيلا عن جيل عبر المتاهات والمسارات
المخضبة بالدماء وعبر الدهاليز والممرات التي صوبت بالمقلوب معاكسة
كل واقعية وعقلانية . ولم يكن هناك من مفر ازاء هذا الوضع الا الهلع
من ضياع الذات والخوف من عدم امتلاك القدرة على معايشة الاحداث
والدوام رغم اشكال الغموض والخيانة وتجاوز المضايقات والمكائد .
ولهذا السبب كان اهل المنامة على غرار سكان القرى الاخرى مجبولين
على الفكاهة والظرف ، ميالين الى الحيلة والمكر لمداورة القوانين دون
الوقوع تحت ضرباتها بالاضافة الى انهم كانوا ينتهكون المحرمات دون ان
يبدو عليهم ذلك . وكان من حظ الحاكم ان يدرك لتوه هذا الجانب من
الامور وي طرح السؤال طرحا صحيحا . والفضل في ذلك يرجع الى حد
ما الى محمد عديم اللقب . وقد فهم المسؤول الشاب بان الانسان لا
يتعلم شؤون الحياة في الجامعة وبان الحكومة وتنظيم الجماهير تنظيما
اجتماعيا لا يستجيبان ابدًا لنسق جامد يتم تحديده سلفا من قبل اساتذة

السياسة الكبار : فهم لم يكونوا قادرين حتى على تخيل وجود مثل هذه البلدة المعوجة القائظة المحرقة المهترزة السحرية المساوية والتي كان ينبغي تنظيمها وجعلها قادرة على الاناطة بوجودها دون اللجوء الى الخوارق والبهذيان ، وضمن بنية عقلانية تقوم بذاتها ولا تحتاج الى انسان خارق . بلدة تكون حسب ما اعلن عنها ابن خلدون السذي كان يحلم بديمقراطية في متناول الجميع . وعندما قابل محمد عديم اللقب مهدي واعى بعد ثلاثة ايام وابصر به وهو يلعب الدومينو مع اهل البلدة ، ادرك بأن صاحبه هذا حقق ضربة رائعة . كان هناك اذن بصيص من امل في ان يرى الناس هذه البلدة بعد اكثر من الف سنة وهي تدور حول نفسها وتضع رأسها في السماء ورجليها في الارض ، فيجب الا تعاود المشي مائلة تماماً عبر المنعرجات والحواجز كما تفعل الان لانها كانت تحذر كل سلطة لا سيما وان السلطات التي تعاقبت عليها كانت استبدادية او اجنبية او طفولية او عديمة الجدوى . وكان محمد نفسه قد اتخذ من الحذر مبدأ ثابتاً في حياته حتى انه لم يكن يترك ظله ينسحب وراءه ويعلم ان الازمنة صعبة والسلطات متناقضة او مجزاة او عاجزة . واذا كانت الشعوب قد عرفت كيف تواجه الحروب عبر تعاقب القرون والمجاعات والابوة وفيضانات الانهار وهجمات الجراد والمذابح والمظالم فلانها ادركت بنوع من الغريزة المبهمة انه لا يمكن ان تستمر في الوجود الا اذا هي امتلكت دواليب النظام بنفسها . وكانت خلال ذلك تظل متيقظة ، حذرة في بعض الاحيان من هؤلاء الذين يرغبون في تقديم المعرفة لها ، والصحة العمومية ، والكهرباء والسرعة والكرامة . على ان الامور كانت واضحة بالمنامة ، فالناس بها روضوا حتى الطيور لابطال مفعول افخاخ الحنين والشبق والتصمغ لان الصحراء ليست ذلك الطريق الخرافي والمهلوس الذي تحدث عنه بعض الرحالة الاغبياء ، بل هي المكان الذي تدفع اضاؤه وطقسه وكنوزه الباطنية كل الناس الى الجنون عندما يصطدمون بالسراب للمرة الثانية .

وبما ان الامور سارت على ما يرام والعلاقات بين المواطنين والحكومة قد بدأت تتحسن فيما يبدو على الرغم من الرفض الذي جوبهت به القوانين الخمسة لدى صدورهما ، فان محمد عديم اللقب قد اطمأن لوضعه العائلي العام واعجب بتلك الصداقة بين زهرة بندرشاه ووالدته، واستطاع ان يركز افكاره بكل هدوء . حينئذ قرر معايشة حيوانات

« الكنفورو » التي عانت من نوازل الحرب والسن ، وتبددت بسرعة فائقة لانها كانت اناثا في مجموعها . وعلم ان تلك الحيوانات لم تستطع ان تتناسل منذ وصولها الى البلدة وهي توشك على الانقراض . فلم يبق منها الا بضع قليل تتصارع الطيور اكثر فأكثر للاحتماء بجيوبها النادرة والرضاعة بكل سكينه من الانداء المخفية بداخلها . وقد لازم حيوان منها محمد عديم اللقب ولم يعد ينفصل عنه ابدا . كان يحمل له غداه ومخطوطاته واقلامه كلها ذهب خارج اسوار المنامة . ورأى محمد ذات يوم ان يعلمه لعبة الشطرنج ، ذلك لانه مل اللعبة بمفرده والفوز فيه بطبيعة الحال . وسرعان ما فهم الحيوان طرائق اللعبة ، واستطاع خصمه ان يسرقه عن نفسه ويتناسى ابن خلدون ويحرر ذهنه بمجابهة ذلك الكنفور الذي كان يزداد اتقاناً للعبة على مر الايام الى حد التفوق عليه تفوقاً ساحقاً ، على ان محمداً لم يشعر بالمهانة بل انه على العكس من ذلك احس بالرغبة الجارفة في ان يروي للناس في كل مكان حكاية ذلك الحيوان الثديي ذي التجويف البطني الذي صار بطل الشطرنج في المنامة حينذاك ادرك انه يكسر حدود الواقع والحلم ولسوف ينتهي به الامر — ان اكتشف امره — الى احد المستشفيات او الى ان يصير واليا صالحا بالبلدة . فآثر الاحتفاظ بالسر ولم يفش به حتى الى الدر نفسها التي ما فتئت تردد على مسمعيه : « حبذا لو انك كنت اسود اللون ، انت با صاحب العديد من المواهب . انك ما كنت لتنوي حتى على لفت انظار حاميتي ومثلي الاعلى اي شجرة الدر التي حكمت مصر من ٦٤٧ الى ٦٦١ حسب التقويم القمري » وخالجه حينذاك رغبة الافشاء بسره وبعد زمن ، طويل ، طويل ، وليلة زفاف توأمته الاولى ، وقد مضت سنوات عديدة على موت خصمه في الشطرنج الذي تمكن اخيرا من الفوز عليه ، تساءل اذا ما كان قد لعب الشطرنج حقا مع كنفورو وانهزم انهزامة متوالية وشعر بالفخار امام ابنته .

ولشدة فخره عندما رأى ابنته في ثوب العروس ، قرر في تلك اللحظة بالذات بأن مثل تلك الحكاية لم يكن لها وجود على الإطلاق . وكان على وشك ان يتحدث في الامر مع كلثوم عندما تذكر بأنها ماتت هي الاخرى منذ زمن طويل . ولاحظ بأن خيوط ذاكرته التي كانت قادرة على اتيان العديد من المعجزات بدأت تتخيل في بعضها . ولعل ذلك هو السر الوحيد الذي احتفظ به في صدره وحمله معه الى القبر . وكثيراً

ما كان يغادر المنامة خفية ، ويلتقي على مبعدة كيلومترات منها « بالكنفورو » المختبئ في احدى الفجوات بمعزل عن الرياح الرملية ، منتظرا اياه وورقة الشطرنج مبسوفة على الارض والبيادق في خاناتها تنتظر من يحركها وفي تلك الفترة بالذات بدا القلق يساور الدر على الغيابات الطويلة والمتعددة وسرعان ما فكرت في كلثوم وراقبتها مراقبة سرية . وادركت حينذاك ان كلثوم هذه لم تكن في صحة جيدة كأن السأم الذي كبته طوال حياتها قد صعد فجأة الى قصباتها الهوائية وجعلها تصاب بالربو . وعندما تأكدت من ان الفتاة لا ناقة لها ولا جمل في غياب زوجها المتكرر ، ألقت بالثقل كله على ابن خلدون وعقدت العزم على ازالة الستار عن هذا الموضوع وعلى كشف ما احتفظت به زمنا طويلا بعد ان صار ثقلا يصعب حمله ، كانت تخشى ان يقع زوجها تحت وطأة الجنون وهو يتنقل من شط الى اخر ورات ان الوقت قد حان لكي تخلصه من ذلك الوسواس ومن ذاك الهوس الفكري اللذين ضويا حياته ، وأنارها ولكن زادا من اضطرابه الى حد انه يوشك في كل لحظة ان يسقط في مهاوي الجنون والهزم والمهزلة .

وكان على محمد عديم القلب ان يتخلى مؤقتا عن مقابلات الشطرنج وابحائه التاريخية . ففي تلك الاثناء كانت « صديقة » قد خطبت لموسيقي شاب شغفه الوحيد عزف المقطوعات الموسيقية على العود . وبما ان الفتاة قد وافقت ، وبما ان والدتها كانت منشغلة بحديثها وبدرشة الظهيرة مع زهرة بندرشاه سارع محمد الى تحديد يوم العرس لكي يضع العائلة امام الامر الواقع . وهكذا ، فكر بأنه لم يبق لمسعودة الا خمس بنات تضعهن على القصریات فوق سقف البيت في اليوم التاسع عشر من كل شهر لاستخلاص تلك البذرة الحمراء التي تصنع المعجزات سواء في مجال انتاج الخضر والزهور غير ان الام كانت في غمرة السعادة . اذ اجتمع شملها بأختها في الرضاعة ، وتخلصت من عدوها ذلك الحاكم الخائن وجعلت تنظر الى طاحونتها وهي تتعالى بفضل جهود توائمها ، باستثناء « احمد » الذي دفعه حبه الفاسق لشقيقته مليكة الى ان يتزوج قبل الانتهاء من البناء باحدى شقيقات رشيد بناصر والى ان يغادر البلدة نهائيا . وكانت العائلة تتلقى اخباره من عابري السبيل المسافرين الذين يتوقفون بالمنامة بين الحين والاخر . وقد روى البعض عنه بأنه صار عالما كبيرا وغير جنسيته . على انه يكون قد احتفظ باسمه لكنه انتحل

لقبا اجنبيا جديدا لكي يتخلص من الحرج الذي يشعر به ازاء الاخرين بالنسبة للاسم الذي كان يشير الى انعدام هويته وهكذا كان تصرفه مخالفا لتصرف الاستاذ « بربي » الذي صار قواسا في احدى كتائس روتردام والذي لا يزال يناوش البلدة بوابل من البطاقات المسورة كأنها يريد ان تغتفر له مهنته الساقطة ويرغب في الحفاظ على جذوره . وتلقى « محمود » في يوم من الايام مبعوثا ارسله اليه اخوه بكل سرية . وكان محتوى الرسالة يشير الى عبقريته الابداعية وينصحه باللحاق به في ما وراء البحر واعدا اياه بأن يجعل منه في ظرف سنتين باحثا عظيما في تكنولوجيا التبريد . ورغبة منه في تشجيعه ارفق برسالته صورة لكثيف مصري فاز بالدكتوراه في الرياضيات بكل نجاح . مزق محمود الرسالة والصورة وشكر المبعوث الخاص لشقيقه وتابع اعماله الترقية في دار امه جامعا كعادته قطع الغيار من مقبرة السيارات العسكرية التي تركت هناك منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . والحقيقة ان عائلة عديم اللقب كانت راسخة الجذور بالمنامة مثل تلك السفائن الجانحة على الرمال . وكانت جذورها المجنونة والشبكة تغرق في تربة البلدة حتى انه لم يكن من الميسور اقتلاعها بسهولة . كان « احمد » في حد ذاته يشكل حالة خاصة . وهو حينما غادر المنامة انما كان في واقع الامر يهرب من خوفه الذي جعل يتكدس بين رجله : فقد كان من الممكن ان يرتكب المحارم مع اخته في يوم من الايام ويقلب رأسا على عقب الدورات والمواسم والنبوءات والاوهام والانهار والسلالات وحتى العرق نفسه الذي لم يكن مقدرا له حتميا الاندفاع الى ويلات الدم والجفاف داخل عزلة الهذيان المطلقة المملوءة بالنبل المجروش . ومن جهة اخرى فمنذ ان غادر البلدة لم يسأل عن اخباره احد ولا ندم عليه احد كذلك لم يتجرا احد على القول بأنه كان محقا في مفادرتها اذ كان يمثل خطرا على تواصل السلالة التي كاد ان يقطعها برغبته الفاجرة . لقد اخلص كل من والده واخيه البكر في سبيل تقويتها وتكثيرها وتطهيرها لانها بافتقارها الى الاسم العائلي كانت مهددة بالانزلاق في مهاوى اللاوجود مثل مرآة لا تعكس الا قصديرها الواقعي ، ولم يكن في مقدور العائلة ان تعيش على آثار عظمتها الزائفة حتى وان كان لمسعودة اسلاف من القراصنة يعود اليهم الفضل في امتلاكها للساعات الجدارية التسع عشرة التي نظمت وقتنت كل شيء بدءا من عدد الاطفال الى اهم الاحداث في تاريخ العالم اجمع والى ساعات وفيات الاسلاف المفجعة ، او لو يحدث ان مات الناس في سن التاسعة عشرة او

امتدت بهم الاعمار الى سن المائة ؟ او لم يميت بعضهم على الساعة التاسعة عشرة ، وعاش بعضهم الاخر الى ما لا نهاية ، لقد حملتهم مسعودة وعجنتهم من ذات لحمها ، وانقذت ابناءها من احوال الارق ومازق الربو واكباش المراهنات وشروخ الكوابيس . اما عن بناتها — باستثناء رشيقة الانيقة التي عرفت كيف تطرز موتها — جنبتهن من ظلمات الخوف في هذا العالم ومن الرجال القادرين على احالة دم النسوة الى خل ومن هدر دمهن في كنائف اليأس وحشائش الحرام المتشبهة التي تنبت في ارحام النسوة الفاحشات وتعقمهن . ولم تكن مسعودة وذريتها في حاجة الى ارتكاب المحارم لا سيما وانهم كانوا يعلمون ان مليكة تعشق في سرها نظيرها التوام الذي دفعت شهرته في الخارج اهل المنامة الى الافتخار والمباهاة به اكثر مما يجب . ولم يكونوا يجهلون ايضا بأن رشيد بناصر كان طوق النجاة التي تعلق بها لكي لا تغرق في موج الهوى الفاجر .

سمح زواج « صديقة » التوام الرابعة من « سليم موسيقى للتقنيين الموجودين بالدار من التنافس في اعمال الابداع . قام « جيلالي بوحدة » بصنع بوق من الدمى المتحركة ووفر المال بالاستغناء عن « نوبة » اليهود العميان الذين كانوا يغنون في الاعراس التقليدية عادة . وكان هؤلاء الموسيقيون الصغار المصنوعون من البرونز محل اعجاب الجميع حتى ان الاعين ظلت ساهرة طوال الليل لكي لا يبادر الاطفال المبهورون الى نشل واحد او اثنين من اولئك العازفين الذين يتحركون بآليات دقيقة في حجم دبوس الشعر . وقام محمود عديم اللقب بمعجزة حينما اضاء البيت والحديقة بمصابيح كهربائية هائلة بالطاقة المستخلصة من مضخة احدى الدراجات . ولم يكن في ذلك الابداع الا مشكلة واحدة ، فقد وجب التناوب عليه طوال الليل لتوليد الكهرباء . نجح العرس كل النجاح ، حتى ان الحاكم الذي قام بظهور خاطف للمجاملة دون ان يتلقى اية دعوة منها ، انتهاز الفرصة لكي يفضي ببعض الكلمات الى محمود بشأن مضخة مائية تشتعل بواسطة مجمع كهربائي ينوي تركيبها خارج البلدة لتدشين سياسة حقيقية في استصلاح الاراضي واخصاب الصحراء . اما محمد عديم اللقب فقد قضى شهرته تلك وهو يفكر في نقلة شطرنج تمكنه من وضع حد لتفوق صديقه الكنفورو الذي كان يتجاوز حدود الذكاء الحيواني نوعا ما .

بدأت الاحداث الهامة التي كانت وشيكة الوقوع بالمنامة تنسج خيوطها عندما تمكن محمد اخيرا خلال مقابلة دامت ثلاثة ايام متتالية من التغلب على الكنفورو العبقري الذي كان قد علمه لعبة الشطرنج . الشاه مات ، كان ذلك بشارة لشيء سيحدث على ان ابن مسعودة لم يدرك ذلك الا بعد زمن طويل ، طويل ، طويل . اي في ذلك اليوم الاغر الذي زوج فيه ابنته وتمنى من اعماق قلبه ان ينزل الثلج . كان يومها في قمة السعادة . يحن الى ماض استيهامي كل شيء فيه ممكن ، وقوانين الطبيعة والفيزياء اكثر تسامحا والمعجزات من الامور المألوفة في ذلك اليوم ، ادرك سبب فوزه على الكنفورو . اذ بلغت تلك الانثى سن اليأس ولم يعد لديها حليب وهذا ما دفعها الى العصبية والافتقار العاطفي ، فانتهاز الفرصة بكل جبن وحقارة . وقد لاحظ بأن طيور المنامة لم تعد تتصارع منذ وقت قصير على الانغماس في جيوب تلك الحيوانات النادرة التي بقيت على قيد الحياة . لم تكن تجد بها ما يرضيها فالحليب قد نضب والينابيع الجرابية جفت . وهكذا احجمت الطيور الماكرة عن الالتجاء الى جيوب « الكنفورو » المجلوبة من استراليا تلبية لرغبة ليلي بندرشاه وحرمان هذه الحيوانات من حنان هذه الافراخ التي تعودت ارضاعها سيجعلها تموت الواحدة تلو الاخرى . مع انه لم يبق منها الا القليل . لم يكن والد العروس مستجما لكامل قواه الذهنية خلال الحفل وقد فطن الى انه في واقع الامر اكثر حمقا من شريكته في اللعب ، والى ان فوزه عليها كان امرا مشكوكا فيه وسوف يؤرقه طوال حياته . وعادت مواهب الصبا الى ذهنه وبدأ يتحدث بمفرده وقد عزا الناس ذلك السلوك الغريب الى حزن

الوالد وهو يرى ابنته قد استعدت لتفاديره للاستقرار بالساحل حيث العمل لا يتناقص ابدا .

سرعان ما غابت الحيوانات الاسترالية بعد ان سحبت وراءها اذنبها الكبيرة مثل الشهداء الذين يبعدون عن الموابك الدينية وفقد محمد خصمه . ولم تعد انثى الكنفورو تأتي الى الموعد ، وذات صباح وهو ذاهب للبحث عن ابن خلدون ، وجدها منطرحه بلا حياة امام باب البيت وفي جيبها الذي صار بلا فائدة رقعة الشطرنج والبيادق المصنوعة من خشب الابنوس المستورد من الكامرون . وافتقد اهل المنامة الثدييات التي تقفز كالجراد وهي تعرج بخطواتها ذهابا وايابا عبر ازقة البلدة . والحقيقة انهم الفوها حتى اصبح مربى الطيور يتخمونها بحلويات لكي تقوى على تجديد حليها الذي تتذوقه الشحارير والكناريا والزرايزر وعصافير الفردوس والكاميشي والسنونو اثناء الحضانة . شيء ما كان ينقص تلك البلدة التي غرقت ثانية في حزنها الاصلي بعد رحيل السيد « بري » وخلافاته الشهيرة مع العجوز وبعد ذهاب بندرشاه الذي كانت احكامه القاطعة وتوبيخاته وقوانينه وخطبه قد فرحت الناس واحزنتهم الى حد ان يسفحوا دماءهم . وبالفعل ، كان الحاكم السابق صاحب موهبة في التهريج وفي اضحاك الناس . وها قد انقرضت حيوانات الكنفورو عن آخرها ، تلك الحيوانات الحنونة الاليفة رغم بشاعتها وجعجعتها ، فما الذي بقي امام اهل البلدة للترفيه عن انفسهم اللهم سوى مقابلات الدومينو والمراهانات على الاكباش . حتى مسابقات الغناء اوقفت بصورة مؤقتة لان الطيور التي ظلت تتغذى بحليب الثدييات بضعة اعوام قد بحت منذ ان عادت الى نقب حبات الدخن وفتات الخبز بتملل ظاهر . اما كبار تلك الطيور فقد فقدت الرغبة في الغناء ، في حين ادى فطام صغارها المفاجيء الى انحباس صوتها في حناجرها فاضطرت الى هجر دروس الموسيقى التي يلقتها محمد عديم اللقب الذي كان دائما يترك نوافذ غرفته مشرعة .

وفيما عدا انقراض حيوانات الكنفورو ، كانت هناك شارات تذبذب الفضاء ايزانا بوقوع شيء ما : صبابة كلثوم وسبخ « الدر » وهي في عز الحمل وصمت حميد عديم اللقب وراء جدران طوق بها نفسه والمقاهي التي خلعت من زبائنهما الاقدمين و « مهدي واعى » الذي لا يكثر

من الحديث والذي يفتقر الى كل موهبة خطابية فأرھف الجو الموبوء بالحزن من حساسية الناس . وواصل الزمن غليانه في وعائه . خاصة بعد ان بخلت السماء بالقطر ان نزل ذلك الثلج الغريب في سالف الايام . حتى مصارعة الاكباش صارت سمجة هي الاخرى ، ولم تعد الحيوانات تخاطر بنفسها ، بل ان جو تلك المقابلات الذي كان مكهربا فيما مضى صار رخوا بلا اثاره . وشعر محمد عديم اللقب بأن هذا النوع من الفرجة سوف ينقرض عما قريب ، ففكر في ان يصطحب معه ابنته وولده الكبير لحضور مقابلة من تلك الرياضة المنامية التي لا نظير لها في العالم بأسره والتي بدأت تتدهور على مر الايام . وبما ان التصوير كان مجهولا في المنامة الى اليوم الذي اكتشفوا فيه الآلات الاولى لتسمير الزمان والمكان اثناء تصوير فيلم الف ليلة وليلة ، فانه لن يكون في الامكان فتح متحف لمصارعة الاكباش اذا ما حدث وزالت هذه اللعبة المحلية الى الابد . وقد صار المقامرون المعروفون بلباقتهم وعجرفتهم وحسهم بالتنبؤ يسرون وكأنهم مدهولون . وبدأت التهم تتهاطل على الحاكم لكن محمد عديم اللقب بدد سوء التفاهم هذا . فقد اتهم ذلك الفتى المسكين الذي وصل حديثا من العاصمة لتنظيم شؤون البلدة وترتيب الفوضى المتأصلة في اذهان ساكنيها بأنه جلب معه النحس والحذر . كلها تجنيات باطلة بطبيعة الحال، وذات ظهيرة ندية اصطحب محمد عديم اللقب طفليه اللذين كانا في الثالثة من العمر واتخذ معها افضل مكان في ملعب مصارعة الاكباش . وعندما كبر الطفلان وخطبت الفتاة ، لم يحتفظا بأي ذكرى عن ذلك اليوم الذي اصطحبهما فيه والدهما لمشاهدة تلك المقابلة ، حيث كانت الحيوانات حذرة خائفة متناقلة ولم تكن لديها الافكرة واحدة : تتقاسم النقاط ، والتعادل والطمأنينة . وصرخ يومها محمد عديم اللقب وقد تأكله الغيظ « ما بالهم يتحمسون » خاصة وان هذه الفصيلة من الحيوانات قد هجنها بنفسه ، مستعملا معاز المنامة واكباش استراليا اثناء الحرب الصغيرة التي كانت قائمة يومها لمنافسة الحاكم وللإستيلاء على اختكارات الاستيراد بترية حيوانات على الارض الام . كان السام قد نال من نفوس الجماهير التي جلست على تلك الكراسي المصطفة حول الحلبة الضيقة المغطاة بالرمل . وكان البعض من المتفرجين يشرثون فيما بينهم لتمضية الوقت ، تلك هي الذكرى الوحيدة التي احتفظ بها التوأمين عن الرحلة الاستكشافية التي قاما بها مع والديهما ، اذ ابصرا في ذلك اليوم بأول قتيل في حياتهما . وبالفعل فقد تخاصم اثنان من عشاق المصارعات

ودخلت السكاكين اللعبة وسقط احدهما بلا حراك غارقا في دمائه . كان في نية محمد عديم اللقب ان يأخذ طفليه لحضور آخر معركة هوميرية بين تلك الحيوانات لكنه اعطاها بذلك احساسا بالخوف وبالقتل . فشعر بتأنيب الضمير منذ ذلك اليوم كلما افاق احد التوامين فجأة وهو يتنفس عرقا ويثغو مثل مجنون . وكرهت « الدر » سماع اي حديث عن تلك المصارعات . على ان زوجها الذي كان يأمل في قرارة نفسه اصلاح ذلك الخطأ باصطحاب ابنه لمشاهدة مقابلة رياضية حقيقية دون اي قتيل من بين المتفرجين ، احجم نهائيا عن مشروعه هذا . واعترف بأن المسألة غير جديرة بكل هذا الاهتمام . لقد كان شبيها بجده الذي امتنع دائما عن اصطحابه مرة ثانية لمشاهدة تلك القاطرة الزرقاء التي تلفظ دخانا اسود من منخرين موضوعين فوق رأسها كما لم يصطحبه لرؤية الثلج الذي حلم به زمنا طويلا قبل ان يلმسه لأول مرة في حياته ويعلم حقا وصدقا انه موجود وانه ليس مجرد كلمة تافهة غايتها هي تضخيم القواميس التي تعلم قراءتها بمفرده . فهو لم يدخل اية مدرسة لانعدامها آنذاك . اما اليوم فان المنامة قد زودت بفصل دراسي يصطحب فيه المعلم « علي الفقيه » بصبية عديدين شاحبين يتعين عليهم ان يأتوا بكراسيهم كل صباح بسبب نقص الاعتمادات المالية التي لم تكن تكفي الا لشراء الطاومات والسبورة ولدفع اجره الضئيل الذي لم يكن يكتفيه ، لولا كتابة الرسائل لسكان البلدة والاميين منهم ، علاوة على جهلهم ، كانوا متطيرين ويحذرون كل رسم سحري مهما كان شكله او دورانه او حدته .

واذا كانت مصارعات الاكبش تفقد جودتها فان الحرير قد تحسن بانتظام مدهش منذ ان صارت الشرائق تتنامى بسرعة مذهلة تحت آباط النسوة بدلا من ان تحتضن تحت سراويلهن . غير ان الكساد تفاقم على الرغم من ذلك التحسن ، ولم تقبل « الدر » ابدا بتلك الطريقة في خرق القانون الذي اقره الحاكم غير انها تعودت عليها لان الحرب كانت قد وضعت اوزارها ولان النصر قد خدر كل شيء وبنجه وجعله تافها . وقد راودتها الرغبة ذات يوم في العودة الى نسج اكفان من الحرير الحقيقي . ولكن الفشل اليومي المتكرر ثبط همتها ولم يتمكن احد في البلدة من خرق اي شيء ، وأخذ الناس نتيجة لرداءة حياتهم ينغمسون في غياهب الاحتضار ويموتون موتا بطيئا وهم يخدمون لهيب الحيوية في نفوسهم . لقد تغيرت الاشياء منذ تلك الفترة التي وصلت فيها الى المنامة

مع ست من صويحاتها وشعرت فيها بتوفز وحيد من نوعه جعلها كالمحمومة . الى ان التقت بمحمد عديم اللقب ، فادركت من خلال جسده وطريقته في المشي وجمال معينيه الواسعتين ، تلك العبقريّة الداحرة والاصالة المذهلة . حينذاك حدثت لتوها بأنه يرغب في ان يعرف المكان المفقود الذي توقف فيه قبل ستة قرون عالم فار من استبداد ملك صغير يغار من معارفه التي لا تحصر . على ان الركود والوقوع تحت وطأة التفاهات قد اثرافيا ايما تأثر لا سيما وان كلثوم منافستها واحسن صديقاتها راحت تفقد بريقها وتزداد غيابا عما حولها في صمت وهي متشبثة ببوقالها الذي لا يفارقها ابدا ، وتبذل جهودا خارقة لكي لا تقلق امها حول وضعيتها الصحية . لكن والدتها لم تعرف مثل تلك الهناءة في حياتها الا هذه المرة . فهي بفضل مسعودة عديمة اللقب وعلاقتها لم تكن تدري من أين تبدأ اندهاشها او ضحكها ولا من أين تبدأ البكاء لشد ما كانت اختها بالرضاعة وفيّة لصورتها ولحماليتها الاسطوريّتين وليقطتها التي تفاجيء الاشياء والموجودات بصورة غير متقطعة ، حتى في قلب الليل وهي نائمة ، كانت تستمر في التحدث بمفردها والان ولم يبق لها الا خمس عذارى تسهر عليهن ، كانت تتمتع بوقت اطول ، وكانت اجاباتها القاطعة اكثر حدة وسخرية فيما مضى . كانت الاختان تدرجان في اعتاب الشيخوخة بلياقة ، وتتجاهلان الوضع الروحي للبلدة تجاهلا تاما ، وتستصفران هومهما لانهما تعرفان بأن اناسا خياليون طفوليون رهيفو الاحساس متقلبون ومذهلون . وقد اطلعت مسعودة على رغبة زوجة ابنها في الرجوع الى صناعة الاكفان فكان ان رفضت رفضا قاطعا : « ليس لدي الوقت لسماع مثل هذه الترهات . الافضل لك ان تسهري على اطفالك وتعتني ببطنك ، اما انا فاهتم بطاخونتي سوف نفرغ من بنائها عما قريب . يا للروعة ، ينبغي التفكير في زراعة الشعير والا فما فائدة هذه الالة ؟ ... » وكانت الوالدة تنتهز الفرصة لكي تكيل المدح لابنائها البنائين الذين تعقلوا قبل الوقت ، وتعاطوا قلبا وروحا ذلك العمل بعد ان وضعوا امام الامر الواقع باغلاق ماخور « الكبش الشبق » . لم يكونوا يميلون الى مضاجعة بنات الشارع اللائسي يحملن رضعا ، فباستثناء الامراض التي يخشونها ظلوا يحنون الى زمن الماخور بوصفه مقرا اجتماعيا ومكانا للحنان وعبادة الشهوة وقد رفضوا الزواج الامر الذي سر والدتهم وظلوا يقفون ليايلهم تعبرهم اطياف البغايا الرائعات المشطورات الى شطرين بوشم طقوسي يبدو وكأنه يخرج من فروعهن

لكي يلج اعماق اعماقهم وكانوا على علم بأنهم لن يعرفوا مرة ثانية مثل ذلك التجلي المربوط بالعوالم الروحية وبالجنون ، تسيره احكام ربانية . واستشارت « الدر » التوائم الخمس الاخيرة حول خياطة الاكفان حتى تأخذ آراءهن في الموضوع . واجمعت البنات على القول بأنها اذا كانت ترغب في تطريز شيء ما فما عليها سوى ان تنهك في تفصيل فساتين زفافهن وثيابهن الداخلية وجهاز عرسهن الكامل . . . ولم يكن هذا بالعمل اليسر ، وتخلت « الدر » عن مشروعها وادركت بأن الامر ليس الا مسألة من مسائل الحنين وتأسفت على العهد الذي كانت تمارس فيه الجنس عشرين مرة في اليوم بينما الان وعلى الرغم من الهوى الذي يربطها بزوجها ومن هيجانها الجنسي ورهافة حنانها . كان الزمان قد تعدى لعبته ونقر شيئاً من تلك الخوارق التي لولاه لما كان العالم الا كسرة تدور حول نفسها الى حد الاهتراء والانكسار التهشيمي . وبدأت تعد اثواب العرس « لعريقة » التوأم الخامسة واحدى العذارى الاخريات . كانت تحتل المكانة الوسطى في العائلة وميالة الى الحلول الوسطى . وبالفعل اخذت من كل فرد من افراد العائلة عضوا او صفة ، وصارت تبث الرعب في محيطها على الرغم من روعتها وقد ساد الانطباع بأنها تتألف من قطع متعددة ، ملحومة بكهرباء اللوعة والتقليد . وطبعها هو الآخر كان تجميعا لعناصر غير متجانسة متصارعة فيما بينها . ولكنها كانت ذات نفسية طيبة وتعرف كيف تسري الى اعماقها وتتخذ موقعها في مركز ثقلها ، وكيف تظل على حذرهما حتى لا تتفكك مفاصلها وتتبعثر .

راح جيلالي بوحدة وزوجته رشيقة اللذان لم ينجبا الا طفلا هزيل البنية يقضيان اياما هادئة كانا يعملان بتوافق تام ، وقد مكنت ضرورات الصراع في الماضي من ان تطلع تلك الزوجة الفتية على اسرار الموازين والرقاصات وغيرها من الات التدقيق . كانت مهمتها الاساسية تتمثل في متابعة تفكيك وتركيب ما تبقى من الساعات الجدارية الصقلية التي لم تتناولها بعد اليدان الخبيرتان الرقيقتان ، اللتان يتمتع بهما الاحدب الذي نقل لزوجته وطواعيته لزوجته وهكذا كانت تفرق يديها الرشيقتين الواهيتين في احشاء الساعات الجدارية المصنوعة من الفضة الخالصة . وتعبر عن خلجات نفسها من خلال ذلك العمل الذي يخفف من حكتها الجلدية ، وتبعث امها على السرور ، تلك الام التي عجزت عن وضع ثقتها في الزمن الذي تطحنه عجائب الدنيا التسع عشرة بكل دقة وباجماع

الاشياء القديمة كلها التي ازدادت قوة عبر القرون وعبر تعاريج ونبضات الاحاسيس التي ابصرت بها وهي تبرز الى الوجود ومن خلال اشكال القلق الذي راته كالحب السري والمواعيد القاتلة والهزات الارضية والاعلان عن الحروب . وعندما لفظ الكنفوررو انفاسه الاخيرة وسط صخب الطيور وجعجة اللقالق التي تلتصق بامهاتها المرضعات كان بوحدة وزوجته منشغلين بتركيب الساعة الجدارية الثالثة عشرة بكل صبر وعشق وبكل دقة وانضباط . وهي واحدة من الساعات التسع عشرة التي جاء بها قرصان جريء كان ينظم — فيما يقال — حملاته داخل المحيط الهادي ويأتي بسجناء امريكيين حتى ان قنصل الجزائر يومذاك وهو « ويليام شالر » استعدهم بها مثقالهم ذهباً من ذلك القرصان العظيم الذي كان اكبر اخوة بابا عروج . وقد حدث ذلك سنة ١٨٢٩ اي عشية كارثة اخرى هي كارثة ١٨٣٠ : وفقا للمجد ووهن السلطة ، من كان يمكنه ان يتنبأ بذلك ؟

وكان الحاكم يحسن الاستماع في حين ان محمد عديم اللقب الذي يحبه ، راح يروي له تاريخ عالم يفترض فيه انه وجد في يوم من الايام ، وقد استطاع ذلك بفضل قدرته على خلط كل شيء ونفخ الحقائق وتجميعها وتقليصها ... ولكنه في كل امسية يقضيها في الثرثرة امام دار مسعودة كان يودعه ويكرر له نفس الجملة : « عندما اتحدث معك فانما اتحدث الى الانسان فيك لا الى الحاكم . انني لم اتعاطف كثيراً مع الذين يمتلكون زمام الحكم حتى وان كان لهم نفس موقفني من العالم » وقد جعله يشعر اخيراً بالضيق لكثرة ما كرر على مسمعيه تلك التحديدات والتصحيحات . وجعل يشعر بأن طموحه يذوب بين جنبيه وقر رايه على تسويد رسالة استقالة لكنه مزقتها بعد بضعة ايام . ثم انه دبج رسالة اخرى واقتنع بتبويضها لكنه لم يرسلها لانه كان يأمل في تحقيق شيء ما وتسجيل ضربة كبيرة ، وموجز القول هو انه كان يريد ان يترك بصمات هائلة على المنامة قبل ان يغادرها من تلقاء نفسه . لقد خيل اليه ان رصيد التعاطف الذي جاء به قد بدأ يتقلص تحت ضربات الشمس الزجاجية الثابتة والتي لا تتكسر والتي تحول البلدة كلها الى جحيم . كان يريد تزويد اهل المنامة بمضخة قادرة على ان تضرب عميقاً في قلب الارض وتبحث عن ذلك العنصر الحيوي المختبئ في التجاويف المائية والتي تتخلل الصحراء . وهكذا ارسل بطلب عاجل الى الحكومة المركزية ، فقررت هذه الاخيرة

دراسة الاقتراح الوجيه حسبما يبدو لاول وهلة وبما ان وسائل الاتصال كانت باللغة الصعوبة ، فان المراسلات كانت تنقل على ظهور الاحمرة والجمال ، وهذا ما تطلب عدة اشهر لكي تصل الرسالة الى حيث كان ينبغي ان تصل . هذا بالاضافة الى تلاعبات التقنوقراطيين . فقد اخطاوا في الملف وارسلوا الى المنامة كاسرة جليد اهدتها احدى البلدان الشمالية الى وزارة الاشغال العمومية وكانت ردود الفعل لدى اهل المنامة فورية . فقد حمل الحاكم على الاعناق بنفس الطريقة التي حمل بها قبل بضع سنوات الاستاذ « بربي » عندما اعلن بأن مطرا مصنوعا من قبل البشر سوف يتهاطل على المنامة وعاد البشر الى البلدة وانتهر الاطفال الفرصة لكي يلعبوا لعبة الحرب بكاسرة الجليد فحطموها واحالوها الى قطع غيار في ظرف اسابيع قليلة . حتى محمود عديم اللقب استفاد من تلك اللعبة وسارع الى التقاط بعض الاليات النادرة لصناعة مبرد كان يتعنى ان يهديه الى زهرة بندرشاه .

بعد سنة المطر بدون اله ، جاءت سنة الجبل الثلجي وتلتها سنة اللواط ، ثم تحدث الناس عن سنة كاسرة الجليد . وقد كان حميد خلال ذلك محاطا بالدجاج الاسود ، بسبب حبه المستحيل للكثوم ، ثم خرج من صمته واوجز في بضع كلمات ما كانت البلدة كلها تحتاج الى اودية من الكلمات وشلاالات من الريق للتعبير عنه : « لو اننا ما زلنا نحتفظ بالجبل الثلجي لفهمنا الامر ... » اما الحاكم « واعي » الذي كان لاسمه رنين اجوف لم يتجرا على الظهور امام الناس واقطع عن زيارة « محمد » الذي كان ينجم كل مساء ، وفي نفس الساعة امام مدخل داره لان دوار الشمس كان يكف عن الحركة بمجرد ان تغيب الشمس . حينذاك كانت العائلة تعلق ابواب الدار ونوافذها للاحتفاظ ببرودة النهار وبفضل هذه الطريقة كان افراد هذه العائلة ينامون بعمق باستثناء الابن البكر الذي ظل يعاني من ارقه الرهيب ومسعودة التي تواصل التحدث الى نفسها وتلفظ بنفس الكلام الذي قالته خلال النهار ولكن بصورة مقلوبة ، والتوامين الاخرين اللذين تؤرقهما صورة الجسد المدمى لذلك الرجل الذي تلقى طعنة سكين خلال اسوا مصارعة اكباش في تاريخ المنامة وانطلق « مهدي واعي » ذات صباح الى العاصمة دون ان يخطر اجدا ، ورجع منها بعد بضعة اسابيع بصندوق كبير ملفوف بحاشية ، ووضعه وسط ساحة الطيور وعرضه على الناس بنفسه مبينا مزاياه . اما الناميون

الذين كانوا يلاحظون ظهور المشعوذين خلصة والمطبيين ومروزي الحمام وبائعي مسحوق التهنيدات فقد تراهنوا فيما بينهم على ان الحاكم قد تحول الى السحر وانه يريد ان يقدم عرضا لامرأة مقطوعة الى نصفين يمكن الصاقها ثانية بمجرد ان يدب الذعر الى نفوسهم . على انهم بدلا من ذلك شهدوا بانفسهم عملية اخراج آلة لا يعرفون لها اسما ، ولكنهم تنبأوا بغريزتهم بانها قادرة على تحويل حياتهم القذرة الى مصر رائع . وسأل الحاكم الحاضرين اذا ما كانوا يعرفون ما هو ذلك الشيء المعروف امامهم فما تجرأ أحد على اجابته . حينذاك صاح الحاكم بكل فخر وتأثر : « انها مضخة ماء » وسرت الكلمات بين الناس فظلوا لا يصدقون آذانهم طوال دقائق عديدة لها طول اذئاب « الكنفورو » التي استوطنت المنامة فيما مضى . ولم يستطع احد من الحاضرين ان يصف ما حدث على وجه التحديد . كان محمد عديم اللقب اثناء ذلك خارج اسوار المنامة منشغلا بالتقاط آخر عينة طوبولوجية ، ولعلها كانت محل اخذ ورد ، لكنها قادرة دون شك على ان تقوده الى البيت الذي لا تزال ذكرى ابن خلدون تسيطر عليه . ولم يتذكر « مهدي واعى » نفسه . اي شيء مما حدث . فقد خنقته هتافات الجماهير التي صارت تهدد حياته . وعندما افاق من اغماغته تلك كانت مضخة الماء قد نصبت خارج الاسوار من قبل فريق يتكون من محمود عديم اللقب ورشيد بناصر وبعض الصناع . ولم يكن الجميع ينتظرون الا ظهور الحاكم للقيام بأول حفر تدشيني . وعلى الساعة السادسة مساء توفرت جميع الشروط للبدء في العملية . حتى الطيور نفسها — وكان وقت خروجها — شاركت في الحفل . وضغط الحاكم على الزر السحري ، فانغمس المكبس على عمق ثلاثة كيلومترات وانبجس الماء ، مندفعا الى السماء ، لكنه عندما انههر على الحاضرين والطيور والحاكم والصخور ونباتات الحلفاء النادرة تسبب في خراب مذهل . فقد كان يغلي بحرارة قدرها 150 درجة . واحترق مائتا شخص احياء بينما انكشطت البشرة عن وجه الحاكم كله ، وذابت الصخور وتميعت النباتات . والتقط اهل المنامة الطيور بواسطة المجازف ، واحصوا عدد المحروقين بدرجات متفاوتة فاذا هم بالمئات .

على ان الامام الذي كان ذا فكر مستنير بخصوص المسائل الملموسة يشك بأن يد الله وراء ذلك الدمار الذي وقع على المنامة . ولم يعرف السكان اذا ما كان ينبغي عليهم الضحك من الهستيريا او البكاء من

الفيظ . وقد القى الامام خطبته في يوم الجمعة الذي دفنت فيه الضحايا وأئذ السكان بأن قضية مضخة الماء ليست الا وعيدا ربانيا . فאלه غاضب على البلدة لأنها كانت تريد ان تمارس ضغطها على القدر وتنتزع من الارادة السماوية سعادة تافهة اذا امعنا النظر . ذلك لأن الحقيقة والاصالة والمطلق انما توجد في مكان آخر . وأحرر الملحدون من الخجل ، أما المؤمنون فقد أصفرت وجوههم من الخوف . وقرعت مسعودة بحالة صدريتها وظل الحاكم في حالة من الغيبوبة لا يقوى على قول كلمته . غير ان محمد عديم اللقب شتم اخاه وأوضح له بأنه لا يكفي ان يعرف الانسان معالجة بعض المبردات المنزلية لكي يغامر باخراج الماء من الارض . كان عليه ان يقوم بدراسات اولية ويأخذ فريقا من الجيولوجيين الى عين المكان ومجموعة من الاختصاصيين في شؤون المياه بل وحتى فريقا من علماء البراكين : فالماء في الصحراء غزير ، ولكنه محرق على عمق ثلاثة الاف متر والاختصاصيون يعرفون ذلك . او لم يحذر المهندس محمد الشاكر الذي أخرج الماء من بطن الصحراء العراقية في القرن الثالث للهجرة هؤلاء الهواة من الباحثين عن المياه من مثل هذه النتائج ؟ لكن سوء الحظ يلتصق التصاقا بهذه البلدة المنبوذة في آخر الدنيا ، ولأول مرة ، لم توضع السلطة المدنية فيقفص المتهمين الذين قد يؤاخذون على سرقة بضع دجاجات . . . ولم يكن اهل المنامة يجهلون بأن الشاب الفتى التقنوقراطي الذي حل قبل سنة بالمنامة وهو يتفجر حيوية ويزدهي بملابسه الانيقة وشعره المزيّن قد تشوه عن آخره ونبتت له فطريات مسمومة على اجزاء جسده المكشوط ، وتحول الى لحم محترق تشم رائحته على مبعده كيلومترات . وظلت مضخة الماء منصوبة مثل رمز للخراب الجارف واليأس القاتل ، كأنما تريد ان تبرهن بعنقها الشبيه بعنق الزرّاقة بأن هناك رجالا وارااضي وقع عليهم الحكم الابدي ، ولا يمكن ان يتصلوا منه . على ان هذه الفكرة التي اخذت تنتشر كانت موضع تنديد صارم من قبل محمد عديم اللقب . كان عليه ان يقنع أولا وقبل كل شيء عائلته ثم مسعودة التي جابهت حججه العلمية بعنادها : « نحن المنبوذين في هذا العالم ، توقف عن ترهاتك والا فضحتك امام الامام » ، لكنه صمد في وجهها ولجأ الى المساومة بعد ذلك ، وهدد ببتّر ابهامه الايمن ، ثم نال وطره منها : « ليس هناك جنس محكوم عليه بالزوال والته وسوء الحظ . انظري الى حديقتك انها رائعة لأنك تبذلين فيها كل جهدك ، حقا وضعية الاشياء واشياء الدولة تمثل عراقيل رهيبة ، لكن اهم ما في

الامر هو معرفة كيفية التحايل عليها والتطرق اليها بكيفية صحيحة . . . » وكادت مسعودة ان تجيبه بأنه اذا كانت حديققتها مصابة بجنون الغزارة والحيوية والمبالغة ، فذلك بفضل دم العادات الشهيرة لبناتها القويات الجميلات . . . غير انها آثرت الا تأتي على ذكر هذا الامر واقتنعت ، لأنها خشيت من ان تلتقط كلثوم ابهاما آخر تتركه يختمر في البوقال المليء بالفورمول . وهي في واقع الامر لم تستطع ملاحقة الاحداث . بل انها عادت منذ بضعة ايام الى صناعة الفزاعات لاستخلاف الفزاعات القديمة واخذت بنصيحة صهرها الساعاتي الذي اقترح عليها بأن يساعدها مع « الدر » وكلثوم المتهالكة على صناعة فزاعات آلية ، مزودة بحركات ازلية . وقادرة على احداث اصوات خشخشة ترهب امكر الطيور واشدها حيلة .

تخلى « بوحدبة » عن الساعة الجدارية الرابعة عشرة بعد ان اخرج احشائها واشرف على العمليات . وهكذا تعاقب طغاة التاريخ واحدا واحدا ، وكانوا نفس الاشخاص المعتادين اي بندرشاه ، وملك خليجية واسلافهما من الامويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين والأتراك وسانت لويس وخباز فيينا . . . ولكنهم صاروا اكثر ارهابا وابعث على الفزع . كان الاول يعرج والثاني يغمز باستمرار والثالث يدير رأسه حول عنقه دون توقف ، والرابع يحك عانته كأنه مصاب بحرقه البول والخامس يصفع نفسه والسادس يجلد نفسه بذكره والسابع يخلق نفسه بكلتا يديه والثامن يضع اصبعه في احدى عينيه والتاسع يتلمس فحولته اما العاشر فكان مصابا « بدوار الغنم » وهلم جرا . الى حد بلوغ الفزاع التاسع عشر الذي يمارس اللواط مع عبد اسود . واذا كانت التقنية من عمل جيلالي بوحدبة وزوجته رشيقة فان الافكار قد اغترفت من خيال الدر الخصب التي استعادت بهجة العيش من جديد فقد بدأت تربية توائها تضجرها نوعا ما ، لقد وجدت في العملية متنفسا لخياتها السياسية والجنسية على حد سواء . وساهم « سليم موسيقى » عازف العود الماهر وزوج رشيقة الجديد في هذا الابداع الجماعي فوضع موسيقى طوفانية . على انه اذا لم يكن احد من افراد العائلة ليتناسى المأساة التي تعيشها البلدة بعد الكارثة الصباحية التي تسببت فيها مضخة الماء والتي مكنت من تقليد الحاكم الشاب وهو في حالة من الغيوبة بوسام الاستحقاق والشجاعة ، فان مسعودة هي

الآخري خجلة من خوارق زوجة ابنها ، قلقة على غياب ابنها المتكرر ومنشغلة بتدهور صحة كلثوم التي كانت تجيء بين الفينة والآخري لتقدم يد المساعدة في سبيل صناعة الآلات الجهنمية . على أنها ظلت تسهر على بناء الطاحونة التي كانت على وشك الانتهاء وقد سارعت الى غرس بذرات القمح وجعلت تسقيها في الصباح الباكر بعد طلوع الفجر وتصب عليها الكثير من الماء والقليل من الدم وتسع عشرة قطرة من ريقها الصباحي . وراح القمح يتنامى على الرغم من غيبوبة الحاكم الذي انتهى الامر بنقله الى مستشفى متطور ومختص في معالجة الحروق الخطيرة في مقاطعة « اونتارو » الكندية . ورغم متابعة الجنرال يهودي لقصفه البلدة — كان يتسبب بين الوقت والآخري في ضحية او ضحيتين فيعمد اهل البلدة الى البكاء كثيرا ثم يسارعون الى دفنهم بسبب رداءة الطقس ولنسيان عجزهم الذي لم يكن ناجما عن عيب في الخلقة بطبيعة الحال ولكن صار من الصعب تحمله او اسكاته او القضاء عليه — فان الفزاعات الآلية كانت تحدث صخبا جهنميا كأنها لتعيد الى اذهان الضيوف الذين قد يمرون بالبلدة بأن الزمن الذي ترك بورا لمدى طويلة يأخذ لنفسه بالثأر على حساب الاجيال اللاحقة ولتذكرهم ايضا بأن فراغ سبعة قرون من الخجل والسلب والاستلاب والتفتت في حاجة الى صخب العالم كله حتى تسد ثغراتها بقدر الامكان .

بدأ الاعتقاد يسود في المنامة بأن هناك الكثير من الموسيقى في بلدة تلاحقها مثل هذه اللعنة وسوء الطالع اذا لم يحدث قط ان بحت طيور الربيع من الزرزقة مثلما فعلت في ذلك الموسم ودوار الشمس الذي تمتلكه مسعودة واختها بالرضاعة كان يحدث حين دورانه حفيفا خاصا شببها بتلك الخشخشة الخشنة للملايين من اجنحة فراشات وضعت تحت جرس بلوري ووقعت فريسة لخوفها واللقاقى العائدة كانت تنظن بمناقيرها المعقوفة طوال النهار على سطوح البيوت المبرقشة والفراعات الميكانيكية كانت تصدع اقوى الاذان بنواقيسها الخشبية وطبولها وصفاراتها وصرير حركاتها . وضاعف الاطفال والدجاج والرحى يضيفون صخبهم منذ ان تظلى محمد عديم اللقب عن تلك الموهبة التي تمكنه من كسر الضحكات وقوقعات الدجاج وسحيف الرحى على مسافة مائة وستة وستين مترا . وكانت الساعات الجدارية تصلصل بتثاقل مقطوعة لتسعة عشر صوتا ولزفير واحد . يصدره جيلالي بوحدبة وهو يموت تلذذا عندما يصفي الى ذلك الشلال البللوري الدقيق حين يشع في الفضاء كل ربع ساعة ، هذا بالاضافة الى الاصوات الاخرى التي تعود عليها اهل المنامة كثيرا : حملات مسعودة وهي تهوي على لحمها المكتظ ، وتنهدات العذارى المنششة في البيت وزئير التوائم وهم يحملون بأفراسهم الموروبة الرشم بوشم العهود الغابرة ، والكوابيس المقلوبة الجهيرة لربة العشيرة وهمسات اهل المنامة وهذيانهم خلال النوم هذا العجب كله كان يصل الى الشارع ثم يتراس عندما يقترب من ساحة الطيور التي تحوم بها في قلب الليل . نوع من الوشوشة المتضخمة لعالم زائف شجي بعيد عن الواقع . موسيقى

أخرى : اصطكاك أسنان « الدر » وهي تغرز أظفارها في ظهر زوجها حتى لا تصرخ من اللذة كلما عمل على دفع الحبر البنفسجي الى رأسها ، حيث يراودها احساس بأن مجتمتها تتحول الى عقود زجاجية مليئة بأرفيات أصيلية تشبه زهورا بدون سيقان بين النباتات والطيور أو رسائل غرامية حريرية مطوية بكل عناية . وكثيرا ما كان يحدث الا يتمالك الزوجان نفسيهما فيمزق صياحهما وصراخهما ، وجلبتهما الفضاء ويلولبوه ويقسموه الى حوصلات تتسمر بداخلها اصواتهما لكي يتردد صداها بعد ذلك فينبغ الاجيال القادمة ويعلمها ما الذي يعنيه الحب . وكان الوله بين « الدر » ومحمد عديم اللقب يتزايد على الرغم من بعض السقطات المتولدة عن تخوفات الدر وعن انقباضاتها العاطفية والخيالية . كانا يتمسكان ببعضهما لان الازمنة بالنسبة اليهما ايضا كانت صعبة الاستفسار . ويفقدان صوابهما أمام تلك الدوامة من سوء التفاهم والفهم وردود الفعل العكسية والتقلبات المدهشة وحين يجنحان لشواطئ الظنون ، يفرغان ما في نفسيهما من ظلمة بممارسة الحب دون راحة أو هواة كلما استطاعا الى ذلك سبيلا . كانا يتحبان ومن حاجة الى البرهنة على ذلك يوميا في الغرفات التي تتعاقب الى ما لا نهاية ، والتي تندمج الواحدة منها بالآخرى ، داخل العاصفة الشمالية التي ترطب بشرتيهما وعضلاتهما وعظامهما الى حد القشعريرة لشدة البرودة التي تلف سعادتهما في حين ان البلدة في الخارج كانت تحترق تحت افراق الرياح اللافحة ووسط حنان المخلوقات التي تفرق في عرقها باستمرار وقد كان هناك شاطئ آخر من شواطئ الحياة بالنسبة لهذين الزوجين الخارقين ، وهو سرمدية المرأة الوحيدة بالمنامة ، التي زينت زما طويلا بهو بندرشاه ، وما وراء لغة الروعة التي تكثفي للتعبير عن نفسها بايماءات العشق وبنغمات النشوة اذ كانا حقا يشاركان بمطارحتهم الغرام اي بطريقتهما الخاصة ، في سمفونية البلدة ذات الالف عازف والتي تمكن السائرين التائهين في الفيافي من العثور على طريقهم ليلا ونهارا بنقل هذه الموسيقى المتسلسلة المتألفة من الصخب والصيحات والتي كانت بينيتها العامة تفضي الى عوالم تفوق الوصف .

وهكذا استطاع الحاكم الذي شفي من حروقه الفظيعة ان يعثر على طريق البلدة . قيل له دائما سر في اتجاه الازامل الخارقة التي تفيض من اسوار اليقظة وحدود الذهول . وعلى الرغم من السرية التي احاط بها عودته ، فانه استقبل من قبل السكان الذين لاحظوا بتأثر انه بالاضافة

الى آثار الجروح التي حكم عليه بحملها طوال حياته ، قد اصطحب معه زوجته وطفله . وكان ذلك دليلا على ان « مهدي واعى » يشعر بالحاجة الى ان يضرب بجذوره في الواقع المتشعب الذي يستحيل توقعه ولا يعيد نفسه ابدا لاشد بلدة اعوجاجا في العالم كله . وشعر السكان بالفخر وازدهاؤهم كان مبررا لا سيما وانهم كانوا يعلمون ان بعض حكام المناطق المحرومة في البلاد لا يستقرون بها ابدا مع عائلاتهم . كانوا يتركونها في العاصمة ويحولون مقر اعمالهم الى محط لا يطاقونه الا نادرا بمناسبة حفلات التدشين التي تتطلب حضورهم والحفلات الرسمية التي يتخلصون منها بأسرع ما يمكن للعودة الى المدينة الكبيرة ولاستئناف عاداتهم ومقالبهم وزبائنهم الساسة . وكان « واعى » من التشوه حتى ان بعض المناهيين الحذرين على الدوام اقسوا بأن الأمر لا يتعلق بنفس الشخص وندموا على الاستقبال العفوي الذي خصوه به . وبالفعل ، فالرجل لم تنسلخ بشرته فحسب بل تغير صوته ايضا وفقد شعره الذي كان يدهنه بكل عناية قبل حدوث كارثة مضخة الماء الرهيبة ، وازداد طولا بصورة مبالغة ، واستبدل حركاته السابقة بطريقته في المشي بأخرى جديدة، وفقد رشاقته المعهودة لانتهاجه مشية خالية من التناسق مائلة نوعا ما وتذكر بمشي — حيوانات الكنفورو — التي لا يذكرها احد من أهل المنامة دون ان يذرف عليها بعض دموع الحنين — أو حتى بالحركة المتخلعة للفراعات الميكانيكية التي صنعها الاحدب الشيطان وقد بدأ الناس يشكون في أمره ويحسبونه خيماويا يصنع في ورشته مشروبات سحرية ، وجروعا رائعة واكاسير دمعية . وانتشر مرض الشك هذا بسرعة الريح الرملية وذاع صيت جديد في البلدة منذ عودة الحاكم الذي قرر طرق الحديد وهو ساخن رغم تجربته المؤسفة مع مضخة الماء ، وافصح عن استعداداته لانقاذ المنامة من التفسخ والتفكك . وكانت هذه الطريقة تتمثل في التشكك في هوية كل انسان غير ان أهل البلدة قالوا فيما بينهم : « ليس لدينا اي دليل على ان حاكمنا هو الحاكم الحقيقي . لا سيما وانه ليس لدينا اي سبب يدفعنا الى الاعتقاد بأن المواطنين البسطاء هم انفسهم فعلا » . من ذا الذي كان يستطيع القول بأن الحلاب الذي يمر بمعازره في الصباح بأزقة البلدة فيحطبها ويملا المواعين التي يمدّها الصبية الذين لا يزالون نائمين هو علي بو معزة حقا ؟ ولا يوجد اي دليل ايضا يمكن مواطني البلدة من التأكيد على أن القصاب هو سالم الازرق نفسه أو أن الاسكافي هو علاوة الاحمر المسمى بالشيوخى أو أن الساعاتى هو جيلالى بوحدبة المسمى بالاحدب أو أن

ماسح الاراضي هو رشيد بناصر المسمى برجل الامور الوسطى او ان
 محمد عديم اللقب هو ابن مسعودة عديمة اللقب الشهيرة بفورات غضبها،
 وبحمالاتها وبكرمها وبقدرتها على العمل وبضحكتها المجلجلة وبخصوبتها
 المذهلة ؟ وكما كان الحال وقت صدور القرار الشهير حول زواج الشواذ ،
 لم يعد أحد يعرف من هو من ، وراقت اللعبة للمناميين الذين قتلهم السام
 وجعلوا يخلطون الامور فيما بينها الى ان تضببت عقولهم . كل هذا لان
 الحاكم قد أصيب بحروق رهيبية وغير مظهرة . على ان صلب المشكلة
 كان في جهة اخرى . فاصحاب مثل هذه الفلسفة البهيمه كانوا على اقتناع
 تام بأن الشخص الذي عاد ليس « مهدي واعى » بل شبحه لانه لم يكن
 في مقدورهم التخيل ، حين أبصروا به بعد تلك الكارثة بأنه من الممكن اخاطة
 هذه الاكوام من اللحم المشوي من جديد واعادة العظام الى اماكنها ، وصقل
 بشرته ونفخ الحياة فيه مرة ثانية . على انهم لم يجروا على الافضاء بكل
 وضوح بما كان يعذب ضمائرهم خفية . وهكذا قرروا اشاعة الشك لكي
 يتخلصوا من الورطة دون تدنيس اي شيء او استثارة ارواح العائدين
 القادرين على الانتقام منهم وعلى اربابهم وعلى بث القلق في أوساطهم
 العائلية وفي بيوتهم . وسرعان ما أدرك محمد عديم اللقب أن مكانه لا يؤهله
 لحل هذا المشكل ولاعادة الهدوء الى العقول . بل انه أدرك أنه المسؤول
 الاول اذا ما كانت الخوارق قد سيطرت على عقليات أهل البلدة مثل
 العشبة السيئة التي لا نفع فيها ونباتات مسعودة . لقد تلاعب بالخوارق
 كثيرا وكدس المواهب النفاذة ، واختزن الاحاسيس التنجيمية في حين انه
 كان من الواجب ان يدفعه دوره الى محاربة السحر والخرافة والمعتقدات
 الغبية الراسخة بقوة في اذهان أهل البلدة ، الذين لا يعرفون من الحياة الا
 وجهها المعكوس ومن الواقع سوى تقديره الاستقرائي المزيف . لكنه لم
 يتجرا على اعطاء تفسيراته ولا على عرض حججه . وقد لاهه على ذلك
 بمرارة صديقه وصهره رشيد بناصر الذي عرضت هويته هو الآخر
 للتشكك . « انك بحماية الظل الذي يسبقك دائما ، وبطريقتك في كسر
 ضحكات الاطفال ، وبقرائك الانفية وقدرتك على فض المنعطفات ،
 وقدرتك فيما مضى على رش العذارى اللائي لا يمكن افتراعهن بالندى
 الليلي . انك بذلك كله ، قد أوقعتنا في المأزق ... وعلى أية حال ، لقد
 نجوت من عساكر الجنرال « يهودي » بتضخيم ظلك الى أن صار شببها
 بك ! من انت في واقع الامر ؟ انت نفسك ام ظلك المضخم مثل دمية من
 السيلوليود ثم ماذا عن حذائك المطاطي الذي يجهل المسافات .؟

كلا ! لقد أوقعت نفسك وأوقعتنا معك ... ان مسعودة في اشد غضبها ، لا تقبل ان يتجرا احد على الشك من واقعها ولا في حقيقة حملاتها الصاخبة بوجه خاص ... » ولم ينبس زوج « الدر » ببنت شفة ازاء كل هذه البداة . وقد دهورت عودة الحاكم العجيبة من الصحة العقلية لاهل البلدة . وكان يشفق عليهم لشدة ما يحس بضعفهم واضطرابهم وهشاشتهم ودهشتهم وترك الزمن يفعل فعلته . والغبار يتراكم على الهاجس الجديد وترك العناكب الضخمة تسدي في افخاذهم شبكات حبرية تفرزه قرونها المعقوفة . والطيور تعيد الاحساس بالقياس الى ما حولها بل انه ترك الاشغال اليومية تقضي نهائيا على القلق ، والحياة تحول وجهة الحصر عن مجراه ليصب في اقنية أخرى منتجة وخلاقة لثروات تنقص نقصا مخيفا . حتى خزانات مضخة البنزين كانت خاوية ! الكل يجهل سبب نفاذ حقول النفط ؟ نهب قام به الجيش « البراوني » اثناء احتلاله المؤقت للنمارة ؟ اختلاس هذه الثروة السائلة من قبل المهربين المرتبطين ببندر شاه ؟ لا احد يمكنه ان يجزم . ومن المستحيل ان يعطي القط الأبيض وهو الشاهد الوحيد في عين المكان الاجابة الصحيحة !. فاهل النمارة لم يكونوا قد اكتشفوا بعد اسلوب التحادث مع القطط ...

هذه الهواجس كلها وكوابيس اليقظة والاقاويل والاشاعات لم تمنع الحاكم عن الاستقرار بدار متواضعة جعل بها مكتبه الخاص . وربحا للمجال ، اقام في اروقة الدار مصالح أعوانه القلائل الذين مكثوا في عين المكان . وقر رايه على ان يعيد النظام الى الشؤون المتشابكة المغبرة لبلدة النمارة . القرار الاول الذي اتخذه بعد رجوعه هو اعادة محافظة الشرطة الى وظيفتها الاصلية . وافتتح الماخور من جديد . فكر طويلا في هذه المشكلة وادرك ان الحرمان الجنسي ليس الاشكالا من اشكال القمع المفرط الداحر وأن النقص في هذا المجال يمثل خطرا على أمن النساء وعلى التوازن العقلي لدى الرجال . وعادت البغايا الشهيرات ذوات الطرائف المتنوعة على متن العربات سبعا سبعا . ولم تنس اي واحدة منهن وشمها الذي لا يحى عبر العصور وعبر الكواكب . وعاد حب الحياة الى نفوس العازبين ، وبعض الابعاء والشواذ ، وزرعوا تلقائيا النظرية القائلة بلا واقعية الموجودات وخاصة ما يتعلق منها بالحاكم . كان لديهم في ذلك حجة دامغة . اذ كيف يمكن لشبح ان يعيد فتح الماخور ؟ اين حدث مثل ذلك ؟ وشيئا فشيئا قلب انصار اللذائذ والشهوات الوضع . وحدد اهل النمارة من جديد

وبصورة تدريجية هويات بعضهم البعض . وتخلص محمد عديم اللقب من تلك الورطة ، في حين ان جيلالي بوحدة الذي لم يكن يغادر ورشته مخافة ان يحرق حيا بتهمة الزندقة نفس حديثه واستراح . ونسي الجميع التهمة الموجهة اليه على انه لم يكن الا ساحرا هربت نسخته البديلة من جحيم ابن حيان اشهر خيماوي في العصر الذهبي ، المتوفى في القرن التاسع . واستعاد ماخور « الكباش الشبق » نشاطه وحيويته السابقة . واستأنف التوائم الثمانية لمسعودة عاداتهم الليلية واكملوا في نفس الوقت بناء الطاحونة التي رغبت فيها والدتهم .

وذات صبيحة اربعاء ، وعلى الساعة العاشرة حسب دقات الساعات الجدارية الصقلية ، هجم فيلق مباغت تابع للجنرال « يهودي » على البلدة وتسبب في مقتل شخصين وعاد من حيث أتى . وظن الناس ان الامر ليس الا تحرشا لا طائل من ورائه او عملية هجبية مجانية . لكنهم سرعان ما أدركوا بأن العساكر الأجانب انما جاؤوا لخطف محمد عديم اللقب . لم يحالفهم الحظ . محمد كان خارج الاسوار يتأمل وراء خطوطهم في غرائب الحياة وفي الصعوبات المترتبة عن ضبط ذلك الثفل من الاشياء والموجودات والاحاسيس والظواهر والانطباعات ! دفنت الجثتان وضدت جراح المصابين الخفيفة . ولم يفكر الناس في الهجوم بعد ذلك . على أن الحاكم كان عاجزا ولم يكن يتوفر على الامكانيات لرد الهجوم فرفض أن يبرق — وكان قد أتى بالة مبرقة كاتبة تشتغل بالطاقة القمرية — الى الحكومة المركزية التي كاذت لها مشاكل اخرى تريد تسويتها . وفي نهاية النهار ، قام بزيارة محمد عديم اللقب لتهنئته على نجاته من ايدي العساكر الاجانب . وطمانه هذا الاخير ، وحدثه عن حذائه الذي كان منشغلا بتبويضه كما يفعل كل مساء في نفس الساعة . ورفض محدثه الدخول في مثل هذه الاعتبارات التي لا علاقة لها بأكوام الورق والادارة والقوانين وقواعد التسيير . ورغبت مسعودة في ان تدعوه الى تناول العشاء لكنها كانت في مثل موقف ابنها وقالت في قرارة نفسها أنه على الرغم من لطافته ونزاهته وجده ، يبقى حاكما على أية حال . وخشيت من ترسانة القوانين اللامجدية والصعبة التطبيق ، التي يزدحم بها رأسه . فأسكتت رغبتها ، لكنها استفسرت منه عن صحة زوجته وعن أسم طفوله . ثم اضافت بأنها تعرف كيف تطرد العساكر ان هم عادوا . « القوة الى جانبهم ولكن لدينا الحيلة والمكر والحماية الالهية لا تخشى شيئا يا سيادة الحاكم : نحن

قادرون على الصمود ألف عام » . ولم يكن لديه ما يضيفه . واكد محمد عديم اللقب اقوال امه : « لقد حدث مثل ذلك خلال التاريخ » . غير ان الرجلين كظما في اعماقهما اليأس والعجز والمرارة التي كادت ان تطفئ عليهما . ولكن الى متى ؟

لم تعد كلثوم قادرة على التطرق الى المشاكل بصورة حازمة ومزدرية في نفس الوقت . فلم تدر ما تقوله . وقد علمت بخبر الهجوم الاخير وهي تصغي دون اهتمام الى صوت مسعودة الحاد وهي تثرثر مع والدتها من غرفتها المبردة بنفس فصائل عباد الشمس الذي يجعل الحياة رحية وفي دار عديم اللقب . لم يدهشها الامر واستغربت للاهتمام الكبير الذي اولي له . لم تبذير اللعاب والاعصاب اذا كان الرد غير ممكن ؟ من الاجدى بهم ان يركزوا جهودهم على المشكل ويبحثوا عن حل جذري له بدلا من ان يرهقوا اعصابهم ويسترسلوا في الحديث لتشجيع انفسهم . وكانت البلدة غارقة في الشجون والاستبصار . ودفن الاموات اضحت حركة ميكانيكية يأتيها الناس ، وقد جفت دموع النسوة لشدة ما كن في حاجة الى ماء اباطهن لارواء غليل دود القز الجشع ولاحتضان الشرائق الهشة المهددة في نفس الوقت بالربو والزكام والبرد . كانت كلثوم تزداد استمساكا بالبوقال ، تعبيرا منها عن عزلتها وتشتتها . وتفرق في ابهامات الشك وانعدام اليقين واللاوضوح ، ولا تبذل ادنى جهد لطرد نباب سوء الطالع الذي كان يصلها رغم برودة الهواء داخل البيت ، لان بشرتها كانت تفوح برائحة الوحل التي تعرفها تلك الحشرات معرفة جيدة . لكان طمي الفرات ودجلة تجمع في جسدها الذي لم تعد تقوى على نقله من مكان الى اخر لشدة ما كان يراودها الشعور بانه من طين وبانه يستطيع ان يهرب منها في كل لحظة وفي اي وضع من الاوضاع وفي اي ساعة من الساعات . وجعلت تبتعد اكثر فاكتر عن هذا العالم الذي عملت جاهدة في الماضي على جعله في متناول اصابعها ولم تعد تسأل عن اخبار محمد . وكانت تقول لوالدته التي تثقل عليها بأسئلتها وتحاول ان تستخلص منها بعض الكلمات عن هذا العشق الذي خدشها من الخارج بعد ان تاكلها من الداخل زمنا طويلا « اذا كان ابهامه في حالة جيدة فهذا يعني انه على ما يرام » . ولم تكن لها اية ردود فعل ازاء احداث في مثل اهمية وخطورة كارثة مضخة الماء ، وعودة الحاكم والهجمة الاخيرة التي وقعت البلدة ضحية لها ، هذه البلدة التي شهدت مولدها والتي قضت بها حياتها القصيرة ، باستثناء عامين

عاشتتهما في « سيدني » لتعلم اللغة الانجليزية التي سرعان ما نسيتها .
لقد احتفظت بذكرى سيئة عن استراليا ، هذه القارة الصارمة العجوز
حيث يشتري منها السم داخل علب في كل الصيدليات ! وكان هناك
الاحساس الجسدي تشعر به في عمودها الفقري وكأن ما يسري فيه هو
زيت الكتان او السمسم الذي يستعمله جيلالي بوحدة لتزييت لوالسب
الساعات الجدارية التسع عشرة التي كان مسؤولا عنها . علاوة على
شعورها بتسرب مائي في قلبها .

لم تعد تقدر على سده ولعلها فقدت الرغبة في ذلك . ثم انها كثيرا ما تفكر
في حكايات الساعات الرملية التي رواها لها محمد عديم اللقب قبل ان يحشر
لها كاميشيه في فرجها ويقطع ابهامه الذي سرقته منه لكي تضعه داخل
اناء مليء بالفورمول . وكان يسمى تلك الالات الخاصة بقياس الزمن
بسارقات المياه على سبيل مازحتها . وها هي اليوم تفكر في ذلك كله
يحدوها احساس بان ماءها يسرق منها، ويتقاطر في احواض الوهن والخمود،
وتذكر العديد من الحكايات التي كان يبتدعها ابتداءا حول سارقات الماء
التي تقنن فيها البيزنطيون الى حد ان صنعوا البعض منها مزودة بطوافه
تحرك دواليب تعمل بدورها على ذبذبة رقاص امام لوحة مدرجة . كم
كانت هشة وبالغة التفنن تلك الساعات الرملية . وهكذا ، حينما كانت
تغلق النوافذ الخارجية لغرفتها وتتمد على فراشها ، يعترئها الاحساس
بأنها نكومة . وقد ادركت منذ زمن طويل ان ماءها يهرب منها من كل جهة
الى حد ان يغرق وجودها والى حد ان دواليبها تتأكسد الى ان يتجمد
الزمن . لكنها لم تكن ترفع صوتها بالشكوى وتظل طوال ساعات تحقق
في الابهام وهو يطفو على سطح بوقالها مثلما يطفو المرض على جسدها،
تهدهدها في ذلك وشوشات والدتها وعمتها بالرضاعة — والدة محمد
عديم اللقب التي كانت تحبها بقوة وعنف لم تكن تظن انها قادرة عليها ،
قوة وعنف يجعلانها تتسمر في سريرها — بمنأى عن الستائر الخارجية
التي كانت بتلات عباد الشمس الهائلة تبث الظل والضوء بالتناوب تبعا
لموقع الشمس وتشطر جسدها كأنها لتجعله اكثر شفافية وميوعة . كانت
ترهف السمع الى الزيت اللزج وهو يسري عبر عمودها الفقري ، بل انها
لم تعد تدري بأن الطيور قد جنت اكثر فاكثرا واستعادت موسيقاها السابقة
التي ضاعت بعد انقراض الانثى الاخيرة من حيوانات الكنفورو ، التي
مصت حليبها الى اللحظة الاخيرة والى اخر قطرة . وبمجرد ما كانت

والدتها تفرغ من تنظيف البيت وسقي نباتات الحديقة تأتي إليها في غرفتها لتتحدث معها في انتظار وصول مسعودة ، التي تفر عادة من العتمة وتقدم مع زهرة بندرشاه في السطیحة لتقولب الزمن وتمزج ما بين اتساع بيوت اسلافهما وفشل زهرة الذریع ، مع الاحتفاظ دائما بجسعها الهائل الى الحركة والحياة .

وسمنت الدر كثيرا وتمددت بشرة بطنها الى حد انها خشيت ان تتمزق او تنفجر مزقا مزقا مثل جلد طبل السيد برربي الذي قلت اخباره منذ وقت ، او لعله كان مستاء لان احدا لم يرد على بطاقاته ورسائله التي يتحدث فيها عن حياته الجديدة وعن المهنة الذليلة الكافرة التي تردى اليها ، ذلك لان البطالة كانت منتشرة في انحاء العالم ولان الارياف شهدت نقصا في القرائح مع الايام بدءا من رتبة الاسقف الى القواس البسيط . وعلى الرغم من حالة الحمل المتقدمة وحجم بطنها غير العادي فانها عملت على ان تزور كلثوم لانها كانت الوحيدة القادرة على ان ترفه عنها الى حد توريد خديها بألوان باهتة ، خلبت بيضويتها وغمازاتها الفاتنتان عمال الارصفة بمدينة لمبورن ، عندما كانوا يترددون على الحانات المشبوهة كانت تذهب بانتظام لتعقد اواصر المعرفة مع حثالة الارض وتلصق العار بأبيها التافه . ولم تكن المراتان تتحدثان الا عن محمد عديم القلب ، وعن شذوذه ، وخوارقه ، ومواهبه الاستبصارية واعماله السحرية ، وتوقفاته وخيبته وفشله وانتصاراته وهزائمه ، وصراعاته ، وولعه بالتاريخ وبالسياسة ، وصراعه ، وارهق وابهامه الذي تعملان معا على تغيير السائل له بطريقة طقوسية تدوم بضعة ساعات ، خاصة ان هذا العضو الذي بتر في يوم من ايام الحنان قد صار هشا جدا . لقد تعق كثيرا وتعفن في الفورمول حتى وان لم تنس كلثوم ولو مرة واحدة ان تستبدل السائل الذي يسبح فيه . كان عليها ان تحصل على بعض التركيبات من الماء المقطر والحامض ، وتنقل هذا الطرف المكون من اللحم والغضروف المورد ، وتطهر طبق الماء بالجافيل لتبيد ادنى جرثومة قد تنال منه ، وتبلاه ، وتعيد الابهام ثم تغلقه باحكام حتى لا يتسرب الهواء اليه اولا وحتى لا يفر بعد ذلك ، وصار ابهام محمد عديم القلب يشبه الان قطعة من قماش الرياش نقع في الماء زمنا طويلا ، اذ ليس من الممكن تفادي مفاجآت ابن مسعودة الاكبر . ثم ان كلثوم كانت تحب ان تتلمس بطن الدر الضخم ، وتضع اذننها على بشرتها لكي تنصت الى خفقان القلب ، وكان ذلك طقسا من الطقوس التي تاخذ

منها وقتا وتسليهما . ومع ذلك فان كلثوم لم تشعر ابدا بالغيرة من السعادة الزوجية التي تتمتع بها منافستها . اذ لم يكن لها يد في الموضوع . وعندما كانت « الدر » تضحك وتلح على معرفة حقيقة الشعور الذي تكنه لها صديقتها ، كانت هذه تجيبها مازحة : « دعينا من هذه الحكاية ... » انها قضية طيور الكاميشي ، ليس الا ... » على ان كلثوم كانت في واقع الامر مشدوهة بتلك الضربات الصغيرة التي تسمعها عبر بطن رفيقتها وبالطريقة التي تضمن بها الوشم بسبب انتفاخ بشرة مسعودة السعيدة التي لم تستحق هذا الاسم مثلما استحقته الان . وما كان هناك احد غيرها يستطيع ان يفهم تعاسة كلثوم . وذات يوم وقد لاحظت شحوبها ، وسألمها وضحكها الزائف الاجوف الذي يشبه صلصلة هيكلها العظمي تجرات واقتрحت عليها ان تتقاسما الرجل الذي تحبانه معا : « انظري الى جسدي ، انه مشطور الى شطرين متساويين ، ولكنه واحد . سوف ندخل بعضنا البعض ، وبدلا من مكان الوشم وموقعه لن يكون هناك سوى شق صغير ، يميز بيننا ... » بكت كلثوم عرفانا بالجميل لكنها آثرت السكوت . كانت تعرف رجلها ذاك وتعلم انه جاد في كل الامور ، وعنيد ونزيه . انه لن يقبل ابدا بمسألة تعدد الزوجات ولن يخدع مبادئه السياسية بهذه الطريقة . « انه من الخشونة بحيث لن يقبل مسaire حناننا ، ثم انني لم اعد ارجب فيه ... ابهامه اقل وطأة من جنونه ومن خياله الجارف . لن استطيع الصمود ، لقد صرت عجوزا ! حتى وان كنت لم ابلغ العشرين بعد ! لقد قضت علي قراءاته الانفية ... وهذا شيء كثير بالنسبة لامرأة واحدة » . اما محمد فكان ابعد من الظن في نوعية العلاقة بين المرأتين ، وقد صار يتعذب بالشك في اقتراب اجل الوضع لدى زوجته ويخشى الا تنجب الا طفلا وحيدا تثقل عليه عزلته طول حياته . ومسعودة سوف تثور ثائرتها ولا ريب . الم تقرر بأن عليه ان ينجب توائم من جنسين مختلفين لانه ولد وحيدا وبدون اسم ؟

وبعد فترة من الزمن طويلة ، طويلة . اي في اليوم الذي دفن فيه محمد عديم اللقب والدته التي نيفت على المائة ، تذكر جنازة علاوة الاحمر الذي مات وهو في سن الخامسة والسبعين دون ان يخطر حتى اصدقائه . اما الحاكم الذي لم يضيع وقته ابدا فلم يكن محظوظا في محاولته الثانية . فلقد جاءت من حيث التوقيت مع موت الاسكافي الشيعوي ، وكان محمد يتذكر جيدا بأن الصدمة التي تسبب فيها ذلك الفقدان قد مسحت الآثار

النفسانية التي ينتظرها « مهدي واعى » من اعلانه عن مشروعه الاخير .
كان الامر يتعلق باحداث تربية حقيقية وعلمية للبقر المستورد من سويسرة
وتغذيتها بالحلفاء التي تتكاثر في المنطقة والسهر عليها من قبل بيطريين
مختصين على وشك الوصول على متن الطائرات الشاحنة التي تقل هذه
الحيوانات والهدف من ذلك كله هو تكوين تقنيين في عين المكان في مجال
الصحة البقرية من بين الشبيبة العاطلة بالمنامة ، دفن علاوة الاحمر في
كفن من الحرير الاحمر سجنه « الدر » بكل الحنان الذي استطاعت ان
تضيفه عليه من خلال فن التطريز . ولم ير الامام اي حرج في ان يرسم
المنجل والمطرقة بالاخضر والابيض على الكفن ، بل انه لم يتردد في اداء
صلاة الغائب عليه ، على الرغم من ان الاسكافي لم يهتم في حياته ابدا
بمشكلة الله التي كان يراها زائدة عن الحاجة بالنظر الى مآسي البشر
واحزانهم اليومية ، بل ان محمدا فكر في ان يضع صورة ستالين على صدر
صديقه العجوز الذي رافقته البلدة كلها الى مثواه الاخير . مع العلم بان
الناس كثيرا ما وقفوا موقف الحذر من افكاره . لكنه كان النعال الوحيد
الماهر في البلدة كلها . ولولاه ، لما استطاع احد ان يسير على قدميه :
على ان ذاكرة اهل المنامة كانت ضعيفة بخصوص الاموات وسرعان ما
كفنه غبار النسيان . وما كان لمحمد ان ينساه ابدا . كان يتذكر جلسات
قراءة الصحف في حانوت الاسكافي العجوز . وكان في كل صباح وقبل ان
يفض صديقه الجريدة التي يعود تاريخ صدورها الى بضعة اسابيع يطرح
عليه نفس السؤال القلق : « ما الذي قاله ستالين اليوم ؟ » وقد
ظل « علاوة » يطرح نفس السؤال حتى بعد مرور زمن طويل على وفاة
الزعيم الشيوعي . كان محمد صاحب المواهب المتعددة الذي آل به الامر
الى ان يقرأ بأنفه ، كان يخبره عن الصراعات العمالية والشعبية وعن
معارك التحرير الوطني التي تخوضها الشعوب . سؤال الاسكافي كان
ينطوي في واقع الامر على انشغال عميق ، ثم ان طرحه بصورة ساذجة
مركزة حول عبادة الشخصية ، لم تكن الا طريقة تقليدية للاطلاع على احوال
الثورات عبر العالم . غير ان محمدا تجرأ ذات يوم على القول بان ستالين
لم يأت بشيء . ووقع في روع العجوز ان صاحبه يهزا به فما كان منه
سوى ان غضب غضبا ماحقا . وطرده قارئه الوفي المعتاد وامتنع عن
توجيه الحديث اليه لمدة ثلاثة ايام .

وصلت البقرات السويسريات والبيطريون ذوو الجنسية الواحدة

ذات صباح من شهر جانفي كان الطقس فيه رائقا . واحيط اهل النماة
 علما بواسطة مكبرات الصوت فشهدوا وهم في حالة من الوجود انزال تلك
 الحيوانات الضخمة التي اضطرت الى افراج قوائمها حتى تقوى على
 المشي اذ كانت ضروعها الضخمة تعوقها عن ذلك . واقتيدت وسط
 تصنيفات المناامين المخلصة الى حظائر حديثة تم بناؤها لتوها . وسكن
 البيطريون عمارة كبيرة واسعة بنيت في نفس الوقت بجوار الحظائر .
 واغرق الناس بحليب البقر الثخن والثري الى حد ان المعاز ماتت غيرة .
 وفكر بعض الماكرين في استعمال السائل الابيض لري قطع ارضهم اليابسة
 التي ظلت بورا لسنوات طويلة . على ان الحاكم اقتنعهم بعدم الاخذ بهذا
 الرأي ، وشرح لهم بأنه ينبغي تحويله الى جبن لتصديره ولسد النقص
 الناجم عن ازمة وعن كساد تجارة الحرير . وحزن البعض حزنا كبيرا
 لرؤية كميات هائلة من الحليب تحول الى جبن في حين ان حقولهم المشقوقة
 كانت متعطشة الى اي نوع من انواع السوائل . ولكن سرعان ما تبددت
 احلامهم ، وتبعهم في ذلك الحاكم ! لكن البقرات بدأت تدر القليل فالأقل من
 الحليب بعد الاسبوع الثالث . واعتقد الناس ان ذلك راجع الى تغير النظام
 الغذائي فتخلوا عن تغذيتها بالحلفاء وتحولوا الى التبغ المستورد من
 الأرجنتين . عبثا فقد ظل الانتاج يتناقص ، والضروع تضمر والبقرات
 تنضمو شيئا فشيئا . واهرج البيطريون ففكروا في اختلاف الطقس غير ان
 الحظائر النموذجية كانت على درجة مثالية من الحرارة ، وقد كلف محدود
 بالسهر على انتظامها مثلما فعل ذلك جيدا بغرفة الطمث . وقد امعن
 التقنيون السويسريون طويلا قبل ان يقر رأيهم على تقديم فرضية جديدة ،
 وكان عليهم ان يعجلوا بذلك ، ذلك لان البقرات فقدت النصف من اوزانها،
 وزار احدهم الحاكم ووضح له بأن البقرات ، على الرغم من وجودها في
 نفس ظروف العيش والطقس التي كانت عليها في بلادها الاصلية ، تعاني
 من نقص كبير ... كانت في حاجة الى سماع الموسيقى الفلكلورية لمقاطعة
 « الفود » التي جيء بها منها وهي تشعر بضرورة الانصات الى اجراس
 التبشير والى نايات الرعاة المحليين . طلب من «سليم موزيكا» ان يضع
 مقطوعة ملائمة ، تتخللها اجراس الكنائس واصوات النايات لمنطقة
 « الفود » . ظن الحاكم بأن احزانه انتهت حينما بلغه نبأ موت البقرة
 الاولى ، واصيب بالذعر ، استدعى محمد عديم القلب والامام لنجدته .
 اوضح محمد بأنه لا يمكن استيراد بقرات سويسرية دون نقل جبال الالب
 التي نشأت بها في نفس الوقت ... اذن ! كان عليه ان يتصرف مثل

« بندرشاه » ويستجلب جبلا جليديا ! وسرعان ما ادرك مهدي واعى
مضمون هذا الحل الساخر ! على ان الامام كان واضحا فيما قاله : « لا
طائل من التفكير ، شفاؤنا كله صادر عن غضب الله النهائي علينا . انظر
الى المساجد كيف خلت من المصلين وكيف امتلأت المقاهي بلاعبي الدومينو
وبيوت الحرام الموشومة » ثم انصرف . وتهاوى الحاكم وهو يفكر في ان
الامام يعرف كيف يصوغ جملة غير انه رفض قدريته . كان الامر قد انتهى
به الى ذلك الحد عندما بلغه نبأ موت البقرة الثانية . حينذاك شعر
برغبة محرقة في البكاء .

يوم التاسع عشر من كل شهر هو يوم متميز لدى عائلة عديم القلب . وكانت مسعودة تعبد الى غلق كل شيء ، وطرده الرجال من دارها ، وتطلب من العذارى الخمس الجلوس على قصرها الثمينة ، فوق اعلى السطح وتترك الامر للطبيعة لكي تعمل عملها . وهكذا ، كانت ميازيب الحياة تنبجس بنبضات ذلك الشيء الذي لا يقوى على ان يصير جنينا فيفتجر عن دفق ثري غزير تنتظره الارض البعل لارواء نفسها . فيسيل الدم السخي من فروج فتيات الدار المشعنة النابضة وهن ينتظرن ادوارهن في الزواج لكي يتخلصن من تلك المراسيم التي تدوم خمسة ايام تحت انظار امهن القلقة المتوثبة ، في جو متناقل شبيه بأجواء العفن والقيء . ولهذا السبب بالذات ، كانت حارسة العرش تغلق الابواب والنوافذ وتسد الشقوق والشروخ ، ولم يكن شيء ليخفى عن رقابتها ، حتى شقوق السقوف واخاديد الجدران . ومن اجل ذلك قررت تنظيم الشعائر الطقوسية فوق البيت حتى تنقل الرياح عطور بناتها النفاذ وتنشرها عبر الابعاد . وخلال هذه الفترة القدسية التي تدفع بها مسعودة الى حد الذروة ، كانت روائح التوابل القوية تنتشر في المنامة ، وبالإضافة الى سيلان العذارى الخمس المهلي ، كان هناك انيض الابطال النسوية حيث تتجمع الشرانق دائما وسط الروائح الحريفة وشذا العنبر والجاوي المحروق في المجامر المحتدمة للتخفيف من احتقان العالم السائر نحو تفتته وانهيائه . على ان الحاكم الذي ظل جاهلا بان مثل تلك الممارسات البالية لا تزال سارية المفعول ، لم يكن على اطلاق بعملية وضع دم الطمث في القصر ، هذه العملية التي تشرف عليها اضرس امرأة في البلدة ما

بين اليوم التاسع عشر والثالث والعشرين من كل شهر ! وكان موت
 البقرات التي استوردت بمبالغ طائلة قد احزنه كثيرا ، بينما عمد اهل
 النامة الى اقامة علاقة بين موتها وبين انقراض حيوانات الكنفورو .
 وهكذا ، عاد دوار الحذر يعصف برؤوسهم ، اما مضخة الماء ! فلم يكن
 احد يدري ما يصنع بها . الا اذا اقيم جهاز تحت الارض لتبريد السائل
 الذي يغلي في بطن النامة . اما فيها عدا ذلك فليس هناك اي حظ امام
 تلك المجموعة البائسة من البشر التي استنفدت امكانياتها كلها . غير ان
 جهازا كهذا ليس الا شطحة خيال طوباوية لانه يتطلب ثلاثة اضعاف الميزانية
 الوطنية السنوية ! وهو من ضروب المستحيل ! وخلال ذلك كله ، ظلت
 تلك الالة المنصوبة في قلب الصحراء تعاني من زحف الصدا ، تتلقى
 قاذورات اللقالق ، التي كانت مهووسة بالاغالي ، فحولتها الى مجثم بنت
 عليه اعشاشها الناعمة الكبيرة المحشوة بقطن الجنون والصمت . وكم
 كانت صاخبة فيما مضى ! ولم تكن المضخة هي الوحيدة التي تأكسدت
 واهترأت بل الاشخاص هي الاخرى جعلت تحشو حياتها وغضبها بالقطن
 الضارب الى الزرقة . ولم تكن اذانهم لتقوى على الطنين مع ضوء النهار
 الذي يحزن الفضاء ويفكك كل الهاوي التي تحولت الى خشبات مسرح
 كبير في الهواء الطلق ، ذلك المسرح الذي وعدوا به منذ سنوات طويلة
 والذي لم ينتظروه ابدا لانهم كانوا يزعمون بل يعتقدون بانهم افضل
 الممثلين في العالم اجمع ، كانت المأساة والهزل في رأيهم قد ولدا بالنامة
 على سطح هذه الارض المحروقة . هذا بالاضافة الى ان اسماعهم ملت
 تلك الاقاويل التي تزعم بأن الرخاء سوف يعم قريبا ، فبما انه وجد قبل
 عشرة قرون ، ليس هناك من سبب يحول دون رجوعه لكي يملسهم
 بنعومته ويغمرهم بغزارته . غير انهم في واقع الامر كانوا يقولون بضرورة
 وضع كل الانذار الى جدار واعدامهم فوراً حتى لا يعودوا الى ترصيع
 عرى بذلاتهم بجلطات الدم الحمراء المحببة لهؤلاء الذين اعدموهم وهم
 في العشرين وفصلوا رؤوسهم عن اجسادهم وهم في سن التاسعة
 عشرة ولهؤلاء الذين بتروا ايديهم اليمنى ثم اليسرى ثم الارجل اليمنى
 فاليسرى . وقطعوا اعضاءهم قطعة قطعة في حال تكرارهم لنفس الجرم
 حتى يسكتوهم ويتخلوا عن ميولهم وغرائزهم السيئة . كان السعار يهز
 بلور النعاس في حين ان الكوايبس تفرض نفسها فرضاً . لا جدوى من
 الكلام . الورود في العري ، سوف يدفعون يوما ما حسابها وكذلك الملايين
 من الدولارات التي تجمع بمسحاة المشرفين على القمار فوق البسط

الخضراء كلون الاعلام المطرزة بالسيوف المعقوفة ، وكذلك الامر بالنسبة لينابيع النفط التي يهربونها كما يفعل بندرشاه الفظ الى الذين ينظمون عمليات ابادتهم . والواقع انه عندما كانت العذارى يفقدن دماءهن قطرة قطرة في اصص الليل والحنين والسرية ، كان الوقت قد ازف لكي تنطلق الرصاصات وتحدث ثقبوا في اصفار الاحتيال والسلب المدهشة . ولا يهم بعد ذلك ان ماتت بقرات الحاكم ! فالمسألة لن تكون موقوفة على هذا الحد ، ذلك لانه طالما دفع الجنون بالمتألهين الى رحم النسوة وتبذير ثروات الآخرين ، فان اناس المنامة سيظل محكوما عليهم بالانتجاع داخل الكوارث القلوية المخفية تحت اباط النسوة بعد ان صارت اعشاشا لدود القز داخل دفقات الحبر البنفسجي المندفع من العانات المشعرة ، التي تجفف بنشافات الكذب والنميمة او برمال الحقد والعجرفة على الطريقة القديمة . هنا تكمن الثغرة . مهاوي الهواجس ! ولم تعد المنامة تتحمل الرش بالرصاص كل ثلاثة او اربعة ايام من هؤلاء القبضايات الذين نسوا عذابهم . وصار اهل البلدة كحيوانات احادية الخلية تائهة داخل شمسوها واصبحوا لا يتعرفون حتى على رائحة جرادهم المطلي بالجبر ، قبل دخول « الدر » الصاخب الى البلدة بزمان طويل وقبل ان تنهك في تفصيل اكفان الحرير الخام ، الاكثر طبيعية من الطبيعة . هذا قبل ان تحول العناصر الهوجاء بكثير بلدتهم الى سفينة شجية تتأرجح بين الغرق والقلق . حتى القيط نفسه لم يعد يحمل في تضاعيفه تلك الرطوبة المنبعثة من القيلولات الطويلة الزنخة . ولم يبق حينئذ سوى الهذيان ، لان مسعودة كانت تشعر بدافع جنوني الى سقي حديقتها بدم العادة الشهرية لبناتها ، وصل ابنها الاكبر الى حد من التذبذب يمنعه من القيام بدور المهرج ، اما كلثوم فكانت تحت وقع العصاب حقا والاما تجولت ببوقال مليء بالفورمول . وصار كل شيء يتزايد ويتضخم ، ويفتتح بين هاوية وجرح واغتصاب ومذابح التاريخ ، كأنها الامر عبارة عن رموز مرعدة وايجازات متشنجة . من حسن الحظ ! والقطن الازرق يحشو كل ما يمكنه من فتحات وشقوق وخاصة الشروخ المتشنجة ، وانتظارات القطار الذي يرى بين عشيما وضحاها . او يحلم به او يصنع من اعواد الثقاب على غرار الاطفال الموهوبين القادرين على ادخال سفينة بأكملها في قارورة من سم الافاعي . وجعل محمد عديم اللقب يحسب في تلك الصبيحة من اليوم التاسع عشر كعادته في كل شهر . كان يشعر بالرعشة تسري في جسده وبطمي الفرات ودجلة المخضب بالدماء وهو يتصاعد الى رثتيه ويلفها بطينته الصفيقة ،

ذلك انه بعد المذابح التي راح الزنج ضحيتها وبعد القضاء المبرم على القرامطة ، ظلت الاعدامات متواصلة ، وقطعت الرؤوس واغرق العديد من الناس في النهرين اللذين يتشابكان فيما بينهما ويتشعبان الى ما لا نهاية عبر الالاف من الحدود ومائة الف من الروافد بغض النظر عن ملايين التمرجات والحفر المسدودة بالزجاج المسحوق واحجار الصوان المثلوم وحطام التعذيب والهجية . كل ما يتحرك يمثل خطرا ينبغي ان تقطع انفاسهم وخصياتهم ! ذلكم هو قانون الحكام بالوراثة الذين يصبغون لحاهم بالملح والفلل . ولا شك في ان الخطأ يعود الى ابن ماجد ذلك الشعور التافه ومقتحم البحار العظمى الذي قاد البرتغاليين الى الاماكن التي ارتكبوا فيها جرائمهم ونظموا فيها تجارة الفلل والزنجيل والعبيد . وكان البعض الاخر قد مر بتلك الاماكن قبلهم ! اوتي بالزنج من زنجبار وموباسا ! من اتي بهم؟ هؤلاء الذين اغرقوا وحولوا الى رواسب في مجاري النهرين المتناسين اللذين يلتقيان في مكان ما بين مسقط رأس الجاحظ ومسقط رأس المتنبى . اما عن الاخر ، اي ابن خلدون ، فقد ولد في الناحية الغربية اي بتونس وانتهى به الامر وهو في سن الثانية والاربعين الى ان ينزل بهذه التجويفة المعدنية التي تصك بأسنانها ، وتصر برملها وتنظم خليطا من الموسيقى الالية والاصوات المزققة تحت اشراف زوج التوالم الرابعة . وبقيت مسألة الطيور ! تجيء في اليوم التاسع عشر من كل شهر لتنقر مؤخرات العذارى الجيلات الجالسات على عروش الحظ واللائي يتحدثن عن الامراء الساحرين الذين يمتطون جياد الهروب الى الامام لان ضمائرهم قد افرغت من عنصر الزمن ولم تعد تتألف الا من طبقات سطحية من عقود الزجاج المزركشة الرخيصة ومن ورق الالومينيوم المصبوغ بالفضة . علمتهن مسعودة كل شيء . تولى محمد عديم اللقب البقية لتطبيق المخطط الماكر الى اخره ، وذلك باجراء مقابلات في الشطرنج مع « الكنفورو » فوق رقعة استيهاماته بالبيادق المحولة الى فرسان ليس لها من هدف سوى الاطاحة بالملوك ! لقد حلم طويلا بآثار السعادة وبصداها كشريط ذي حاشيتين: الصوت من جهة وصورة الف ليلة وليلة التي موهبتها ذاكرة الانتقام والتشويه من جهة ثانية . لا يجب ترك اي شيء للصدفة ! كانت روح « علاوة الاحمر » تحوم بالبلدة التي لم يعد لها من يرقع احذيتها المثقوبة اما صديقه ابن مسعودة فكان يسمع في احلامه تنهات خيبته . يا لذلك الاسكافي المسكين الذي اراد بشدة ان يقف خاشعا على ضريح ستالين ، ولكن عازه الوقت والمال ...

وعندما كانت الريح الفاترة تهب على اشجار الزعرور وتكسو زهور
الفرنوق والبيغونيا بالغبار ، يخرج محمد ارقه للتجول به ويمكث خارجا
اطول من المعتاد ، ذلك انه بدلا من ان يتحاور مع جده فقط ، يشعر بعد
ذهابه بضرورة انتظار وصول شبح « علاوة الاحمر » . « لقد فانت
الفرصة منا على اية حال يا بني : انني لا اتحدث عن قبر ستالين ، فأنت
تعلم ان الاسر لا يتعلق الا بهذين عجوز ، ولكنني وددت لو مت بعد
مشاهدة المعركة النهائية » . ثم يتبخر في الهواء . اما الشيء المثير
للهشة حقا ، فهو ان محمد عديم اللقب لم يكن في حاجة بين اليوم التاسع
عشر واليوم الثالث والعشرين من كل شهر الى السكر للاتصال بواقع
الاموات الحقيقي . كانت هناك دلائل من حالته النفسية المهلوسة تتخلل
غيابه ، وكان يعلم ان الحاكم المسكين لا يقوى على شيء حتى لو اشترى
جبال الالب كلها مع البقرات ...

في نفس ذلك اليوم ، حين كان الدم يتقاطر بصوت اشبه برذاذات
المطر المفعمة بالحنين في قاع كل القصريات الطقوسية الخمسة المنقوشة
بشعار سلالة مسعودة امعن « جيلالي بوحدبة » النظر الى اليومية التي
يخفيها في حديته حتى يتمالك نفسه عن التحديق في الايام والشهور وهي
تمر بسرعة وعلم ان اليوم كان التاسع عشر فأصيب بالذهول لانه كان
منشغلا بتركيب الساعة الجدارية الصقلية التاسعة عشرة والاخيرة من
ساعات مسعودة التي ورثتها عن سلفها القرصان العظيم . ورغب
« جيلالي بوحدبة » في ان تساعد زوجته « رشيقة » على الانتهاء من
عمله قبل منتصف الليل اي قبل الثانية الاخيرة من الانتقال من الشمس
الى القمر بين اليوم التاسع عشر واليوم العشرين . وقد زاد اضطرابه
ذاك من رهافة اصابعه الجميلة الدقيقة كلما عمد بأدوات التدقيق الصغيرة
الى رد كل شعرة من شعرات الزمن الى مكانها ، وشدد احكام المعينات
بكماشات الوهم البالغة الصغر ، وادرج المفاصل في امكنتها بقفازات
التول والموسلين ، وقوم كل لولب وكأنه ازاء عصارة متحجرة من خيط
دود القز ، وتفنن في معالجة كل لولب بعين التسامي وركب الرقاصات
برهافة الفراشات ، واستبدل الاحزمة بمهارة مذهلة ، ورصع المعدلات
بحذق صانع ماهر ، وزيتها ، وسارع في عمله هذا دون اي تعجيل او
حركة خاطئة ، لكي يعيد كل شيء الى مكانه ويعلن الخبر السار الى
حماته ... بدا وكأنه يعزف على ملامس الخلود . لقد روجعت الساعات

الجدارية كلها ونظفت وشحمت . وهي لم تزد عن كمالها الاصلي الا ببعض التدقيق الذي اضفي عليها . ذلك انها ظلت منضبطة ودقيقة تماما حتى اثناء الكوارث ، والمجاعات ، والتهديدات ، والانتحارات والموت والمجازر والجفاف والمذابح . وعندما انتهى بوحدة من عمله واتخذ كل شيء مكانه من مراسي جذوع ومحاور ومساند واوتاد ووقفات وكريات ومشابك ونواصات وبلاتينات وبكرات والعجلات، ولوالب وطبول واصاميخ ودواليب وعندما تم فحص تلك الروائع التسع عشرة الاخيرة وتشحييمها وضبطها واحدة بعد اخرى ، دخل محمد عديم اللقب ورشة الساعاتي .

بدا وكأنه مجنون ، وجعل يسير على ارتفاع ثلاث سنتيمترات من الارض بفضل حذائه المطاطي دون شك . وعيناه اللتان حيرتا العديد من النساء قد اتسعتا بصفة خارقة ، حتى ان خضرة بؤبؤية كانت محاطة بالماء اكثر من المعتاد . واضطر جيلالي بوحدة الى ايقاف الادوات التي استعملها حينما دخل صهره الغرفة حيث كان موجودا مع زوجته : حينذاك ثارت زوبعة ودمرت كل شيء باستثناء الساعات الجدارية التي كان ثقلها وضخامتها يرد عنها اعنف الهزات. وشع الجو ببوادر زخة مطر قادم . ودوخ الاحدب نوع من الدوي النهري ، لكنهما اصطدم دجلة والفرات داخل قفصه الصدري . وقد كان الوحيد الذي سمع من خلال الريح التي ادخلها محمد معه النغمات الرائعة كقطرات المطر المخضرة الزرقة الاولى ، المنقطعة فيها بينها والمتباطئة وكأنها تتردد في السقوط ، لكنها تهطل برتابة آلات المترونوم التي ادرجها قبل حين بمساعدة زوجته المحبوبة في بطون الساعات الجدارية الصقلية . وظل محمد عديم اللقب في مكانه لا يريم ، وقد امتلأ فمه بالكلمات ووشوشاتها ، ولكن دون ان يصدر عنه صوت واحد . كان من الاضطراب بحيث ان الساعاتي النحيف اتى حركة دفاع عن نفسه واحتفى بيده رافعا اياها بمحاذاة راسه . لكن سرعان ما انفجرت زوجته ضحكا وطبأته . فاستعاد رباطة جأشه رغم شعوره بالحرج وبالحرز ، في حين صاحت رشيقة : « لقد وضعت الدر حملها ! » واستطاع اخوها وهو يضمها اليه ان يتلفظ بكلام يكاد يكون غير مسموع : « لقد وضعت خمسة توائم ! كلهم ذكور . . . » وقفز من مكانه ، وغادر الغرفة وهو يجري فوق مطارح الهواء المهفهفة على ارتفاع ثلاثة سنتيمترات من الارض . وبقي الزوجان الساعاتيان وحيدين ، لا يعرفان ما يقولان او ما يفعلان . تصاعدت حمرة الخجل الى وجه جيلالي بوحدة . فهو منذ ولادة ابنه الكسيح العليل لم يستطع ابدا ان يخضب زوجته على

الرغم من جهوده اليائسة التي كان يعرف في قرارة نفسه بأنها غير كافية. وعلى أية حال استطاع ان يتعزى عن ذلك قائلا بأن لقبه الاصلي الذي يفصح عن ذاته احسن افصح يغنيه عن سلالة هي مدعاة للشبهات والمشاكل في هذه الازمنة التي تتميز بالجفاف ويكثره الموالييد .

عندما علمت مسعودة بالخبر وهي فوق سطح الدار تراقب بناتها وهم يبذلون جهودا مضنية ، نزلت مسرعة ، دون ان تنسى تحذير العذارى بأن عليهن الا يغادرن اماكنهن ! فمن العبث اضاعة ولو قطرة دم واحدة في وقت تدفن البلدة ما لا يقل عن عشرة اشخاص في الاسبوع الواحد ! وليست قطرات المطر التي سمعها بوحدة هي التي ستغير في الامر شيئا بعد الجفاف الذي دام زمنا طويلا . والنباتات واشجار الفواكه ، وخضراوات واعشاب الطبخ ، ودوار الشمس لا يمكن لها ان تستغني عن هذه العصارة الجوهرية التي كانت الجدة تحولها الى سماد الحياة اللاذبة . وبدلا من ان تذهب لرؤية المعالم الخمسة الجديدة للسلالة التي كانت ابعد ما تكون عن الانقراض ، بحثت بقلق عن ابنها في كل الغرف ، وفي الحديقة بل وحتى في الغرفات المتداخلة في بعضها والتي تتعاقب الى ما لا نهاية في شكل حويصلات من الذاكرة تحت الجلدية . لكنها لم تعثر عليه . وانتزع الابناء من عملهم في حين ان الطاحونة لم تكن في حاجة الا الى بعض الجير الابيض لكي تدشن بكل أبهة . ولم يذهبوا لرؤية الاطفال الخمسة ، لكنهم تلقوا امرا بالبحث عن اخيهم الذي ولد منفردا ووحيدا ، منكمشا حول نفسه ، عبر شوارع البلدة وازقتها . وما كانوا ليجثوا عنه طويلا . فهم ما ان بلغوا حانوت الخباز حتى تعرفوا على دمه وهو يرصع الارض قطرة قطرة ، ولم يكن عليهم حينئذ سوى ان يتعقبوا الاثار للعثور عليه مسترشدين بتلك الدلائل التي ما كان للونها ولكثافتها ان توقع بهم . وقادهم مسار القطرات من الدم الى الاسوار ، ثم الى ما وراءها ، اي الى تلك المنطقة التي تفصل المنامة عن الخطوط الاولى لجيش الجنرال « يهودي » . وبعد بضع ساعات من السير ، بلغوا التجويفة التي سبق لمحمد عديم اللقب ان لعب فيها الشطرنج مع اخر كنغورو في البلدة . وجدوه بلا حراك في الحفرة ، ممددا وقد غطته غشاوة رقيقة من الرمل . كان فاقد الوعي وثيابه ملطخة بالدم وجرح الابهام الايمن في فمه . حينذاك ادركوا انه قام بحيلة جديدة من حيله المعهودة ولم يلمسوا العضو المبتور المخفي بين الشفتين . لكان والد التوائم

الخمسة حاول قبل ان يفقد وعيه ان يوقف النزيف بمص دمه . والحقيقة انه كان في مثل جنون امه ، ولكنه كان شحيحا كلما تعلق الامر بماء الحياة الذي يجري في عروق الرجال وشرائينهم . ونقل الى الدار حيث كانت مسعوده مذعورة تتوقع خارقة جديدة من خوارق ابنها ، وتنتظره برعشة الحمى عند مدخل الدار . وما ان ابصرت بهم وهم يحملونه حتى صرخت : « لقد قطع الابهام الوحيد الذي بقي له . اليس كذلك ؟ » ولم يكن توائها في حاجة الى الرد . فذلك امر بديهي ، غير ان صرختها هيجت كلثوم وزهرة بندرشاه اللتين جاءتا جريا ، رغم تعذر الجري على كلثوم التي فقدت كل قواها . لكنها وجدت بقية من قوة في شبكات عاطفتها المشلولة لكي تجرها الى دار عديم اللقب . وهجمت على محمد الذي ظل غائبا عن وعيه على بساط قاعة الاستقبال . ودون ان تنبس بكلمة او تضطرب ، دفعته جانبا بكل رفق ، وغرست يدها في الجيب الايمن من سرواله القطني الاسود الذي لا يفارقه والذي يضيق عند الفخذين ، واخرجت منه قطعة من لحم مخضبة بالدم على طرفها ظفر علاه السواد . ولم يكن ذلك الا ابهام محمد الايمن ! اما مسعوده وابناؤها فقد انشغلوا بمعالجة الجريح فقد بتر الابهام من منبته ، بنفس مقطع الخبز الذي استخدم فيها مضى لاقتطاع الابهام الايسر . وانتهزت كلثوم الفرصة وسط الصخب والفوضى الذي احداثته مسعوده بحمالتي صدريتها اللتين جعلتا تصطفقان بقوة اعصار ، وانزلقت من المكان وهي تضم في قبضة يدها الابهام الدامي . وعادت الى بيتها وقد هدها العياء ونال منها السام . وحين استعاد محمد وعيه بعد تطهير جرحه ، وتضميد يده وتبديل ثيابه ، حلق فيها حوله بعينين نشر عليهما التهلل والانتشاء خضرة مائية اشد ما تكون شفافية وسيولة . عندئذ انفجرت امه بقولها : « اتركب هذه الحماقة في مثل هذا اليوم ؟ خمسة توائم ينزلون علينا وخمس عذارى يسيل دم العادة الشهرية منهن ! انك مجنون ، ليس هناك ما تفخر به ، ها انت الان بلا ابهام على الاطلاق ! لن يبقى امامك ما تمصه عندما يعيدك الهرم الى طفولة ثانية . فانت من نسل ملعون ، قادر على ان يعيش بكل جبر اكثر من قرن ونصف ! » . على ان هيجانها لم يدم وقتا طويلا . وجعل الزمن يتنصل منها الان وقد اصبحت الساعات الجدارية موضوع تدقيق صارم . ودون ان تضيق وقتها في الشجار مع ابنها ، امرت توائها بالعودة الى اعمالهم للانتهاء من طلاء الطاحونة التي كان من المنتظر ان تدشن في نفس العشية وذهبت لرؤية حلقات سلسلة نسلها الخمس

الجديدة . التي جاءت لتعمق جذورها بالارض اكثر من ذي قبل . وقالت للدر : « سوف نحفل بالاحداث الثلاثة في نفس الوقت ! » غير ان « الدر » لم تكن مندهشة بتلك المواليده . فهي تذكر ذلك اليوم الذي كانت تلعب فيه لعبة الشيوخ مع زوجها حين شعرت من خلال الطريقة الرائعة التي فجر في احشائها انداءه الليلية انها سوف يحدثان معجزة . انها اذن ثلاثة احداث . ثلاثة مآثر : ميلاد التوائم الخمسة ، والفراغ من بناء الطاحونة والانتهاء من فحص الساعات الجدارية التسع عشرة . واستعداد محمد عديم للقب نشاطه فوراً . وبما انه تعذر على اخواته مغادرة قصرياتهن ، وتحتم على اخوته الفراغ من تبييض الطاحونة ، وبما ان زوجته ظلت نفسها في فراشها ، فانه لم يجد الا والدته التي نفرت منه وان كانت في ذروة سعادتها لكي تساعد على تحضير الحفل ، فكان ان سألت ذلك الذي فقد لتوه ابهامه الثاني : « وهل سندعو الحاكم ؟ » .

عادت كلثوم الى دارها وحيدة . بينما ظلت والدتها في دار عديم اللقب لتشهد اللفظ الذي اخذ بتلابيبها اكثر من المعتاد ، وصارت خلية نحل يتحرك كل واحد فيها لكي يقوم بعمل معين او ليثبت بأنه موجود حقاً وصدقا . وهكذا تبين ان قطرات المطر التي ضجبت بها اسماع بوحدبة لم تكن لتغير شيئاً ، فقد تبخرت في الفضاء الملهب قبل ان تبلغ سقوف الدور والحقول اليابسة ونباتات مسعودة الخارقة . على ان زهرة بندرشاه بعد ان زایلها الاندهاش رقصت هي الاخرى تحت وطأة الهذيان الجماعي الذي راح يهز دار عديم اللقب المنغرزة في بطن الارض بأسسها منذ ان اعيد بناء قواعدها ، فقد قال « محمود » عنها بعد الفراغ من البناء : « سوف يكون في مقدورها ان تدور بنفسها هي الاخرى ! » . وفي الواقع ، كان الناس كلهم واقعين في الدوامة . وكذلك الاشياء والنباتات والحيوانات وساد شعور بضرورة التحرك بسرعة على غرار السرعة التي يقلب بها محمد عديم اللقب صفحات الكتب لاكتشاف سيرة العالم والكون ، المتفجر الى شظايا ، تملكت احداها قلبه بوجه خاص لانه ولد فيها وانتعش من تربتها وثقافتها وحنانها وزوبعتها . وكان ان نسي ابن خلدون لأول مرة في حياته ووضعه بين قوسين . وادرك فجأة انه اصبح اباً لتسعة اطفال : سبع ذكور وطفلتان . وانتشى سروراً وقد علم الان ان نسله سوف يتوالى على مر الزمن . لقد كان من السعادة الى حد انه بتر ابهامه الثاني للاحتفال بهذا الحدث ، الحيوي في منطق هؤلاء

الذين لم يكن لديهم اسم علم لكي يفرقوا في هويتهم . بل ان الامر بلغ به ان ينسى الخزات المؤلة الصادرة عن عضوه المبتور حديثا والتي سرت الى العضو الاخر مع انه شفي منه منذ بضع سنوات ، وبما ان المرارة جعلت تسيل من اشجار المشمش لتلتجىء الى الثمار المرة المنشورة على حبال الخيال بدبابيس الفسيل ، فانه ادرك بأن اله قد سري عبر شرايينه المرئية وغير المرئية بين الابهام الايسر والابهام الايمن . اما الان وقد صار المستقبل مضمونا فانه لم يعد في حاجة الى انجاب اطفال آخرين ، وعقد العزم على ان يشتري في اقرب وقت آلة منع الحمل حتى تحمي « الدر » بطنها من تلك البذرة الجنونية التي من شأنها ان تعرض التوازن الغذائي العالمي للخطر . وكان يعلم ان مثل تلك الآلة تباع في السوق السوداء التي ينظمها المهربون العريقون . ثم انه قرر توسيع البيت بمجرد الانتهاء من الاحتفاء بالاحداث الثلاثة . فالمكان سيضيق ولا شك بالعائلة ، وهي وسيلة ايضا لتشغيل اخوته الذين يرفضون الزواج والذين صاروا بنائين مهرة جريئين . وكان عليه خلال ذلك ان يوزع مجال الحفل ويلون الجدران ، ويعرض دوار الشمس بحكمة لكي ينشروا البرودة في الحديقة التي يدور بها الحفل العظيم ، الذي امرت به امه ، وكان عليه ايضا ان ينظر في موقع الهلال للاستفادة من نوره بعد مغيب الشمس ، ويحضر الاطعمة والحلويات ويوجه الدعوات الى احلافه واصدقائه . حينذاك تذكر بأنه فقد صديقه الاسكافي العجوز . وبكاءه بدموع حرى دون حرج ولا حياء على مرأى من اخوته جميعا ، وزوجته وامه واطفاله بل وتوائمه الخمسة الذين بدا عليهم منذ الساعات الاولى لولادتهم انهم يفهمون اشياء عديدة وعلا نحيبه حتى انه ادرك انه لا يعرف اين يوجد ابهامه ، وبحث في جيوبه ، ولاحظ بأن ثيابه قد استبدلت حينما كان غائبا عن الوعي وذهب يبحث بين كومة الثياب المتسخة عن سرواله القطني الاسود ، وقلب جيوبه دون ان يجد بها شيئا . وفجأة ادرك ما حدث . وفي الوقت الذي راحت فيه الساعات الجدارية الصقلية تقرع دقاتها التسع عشرة ، انقض على دار بندرشاه الواقعة على بعد امتار من داره ، ودفع باب المدخل الذي لم يكن مغلقا وزحف الى غرفة كلثوم . كانت هناك امامه ممددة على فراشها ، هادئة لكن ميتة . اجل كانت ميتة ، وميتة بكل هدوء وكانت لا تزال دافئة ، تنبعث من يديها اللتين ضمهما اليه رائحة حامض الفورميك ذلك انها غيرت لتوها سائل البوقال

الذي قطع من منبته قبل ساعات في حانوت الخباز المنشغل بوزن الخمرة . ولم تكن الخمرة تعمل على نفخ العجين بل الاموات ايضا ، لذا كان يجب دفنهم بسرعة في المنامة حيث الحرارة تعفن الجثث في ظرف ساعات قلائل ، وفهم انها ماتت وهي مسرورة بعد ان اطمأنت على مصير الابهام الايسر الذي لم يعد وحيدا ولا في حاجة الى ان ينطح جدران البوقال بعد ان التقى الان بنظيره الايمن .

وتحول الحفل الى جنازة . ودفنت كلثوم في نفس العشية قبل هبوط الليل ، فالذين احبوها ، ارادوا ان يجنبوها محنة البشاعة والاضرار الزنجري الذي يزحف الى الجثث بمجرد برودها . لقد توفيت وهي في العشرين ، في زهرة العمر بعد مرض الذبول الذي انهكها الى حد ان حول عمودها الفقري الى امبيق زجاجي يسري فيه بايلام زيت الخيبة الصفيق ، التي كانت تعرف مصدرها . ماتت والى جانبها البوقال الذي يضم ابهامي الرجل الوحيد الذي احبته . ودفن البوقال معها . ولم يخف محمد عديم اللقب حزنه الشديد فهو لم يفكر ابدا في ان فتاة من جبلتها يمكن ان تموت ذات يوم . لقد ظن انها تتغلب على الموت وتنتقل عبر القرون دون ان يتشوه جسدها او يتقلص عقلها بفضل ذلك الزخم البالغ الذي تصطبغ به عظامها وبفضل تلك الغرابة العجيبة التي تنتقل عبر خيالها المتزلزل المنذفع ابدا . لكنه لم يظن الى انها اخفت هواها وحميتها وهشاشتها وكل ما تختلج به نفسها الفتية يوم ان دخلت عليه غرفته لكي يفرق معها في عالم اللذة ، وفهم ان عقله كان منشغلا حينذاك بأمور اخرى . لقد نال منه ابن خلدون بينما كمل وشم « الدر » بالبقية ، ثم انه اساء تقدير مواهب كلثوم في ابتداع قوانين العشق وفق شفرة ضاعت منه رموزها لانه كان يمارس اشياء عديدة ويضيف اليها من عندياته فوق ما تقتضيه الضرورة ، ناهيك عن السراب الذي ضج به ذهنه ، وبانفجار الضوء الباهر عبر عظامه التي رآها الناس في بعض الايام وهي تمتلىء بزبد الغرابة او تفرغ منه من خلال بشرته الشفافة الشاحبة . اما كلثوم فقد بالغت في تقدير مواهبه الخارقة ووضعت في متناول يده رغبتها المحرقة التي سوف تجسدها احسن تجسيد الى نهاية الازمنة ، وها هي ذي مسعودة يسكنها الندم الى اخر يوم من حياتها ، ولات ساعة مندم ! والحقيقة ان بداية المأساة تعود الى تلك العزلة التي نشأ فيها ابنها وحيدا في بطنها وولد منفردا . اولم يتحدث بمجرد ان ابصر

النور لغة لم يتعرف عليها احد ؟ وتعلم القراءة بمفرده لانه شعر بنفسه
منبوذا من عالم تكثر فيه التوائم وقضي فيه على المعزولين بالحنين
والحيرة . وهو حين ادرك هذا الحكم اراد ان يتخلص منه . ولكننا اراد
ان يستجمع حطامه وشظائيه فعمد الى اللعب بالخوارق وتحريك ظله
وكسر الضحكات ، وفك رموز المخطوطات المكتوبة باللغات القديمة في
ظرف ساعة واحدة ، وشرح طرائق التنعيم للطيور ، ولعب الشطرنج
مع اغبي حيوان على سطح الارض ، وفض المنعطفات على غرار الجرائد
والمناديل ، وتدبيج الرسائل الغرامية ، وقراءة اي نوع من انواع الكتابة
بأنفه وهو معصوب العينين ، وامتلاك تلك القوة الخارقة في التوليد ،
والتحول الى معبود للنساء في بلدة لا تزال تقاليد الشرف العتيقة مسيطرة
عليها ، وزرع الانداء الليلية في بطون العذارى دون فض بكراتهن ،
والسر — عندما يفرح — على ارتفاع ثلاث سنتمرات من الارض ،
والتحاور عندما يسكر مع روح جده وشبح الاسكافي الثائه الذي لم يقبل
لا في الجنة ولا في النار لان قلبه كان عامرا بالوضوح ، والجري طوال
النهار في اثر رجل عبقرى مذهب حسب حسابا لكل شيء ووضع نبوءته
للقرون العشر التي اعقبت وفاته . ولم تكن لمحمد عديم اللقب اية وسيلة
لمعرفة المكان الذي عاش فيه ذلك الرجل لا سيما وان البلدة بنيت على
شرائح قرى اخرى تراكم عليها الرمل والنسيان . وعلى اية حال ، فان
ابن خلدون هذا لم يمت بالامس ، ولم يمر بالمنامة البارحة ، بل انقضت
مئات السنوات الضوئية على وفاته ، ذلك ان زمن الصحراء لا علاقة
له بالبتة بازمنة المناطق والاجواء الاخرى . والحقيقة ان مسعودة لم
تخطيء حين نظرت بعين الحذر الى الساعات الجدارية . ذلك لان كل
شيء قد تشوه بفعل حدة الضوء وحجم حبات الرمال التي لم تكن قادرة
على تخيل آليات الساعات فحسب بل ودواليب الكون نفسه ! فالصحراء
في حد ذاتها كانت انفجارا ازال منذ وقت طويل كل اثر وكل كتابة اللهم الا
اذا اطلق مثل هذا الاسم على الرسم البياني للعناصر التي تأتي في
كل يوم بحصة المنامة من الكوارث وينصيب سكانها من الكوابيس ،
والحقيقة ان هؤلاء الناس كانوا منغلقتين حتى وان كانوا يواصلون في
الظاهر لعب الدومينو وتغذية طيور الساحة ، والتمدد في حموضة اسرتهم
المشربة بالعرق ، والرهان على الاكباش التي لم تعد ترغب في المصارعة
بل صارت تميل للمقابلات المتعادلة وتأخذ بأسباب المسالة والتنهذ وراء
نوافذ الحب ، والتظاهر بالسخرية من الحاكم الذي قرر تهجير أسرته

لاعداد الراي العام على تقبل ذهابه بعد فشله الصارخ ، والطم بأن
 الثلج تساقط طيلة يوم وليلة كاملين على البلدة ، والامل ان يهطل المطر
 مدة تسعة عشر يوما دون انقطاع الى ان يرغمهم على قذف حباله
 بالحجارة ، والاسترسال في هذيانهم حول تصوير فيلم خيالي يحمل عنوان
 الف ليلة وليلة لانهم لم يتوقفوا اثناء سحرهم عن قص حكايات شهرزاد ،
 وترويج الدعايات ضد الدول الاسلامية ماضيها وحاضرها واتهامها بتذبيح
 الملايين من المعذبين والعبيد والمتمردين وبتحويل جماهم الى اصص
 ليلية لعشذيقاتهم غير البالغات ، والخلط ما بين الحاضر والماضي ، والاشتباه
 في امر الظل والانعكاس ، والشمس والقمر ، والفرات ودجلة ، والرغبات
 والواقع ، وترويج اشاعات حول الامطار الاصطناعية المزعومة والجبال
 الجليدية التي نقلت عبر البحار بأمر من حاكم مستبد مشهور بقامته القيئة
 وثوراته الكبيرة . كل هذا الخلط وهذا الاخذ والرد بين السحر
 والتكنولوجيا وذلك التردد بين حبات المسبحة والرافعات النفطية لم يكن
 سوى اختراعات محضة خرجت من رأس محمد عديم اللقب ذلك المجنون
 الذي ظن ان كل شيء مسموح له بحجة انه حرم من شقيقة توأم ومن اسم
 علم ، فراح يتلاعب بالنجوم ، ويتحدث الى طيور الببغاء ويعطس بسوء
 نية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد بقي شيء واحد ثابت . لقد كان ذلك
 الديماغوجي صاحب البدايات والاكتشافات العلمية والتقنية والتأملات
 الفلسفية السامية متهما بأنه تسبب في موت كلثوم بندرشاه ، تلك التي
 دفنت الان ، حسب الطلب الملح الذي توجهت به الى امها ، داخل كفن
 حريري اخضر طرزته « الدر » التي وضعت حملها صبيحة اليوم التاسع
 عشر من نفس الشهر . لقد طلبت ايضا ان يوضع الى جانبها بوقالها
 الذي حملته طوال حياتها من المنامة الى سيدني مرورا بالقطب الجنوبي .
 واتهم الابن الاكبر لعائلة عديم اللقب بأنه اسهب في الحديث عن شخصيات
 تاريخية وعن بعض الشعراء الصوفيين ، مثل ذلك الجاحظ صاحب ٣٧٠
 مخطوطا ، والمتنبي الذي كان يعرف نظم الشعر وايقاف المطر ، وابن
 المقفع الذي مزق جسده والقي في فرن خباز ، وما كان ينبغي اثاره الجن
 بطبيعة الحال ! والان وقد ماتت كلثوم ، لم يعد احد يخشى خوارقه ولا

اعماله السحرية التي يلقيها على اعدائه . وكانت الشائعات تشير الى انه يقترب سحره من البوقال حيث كان ابهامه يسبح في البلوفين والفورمول . ولم يعد يخشاه احد بعد وفاة الفتاة التي احبته حبا مضراسا . وبعد زمن البوقال معها . اما اشداهم تطيرا فقد انطلقوا في جنح الظلام وفتحوا قبر كلثوم للتأكد من ان الابهامين موجودان هناك ، داخل البوقال . ولاحظوا ان الجثة مغطاة بعليق ابيض هائل ، وعلى صدرها نبتت ياسمينة بلون الزعفران .

وبعد الجنازة عاد عديم اللقب منهكا مريضا وكانت تستبد به حمى عنيفة وتشرش تحت يديه عروق متداخلة تكشف عن تعب شديد . وعندما شينا فشيئا في دهاليز النعاس ، خيل اليه انه يسمع صوت الدر وكأنها هو قادم من حياة اخرى ، ويهمس له بأن الدار التي حذف فيها ابن خلدون مقدمته العظيمة توجد بالضبط في مكان شجرة الزعرور المفضلة لدى مسعودة من بين جميع اشجار حديقتها ... وهب من كابوسه مذهولا حتى كاد يخفق الدر ويذبح قوائمه الخمسة الجدد . لكنه تمالك نفسه وسرعان ما ادرك من خلال الرؤيا السرمدية التي عبرت ذهنه انه طاف حول الارض الف مرة ولف بالكون جميعا ، دون ان يتحرك من مكانه ، في البلدة التي ولد فيها بالذات والتي نبشها شبرا شبرا ، في حين ان المكان الذي يبحث عنه موجود هناك ، في حديقة امه المزهرة المزدهرة . ثم بعد برهة ، غرق من جديد في نوع من الغيبوبة المرصصة بالكبريت ، وهبط عليه وعي صاعق كشف له ان عبد الرحمن بن خلدون هو السلف الذي طالما بحث عنه . اولم يغادر ابن خلدون البلدة بعد ان مكث فيها اربع سنوات وعمر فيها ، تاركا زوجة وطفلين ! حينئذ حاصره حلم مطلي بخضرة عينيه المائية ، فتحرك عبر تباطؤ غسقي كأنها ليوقظ الحاكم من كمونه الدبق حيث سمرته الاحداث الغريبة المنزلة كصوت مطلي بصابون اللواقع ، والواقع المتعنت ، فآل به الامر ان لا ينام في سريره بل تعود الاستلقاء بضع ساعات ليلية على كرسیه الوثير وهو لا ينزع ثوبا من ثيابه . وعندما بلغ محمد عديم اللقب اطراف الحلم اعلن بأنه يسمى ابن خلدون وطلب ان تسلم له شهادة رسمية كتبت هويته

المستعادة اليه بعد قرون من الحرمان والصخب . اذ لم يعد يطبق
تذارة الحرفين الملعونين اللذين يعوضان لقبه المفقود منذ ان قرر ذلك
المحتل الغاشم البليد ، خاصة وقد وجد الان الدليل على انه من نسل
المؤرخ الكبير .

اما الاخر ، اي الحاكم الفاشل المتهور بأمره ، فيقف دون ان يحرك
ساكنا ، منفذا لرتابة بالية صدئة ، ويرمته بنظرة منهكة ويجيبه بصدى
متردد ، مستعملا كلمات التفاهة والهذيان الزلقة ، بأن عليه العثور على
شاهدي عيان عرفا سلفه هذا العظيم معرفة شخصية ومتينة .
(نهاية الرواية)

كتب أخرى للمؤلف

- الطلاق (رواية)
- ضربة شمس (رواية)
- طبوغرافية مثاليّة لاعتداء موصوف (رواية)
- الحلزون العنيد (رواية)
- الفائز بالكأس (رواية)
- التّفكّك (رواية)

كل الروايات السابقة نشرت أصلاً باللغة الفرنسية وهي إما مترجمة إلى العربية ومنشورة أو في طريق الترجمة والنشر ، ما عدا الرواية الأخيرة فهي منشورة بالعربية أصلاً .

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

June 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin

